

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مَجْمُوعَةُ
دُرُوسٍ وَفِتَاوَى
الْحَجَرِ الْمَلِكِيِّ

الجزء الأول

لفضلاء السبع

محمد بن صالح العيمين

والفترة من عام ١٤٠٧ هـ حتى عام ١٤١١ هـ



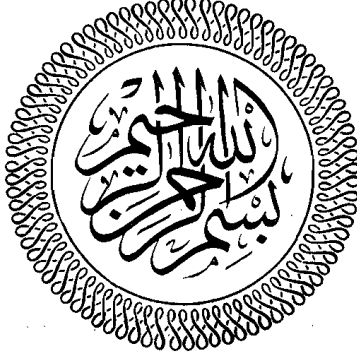
توزيع
دار طيبة للنشر والتوزيع

الرياض ١٤٢٩/٥

دار النقيين
للنشر والتوزيع
٢٢٢٢٢٢٢٢

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



حقوق الطبع محفوظة
إلا لمن أراد طباعته وتوزيعه مجاناً

الناشر

دار اليقين للنشر والتوزيع
المنصورة - ش . عبد السلام عارف

تنويه :

إلى من يرغب فى طباعة هذا الكتاب وتوزيعه مجاناً الاتصال بنا مباشرة، فنحن على استعداد مساعدته بإعطائه (الصف - الأفلام - الزنكات) بنصف القيمة مساهمة منا فى هذا العمل ، وعلى استعداد للإشراف على الطباعة مجاناً .

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله . وبعد :

فهذه مجموعة الدروس والفتاوى التي ألقاها فضيلة الشيخ محمد الصالح بن عثيمين في الحرم المكي في العشر الأواخر من شهر رمضان المعظم في السنوات من ١٤٠٧ هـ - ١٤١٠ هـ .

وتحتوي هذه الدروس والفتاوى على جملة من المسائل العلمية التي يحتاجها المسلم وقد حاولنا قدر الإمكان أن نرتبها ترتيبا يسهل على القارئ الاستفادة منها ، ولكن هذا الترتيب لم يكن بالامر السهل نظراً لوجود موضوعات تحتل أكثر من تصنيف . فمثلاً شرح الشيخ لأحاديث عمدة الأحكام يمكن أن يوضع في باب مستقل ، ويمكن أن توضع الأحاديث حسب موضوعها ، وهذا ما اخترناه ؛ لتفادي التكرار في موضوعات الكتاب .

وفي الحقيقة فإن دروس وفتاوى الشيخ ابن عثيمين مما لا يستغنى ببعضها عن بعضها ، فقد يجد القارئ فائدة مهمة من موضوعات الصلاة في ثنايا كلام الشيخ في موضوع البدعة ، ويجد فوائد في الأصول والمصطلح وغيرهما في أبواب الصلاة أو الصيام ... وهكذا .

وتتميز الفائدة فقد تم توثيق الآيات القرآنية وتخريج الأحاديث النبوية قاصدين إلى بيان صحة الحديث فقط وليس استيعاب جميع من أخرجه من أصحاب كتب الحديث ، ولهذا فكثيراً ما نكتفي بالصحيحين أو أحدهما ، وإن لم يكن فيهما حاولنا نقل صحيح لأحد العلماء .

وننبه القارئ إلى أن العزو إلى فتح الباري على الطبعة السلفية ، ونظراً لظروف حالت دون تيسره دائما مما اضطرنا إلى الاستعانة بطبعة أخرى تختلف عنها في أرقام الصفحات فلم نعز إليها إلا بالكتاب والباب . فإذا كان العزو بالجزء والصفحة فهي الطبعة السلفية . وكذلك عند العزو

إلى صحيح مسلم فقط فنقصد الطبعة التي اعتنى بها الأستاذ محمد فؤاد
عبد الباقي . وغيرها نشير إلى أنه من شرح النووي على صحيح مسلم .
وأخيراً فليبتغ لنا القارئ الكريم عذراً في كثير من التقصير لما قابلنا
في العمل من ظروف صعبة .

غرة رمضان ١٤١١ هـ

الباحثان

رزق السيد حسين حسين إبراهيم زهران

وقد يسر الله سبحانه وتعالى لي بإضافة دروس وفتاوى عام
١٤١١ هـ فأصبحت الدروس والفتاوى الآن كاملة بين يدي الباحثين
وطلاب العلم .

ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يعم بها النفع وأن تحصل بها الفائدة .

يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول ١٤١٢ هـ

مسعد شعير

الباب الأول العقيدة

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول التوحيد

الحمد لله رب العالمين وأصلى وأسلم على نبينا محمد خاتم النبيين ، وإمام المتقين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد :

ينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام وذلك حسب ما ذكره أهل العلم ، وهي توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات .

وهي بالنسبة إلى الله عز وجل تدخل كلها في تعريف عام ، وهو إفراد الله عز وجل بما يختص به .

القسم الأول : توحيد الربوبية :

فأما توحيد الربوبية ، فهو إفراد الله تعالى بالخلق والملك والتدبير .

أولاً : إفراد الله تعالى بالخلق :

فإن الله تعالى وحده هو الخالق ولا خالق سواه قال تعالى : « هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرِثُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتَى تُؤَفَّكُونَ » ^(١) . وقال تعالى مبيناً بطلان آلهة الكفار : « أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » ^(٢) فإن الله تعالى وحده هو الخالق « وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا » ^(٣) .

وخلقه يشمل : ما يقع من مفعولاته وما يقع من مفعولات خلقه أيضاً ، ولهذا كان من تمام الإيمان بالقدر أن تؤمن بأن الله تعالى خالق لأفعال العباد ، كما قال تعالى : « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » ^(٤) .

(١) سورة فاطر الآية : ٣ .

(٢) سورة النحل الآية : ١٧ .

(٣) سورة الفرقان الآية : ٢ .

(٤) سورة الصافات الآية : ٩٦ .

ووجه ذلك : أن فعل العبد من صفاته ، والعبد مخلوق لله ، وخالق الشيء خالق لصفته .

ووجه آخر : أن فعل العبد حاصل بإرادة جازمة وقدرة تامة ، والإرادة والقدرة كلتاهما مخلوقتان لله عز وجل ، وخالق السبب التام خالق للمسبب .

فإذا قلت : كيف تقول إن الله تعالى منفرد بالخلق ، مع أن الخلق قد يُثبت لغير الله كما يدل عليه قول الله تعالى : « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » ^(١) وقول النبي صلى الله عليه وسلم في المصورين : (يقال لهم أحيوا ما خلقتم) ^(٢) ؟ فالجواب على ذلك : أن غير الله تعالى لا يخلق كخلق الله ، فلا يمكنه إيجاد معدوم ، ولا إحياء ميت ، وإنما خلق غير الله سبحانه وتعالى يكون بالتغيير وتحويل الشيء من صفة إلى أخرى ، وهو مخلوق لله عز وجل .

فالمصور مثلاً : إذا صور فإنه لم يحدث شيئاً ، غاية ما هنالك أنه حول شيئاً إلى شيء ، كما يحول الطين إلى صورة طير أو إلى صورة جمل ، وكما يحول التلوين الرقعة البيضاء إلى صورة ملونة ، والمزاد كله من خلق الله عز وجل ، والورقة البيضاء من خلق الله عز وجل أيضاً .

هذا هو الفرق بين إثبات الخلق بالنسبة إلى الله عز وجل ، وإثبات الخلق بالنسبة إلى المخلوق ، وعلى هذا فيكون الله تعالى منفرداً بالخلق الذي يختص به .

ثانياً : إفراده سبحانه وتعالى بالملك :

فالله تعالى وحده هو المالك ، قال تعالى : « تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » ^(٣) ، وقال تعالى : « قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ » ^(٤) .

فالمالك الملك المطلق العام الشامل هو الله سبحانه وتعالى وحده .

ونسبة الملك إلى غيره نسبة إضافية ، فقد أثبت الله تعالى لغيره

(١) سورة المؤمنون الآية : ١٤ .

(٢) رواه مسلم في كتاب اللباس والزينة - باب تحريم تصوير صورة الحيوان . . . ٣ / ١٦٦٩ .

(٣) سورة الملك الآية : ١ .

(٤) سورة المؤمنون الآية : ٨٨ .

الملك ، كما في قوله تعالى : « أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحَهُ »^(١) وقوله تعالى : « إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ »^(٢) وما أشبه ذلك من النصوص الدالة على أن لغير الله تعالى ملكاً ، لكن هذا الملك ليس كملك الله عز وجل ، فهو مُلْك قاصر ، وملك مقيد .

ملك قاصر لا يشمل ، فالبيت الذي لزيد لا يملكه عمرو ، والبيت الذي لعمره لا يملكه زيد ، ثم هذا الملك مقيد بحيث لا يتصرف الإنسان فيما ملك إلا على الوجه الذي أذن الله فيه ، ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن إضاعة المال ، قال تعالى : « وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا »^(٣) .

وهذا دليل على أن ملك الإنسان ملك قاصر وملك مقيد ، بخلاف ملك الله سبحانه وتعالى ، فهو ملك عام شامل ، وملك مطلق يفعل الله تعالى ما يشاء « لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ »^(٤) .

ثالثاً : إفراده سبحانه وتعالى بالتدبير :

فالله سبحانه وتعالى منفرد بالتدبير ، يدبر الأمر ، يدبر الخلق ، يدبر أمر السموات والأرض كما قال سبحانه وتعالى : « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ »^(٥) .

وهذا التدبير تدبير شامل فلا يحول دونه شيء ولا يعارضه شيء ، وأما التدبير الذي يكون لبعض المخلوقات ، كتدبير الإنسان أمواله ، وغلماؤه وخدمه ، وما أشبه ذلك ، فإنه تدبير ضيق محدود ومقيد غير مطلق .

وبهذا يكون قد ظهر لنا صحة قولنا : إن توحيد الربوبية هو إفراد الله تعالى بالخلق والملك والتدبير .

القسم الثاني : توحيد الألوهية :

وأما توحيد الألوهية فهو : إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة ، ألا يتخذ

(١) سورة النور الآية : ٦١ .

(٢) سورة المؤمنون الآية : ٦٠ .

(٣) سورة النساء الآية : ٥ .

(٤) سورة الأنبياء الآية : ٢٣ .

(٥) سورة الأعراف الآية : ٥٤ .

الإنسان مع الله أحداً يعبده ويتقرب إليه ، كما يُعبد الله تعالى ويتقرب إليه .

وهذا النوع من التوحيد هو الذي ضل فيه المشركون الذين قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم ، واستباح نساءهم وذريتهم وأموالهم وأرضهم وديارهم ، وهو الذي بعثت به الرسل وأنزلت به الكتب مع أخويه توحيدي الربوبية والأسماء والصفات . لكن أكثر ما يعالجُ الرسل أقوامهم على هذا النوع من التوحيد ، وهو توحيد الألوهية ، بحيث لا يصرف الإنسان شيئاً من العبادة لغير الله سبحانه وتعالى ، لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل ، ولا لولي صالح ، ولا لأي أحد من المخلوقين ، لأن العبادة لا تصح إلا لله عز وجل .

ومن أخلّ بهذا التوحيد فهو مشرك كافر ، وإن أقر بتوحيد الربوبية ، وبتوحيد الأسماء والصفات . فلو أن رجلاً من الناس يؤمن بأن الله سبحانه هو الخالق المالك المدبر لجميع الأمور ، وأنه سبحانه وتعالى المستحق لما يستحقه من الأسماء والصفات ، لكنه يعبد مع الله غيره ، لم ينفعه إقراره بتوحيد الربوبية وبتوحيد الأسماء والصفات .

ولو فرض أن رجلاً يُقر إقراراً كاملاً بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات ، لكن يذهب إلى القبر ، فيعبد صاحبه ، أو ينذر له قرباناً يتقرب به إليه ، فإن هذا مشرك كافر مخلد في النار . قال تعالى : « إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ »^(١) .

ومن المعلوم لكل من قرأ كتاب الله عز وجل أن المشركين الذين قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم واستحل دماءهم وأموالهم وسبى نساءهم وذريتهم وغنم أرضهم كانوا مقرين بأن الله تعالى وحده هو الرب الخالق ، لا يشكون في ذلك ، ولكن لما كانوا يعبدون معه غيره صاروا بذلك مشركين مباحي الدم والمال .

القسم الثالث : توحيد الأسماء والصفات :

وأما القسم الثالث ، فهو توحيد الأسماء والصفات وهو : إفراد الله سبحانه وتعالى بما سُمي به نفسه ، ووصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذلك بإثبات ما أثبتته الله سبحانه لنفسه في

(١) سورة المائدة الآية : ٧٢ .

غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل .

فلا بد من الإيمان بما سمى الله به نفسه ، ووصف به نفسه على وجه الحقيقة لا المجاز ، ولكن من غير تكييف ولا تمثيل وهذا النوع من أنواع التوحيد ضل فيه طوائف من هذه الأمة من هذه القبلة الذين ينتسبون الى الإسلام على أوجه شتى :

منهم من غلا في النفي والتنزيه غلوّاً يخرج به من الإسلام ، ومنهم متوسط ، ومنهم من هو قريب من أهل السنة .

ولكنّ طريق السلف في هذا النوع من التوحيد هو أن يسمّى الله عز وجل ويوصف بما سمي ووصف به نفسه على وجه الحقيقة ، لا تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل .

مثال : سمي الله تعالى نفسه بـ (الحي القيوم) فيجب علينا أن نؤمن بـ (الحي) على أنه اسم من أسماء الله ، ويجب علينا أن نؤمن بما تضمنه هذا الاسم من وصف وهي (الحياة) الكاملة التي لم تسبق بعدم ولا يلحقها فناء .

وسمى الله تعالى نفسه بـ (السميع العليم) ، فيجب علينا أن نؤمن بـ (السميع) اسم من أسماء الله ، وبالسمع صفة من صفاته ، وبأنه يسمع وهو الحكم الذي اقتضاه ذلك الاسم وتلك الصفة ، فإن سميعاً بلا سمع ، أو سمعاً بلا إدراك مسموع فهذا شيء محال .

مثال آخر : قال الله تعالى : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ » (١) .

فهنا قال الله تعالى : « بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ » فأثبت لنفسه يدين موصوفتين بالبسط وهو العطاء الواسع ، فيجب علينا أن نؤمن بأن لله تعالى يدين اثنتين مبسوطتين بالعطاء والنعم .

ولكن يجب علينا ألا نحاول لا بقلوبنا وتصوراتنا ، ولا بألسنتنا أن نكيف هاتين اليدين ، ولا أن نمثلهما بأيدي المخلوقين ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » (٢) ويقول تعالى ﴿ قُلْ

(١) سورة المائدة الآية : ٦٤ .

(٢) سورة الشورى الآية : ١١ .

إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ»^(١) ويقول عز وجل : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا »^(٢) .

فمن مثل هاتين اليدين بأيدي المخلوقين فقد كذب قول الله عز وجل : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » وقد عصى الله تعالى في قوله : « فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ »^(٣) .

ومن كيفهما وقال هما على كيفية معينة ، أياً كانت هذه الكيفية ، فقد قال على الله ما لا يعلم ، وقفا ما ليس له به علم .

مثال آخر : وهو استواء الله تعالى على عرشه ، لأن الله تعالى أثبت لنفسه أنه استوى على عرشه في سبعة مواضع من كتابه كلها أتت بلفظ « استوى » .

وإذا رجعنا إلى « الاستواء » في اللغة العربية : وجدناه إذا عُدي بـ (على) فإنه لا يقتضى إلا الارتفاع والعلو . فيكون معنى قوله تعالى : « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى »^(٤) وأمثالها من الآيات معناها : علا على عرشه عز وجل علواً خاصاً غير العلو العام على جميع الأقوام .

وهذا العلو ثابت لله تعالى على وجه الحقيقة فهو عال على عرشه علواً يليق به عز وجل ، لا يشبه علو الإنسان على السرير ، ولا علوه على الأنعام ، ولا علوه على الفلك الذي ذكره الله في قوله : « وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ »^(٥) .

فاستواء المخلوق على شيء لا يمكن أن يماثله استواء الله على عرشه ، لأن الله تعالى ليس كمثله شيء في جميع نعوته .

(١) سورة الأعراف الآية : ٣٣ .

(٢) سورة الإسراء الآية : ٣٦ .

(٣) سورة النحل الآية : ٧٤ .

(٤) سورة طه الآية : ٥ .

(٥) سورة الزخرف الآيات : ١٢ - ١٤ .

وقد أخطأ خطأ عظيماً من قال : إن معنى (استوى على العرش) : استولى على العرش ، لأن هذا تحريف للكلم عن موضعه ومخالف لما أجمع عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، ومستلزم للوازم باطلة لا يمكن للمؤمن أن يتفوه بها بالنسبة إلى الله عز وجل .

فالقرآن الكريم نزل باللغة العربية بلا شك كما قال تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »^(١) ، وقال تعالى : « نُزِّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ »^(٢) .

ومقتضى هذه الصيغة (استوى على كذا) في اللغة العربية : العلو والاستقرار ، بل هو معناها المطابق للفظ فمعنى « استوى على العرش »^(٣) : أي علا عليه علواً خاصاً يليق بجلاله وعظمته فإذا فسرنا (استوى) بـ (استولى) فقد حرفنا الكلم عن مواضعه ، حيث أخرجنا هذا المعنى الذي تدل عليه لغة القرآن وهو العلو ، إلى معنى الاستيلاء .

ثم إن السلف والتابعين لهم بإحسان مجمعون على هذا المعنى ، إذ لم يأت عنهم حرف واحد في تفسيره بخلاف ذلك .

وإذا جاء اللفظ في القرآن والسنة ولم يرد عن السلف تفسيره بما يخالف ظاهره ، فالأصل أنهم أبقوه على ظاهره واعتقدوا ما يدل عليه .

ولهذا لو قال لنا قائل : هل عندكم لفظ صريح بأن السلف فسروا (استوى) بمعنى (علا) ؟ قلنا نعم ورد ذلك عن السلف . وعلى فرض ألا يكون قد ورد عنهم صريحاً ، فإن الأصل فيما دل عليه من لفظ في القرآن الكريم والسنة النبوية أنه باق على ما تقتضيه اللغة العربية من المعنى .

أما اللوازم الباطلة التي تلزم على تفسيرنا (الاستواء) بمعنى (الاستيلاء) فإننا إذا تدبرنا قوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ »^(٤) ، وقلنا (استوى) بمعنى (استولى) لزم من ذلك أن يكون العرش قبل خلق

(١) سورة يوسف الآية : ٢ .

(٢) سورة الشعراء الآيات : ١٩٣ - ١٩٥ .

(٣) سورة الحديد الآية : ٤ .

(٤) سورة الأعراف الآية : ٥٤ .

السموات والأرض ليس ملكاً لله عز وجل ؛ لأنه قال « خلق ... ثم استوى » فإذا قلت : ثم (استولى) لزم من ذلك أن يكون العرش ليس ملكاً لله سبحانه وتعالى قبل خلق السموات والأرض ، ولا حين خلق السموات والأرض .

وأيضاً يلزم منه أن يصح التعبير بقولنا أن الله استوى على الأرض واستوى على أي شيء من مخلوقاته ن قدره أو نقوله ، وهذا لا شك معنى باطل لا يليق لله عز وجل .

فتبين بهذا أن تفسير (الاستواء) بـ (الاستيلاء) فيه محذوران :
أولهما : تحريف الكلم عن مواضعه .

والثاني : أن يتصف الله عز وجل بما لا يليق به .

الشهادتان ومعناهما :

الشهادتان : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله هما مفتاح الإسلام ، ولا يمكن الولوج إلى الإسلام إلا بهما ، ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن أن يكون أول ما يدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

فأما الكلمة الأولى : (شهادة أن لا إله إلا الله) : فإن يعترف الإنسان بلسانه وقلبه بأنه لا معبود إلا الله عز وجل .

لأن (إله) بمعنى مألوه ، والتأله : التعبد ، والمعنى : أنه لا معبود إلا الله وحده .

وهذه الجملة تشتمل على نفى وإثبات :

أما النفي ففي قوله : (لا إله) ، وأما الإثبات ففي قوله (إلا الله) ولفظ الجلالة (الله) بدل من الخبر المحذوف خبر (لا) ، لأن التقدير (لا إله حق إلا الله) .

فهو إقرار باللسان بعد أن آمن به القلب بأنه لا معبود حق إلا الله عز وجل . وهذا يتضمن إخلاص العبادة لله وحده ، ونفى العبادة عما سواه .

وبتقديرنا الخبر : بهذه الكلمة (حق) يتبين الجواب عن الإشكال الذي يورده كثير من الناس وهو : كيف تقولون : (لا إله إلا الله) مع أن هناك

آلهة تعبد من دون الله ، سماها الله آلهة ، وسماها عابدوها آلهة فقال تبارك وتعالى : « فَمَا أُغْنِي عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ » ^(١) وقال تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ » ^(٢) وقال تعالى : « فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ » ^(٣) فكيف يمكن أن نقول (لا إله إلا الله) مع ثبوت الألوهية لغير الله عز وجل ؟ وكيف يمكن أن نثبت الألوهية لغير الله والرسول يقولون لأقوامهم : « اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ » ^(٤) .

والجواب على هذا الإشكال يتبين بتقدير الخبر في (لا إله إلا الله) فنقول : هذه الآلهة التي تعبد من دون الله هي آلهة باطلة ليست آلهة حقا ، وليس لها من حق الألوهية شيء ، ويدل لذلك قول الحق سبحانه : « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ » ^(٥) ويدل لذلك أيضا قوله سبحانه : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذْ قَسَمَٰهُ ضَيَّرَىٰ * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ » ^(٦) ، وقوله تعالى عن يوسف عليه الصلاة والسلام : « مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ » ^(٧) .

إذن فمعنى (لا إله إلا الله) أى لا معبود حق إلا الله عز وجل .

وأما المعبودات سواء من الرسل أو الملائكة أو الأولياء أو الأحجار أو الأشجار أو الشمس أو القمر أو غير ذلك فإن ألوهيتها التي يزعمها عابدوها ألوهية باطلة ، وليست حقيقة ، بل الألوهية الحق هي ألوهية الله عز وجل .

وأما معنى شهادة أن محمداً رسول الله : فهي الإقرار باللسان والإيمان بالقلب بأن محمداً بن عبد الله الهاشمي القرشي رسول الله عز وجل

(١) سورة هود الآية : ١٠١ .

(٢) سورة الإسراء الآية : ٣٩ .

(٣) سورة الشعراء الآية : ٢١٣ .

(٤) سورة الأعراف الآية : ٥٩ .

(٥) سورة لقمان الآية : ٣٠ .

(٦) سورة النجم الآيات : ١٩ - ٢٣ .

(٧) سورة يوسف الآية : ٤٠ .

إلى جميع الخلق من الجن والإنس قال تعالى : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِيتُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » ^(١) وقال تعالى : « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » ^(٢) .

ومقتضى هذه الشهادة أيضاً أن لا تعتقد أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم حقاً من الربوبية وتصريف الكون أو حقاً بالعبادة . بل هو صلى الله عليه وسلم عبد لا يعبد ، ورسول لا يكذب ، ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً من النفع والضرر إلا ما شاء الله ، كما قال تعالى : « قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبَعِ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ » ^(٣) فهو عبد مأمور يتبع ما أمره به .

وقال تعالى : « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » ^(٤) .

فهذا معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

ومعنى قولنا في الشهادتين : الإقرار باللسان والإيمان بالقلب ، أي لا بد من الجمع بينهما فإن من الناس من يعترف بلسانه دون قلبه كالمنافقين ، فالمنافقون يقول الله تعالى عنهم : « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ » ^(٥) فهو لاء قد اعترفوا بألسنتهم دون قلوبهم :

وقد يعترف الإنسان بقلبه لكن لا ينطق به ، وهذا الاعتراف لا ينفعه بالنسبة لنا ظاهراً . أما فيما بينه وبين الله فحكمه إلى الله ، لكنه في الدنيا لا ينفعه ، ولا يحكم بإسلامه ما دام لم ينطق بلسانه اللهم إلا أن يكون عاجزاً عن ذلك عاجزاً حسياً أو حكماً ، فقد يعامل بما تقتضيه حاله .

(١) سورة الأعراف الآية : ١٥٨ .

(٢) سورة الفرقان الآية : ١ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٥٠ .

(٤) سورة الأعراف الآية : ١٨٨ .

(٥) سورة المنافقون الآية : ١ .

فلا بد من الاعتراف بالقلب واللسان .

(المتابعة)

المتابعة لا تتحقق إلا بستة أوصاف :

أن تكون العبادة موافقة للشريعة في سببها ، وجنسها ، وقدرها ،
وكيفيتها ، وزمانها ، ومكانها .

أولاً : أن تكون العبادة موافقة للشريعة في سببها :

فأى إنسان يتعبد لله بعبادة مبنية على سبب لم يثبت بالشرع ، فهي
عبادة مردودة ليس عليها أمر الله ورسوله ، ومثال ذلك الاحتفال بمولد النبي
صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الذين يحتفلون بليلة السابع والعشرين من
رجب ، يدعون أن النبي صلى الله عليه وسلم عرج في تلك الليلة ، فهو غير
موافق للشرع ومردود :

أولاً : لأنه لم يثبت من الناحية التاريخية أن معراج الرسول صلى الله
عليه وسلم كان ليلة السابع والعشرين ، وكتب الحديث التي بين أيدينا ليس
فيها حرف واحد يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم عرج به في ليلة
السابع والعشرين من رجب ، ومعلوم أن هذا من باب الخبر الذي لا يثبت إلا
بالأسانيد الصحيحة .

ثانياً : وعلى تقدير ثبوته فهل من حقنا أن نحدث فيه عبادة أو نجعله
عيداً ؟ أبداً .

ولهذا لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، ورأى الأنصار لهم
يومان يلعبون فيهما ، قال : إن الله أبدلكم بخير منهما ، وذكر لهم عيد الفطر
وعيد الأضحى ^(١) . وهذا يدل على كراهة النبي صلى الله عليه وسلم لأي
عيد يحدث في الإسلام سوى الأعياد الإسلامية وهي ثلاثة : عيدان سنويان
وهما عيد الفطر والأضحى ، وعيد أسبوعي وهو الجمعة .

فعلى تقدير ثبوت أن الرسول صلى الله عليه وسلم عرج به ليلة السابع
والعشرين من رجب - وهذا دون ثبوته خرط القتاد - لا يمكن أن نحدث فيه

(١) أخرجه النسائي في أول كتاب العيدين . سنن النسائي ٣ / ١٨٠ .

شيئاً بدون إذن من الشارع .

وكما قلت لكم إن البدع أمرها عظيم ، وأثرها على القلوب سيء ، حتى وإن كان الإنسان في تلك اللحظة يجد من قلبه رقة ولينا ، فإن الأمر سيكون بعد ذلك بالعكس قطعاً ، لأن فرح القلب بالباطل لا يدوم ، بل يعقبه الألم والندم والحسرة ، وكل البدع فيها خطورة ، لأنها تتضمن القدح في الرسالة ، لأن مقتضى هذه البدعة أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يتم الشريعة ، مع أن الله سبحانه وتعالى يقول : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » ^(١) .

والغريب أن بعض المبتلين بهذه البدع تجدهم يحرصون غاية الحرص على تنفيذها ، مع أنهم متساهلون فيما هو أنفع وأصح وأجدى .

لذلك نقول إن الاحتفال ليلة سبع وعشرين علي أنها الليلة التي عرج فيها برسول الله صلى الله عليه وسلم هذه بدعة ، لأنها بنيت على سبب لم يأت به الشرع .

ثانياً : أن تكون العبادة موافقة للشريعة في جنسها :

مثل أن يضحي الإنسان بفرس ، فلو ضحى الإنسان بفرس ، كان بذلك مخالفاً للشريعة في جنسها .

ثالثاً : أن تكون العبادة موافقة للشريعة في قدرها :

فلو أن أحداً من الناس قال إنه يصلي الظهر ستاً ، فهل هذه العبادة تكون موافقة للشريعة ؟ كلا ، لأنها غير موافقة لها في القدر .

ولو أن أحداً من الناس قال سبحان الله والحمد لله والله أكبر خمساً وثلاثين مرة دبر الصلاة المكتوبة فهل يصح ذلك ؟

والجواب : إننا نقول إن قصدت التعبد لله تعالى بهذا العدد فأنت مخطيء ، وإن قصدت الزيادة على ما شرع الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنك تعتقد أن المشروع ثلاثة وثلاثون فالزيادة لا بأس بها هنا ، لأنك فصلتها عن التعبد بذلك .

(١) سورة المائدة الآية : ٣ .

رابعاً : أن تكون العبادة موافقة للشريعة في كيفيتها :

فلو أن الإنسان فعل العبادة بجنسها وقدرها وسببها ، لكن خالف الشرع في كيفيتها ، فلا يصح ذلك .

مثال ذلك : رجل أحدث حدثاً أصغر ، وتوضأ لكنه غسل رجليه ثم مسح رأسه ، ثم غسل يديه ، ثم غسل وجهه ، فهل يصح وضوءه ، كلا لأنه خالف الشرع في الكيفية .

خامساً : أن تكون العبادة موافقة للشريعة في الزمان :

مثل أن يصوم الإنسان رمضان في شعبان ، أو في شوال ، أو أن يصلي الظهر قبل الزوال ، أو بعد أن يصير ظل كل شيء مثله ، لأنه إن صلاها قبل الزوال صلاها قبل الوقت ، وإن صلى بعد أن يصير ظل كل شيء مثله ، صلاها بعد الوقت فلا تصح صلاته .

ولهذا نقول إذا ترك الإنسان الصلاة عمداً . حتى خرج وقتها بدون عذر ، فإن صلاته لا تقبل منه ، حتى لو صلى ألف مرة .

وهنا نأخذ قاعدة مهمة في هذا الباب وهي (كل عبادة مؤقتة إذا أخرجها الإنسان عن وقتها بدون عذر فهي غير مقبولة بل مردودة) .

ودليل ذلك حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد »^(١) .

سادساً : أن تكون العبادة موافقة للشريعة في مكانها :

فلو أن إنساناً وقف يوم عرفه بمزدلفة ، لم يصح وقوفه ، لعدم موافقة العبادة للشرع في مكانها .

وكذلك على سبيل المثال لو أن إنساناً اعتكف في منزله ، فلا يصح ذلك ، لأن مكان الاعتكاف هو المسجد ، ولهذا لا يصح للمرأة أن تعتكف في بيتها ، لأن ذلك ليس مكاناً للاعتكاف .

والنبي صلى الله عليه وسلم لما رأى بعض زوجاته ضربن أخبية لهن

(١) رواه مسلم وله في رواية أخرى : من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد كتاب الأقضية - باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ٣ / ١٣٤٤ .

في المسجد ، أمر بنقض الأخبية وإلغاء الاعتكاف ولم يرشدهن إلى أن يعتكفن في بيوتهن^(١) ، وهذا يدل على أنه ليس للمرأة اعتكاف في بيتها لمخالفة الشرع في المكان .

فهذه ستة أوصاف ، لا تتحقق المتابعة إلا باجتماعها في العبادة .

(١) رواه البخاري في كتاب الاعتكاف - باب اعتكاف النساء فتح الباري ٤ / ٢٧٥ ومسلم في كتاب الاعتكاف - كذلك - متى يدخل من أراد الاعتكاف ٢ / ٨٣١ .

الفصل الثاني أركان الإيمان

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله الله تعالى بالهدى ودين الحق ، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . أما بعد :

فأيها الإخوة المؤمنون : سأل جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان بعد أن سأله عن الإسلام قال أخبرني عن الإيمان ؟ فقال : «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره» (١) .

والإيمان هو : الاعتراف المستلزم للقبول والإذعان أما مجرد أن يؤمن الإنسان بالشئ بدون أن يكون لديه قبول وإذعان ، فهذا ليس بإيمان ، بدليل أن المشركين مؤمنون بوجود الله ومؤمنون بأن الله هو الخالق ، الرازق ، المحيي ، المميت ، المدبر للأمور ، وكذلك أيضاً فإن الواحد منهم قد يُقرُّ برسالة النبي صلى الله عليه وسلم ولا يكون مؤمناً ، فهذا أبو طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم كان يقر بأن النبي صلى الله عليه وسلم صادق وأن دينه حق يقول :

لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يعنى بقول الأباطر

وهذا البيت عن لاميته المشهورة الطويلة التي قال عنها ابن كثير : ينبغي أن تكون إحدى المعلقات في الكعبة ، ويقول أيضاً :

**ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية ديناً
لولا الملامة أو حذار مسبة لرأيتني سمحاً بذاك مبيناً**

(١) رواه مسلم في أول كتاب الإيمان من صحيحة .

فهذا إقرار بأن دين الرسول صلى الله عليه وسلم حق ، لكن لم ينفعه ذلك ، لأنه لم يقبله ولم يذعن له فكان والعياذ بالله بعد شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم له كان فى ضحضاح من نار وعليه نعلان من نار يغلى منهما دماغه^(١) . نسأل الله تعالى أن يعافينا وإياكم من النار ، وهو أهون الناس عذاباً لكنه يرى أنه أشدهم عذاباً ، وكونه يرى أنه أشدهم عذاباً فهذا تعذيب نفسي قلبى ، لأن الإنسان إذا رأى غيره مثله فى العذاب أو دونه يهون عليه ما هو فيه ، ولهذا قال تعالى : « وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ »^(٢) .

وعلى هذا فنقول : إن الإيمان ليس مجرد الاعتراف ، بل لابد من الاعتراف المستلزم للقبول والإذعان ولقد عجبت أيما عجب حينما صعد جاجارين الروسي إلى الفضاء وقال بعد أن صعد الفضاء ورأى وشاهد الآيات العظيمة ، قال : إن لهذا الكون مدبراً ، ومع ذلك فلم يؤمن .

أولاً : الإيمان بالله :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن تؤمن بالله » والإيمان بالله عز وجل يتضمن الإيمان بأربعة أمور :

الإيمان بالله ، والإيمان بربوبية الله ، والإيمان بألوهية الله ، والإيمان بأسمائه وصفاته .

أولاً : الإيمان بوجود الله :

وهو أن تؤمن بأن الله تعالى موجود والدليل على وجوده العقل والحس والفطرة والشرع .

أولاً الدليل العقلي : فالدليل العقلي على وجود الله عز وجل أن نقول : هذا الكون الذي أمامنا ونشاهده على هذا النظام البديع الذي لا يمكن أن يضطرب ولا يتصادم ولا يسقط بعضه بعضاً بل هو في غاية ما يكون من النظام « لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ »^(٣) ، فهل يعقل أن هذا الكون العظيم بهذا النظام البديع يكون خالفاً

(١) رواه البخارى فى كتاب : مناقب الأنصار - باب (٤٠) حديث (٣٨٨٣) .

(٢) سورة الزخرف الآية : ٤٣ .

(٣) سورة يس الآية : ٤٠ .

لِنَفْسِهِ ؟ كلا لا يعقل ، لأنه لا يمكن أن يكون خالقاً لنفسه إذ إن معنى ذلك أنه عدم أوجد موجوداً ، ولا يمكن للعدم أن يوجد موجوداً ، إذن فيستحيل أن يكون هذا الكون موجوداً لنفسه ، ولا يمكن أيضاً أن يكون هذا الكون العظيم وجد صدفة ، لأنه على نظام بديع مضطرد وما جاء صدفة فالغالب أنه لا يضطرد ولا يمكن أن يأتي صدفة لكن على التنزل .

ويذكر عن أبي حنيفة رحمه الله وكان معروفاً بالذكاء أنه جاءه قوم دهريون يقولون له : أثبت لنا وجود الله فقال : دعوني أفكر ، ثم قال لهم : إنني أفكر في سفينة أرست في ميناء دجلة وعليها حمل فنزل الحمل بدون حمّل ، وانصرفت السفينة بدون قائد ، فقالوا كيف تقول مثل ذلك الكلام فإن ذلك لا يعقل ولا يمكن أن نصدقه ؟ فقال : إذا كنتم لا تصدقون بها فكيف تصدقون بهذه الشمس والقمر والنجوم والسماء والأرض ، كيف يمكن أن تصدقوا أنها وجدت بدون موجد ؟!

وقد أشار الله تعالى إلى هذا الدليل العقلي بقوله : « أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ »^(١) .

وسئل أعرابي فقيل له : بم عرفت ربك ؟ والأعرابي لا يعرف إلا ما كان أمامه فقال : البعرة تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا تدل على السميع البصير ؟ بلى .

ثانياً : الدليل الحسي : وأما الدليل الحسي : فهو ما نشاهده من إجابة الدعاء مثلاً فالإنسان يدعو الله ويقول يا الله فيجيب الله دعاءه ، ويكشف سوءه ويحصل له المطلوب وهو إنما قال : (يا الله) إذن هناك رب سمع دعاءه وأجابه ، وما أكثر ما نقرأ نحن المسلمين في كتاب الله أنه استجاب لأنبياء الله « وَثُوْحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلِ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ »^(٢) ، « وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسْنِى الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ »^(٣) ، والآيات في هذه كثيرة والواقع يشهد بهذا .

(١) سورة الطور الآية : ٣٥ .

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٧٦ .

(٣) سورة الأنبياء الآية : ٨٣ .

ثالثاً : الدليل الفطري : وأما الدليل الفطري : فإن الإنسان بطبيعته إذا أصابه الضر قال : (يا الله) إننا حُذثنا أن بعض الكفار الموجودين الملحدين إذا أصابه الشيء المهلك بغتة يقول على فلتات لسانه : (يا الله) من غير أن يشعر ، لأن فطرة الإنسان تدله على وجود الرب عز وجل ، « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنَى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ »^(١) .

رابعاً : الدليل الشرعي : وأما الأدلة الشرعية فحدث ولا حرج ، كل الشرع إذا تأمله الإنسان علم أن الذي أنزله هو الرب عز وجل قال الله تعالى : « أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »^(٢) فانتلاف القرآن ، وعدم تناقضه وتصديق بعضه بعضاً كل ذلك يدل على أن القرآن نزل من عند الله عز وجل . كون هذا الدين بل كون جميع الأديان التي أنزلها الله عز وجل موافقة تماماً لمصالح العباد دليل على أنها من عند الله عز وجل .

ولكن حصل على جميع الأديان تحريف وتبديل وتغيير من المخالفين لشرائعه « يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ »^(٣) ، لكن الدين الذي نزل على الأنبياء كله يشهد بوجود الله عز وجل وحكمته وعلمه .

خامساً : الإيمان بربوبيته

ومعنى (الرب) : أي الخالق ، والمالك ، والمدير ، فهذا معنى ربوبية الله عز وجل ، ولا يغنى واحد من هذه الثلاثة عن الآخر ، فهو الخالق الذي أوجد الأشياء من عدم « بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »^(٤) ، « الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »^(٥) ، فالذي أوجد الكون من العدم هو الله الخالق ، المالك أي خلق الخلق وانفرد بملكه له ، كما انفرد بخلقه له وتأمل قول الله تعالى في سورة الفاتحة : « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » وفي قراءة أخرى سبعية « مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ » وهي قراءة سبعية متواترة ، وإذا جمعت بين القراءتين

(١) سورة الأعراف الآية : ١٧٢ .

(٢) سورة النساء الآية : ٨٢ .

(٣) سورة المائدة الآية : ١٣ .

(٤) سورة البقرة الآية : ١١٧ .

(٥) سورة فاطر الآية : ١ .

ظهر معنى بديع . الملك أبلغ من المالك في السلطة والسيطرة ، لكن الملك أحياناً يكون ملكاً بالاسم لا بالتصرف ، وحينئذ يكون ملكاً غير مالك ، فإذا اجتمع أن الله تعالى : مَلِكٌ ومالك تم بذلك الأمر الملك ، والتدبير .

ولهذا نقول : إن الله عز وجل منفرد بالملك ، كما انفرد بالخلق ، كذلك أيضاً منفرد بالتدبير ، فهو المدبر لجميع الأمور وهذا بإقرار المشركين ، فإنهم إذا سئلوا من يدبر الأمور ؟ فيقولون : الله فهو المنفرد بالتدبير « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ »^(١) .

سئل أعرابي : بم عرفت ربك ، قال : بنقض العزائم وصرف الهمم . فالإنسان يعزم أحياناً على الشيء عزمًا وتصميمًا أكيداً وفي لحظة يجد نفسه قد عزم على تركه ونقض العزم ، وقد يهيم الإنسان بالشيء متجهًا إليه ثم ينصرف بدون سبب ، وهذا يدل على أن للأشياء مدبراً فوق تدبيرك أنت ، وهو الله عز وجل .

فإن قال قائل : كيف تقول إن الله منفرد بالخلق ، مع أنه أثبت الخلق للمخلوق وسمى المخلوق خالقاً . قال سبحانه : « ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ »^(٢) ، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم يقال للمصورين : (أحيوا ما خلقتكم)^(٣) ؟

فالجواب : أن خلق الإنسان ليس خلقاً في الحقيقة ، لأن الخلق هو الإيجاد من العدم - والإنسان عندما يخلق لا يوجد من عدم ، لكن يغير الشيء من صورة إلى صورة أخرى .

وكذلك (الملك) فإن قال قائل : كيف تقول : إن الله منفرد بالملك مع أن الله سبحانه أثبت الملك لغيره فقال : « إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ »^(٤) ، وقال : « أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ »^(٥) ؟

فالجواب : أن يقال : إن ملك الإنسان ليس كملك الله ، لأن ملك الله عز وجل شامل لكل شيء ، ولأن ملك الله تعالى ملك مطلق غير مقيد ، أما ملك

(١) سورة السجدة الآية : ٥ .

(٢) سورة المؤمنون الآية : ١٤ .

(٣) متفق عليه .

(٤) سورة المؤمنون الآية : ٦ .

(٥) سورة النور الآية : ٦١ .

الإنسان للشيء فهو غير شامل ، فمثلاً الساعة التي معى لا تملكها أنت والساعة التي معك لا أملكها أنا ، فهو ملك محدود ليس شاملاً ، كذلك أيضاً ليس ملكاً مطلقاً فأنا لا يمكنني أن أتصرف في ساعتى كما أريد ، لأننى مقيد بالشرع الذي هو المصلحة ، فلو أراد إنسان تكسير ساعته مثلاً فإن ذلك لا يجوز ولا يملك شرعاً أن يفعل ذلك ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن إضاعة المال فكيف بإتلافه ؟

ولهذا قال العلماء : إن الرجل لو كان بالغاً عاقلاً له زوجة وأولاد ، وهو سفيه في المال لا يتصرف فيه تصرف الرشيد فإنه يحجر على ماله .

لكن الله عز وجل يتصرف في ملكه كما يشاء يحيى ويميت ، ويمرض ويشفى ، ويغنى ويفقر ، ويفعل ما يشاء على أننا نؤمن بأنه عز وجل لا يفعل الشيء إلا لحكمة . إذن فهناك فارق بين ملك الخالق وملك المخلوق . وبهذا عرفنا أن قولنا : إن الله منفرد بالملك قول صحيح لا يستثنى منه شيء .

وكذلك التدبير ، فإنه قد يكون للإنسان فإنه يدبر مثل أن يدبر خادمه أو مملوكه أو سيارته أو ماشيته فله تدبير ، لكن هذا التدبير ليس كتدبير الله ، فهو تدبير ناقص ومحدود . ناقص إذ لا يملك التدبير المطلق في ماله فأحياناً يدبر البعير لكن البعير يعصيه وأحياناً يدبر ابنه فيعصيه كذلك ، وكذلك هو تدبير محدود ، فلا يمكن أن يدبر الإنسان إلا ماله السيطرة والسلطة عليه التي جعلها الشارع له وبهذا صح أن نقول إن الله منفرد بالتدبير كما قلنا إنه منفرد بالخلق والملك .

ثالثاً : الإيمان بالوحيته :

وهو أن يؤمن الإنسان بأنه سبحانه هو الإله الحق ، وأنه لا يشاركه أحد في هذا الحق لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ، ولهذا كانت دعوة الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم هي الدعوة إلى قول : (لا إله إلا الله) « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » ^(١) ، « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ » ^(٢) .

(١) سورة الأنبياء الآية : ٢٥ .

(٢) سورة النحل الآية : ٣٦ .

لو أن أحداً آمن بوجود الله ، وآمن بربوبية الله ، ولكنه يعبد مع الله غيره فلا يكون مؤمناً بالله حتى يفرد سبحانه بالألوهية . وقد يقول قائل : إن الله تعالى أثبت وصف الألوهية لغيره فقال تعالى عن إبراهيم : « أَفُكَّا إِلَهة دُونِ اللَّهِ تُرِيدُونَ »^(١) ، وقال تعالى : « وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ »^(٢) ، إلى غير ذلك من الآيات فكيف يصح أن نقول : إن الله متفرد بالألوهية ؟ فالجواب : أن الألوهية المثبتة لغير الله ألوهية باطلة ، ولهذا صح نفيها نفياً مطلقاً في مثل قول الرسل عليهم الصلاة والسلام لأقوامهم : « اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ » ، لأنها الهة باطلة « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ »^(٣) .

رابعاً : الإيمان بأسمائه وصفاته :

وهذا معترك الفرق المنتسبة للإسلام بالنسبة لإفراد الله تعالى بالأسماء والصفات ، فقد انقسموا إلى فرق شتى أصولها ثلاثة :

الأول : الإيمان بالأسماء دون الصفات .

الثاني : الإيمان بالأسماء والصفات .

الثالث : الإيمان بالأسماء وبعض الصفات .

وهناك غلاة ينكرون حتى الأسماء ، فيقولون إن الله عز وجل ليس له أسماء ولا صفات لكننا تركناها لأنها متشعبة .

السلف الصالح الذين كانوا على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يقرّون بالأسماء والصفات اتباعاً لما جاء في كلام الله عز وجل قال تعالى : « وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا »^(٤) ، وهذا دليل على إثبات الأسماء لله تعالى ، وأما الدليل على إثبات الصفات فقولته تعالى : « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ »^(٥) ومعنى (المثل الأعلى) أي الوصف الأكمل . ففي الآيتين عموماً أحدهما : في الأسماء . والآخر : في الصفات . أما

(١) سورة الصافات الآية : ٨٦ .

(٢) سورة القصص الآية : ٨٨ .

(٣) سورة الحج الآية : ٦٢ .

(٤) سورة الأعراف الآية : ١٨٠ .

(٥) سورة النحل الآية : ٦٠ .

التفاصيل فكثيرة في القرآن والسنة .

وهناك من يثبت الأسماء دون الصفات فيقول : إن الله سميع بلا سمع ، وبصير بلا بصر ، وهذا هو المشهور في مذهب المعتزلة .

والفريق الثالث : يثبت الأسماء وبعض الصفات ، فيثبت من الصفات سبعاً وينكر الباقي ، والسبع هي : الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والإرادة والكلام ، جمعها السفاريني في عقيدته بقوله :

له الحياة والكلام والبصر سمع إرادة وعلم واقتدر
بقدره تعلقت بممكن كذا إرادة

يقول : إن هذه الصفات دل عليها العقل فنثبتها ، وما عداها فالعقل لا يدل عليها فلا نثبتها .

فيقول : إن الموجودات دالة على إيجاد ، والإيجاد يدل على القدرة ، فلا يمكن إيجاد بلا قدرة وهذا دليل عقلي ، ويقول إن التخصيص يدل على الإرادة أى كون هذه شمس وهذا قمر ، وهذه سماء وهذه أرض كل ذلك يدل على إرادة وأن الذي خلقها أراد أن تكون على هذا الوجه ، وهذا دليل عقلي أيضا .

وإذا نظرنا في الخلق وجدناه خلقاً محكماً متقناً ، والإحكام يدل على العلم ، لأن الجاهل لا يتقن .

فثبتت الآن ثلاث صفات : القدرة والإرادة والعلم ، ثم قالوا : إن هذه الثلاث لا تقوم إلا بحى ومن ثم ثبتت له الحياة ، فيبقى السمع والبصر والكلام .

قالوا : إذا ثبت أنه حى ، فالحى إما أن يكون سميعاً بصيراً متكلاً ، أو أعمى أصم أخرس ، والصمم والعمى والخرس صفات نقص ، والسمع والبصر والكلام صفات كمال ، فوجب ثبوت الكمال للحى .

فهذه أدلتهم وهي أدلة عقلية ، فلذلك أثبتوا هذه الصفات السبع .

فإذا قيل له تثبت لله رحمة ؟ قال : لا أثبت له الرحمة ؟ لأنى أفسرها بما أعتقد وأقول : الرحمة إرادة الإحسان أو هو الإحسان نفسه ، فلا يفسرها بصفة .

ولكن نقول : هذا خطأ بل نحن نستدل بالعقل على ثبوت الرحمة بما نشاهد من آثارها ، فالنعم التي لا تعد ، والنقم التي تدفع عنا هي بسبب الرحمة ، ودلالة هذه النعم على صفة الرحمة أقوى من دلالة التخصيص على صفة الإرادة ، لأن دلالة هذه النعم على الرحمة يعرفها العامي والخاص ، ومع هذا فينكر هؤلاء صفة الرحمة ويثبتون صفة الإرادة .

وبذلك تعرف أن كل من حاد عن طريق السلف فهو في تناقض مطرد ، لأن الباطل لا يأتلف أبداً « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »^(١) .

وموقفنا نحن من الإيمان بأسماء الله وصفاته ، أن نثبت ما أثبتته الله لنفسه من الأسماء والصفات ، وأن ننزه هذا الإثبات عن محظورين عظيمين وهما : التمثيل، والتكليف، ودليل ذلك السمع والعقل قال تعالى «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»^(٢) « فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ »^(٣) « هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا »^(٤) « فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا »^(٥) ، والنصوص في هذا المعنى كثيرة .

أما العقل ، فإننا نقول : لا يعقل أبداً أن يكون الخالق مماثلاً للمخلوق لما بينهما من التباين العظيم ، فالخالق موجد ، والمخلوق موجد ، والخالق أزلي أبدى الوجود ، والمخلوق جائز الوجود قابلاً للفناء بل هو فان قال تعالى : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ »^(٦) .

قال بعض السلف - رحمهم الله - إذا قرأت هذه الآية « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ » فلا تقف عليها فصلها بما بعدها « وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » ، لتمييز الفرقان المبين بين الخالق والمخلوق ، وليعرف كمال الله عز وجل ونقص ما سواه .

لكن لو قال لنا قائل مما وصف الله به نفسه أن له وجهاً كما قال سبحانه : « وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ » وأنا لا أعقل من الوجه إلا مثل المخلوق فيلزم من إثبات الوجه لله التمثيل ، لأن القرآن عربي والوجه هو ما يتعارف

(١) سورة النساء الآية : ٨٢ .

(٢) سورة الشورى الآية : ١١ .

(٣) سورة النحل الآية : ٧٤ .

(٤) سورة مريم الآية : ٦٥ .

(٥) سورة البقرة الآية : ٢٢ .

(٦) سورة الرحمن الآيتان : ٢٦ - ٢٧ .

بين الناس وأكمل الوجوه وجوه البشر ، فوجه الله كوجه الإنسان مثلاً فماذا نقول له ؟

نقول له : إن هذا الفهم خاطيء ، لأن الوجه هنا مضاف إلى الله ، والمضاف بحسب المضاف إليه فوجه الله يليق بالله ، ووجه الإنسان يليق بالإنسان . ونقول له أيضا : أنت لك وجه والأسد له وجه والهر له وجه ، فإذا قلنا وجه الإنسان ووجه الأسد ووجه الهر ، فهل يلزم من ذلك التماثل ؟ فلا أحد يقول : إن وجهه يماثل وجه الهر أو الأسد أبداً .

إذن نعرف من هذا أن الوجه بحسب ما يضاف إليه ، فإثباتنا لصفات الله عز وجل لا يستلزم أبداً المماثلة بين الخالق والمخلوق بدليل السمع وبدليل العقل .

التكليف : أي أن صفات الله عز وجل لا تكيف تقديرا بالجنان ولا نطقا باللسان ، ودليل ذلك سمعي وعقلي أيضاً .

الدليل السمعي قوله تعالى : « وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا »^(١) ، وقوله : « وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ »^(٢) على أحد التفسيرين وقوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ »^(٣) ، وقوله : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا »^(٤) فمن كيف صفة من صفات الله فقد قال على الله ما لا يعلم .

أما الدليل العقلي لامتناع التكليف ، فإننا نقول : لا يمكن لأي إنسان أن يعرف كيفية الشيء إلا بمشاهدته أو مشاهدة نظيره أو الخبر الصادق عنه .

مثل : لو أنني شاهدت مسجلاً بعينه فإني أعرف كيفيته لأنني شاهدته بعيني ، أو مشاهدة نظيره مثل أن يأتيني رجل ويقول : عندي سيارة واشتريتها موديل ٨٨ مثلاً ، وصفتها كذا ولونها كذا ، فإنه يمكنني معرفة هذه السيارة ، مع أنني لم أشاهدها ، لأنني أعرف نظيرها وأشاهده .

(١) سورة طه الآية : ١١٠ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٥٥ .

(٣) سورة الأعراف الآية : ٣٣ .

(٤) سورة الإسراء الآية : ٣٦ .

ومثال الخبر الصادق عندي مثل : أن يأتيني رجل ويقول عندي بعير صفته كذا وكذا ، وعليه الوسم الفلاني ، فهذا عرفت كيفيته بالخبر الصادق .

إذا طبقنا هذه القاعدة العقلية على صفات الله عز وجل ، فإنه لا يمكن أن نعرف صفات الله عز وجل بهذه الوسائل الثلاث ، لأننا لم نشاهد ولم نشاهد نظيراً ولم نخبر عنه .

ولهذا قال بعض العلماء إذا قال لك الجهمي : إن الله ينزل إلى السماء الدنيا كيف ينزل ؟

فقل : إن الله أخبرنا أنه ينزل ولم يخبرنا كيف ينزل ، فعلينا أن نؤمن بما بلغنا وأن نمسك عما لم يبلغنا . ونظير ذلك قول مالك - رحمه الله - حين سأله سائل : « الرحمن على العرش استوى » كيف استوى ؟ فأطرق الإمام مالك برأسه تعظيماً لهذا السؤال وتحملاً وتحسباً له حتى علاه الرخضاء - أي العرق - ثم رفع رأسه وقال قولته الشهيرة التي تعتبر ميزاناً لجميع الصفات قال له : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

فكل من سأل عن كيفية صفة من صفات الله قلنا له : أنت مبتدع فوظيفتك أن تؤمن بما بلغك وتسكت عما لم يبلغك .

ثانياً الإيمان بالملائكة :

الملائكة : جمع ملك وأصل (ملك) كما يقول النحويون الذين يحللون ألفاظ اللغة العربية يقولون : أصله (مَلَك) ، ثم زحزحت الهمزة إلى مكان اللام وقدمت اللام فصار (ملأك) ، ثم حذفت الهمزة للتخفيف فصار (ملك) لماذا ؟ قالوا : لأن ملائكة مأخوذة من (الألوكة) وهي الرسالة والهمزة في (الألوكة) مقدمة على اللام .

فالملائكة إذن هم الرسل كما قال الله تعالى : « جَاعِلُ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا »^(١) .

وإذا أردنا أن نعرفهم نقول : هم عالم غيبي خلقهم الله عز وجل من نور

(١) سورة فاطر الآية : ١ .

« يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ »^(١) ، يقومون بأمر الله ، « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ »^(٢) .

والإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الستة ، فهذا مرتبته في الدين ، ومن أنكر الملائكة فهو كافر . لأنه مكذب لله ورسوله وإجماع المسلمين .

كيف نؤمن بالملائكة ؟

نؤمن بهم أولاً : بأسماء من عَلِمْنَا اسمه منهم ، ثانياً : بأوصاف من علمنا وصفه ، ثالثاً : بأعمال من علمنا عملهم .

أولاً : نؤمن بأسماء من علمنا اسمه : كجبريل وميكائيل وإسرافيل ، ومالك ورضوان ، وملك الموت ، ومنكر ونكير . فجبريل وميكائيل وإسرافيل كل منهم موكل بما فيه الحياة .

فجبريل موكل بما فيه حياة القلوب وهو الوحي ، لأن جبريل هو الذي جعله الله تعالى وكيلاً في نزول الوحي على الرسل ، كما قال تعالى : « نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ »^(٣) .

وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الأجساد عند البعث .

وأما ميكائيل : فهو موكل بالقطر والنبات وبالقطر والنبات تكون حياة الأرض .

ولهذا جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين هؤلاء الملائكة في حديث استفتاح صلاة الليل ، فكان يستفتح صلاة الليل بقوله : (اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم) .

وأما (مالك) فهو موكل بالنار لقول الله تعالى عن أهل النار :

(١) سورة الأنبياء الآية : ٢٠ .

(٢) سورة التحريم الآية : ٦ .

(٣) سورة الشعراء الآيات : ١٩٣ - ١٩٥ .

« وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ »^(١) .

وأما (رضوان) فموكل بالجنة واسمه هذا ليس ثابتاً ثبوتاً واضحاً كثبوت مالك لكنه مشهور عند أهل العلم بهذا الاسم ، والله أعلم .

وأما السادس (ملك الموت) وقد اشتهر أن اسمه عزرائيل ، لكنه لم يصح . إنما ورد هذا في آثار إسرائيلية لا توجب أن نؤمن بهذا الاسم فنسمي من وكل بالموت بـ (ملك الموت) كما سماه الله عز وجل في قوله : « قُلْ يَتُوفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ »^(٢) .

والسابع والثامن وهما (منكر ونكير) وهما الملكان اللذان يسألان الميت في قبره وقد ورد في ذلك حديث في الترمذي ضعفه بعض العلماء وقال إنه لا يمكن أن يطلق اسم (منكر ونكير) على الملائكة الذين « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » .

على كل حال فهما الملكان اللذان يسألان الميت عن ربه ودينه ونبيه .

ثانياً : الإيمان بأوصاف من علمنا وصفه :

علمنا بما صح عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها وله ستمائة جناح قد سدّ الأفق ، وهذا يدل على عظمته ، ومع ذلك فإنه من الممكن أن يأتي على غير هذه الصفة ، كما أتى على صورة رجل شديد البياض شديد سواد الشعر ، كما في الحديث الذي نحن بصدد شرحه ، وجاء مرة على صورة دحية الكلبي ، ولكن هذا التحول من الصورة التي عليها إلى صورة البشر إنما كان بأمر الله . وقد تمثل جبريل بشراً لمريم بنت عمران كما قال تعالى : « فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا »^(٣) .

ومن أهم ما يجب الإيمان به أن نؤمن بأن كل شخص معه ملكان يكتبان عمله كما قال تعالى : « إِذْ يَتَلَفَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ »^(٤) رقيب حاضر من هؤلاء الملائكة .

(١) سورة الزخرف : ٧٧ .

(٢) سورة السجدة الآية : ١١ .

(٣) سورة مريم الآية : ١٧ .

(٤) سورة ق الآية : ١٧ - ١٨ .

فإياك أيها المسلم أن يكتب هذان الملكان عنك ما يسوءك يوم القيامة فكل شيء تقوله وتلفظ به فإنه مكتوب عليك « ما يلفظ من قول » سواء كان ذلك لك ، أو عليك ، أو لغواً لا لك ولا عليك ، فاحرص يا أخى على ضبط اللسان حتى لا يكتب عليك كلمات تسوءك يوم القيامة . ولما دخلوا على الإمام أحمد رحمه الله وكان مريضاً فإذا هو يئن أنين المريض فقيل له يا أبا عبد الله : « إن طاوساً - وهو أحد التابعين - يقول إن أنين المريض يكتب عليه فأمسك عن الأنين » فأنين المريض قد يكتب عليه فما يلفظ الإنسان من قول إلا لديه رقيب عتيد يكتب عمله ، وإذا كان يوم القيامة يخرج له كتابه « يَلْقَاهُ مَنْشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً »^(١) .

ثالثاً : الإيمان بالكتب :

الركن الثالث وهو الإيمان بكتب الله عز وجل التي أنزلها على الرسل ، وما من رسول إلا أنزل الله معه كتاباً قال تعالى : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ »^(٢) وقال تعالى : « كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ »^(٣) ، فما من رسول إلا أنزل الله معه كتاباً يهتدى به الناس .

كيف نؤمن بالكتب ؟

الإيمان بالكتب أن نؤمن بما علمنا اسمه باسمه ، والذي علمنا اسمه من هذه الكتب : القرآن والتوراة والإنجيل والزيور وصحف إبراهيم وصحف موسى إن قلنا إنها غير التوراة ، وما لم نعلم اسمه نؤمن به إجمالاً ، لأن الله تعالى لا يضيع خلقه بل سينزل عليهم الكتب ليبين لهم الحق ، هذا من حيث الإيمان بالكتب .

أما من حيث قبول ما جاء فيها من خبر ، فيجب أن نقبل كل ما جاء في هذه الكتب من الخبر ، ولكن لا يعنى أن نقبل كل خبر فيها الآن ، لأنها دخلها التحريف والتغيير والتبديل ، لكن نقول إننا نؤمن بكل خبر جاء في

(١) سورة الإسراء الآية : ١٣ - ١٤ .

(٢) سورة الحديد الآية : ٢٥ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢١٣ .

التوراة أو في الإنجيل أو في الزبور أو في صحف إبراهيم .

مثال ذلك : في صحف إبراهيم : لا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وعلمنا ذلك من قوله تعالى : « أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى » ^(١) وقوله تعالى : « بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى » ^(٢) .

فما صح من هذه الكتب فإنه يجب علينا أن نقبل خبره بدون تفصيل هذا بالنسبة للأخبار ، أما بالنسبة للأحكام - أي ما في الكتب المنزلة من الأحكام - ففيه تفصيل : فما كان في القرآن فإنه يلزمنا التعبد به وما كان في الكتب السابقة نظرنا إن كان مخالفاً لشريعتنا فإننا لا نعمل به لا لأنه باطل بل هو حق في زمنه ولكننا لا يلزمنا العمل به ، لأنه نسخ بشريعتنا ، وإن وافق شريعتنا فإننا نعمل به ، لأن شريعتنا أقرته وشرعته ، وما لم يكن في شرعنا خلافه ولا وفاقه فإن العلماء قد اختلفوا في ذلك فمنهم من قال : هو شرع لنا ومنهم من قال : ليس بشرع لنا .

فالذين قالوا إنه شرع لنا استدلوا بمثل قوله تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْبَدَهُ » ^(٣) واستدلوا أيضاً بقوله تعالى : « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ » ^(٤) ، واستدلوا كذلك بأن ما سبق من الشرائع لولا أن فيه فائدة لكان ذكره نوعاً من العبث والراجح : أننا نعمل به .

مثال ما يخالف شريعتنا كقوله تعالى : « وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » ^(٥) .

(١) سورة النجم الآيات : ٣٦ - ٤١ .

(٢) سورة الأعلى الآيات : ١٦ - ١٩ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٩٠ .

(٤) سورة يوسف الآية : ١١١ .

(٥) سورة الأنعام الآية : ١٤٦ .

فاليهود حرم الله عليهم كل ذي ظفر مثل الإبل وكذلك كل ذي رجل غير مشقوقه أي ما لها أصابع ولا فُرْق بعضها من بعض فهو حرام عليهم ، ومن البقر والغنم حرم الله عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم . فهذا منسوخ بشريعتنا ، فإن الله تعالى قد أحل لنا ذلك .

وأما مثال ما وافق شريعتنا فكثير مثل قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » ^(١) ومثل قوله تعالى الذي أشرنا إليه سابقاً : « أَمْ لَمْ يُنَبِّأ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ... » وأمثلة ذلك كثيرة .

وأما ما لم يرد بشرعنا بخلافه ومثاله الأخذ بقريضة الحال : كحكم سليمان بين المرأتين المتنازعتين ، حيث دعا بالسكين ليشقه بينهما فوافقت إحداهما وامتنعت الأخرى فحكم به للتي امتنعت مع أنها هي الصغرى ، لأن امتناعها دليل على أنها أمه . وهذا لم يرد مثله في شرعنا بعينه ، وإن كان قد ورد ما يدل على اعتبار القرائن من حيث الجملة . ولكن القول الراجح فيه : أنه شرع لنا ، وأننا نعمل به لما ذكرنا من الدليل من القرآن .

رابعاً : الإيمان بالرسول :

والإيمان بالرسول أحد أركان الإيمان الستة ، والرسول ينقسمون إلى قسمين رسل من البشر ورسول من الملائكة قال الله تعالى : « إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ » ^(٢) ، والمراد بالرسول هنا جبريل وهو رسول ملكي ، وقال تعالى : « إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ » ^(٣) والمراد به محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو رسول بشري لكن المراد بقولنا : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله المراد بالرسول هنا البشر لأن الرسول الملكي داخل في قولنا (وملائكته) .

الرسول البشري تعريفه عند جمهور أهل العلم : أنه من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه ، وأول الرسل نوح عليه الصلاة والسلام وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى : « إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ

(١) سورة البقرة الآية : ١٨٣ .

(٢) سورة التكوين الآيتان : ١٩ ، ٢٠ .

(٣) سورة الحاقة الآيتان : ٤٠ ، ٤١ .

وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ» ^(١) ، والدليل على أن محمداً خاتمهم قوله تعالى : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » ^(٢) .

فإن قلت : هل آدم رسول أم لا ؟ فالجواب : أنه ليس برسول لكنه نبي ، كما جاء في الحديث الذي أخرجه ابن حبان في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن آدم : أنبي هو ؟ قال : نعم نبي مُكَلَّم . ولكنه ليس برسول والدليل قوله تعالى : « كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ » ^(٣) ، وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة : « إن الناس يذهبون إلى نوح فيقولون : أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض » ^(٤) ، وهذا نص صريح بأن نوحاً أول الرسل .

كيف نؤمن بالرسل ؟

الإيمان بالرسل أن نؤمن بأسماء من علمنا اسمه منهم ، وأن نؤمن بكل خبر أخبروا به ، وأن نؤمن بأنهم صادقون فيما قالوه من الرسالة ، أما من لم يعرف اسمه منهم فنؤمن به إجمالاً ، فإننا لم نعرف أسماء جميع الرسل لقوله تعالى : « مِنْهُمْ مَّنْ قُصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ » ^(٥) .

وأحكام الرسل السابقة من ناحية إلزامنا بها ، أو لا ، فالقول فيها كالقول في أحكام الكتب .

فإن قال قائل : كيف نجمع بين كون محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وبين ما صح به الحديث من نزول عيسى بن مريم في آخر الزمان ؟ فالجواب : أن عيسى عليه السلام لا ينزل على أنه رسول لأن رسالته التي بعث بها كانت سابقة قبل رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ولأنه إذا نزل فلا يأتي بشرع من عنده ، ولكنه يجدد شرع النبي صلى الله عليه وسلم وبهذا يزول الإشكال بين كون محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وبين نزول عيسى بن مريم في آخر الزمان .

(١) سورة النساء الآية : ١٦٣ .

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٤٠ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢١٣ .

(٤) صحيح البخارى كتاب الأنبياء - باب (٣) .

(٥) سورة غافر الآية : ٧٨ .

خامساً : الإيمان باليوم الآخر :

الإيمان باليوم الآخر هو الركن الخامس من أركان الإيمان ، وسمى يوماً آخر لأنه لا يوم بعده ، فإن للإنسان أحوالاً أولها العدم لقوله تعالى : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً »^(١) ، ثم يصير حملاً ، ثم يكون عاملاً في الدنيا وحاله في الدنيا أكمل من حاله أثناء الحمل ، ثم ينتقل إلى الحال الرابعة وهي : البرزخ وحاله في البرزخ أكمل من حاله في الدنيا ، ثم ينتقل إلى الحال الخامسة وهو اليوم الآخر وحاله في هذه المرحلة أكمل المراحل السابقة .

وبيان ذلك أن الإنسان في بطن أمه لاشك أنه ناقص عن حاله في الدنيا قال تعالى : « وَاللّٰهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »^(٢) ، فصار بعد خروجه من بطن أمه عنده العلم والسمع والبصر والعمل ، وأحواله في هذه الدنيا ليست على الصفاء دائماً بل فيه صفاء . وكدر ، وتعب وراحة وجور وعدل ، وصالح وفاسد ، يقول الشاعر :

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر

وهي بلاشك حينئذ تكون حياة ناقصة ، لأنه ما من لذة فيها إلا وهي منغصة كما قال الشاعر :

لا طيب للعيش ما دامت منغصة لذاته بادكار الموت والهزم

فأنت الآن شاب وقوى لكن سيأتيك أحد أمرين : إما الموت ، وإما الهزم ، فحياة الدنيا منغصة ولهذا سميت الدنيا وهي من : الدناءة ، ومن الدنو ، أيضاً فهي دنيئة بالنسبة للآخرة وهي أيضاً دنية لنقصانها عن مرتبة الآخرة ، وهي دنيا لأنها سابقة للآخرة فهي أدنى منها .

وحاله في البرزخ أكمل حالاً من الدنيا ، لأن حاله مستقرة ، فإذا كان من أهل الخير فهو منعم في قبره ، يفتح له في قبره مد البصر ، ويفرش له فراش من الجنة ، ويفتح له باب إلى الجنة ، ولا ينال هذا في الدنيا أما في

(١) سورة الإنسان الآية : ١ .

(٢) سورة النحل الآية : ٧٨ .

الآخرة فيعطي الكمال المطلق بالنسبة للإنسان حياة كاملة لا يمكن أن تنسب إليها حياة الدنيا بأي وجه من الوجوه وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى بعد ذلك .

كيف نؤمن باليوم الآخر ؟

الإيمان باليوم الآخر أن نؤمن بأن الناس سوف يبعثون ويجازون على أعمالهم ، وأن نؤمن بكل ما جاء في الكتاب والسنة من أوصاف ذلك اليوم ، وقد وصف الله تعالى ذلك اليوم بأوصاف عظيمة ولناخذ منها وصفاً واحداً قال تعالى : « يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ »^(١) وأوصاف هذا اليوم الدالة على هوله وعظمته كثيرة في الكتاب والسنة .

ولا يقتصر الإيمان باليوم الآخر على الإيمان بهذا اليوم الذي يكون بعد البعث ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في عقيدته الواسطية(*) : (من الإيمان باليوم الآخر : الإيمان بكل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم مما يكون بعد الموت) .

أولاً : فتنة القبر :

وأول شيء يكون بعد الموت فتنة القبر فإن الناس يفتنون - أي يختبرون - في قبورهم فما من إنسان يموت سواء دفن في الأرض ، أو رُمي في البحر ، أو أكلته السباع ، أو ذرته الرياح ، إلا ويفتن هذه الفتنة فيسأل عن ثلاثة أمور : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ .

فأما المؤمن فيقول ربي الله - جعلني الله وإياكم منهم - ودينني الإسلام ، ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم ، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي ، وحينئذ يفسح له في قبره مد البصر ، ويفرش له فراش من الجنة ويفتح له باب إلى الجنة فيأتيه من روحها ونعيمها ، وهذه الحال بلا شك أكمل من حال الدنيا .

(١) سورة الحج الآيات : ١ - ٢ .

(*) أشار فضيلته إلى أهمية هذا الكتاب وأشار أيضاً بأن على كل شاب أن يحفظها وأن يعرف معانيها وقد نشرت الدار شرح فضيلة الشيخ لهذا الكتاب .

أما إذا كان كافراً أو منافقاً فإنه إذا سئل من ربك ؟ ما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته .

وتأمل ماذا تدل عليه كلمة هاه هاه ؟ فإنها تدل على أن هذا المجيب كأنه يتذكر شيئاً يبحث عنه ولكن يعجز عن استحضاره ، وكون الإنسان يتذكر شيئاً ويعجز عن استحضاره أشد ألماً من كونه لا يدري عنه بالكلية ، فلو سئلت عن شيء وأنت لا تعلم عنه فقلت : لا أدري فهذا نقص بلاشك لكن لا يوجب حسرة ، ولهذا يقول هاه هاه كأنه يتذكر شيئاً لا أدري سمعت يقولون شيئاً فقلته ، فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلان (الإنس والجن) ، ولو سمعها لصعق ، وقد ورد في صفة هذه المرزبة أنها لو اجتمع عليها أهل منى ما أقلوها والعياذ بالله .

هذه الفتنة يجب الإيمان بها ، لأن الإيمان بها من الإيمان باليوم الآخر فإن قلت : كيف يكون الإيمان بها من الإيمان باليوم الآخر وهي في الدنيا ؟ فالجواب : أن الإنسان إذا مات فقد قامت قيامته .

ثانياً : عذاب القبر ونعيمه :

ومما يدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بعذاب القبر ونعيم القبر ودليل ذلك قوله تعالى : « كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »^(١) ووجه الدلالة قوله : « الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ » حال توفيقهم : « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ » وهم وإن كانوا لم يدخلوا الجنة التي عرضها السموات والأرض لكن دخلوا القبر الذي فيه نعيم الجنة .

وقال تعالى أيضاً : « فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ »^(٢) وهذا يكون إذا بلغت الروح الحلقوم وهذا هو نعيم القبر بل إن الإنسان يبشر بالنعيم قبل أن تخرج روحه يقال لروحه : اخرجي أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان فتفرح الروح بذلك وتخرج خروجاً سهلاً ميسراً .

(١) سورة النحل الآيتان : ٣١ ، ٣٢ .

(٢) سورة الواقعة الآيات : ٨٣ - ٨٩ .

. وأما السنة فإن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر في أحاديث كثيرة بما يدل على أن الإنسان ينعم في قبره ، وقد أشرنا إلى شيء منها .

وأما عذاب القبر فتأبث أيضاً في الكتاب والسنة ، فمن القرآن قال الله تبارك وتعالى في آل فرعون : « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » ^(١) ، فقوله : « يعرضون عليها غدوًّا وعشيًّا » هذا قبل الساعة « ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » وقال تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ » ^(٢) وكان هؤلاء يشحون بأنفسهم لا يخرجونها ، لأنهم يبشرون بالعذاب والعياذ بالله ، فتردد الأرواح لا تريد أن تخرج من أجسادها هرباً مما أُنذرت به « أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ » .

ووجه الدلالة من قوله : « اليوم تجزون » لأن (آل) هنا للعهد الحضوري لقوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم » ^(٣) أي اليوم الحاضر وهو يوم وفاة هؤلاء الظالمين .

وقال تعالى : « وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزِّلْ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ » ^(٤) .

وكلنا نقول في الصلاة : (أعوذ بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر) ، فعذاب القبر ثابت بالقرآن والسنة والإيمان به من الإيمان باليوم الآخر .

هل العذاب في القبر على البدن أو على الروح ؟

العذاب في القبر على الروح في الأصل وربما يتصل بالبدن ، ومع ذلك فإن كونه على الروح لا يعني أن البدن لا يناله منه شيء بل لا بد أن يناله من هذا العذاب أو النعيم شيء وإن كان غير مباشر .

(١) سورة غافر الآية : ٤٦ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ٩٣ .

(٣) سورة المائدة الآية : ٣ .

(٤) سورة الواقعة الآيات : ٩٢ - ٩٤ .

واعلم أن العذاب والنعيم في القبر على عكس العذاب أو النعيم في الدنيا ، فإن العذاب أو النعيم في الدنيا على البدن ، وتتأثر به الروح ، وفي البرزخ يكون النعيم أو العذاب على الروح ، ويتأثر به البدن .

فلو قال لنا قائل : كيف تقولون إن القبر يضيق على الإنسان الكافر حتى تختلف أضلعه ، ونحن لو كشفنا القبر لوجدنا أن القبر لم يتغير ، وأن الجسد لم يتغير أيضاً ؟

فالجواب على هذا أن نقول : إن عذاب القبر على الروح في الأصل ، وليس أمراً محسوساً على البدن ، فلو كان أمراً محسوساً على البدن ، لم يكن من الإيمان بالغيب ، ولم يكن منه فائدة ، لكنه من الأمور الغيبية المتعلقة بالأرواح . والإنسان قد يرى في المنام وهو نائم على فراشه أنه قائم ، وذاهب وراجع ، وضارب ومضروب ، وربما يرى وهو على فراشه نائم أنه قد سافر إلى العمرة ، وظاف وسعى ، وحلق أو قصر ، ورجع إلى بلده ، وجسمه على الفراش لم يتغير .

فأحوال الروح ليست كأحوال البدن .

ثالثاً : البعث :

ومما يدخل في الإيمان باليوم الآخر البعث فالله سبحانه وتعالى يبعث الأجساد يوم القيامة حفاة عراة غرلا . حفاة ليس عليهم نعال ولا خفاف : أي ليس عليهم لباس رجل ، عراة : ليس عليهم لباس بدن ، غرلا : أي غير مختونين . وفي بعض الأحاديث : (بُهْمًا) أي ليس معهم مال ، بل كل واحد وعمله .

والبعث هنا إعادة وليس تجديداً ، كما قال تعالى : « قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » ^(١) ، وقال تعالى : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » ^(٢) ، ولأنه لو كان خلقاً جديداً لكان الجسد الذي يعمل السيئات في الدنيا سالماً من العذاب ، ويؤتي بجسد جديد فيعذب ، وهذا خلاف العدل ، فالنص والعقل قد دل على أن البعث ليس تجديداً ولكنه إعادة ، ولكن يبقى النظر كيف تكون إعادته ، والإنسان ربما يموت ، فتأكله

(١) سورة يس الآيتان : ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) سورة الأنبياء الآية : ١٠٤ .

السباع ، ويتحول من اللحم إلى الدم في الحيوان الآكل وروث وما أشبه ذلك ؟

فيقال : إن الله على كل شيء قدير يقول للشيء كن فيكون ، فيأمر الله هذه الأجساد التي تفرقت وأكلت وطارت بها الرياح أن تعود فتعود ، وهذا ينبني على القاعدة التي سبق أن قررناها وهي : أن الواجب على الإنسان في الأمور الخبرية الغيبية هو التسليم .

وقد أوردت عائشة رضي الله عنها إشكالاً على قول النبي صلى الله عليه وسلم : « يحشر الناس حفاة عراة غرلاً فقالت : الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال : الأمر أعظم من أن يهتمهم ذلك » ، فإن في هذا اليوم لا ينظر أحد إلى أحد لأن الله تعالى يقول : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ »^(١) حتى إن الإنسان يذهل عن أنسابه وأقاربه « فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ »^(٢) .

رابعاً : دنو الشمس من الخلائق :

ومن الإيمان باليوم الآخر أن تؤمن بأن الشمس تدنو من الخلائق بمقدار ميل ، والميل يحتمل أن يكون ميل المكحلة ، ويحتمل أنه المسافة من الأرض ، وسواء كان ميل المكحلة أو ميل المسافة فإن الشمس تكون قريبة من الرءوس .

فإن قلت : كيف يمكن هذا ونحن الآن حسب ما نعلم أن هذه الشمس لو دنت عما كانت عليه الآن بمقدار شبر واحد لأحرقت الأرض ، فكيف يمكن أن تدنو من الخلائق يوم القيامة بمقدار ميل ؟

فالجواب : أن وظيفة المؤمن - وهذه قاعدة يجب أن تبني عليها عقيدتنا - فيما ورد من أخبار الغيب القبول والتسليم وألا يسأل عن كيف ؟ ولم ؟ لأن هذا أمر فوق ما تتصوره أنت فالواجب عليك أن تقبل وتسلم وتقول : (آمنا وصدقنا) آمنا بأن الشمس تدنو من الخلائق يوم القيامة بمقدار ميل . وما زاد على ذلك من الإیرادات فهو من البدع ، ولهذا لما سئل الإمام مالك رحمه

(١) سورة عبس الآيات : ٣٤ - ٣٧ .

(٢) سورة المؤمنون الآية : ١٠١ .

الله عن استواء الله كيف استوى ؟ قال السؤال عنه بدعة ، هكذا أيضاً كل أمور الغيب السؤال عنها بدعة وموقف الإنسان منها القبول والتسليم .

أما الجواب الثاني بالنسبة لدنو الشمس من الخلائق يوم القيامة فإننا نقول : إن الأجسام تبعث يوم القيامة لا على الصفة التي عليها في الدنيا من النقص وعدم التحمل بل هي تبعث بعثاً كاملاً تاماً ، ولهذا يقف الناس يوم القيامة يوماً مقداره خمسون ألف سنة لا يأكلون ولا يشربون ، وهذا أمر لا يحتمل في الدنيا فتدنو الشمس منهم وأجسامهم قد أعطيت من القوة ما يتحمل دنوها - وبذلك لهذا ما ذكرناه من الوقوف خمسين ألف سنة لا يحتاجون الى طعام ولا شراب . وأن أهل الجنة ينظر الواحد منهم إلى ملكه مسيرة ألف عام ينظر أقصاه كما ينظر أدناه ولا يمكن هذا في الدنيا ، فالأجسام يوم القيامة لها شأن آخر غير شأنها في هذه الدنيا .

خامساً : محاسبة الخلائق على أعمالهم :

ومما يدخل في الإيمان باليوم الآخر أن نؤمن بأن الخلائق يحاسبون على أعمالهم ، وقد سمي الله يوم القيامة يوم الحساب ، لأنه اليوم الذي يحاسب الإنسان فيه على عمله .

ولكن هل الحساب حساب مناقشة كما يحاسب التاجر تاجراً آخر بالفلس والهللة ؟.

الجواب : لا ، لكنه حساب فضل وإحسان وكرم بالنسبة للمؤمن فإن الله سبحانه وتعالى يحاسب المؤمن فيخلو به ويضع كنفه عليه أي ستره ويقرره بذنوبه فيقول له عملت كذا في يوم كذا حتى يقر ويعترف ، فإذا أقر واعترف قال الله سبحانه وتعالى له : « إني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم »^(١) .

وكلنا لا يخلو من الذنوب في هذه الدنيا ذنوب باطنة تتعلق بالقلوب ، وذنوب ظاهرة تتعلق بالأبدان ، لكي لا يراها الناس ، فقد شاهد الرجل ينظر بعينه نظراً محرماً وأنت تظنه ينظر نظراً حلالاً ما تدري ولهذا قال الله تعالى : « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُور »^(٢) ، خائنة الأعين أمر

(١) البخارى كتاب الأدب : باب ستر المؤمن على نفسه فتح البارى ١٠ / ٤٨٦ .
(٢) سورة غافر الآية : ١٩ .

يعلم بالحس ، لكن لا يعلمه أحد من يدري أن هذه العين تنظر نظراً محرماً ؟ ، « وما تخفى الصدور » هذا باطن فالله سبحانه وتعالى يقول : سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم .

أما الكفار والعياذ بالله فإنهم لا يحاسبون هذا الحساب بل يقررون بأعمالهم ويقول عملتم كذا وكذا فإذا أنكروا تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، حتى الجلود فإنها تشهد فيقولون لجلودهم : « لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ »^(١) يقرر الكفار بأعمالهم ويخزون بها والعياذ بالله وينادي على رءوس الأشهاد : « هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ »^(٢) ، فانظر الفرق بين حساب المؤمن وحساب الكافر هل ينجو من الحساب أحد ؟

الجواب : نعم ينجو منه عالم لا يحصيهم إلا الله قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن أمته عرضت عليه وإن منهم سبعين ألفاً يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب وهم الذين لا يرقون ، ولا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون »^(٣) .

سادساً : الوزن :

مما يدخل في الإيمان باليوم الآخر : الوزن قال الله تعالى : « وَالْوِزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ »^(٤) وقال تعالى : وَنُضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ^(٥) ، فتوزن الأعمال يوم القيامة بميزان توضع في إحدى الكفتين الحسنات وفي الأخرى السيئات ، والذي يوزن في ظاهر النصوص العمل قال الله تعالى : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »^(٦) ،

(١) سورة فصلت الآيات : ٢١ - ٢٤ .

(٢) سورة هود الآية : ١٨ .

(٣) البخاري : كتاب الطب باب من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو فتح الباري ١٠ / ١٥٥ .

(٤) سورة الأعراف الآية : ٨ .

(٥) سورة الأنبياء الآية : ٤٧ .

(٦) سورة الزلزلة الآيتان : ٧ ، ٨ .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » ^(١) ، فيوضع هذا الميزان للخلائق وتوزن فيه الأعمال .

ولكن هنا أسئلة على الميزان :

أولاً : كيف توزن الأعمال وهى أوصاف للعاملين وحركات وأفعال؟

فالجواب : أن القاعدة فى ذلك كما أسلفنا أن علينا أن نسلم ونقبل ولا حاجة لأن نقول كيف ؟ ولم ؟ ومع ذلك فإن العلماء - رحمهم الله - قالوا فى جواب هذا السؤال : إن الأعمال تقلب أعياناً فيكون لها جسم يوضع فى الكفة فيرجح أو يخف ، وضربوا لذلك مثلاً بما صح به الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أن الموت يجعل يوم القيامة على صورة كبش فينادى أهل الجنة يأهل الجنة فيطلقون ويشربون وينادى يأهل النار : فيطلقون ويشربون ، ما الذى حدث ؟ فيؤتى بالموت على صورة كبش فيقال : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، فيذبح الموت بين الجنة والنار ويقال : يأهل الجنة خلود فلا موت ويأهل النار : خلود فلا موت » ^(٢) ونحن نعلم جميعاً أن الموت صفة ، ولكن الله تعالى يجعله عيناً قائمة بنفسه وهكذا الأعمال .

ثانياً : هل الميزان واحد أم متعدد ؟ .

اختلف العلماء فى ذلك على قولين وذلك لأن النصوص جاءت بالنسبة للميزان مرة بالافراد ومرة بالجمع مثل قوله تعالى : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ » ، وكذلك فى قوله : « فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ » ، وأفرد فى مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « ثقيلتان فى الميزان » فقال بعض العلماء : إن الميزان واحد ، وأنه جمع باعتبار الموزون أو باعتبار الأمم فهذا الميزان توزن به أعمال أمة محمد ، وأعمال أمة موسى ، وأعمال أمة عيسى ، وهكذا فجمع الميزان باعتبار تعدد الأمم ، والذين قالوا إنه متعدد بذاته قالوا : لأن هذا هو الأصل فى التعدد ومن الجائز أن الله تعالى يجعل لكل أمة ميزاناً ، أو يجعل للفرائض ميزاناً ، وللنوافل ميزاناً .

(١) رواء البخارى فى كتاب التوحيد باب (٥٨) .

(٢) مسلم : كتاب الجنة باب يدخلها الجبارون . . . صحيح مسلم ٤ / ٢١٨٨ .

والذى يظهر والله أعلم أن المراد أن الميزان واحد ، لكنه متعدد باعتبار الموزون .

سابعاً : نشر الكتب :

ومما يدخل فى الإيمان باليوم الآخر نشر الدواوين وهى الكتب ، تنشر بين الناس فيختلف الناس فى أخذ هذه الكتب ، منهم من يأخذها باليمين ، ومنهم من يأخذها بالشمال ، وقد أشار الله إلى ذلك فى سورة الحاقة فقال : « فَأَمَّا مَنْ أَوْتَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَمْ أَقْرَأُوا كِتَابِيَه * إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَه * فَهُوَ فى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * فُطُوفُهَا دَانِيَةٍ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فى الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أَوْتَى كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِى لَمْ أَوْتِ كِتَابِيَه * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَه »^(١) ، فالمؤمن يقول للناس خذوا كتابى اقرءوه مستبشراً مسروراً به ، والكافر والعياذ بالله يتحسر ويقول : « يَالَيْتَنِى لَمْ أَوْتِ كِتَابِيَه وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَه » .

هذا الكتاب قد كتب فيه مايعمله الإنسان كما قال تعالى : « كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالذِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ »^(٢) ، ويقال للإنسان : « أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً »^(٣) .

قال بعض العلماء : والله لقد أنصفك من جعلك حسيباً على نفسك .

فيجب علينا أن نؤمن بهذه الكتب ، وأنها توزع يوم القيامة عن اليمين وعن الشمال ، لكن فى سورة الانشقاق يقول الله تعالى : « وَأَمَّا مَنْ أَوْتَى كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ »^(٤) ، فكيف يمكن الجمع بين قوله : « كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ » وقوله : « كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ » ؟ .

فالجواب : أنه يأخذه بشماله ، لكن تخلع الشمال إلى الخلف من وراء ظهره والجزء من جنس العمل ، فكما أن هذا الرجل جعل كتاب الله وراء ظهره أعطى كتابه يوم القيامة من وراء ظهره جزاءً وفاقاً .

(١) سورة الحاقة الآيات : ١٩ - ٢٦ .

(٢) سورة الانفطار الآيات : ٩ - ١١ .

(٣) سورة الإسراء الآية : ١٤ .

(٤) سورة الانشقاق الآية : ١٠ .

ثامناً : الحوض :

ومما يدخل فى الإيمان باليوم الآخر أيضا الحوض .. حوض النبى صلى الله عليه وسلم - جعلنى الله وإياكم ممن يشرب منه - هذا الحوض حوض واسع طوله شهر وعرضه شهر وأنيته كنجوم السماء فى كثرتها وحُسْنها ، مأؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وأطيب من رائحة المسك ، ومن يشرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدا ، ويستمد الحوض ماءه من الكوثر ، وهو نهر أعطيه النبى صلى الله عليه وسلم فى الجنة يصب منه ميزابان على الحوض فيبقى الحوض دائما مملوءا ، ويرده المؤمنون من أمة الرسول صلى الله عليه وسلم، ويشربون منه ، ويكون هذا الحوض فى عرصات القيامة عند شدة الحر وتعب الناس وهمهم وغمهم ، فيشربون من هذا الحوض الذى لا يظمئون بعد الشرب منه أبدا .

تاسعاً : الشفاعة :

ومما يدخل فى الإيمان باليوم الآخر كذلك الشفاعة ، وهى نوعان : أحدهما : خاص بالنبى صلى الله عليه وسلم ، والثانى : عام له ولسائر النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

أما الخاص بالنبى صلى الله عليه وسلم :

أولاً : الشفاعة العظمى التى تكون للقضاء بين الناس وذلك أن الناس يوم القيامة يلحقهم من الكرب والهم والغم ما لا يطيقون ، لأنهم يبقون خمسين ألف سنة ، والشمس من فوق رؤوسهم ، والعرق قد يلجم بعضهم فيجدون همأ وغمأ وكربأ ، فيطلبون من يشفع لهم إلى الله عز وجل فينجيهم من ذلك ، فيلهمهم الله عز وجل أن يذهبوا إلى آدم الذى هو أبو البشر فيأتون إليه ويسألونه الشفاعة ، ولكنه يعتذر بأنه عصى ربه فى أكله من الشجرة التى حرم الله عليه أن يأكل منها .

ولكن قد يقول قائل : إن أكله من الشجرة ذنب قد تاب منه وبعد أن تاب اجتباه الله وهداه ، قال الله تعالى : « وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى » (١) .

(١) سورة طه الايتان : ١٢١ ، ١٢٢ .

فالجواب : نعم الأمر كذلك ، وآدم بعد الخطيئة خير منه قبلها ، لأن الله تعالى قال بعد أن حصلت الخطيئة والتوبة : « اجْتَبَاهُ رَبُّهُ » فجعله من المجتبيين المصطفين ، ولكنه يعتذر - أى من الشفاعة - بأكله من الشجرة ، لأن مقام الشفاعة مقام عظيم يحتاج أن يكون الشافع فيه نزيهاً من كل شيء ، لأنه شافع يريد أن يتوسط لغيره فإذا كان مذنباً كيف يمكن أن يكون شافعاً ؟ .

فيذهب الناس إلى نوح ويطلبون منه الشفاعة ، ولكنه يعتذر بأنه سأل ما ليس له به علم ، وكان قد سأل الله تعالى أن ينجي ابنه الكافر من الغرق « فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ »^(١) ، فيعتذر ، فيأتون إلى إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام ، فيعتذر بأنه كذب ثلاث كذبات ، وهو ليس فى الواقع كذب ، ولكنه تورية ، لكن التورية ظاهرها الحقيقة والمراد خلاف الظاهر فمن أجل هذا تشبه الكذب من بعض الوجوه ، ولكمال أدب إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع الله هاب أن يشفع وقد كذب هذه الكذبات فى ذات الله عز وجل .

فيأتون إلى موسى بعد ذلك ، فيعتذر بأنه قتل نفساً لم يؤمر بقتلها ، والنفس التى قد أشار إلى أنه قتلها بغير حق أنه خرج عليه الصلاة والسلام فوجد رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه أحدهما من بنى إسرائيل والثانى من الأقباط ، فاستغاثه الذى من شيعته - وهو الإسرائيلى - على الذى من عدوه وهو القبطى ، وكان موسى عليه الصلاة والسلام رجلاً شديداً ، فوكر القبطى ، ففضى عليه ، فهذه هى النفس التى قتلها قبل أن يؤمر بقتلها ، وهذا جعله يعتذر عن الشفاعة للناس .

ثم يأتون إلى عيسى عليه الصلاة والسلام وهو الذى ليس بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم عليه وسلم رسول - فلا يعتذر ، لكنه يعترف بفضل النبى صلى الله عليه وسلم ، يقول لهم : اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتون إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فيطلبون منه الشفاعة ،

(١) سورة هود الآيتان : ٤٥ ، ٤٦ .

فيشفع إلى الله عز وجل ، فينزل الله عز وجل للقضاء بين العباد ، وهذه الشفاعة تسمى الشفاعة العظمى ، وهي من المقام المحمود الذى قال الله فيه : « عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً »^(١) ، فيشفع النبي صلى الله عليه وسلم إلى الله فينزل الله تعالى للقضاء بين عباده ويريحهم من هذا الموقف^(٢).

ثانياً : من الشفاعة الخاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم أن يشفع لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة ، فأهل الجنة إذا عبروا الصراط ووصلوا إلى باب الجنة وجدوه مغلقاً ، فيشفع النبي صلى الله عليه وسلم إلى الله بأن يفتح لهم باب الجنة وقد أشار الله إلى هذه الشفاعة فقال تعالى : « وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا »^(٣) ، ولم يقل : حتى إذا جاءوها فتحت ، كما قال في أهل النار : « وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ »^(٤) ، أما في أهل الجنة فقال : « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ » لأنها لا تفتح إلا بعد الشفاعة .

أما الذى تكون فيه - الشفاعة - عامة ، له ولسائر النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، فهما شفاعتان : الشفاعة فى أهل النار من المؤمنين أن يخرجوا من النار ، والشفاعة فيمن استحق النار من المؤمنين أن لا يدخل النار .

شروط الشفاعة :

ولابد للشفاعة من شروط ثلاثة أولها : رضا الله عن الشافع ، ثم رضاه عن المشفوع له ، ثم إذنه ، ودليلهما قوله تعالى : « وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى »^(٥) ، وقوله تعالى : « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى »^(٦) ، وقوله تعالى : « مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ »^(٧) ، وقوله تعالى :

(١) سورة الإسراء الآية : ٧٩ .

(٢) رواه البخارى فى كتاب الأنبياء باب (٣) .

(٣) سورة الزمر الآية : ٧٣ .

(٤) سورة الزمر الآية : ٧١ .

(٥) سورة النجم الآية : ٢٦ .

(٦) سورة الأنبياء الآية : ٢٨ .

(٧) سورة البقرة الآية : ٢٥٥ .

« يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا »^(١).

ولا تنفع هذه الشفاعة المشركين ، لأن الله تعالى لا يرضاها ويشترط رضا الله عن المشفوع له ، ولهذا أصنام المشركين التي يتعلقون بها ، ويقولون إنها شفعاؤنا عند الله لا تنفعهم ولا تشفع لهم ، بل لا يزدادون بها إلا حسرة ، لأن الله تعالى يقول : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ »^(٢) ، فتحصب ألهمتهم في النار فيزدادون والعياذ بالله غما إلى غمهم .

عاشرا : الصراط :

ومما يدخل في الإيمان باليوم الآخر : الصراط ، وهو عبارة عن جسر ممدود على النار يمر الناس عليه على قدر أعمالهم ، منهم من يمر كلمح البصر ، ومنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالريح ، على حسب أعمالهم ، كل من كان أسرع في الدنيا لقبول الحق والعمل به كان على الصراط أسرع عبوراً ، وكلما كان الإنسان أبطأ لقبول الحق والعمل به كان على الصراط أبطأ ، فيمر أهل الجنة على هذا الصراط فيعبرون ، أما الكفار فلا يمرون عليه ، لأنه يصار بهم إلى النار والعياذ بالله ، فيأتونها وردا عطاشا .

الحادي عشر : دخول الجنة أو النار :

وهي آخر المراحل حيث يدخل أهل الجنة الجنة ، ويدخل أهل النار النار .

والسؤال : هل الجنة والنار موجودتان الآن ؟ .

فالجواب : نعم . موجودتان ودليل ذلك من الكتاب والسنة ، أما الكتاب فقال الله تعالى في النار : « وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ »^(٣) ، والإعداد بمعنى التهيئة ، وفي الجنة قال الله تعالى : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ »^(٤) ،

(١) سورة طه الآية : ١٠٩ .

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٩٨ .

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٣١ .

(٤) سورة آل عمران : ١٣٣ .

والإعداد أيضا التهيئة .

وأما السنة فقد ثبت في الصحيحين وغيرهما في قصة كسوف الشمس أن النبي صلى الله عليه وسلم قام يصلي فعرضت عليه الجنة والنار وشاهد الجنة حتى همَّ أن يتناول منها عنقوداً ، ثم بدا له ألا يفعل عليه الصلاة والسلام ، وشاهد النار ورأى فيها عمرو بن لحي الخزاعي يجرُّ قُصْبَهُ في النار والعياذ بالله - يعني أمعاءه - قد اندلقت من بطنه ، فهو يجرها والعياذ بالله في نار جهنم ، لأن هذا الرجل أول من أدخل الشرك على العرب ؛ فكان له كفل من العذاب الذي يصيب من بعده ، ورأى امرأة تعذب في النار في هرة حبستها حتى ماتت ، فلا هي أطعمتها ، ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض . ورأى فيها صاحب المحجن - والمحجن : عصا محنية الرأس - وصاحب المحجن سارق يسرق الحجاج بمحجنه ؛ فإن فطن له الحاج قال : هذا المحجن انشبك بغير إرادتي ، وإن لم يفطن له أخذه ومشى ، قرأى النبي صلى الله عليه وسلم في النار هذا الرجل يعذب بمحجنه . والعياذ بالله^(١) .

فدل ذلك على أن الجنة والنار موجودتان الآن .

هل الجنة والنار تفيان أم تبقيان ؟ .

الجنة والنار تبقيان ، فالجنة تبقى أبد الأبد ، والنار تبقى كذلك أبد الأبد ، ودليل ذلك من القرآن كثير : بالنسبة للجنة قال الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِّ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ »^(٢) .

وفي النار ذكر الله التأييد في ثلاث آيات من القرآن : الأولى في سورة النساء « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا »^(٣) ، والثانية في سورة الأحزاب ، قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا *

(١) مسلم كتاب الكسوف - باب ذكر عذاب القبر في صلاة الكسوف صحيح مسلم ٢ / ٦٢٢ ، ٦٢٣ .

(٢) سورة البينة الأيتان : ٧ ، ٨ .

(٣) سورة النساء الأيتان : ١٦٨ ، ١٦٩ .

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا»^(١)، والثالثة في سورة الجن وهي قوله تعالى : « وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا »^(٢).

وبعد هذا النص الصريح في القرآن ، يتبين أن ما قيل من أن النار تقنى قول ضعيف جدا لا يعول عليه ؛ لأنه لا يمكن أن تعول على قول صرح القرآن بخلافه ، بل ولا يحل لنا ذلك .

فالنار والجنة موجودتان الآن ، وتبقيان ، ولا تفنيان أبدا .

سادسا : الإيمان بالقدر خيره وشره :

الإيمان بالقدر خيره وشره هو الأصل السادس ، وهو محل عراك بين العلماء وأرائهم ، ومحل عراك بين النفس مطمئنة والنفس الأمارة بالسوء .

الإيمان بالقدر معناه أن تؤمن بأن الله عز وجل قد قدر كل شيء يكون ، إلى ما لا نهاية له ، وأنه قدره عن علم ، ولهذا قال العلماء : إن مراتب الإيمان بالقدر أربع مراتب :

المرتبة الأولى : العلم ومعناها : أن تؤمن بأن الله تعالى عالم بكل شيء جملة وتفصيلا فيما يتعلق بفعله الذى يفعله عز وجل بنفسه كالخلق ، والإحياء والإماتة ، وإنزال المطر وغير ذلك ، أو يتعلق بفعل المخلوقين ، كأقوال الإنسان ، وأفعاله ، بل حتى أفعال الحيوان كلها معلومة لله عز وجل قبل وقوعها ، وأدلة هذه المرتبة كثيرة منها قوله تعالى : « وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا »^(٣)، ومنها قوله : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا »^(٤)، ومنها قوله تعالى : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ »^(٥).

(١) سورة الأحزاب الآية : ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) سورة الجن الآية : ٢٣ .

(٣) سورة الأحزاب الآية : ٤٠ .

(٤) سورة الطلاق الآية : ١٢ .

(٥) سورة الأنعام الآية : ٥٩ .

ونتكلم عن قوله : « ويعلم ما فى البر والبحر ... » كلمة « ما » اسم موصول ، وكل اسم موصول فهو مفيد للعموم ، فكل شيء فى البر ، الله سبحانه وتعالى يعلمه ، وكذلك كل شيء فى البحر فالله سبحانه وتعالى يعلمه .

« وما تسقط من ورقة إلا يعلمها » أى ورقة فى أى شجرة فى أى مكان فى رأس جبل ، أو فى بطن واد ، أو فى روضة من بقاع الأرض ، كل شجرة يسقط منها ورقة فالله تعالى يعلم هذه الورقة . وكل ورقة تنبت فهو عالم بها من باب أولى .

وقوله « وما تسقط من ورقة » : فى هذه الجملة حرف زائد وهو « من » ، فإنه زائد فى الإعراب ، لكنه يزيد فى المعنى : وهو تأكيد العموم المستفاد من وقوع النكرة فى سياق النفى ، لأن النكرة فى سياق النفى تفيد العموم ، فإذا جاءت (من) زادته توكيدا .

« ولا حبة فى ظلمات الأرض » أى حبة ، سواء كانت كبيرة ، أو صغيرة فى ظلمات الأرض إلا يعلمها الله عز وجل ، وكلمة (ظلمات) جمع تدل على أن للأرض ظلمات : وهى ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة الطين ، وظلمة السحاب ، وظلمة المطر ، وظلمة الغبار ، فهذه ظلمات ست وقد يكون هناك ظلمات أخرى لم نعلمها . وهذه الظلمات لا تحول بين الله عز وجل وبين هذه الحبة ، بل هو سبحانه وتعالى يعلمها ويرأها جل وعلا .

« وَلَا رَظَبٌ وَلَا يَابِسٌ » وما من شيء إلا وهو إما رطب وإما يابس « إِلَّا فى كتاب مُبين » وهو اللوح المحفوظ ، وهذا الكتاب إنما كان عن علم من الله عز وجل .

وعلم الله بعمل الإنسان موجود فى كتاب الله عز وجل قال تعالى : « أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتَئِبُونَ »^(١) ، فهو يعلم السر والنجوى ، والسر : هو ما يسره الإنسان فى قلبه ، ويحدث به نفسه ، وأما النجوى : فهى ما يتناجى به مع صاحبه . وكل هذا معلوم لله عز وجل .

(١) سورة الزخرف الآية : ٨٠

وهذا العلم من الله عز وجل لم يسبقه جهل ، ولا يلحقه نسيان ، ولهذا لما قال فرعون لموسى : « فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى » قال : « عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى »^(١) (لا يضل) أى يجهل ، ولا ينسى ما كان معلوماً ، بينما علم البشر محفوف بهاتين الآفتين : جهل سابق ، ونسيان لاحق ، « وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً »^(٢).

المرتبة الثانية : الكتابة ومعناها : أن تؤمن بأن الله تعالى كتب مقادير كل شيء قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، كتب مقادير كل شيء إلى أن تقوم الساعة ، كل شيء يكون فى الوجود ، أو يكون إلى العدم فإنه مكتوب قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة .

لما خلق الله القلم ، قال له : اكتب قال : رب ، وماذا أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن . فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

ودليل هذه المرتبة من الكتاب قوله تعالى : « أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ »^(٣) ، وقوله تعالى : « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ »^(٤).

قال أهل العلم : والكتابة لها أنواع :

النوع الأول : الكتابة العامة : وهى الكتابة فى اللوح المحفوظ .

النوع الثانى : الكتابة العمرية (نسبة إلى العمر) وهى التى تكون على الإنسان وهو فى بطن أمه فإن الإنسان كما قال ابن مسعود رضى الله عنه حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق فقال : « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك ويؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد ، فوالذى نفسى بيده إن أحدكم

(١) سورة طه الآيتان : ٥١ ، ٥٢ .

(٢) سورة النحل الآية : ٧٨ .

(٣) سورة الحج الآية : ٧٠ .

(٤) سورة الحديد الآية : ٢٢ .

ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»^(١)، لأن الكتاب الأول هو العمدة .

ولكن نحن إذا قرأنا هذا الحديث ، فإنه لا ينبغي أن ننسى أحاديث أخرى تبشر الإنسان بالخير ، صحيح أن هذا الحديث مروع أن يقول القائل : كيف يعمل الإنسان بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، ثم يخذل - والعياذ بالله - فيعمل بعمل أهل النار ؟ لكن هناك والله الحمد نصوصاً أخرى ، تفرج عن المؤمن كربته فيما يتعلق بهذا الحديث ، من ذلك : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار قالوا يا رسول الله أفلا ننكل على الكتاب وندع العمل ؟ قال : اعملوا ، فكل ميسر لما خلق الله ، فأما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ، ثم تلا قوله تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى »^(٢) . إذن هذه بشارة من الرسول عليه الصلاة والسلام للإنسان ، أنه إذا عمل بعمل أهل السعادة فهو دليل على أنه كتب من أهل السعادة فليستبشر .

وروى البخاري رحمه الله في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في غزاة ، وكان معهم رجل شجاع مقدام ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم : « إن هذا من أهل النار مع شجاعته وإقدامه ، فعظم ذلك على الصحابة وشق عليهم ، فقال أحد الصحابة : والله لألزم هذا ، فلزمه فأصاب هذا الرجل الشجاع سهم من العدو فغضب ، ثم وضع سيفه على صدره واتكأ عليه ، حتى خرج من ظهره ، فقتل نفسه ، فجاء الرجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : أشهد أنك رسول الله قال : وماذا ؟ قال : إن الرجل الذي قلت لنا إنه من أهل النار فعل كيت وكيت ، ثم قال

(١) البخاري : كتاب القدر . فتح الباري ١١ / ٤٧٧ . وقد شرح فضيلة الشيخ هذا الحديث شرحاً شافياً وسيأتي في آخر هذا الكتاب في فصل شرح جملة أحاديث من الأربعين النووية .

(٢) سورة الليل الآيات ٥ : ١٠ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار »^(١). أسأل الله أن يخلص سريرتى وسرائركم ، السريرة لها شأن عظيم فى توجيه الإنسان ، فالقلب هو الموجه للإنسان ، وهو الأصل ، لذلك يجب أن نلاحظ القلوب ، وأن نمحصها ونغسلها من درنها ، فقد يكون فيها عرق خبيث ، يتظاهر الإنسان بعمل جوارحه بالصلاح ، لكن فى القلب هذا العرق الفاسد الذى يطيح به فى الهاوية فى النهاية .

يقول بعض السلف : (ما جاهدت نفسى على شىء مجاهدتها على الإخلاص) هذا الإخلاص الذى ليس بشىء عند كثير منا ، هذا يحتاج إلى جهاد عظيم ، لو كان فى الإنسان شىء يسير من الرياء لم يكن مخلصا تمام الإخلاص وربما يكون هذا الشىء اليسير من الرياء فى قلبه - ربما يكون - سببا لهلاكه فى آخر لحظة .

ذكر ابن القيم رحمه الله فى كتاب الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى وهو كتاب قيم - ذكر فيه رحمه الله آثار الذنوب وعقوباتها ، ومن جملة ما ذكر أن رجلا منهما فى الربا ، جعل أهله يلقتونه الشهادة ، فكلموا قالوا له : قل : لا إله إلا الله . قال : العشرة إحدى عشر ، لأنه ليس فى قلبه غير ذلك من المعاملات المحرمة التى رانت على قلبه حتى طبع عليه فى آخر لحظة - والعياذ بالله . . .

ولما حضرت الوفاة الإمام أحمد - رحمه الله - وناهيك به علما وعبادة وورعا وزهدا ، لما حضرته الوفاة سمعوه إذا غشى عليه يقول : (بعدُ بعدُ) ، فلما أفاق قيل له : يا أبا عبد الله ما قولك : (بعد بعد) قال رأيت الشيطان يعرض على أنامله يقول : (فتنى يا أحمد) ، فأقول له : (بعد بعد) أى : ألم أفتك مادامت الروح فى البدن . فالإنسان على خطر ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها . »

نعود إلى ما سبق من الكتابة العمرية ، فالإنسان يكتب عليه وهو فى بطن أمه ، يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد .

النوع الثالث : الكتابة الحولية - أى عند كل حول : وهى التى تكون

(١) البخارى : كتاب القدر - باب العمل بالخواتيم فتح البارى ١١ / ٩٨ .

ليلة القدر ، فإن ليلة القدر يكتب فيها ما يكون في السنة كما قال الله تعالى :
« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ
حَكِيمٍ »^(١) يفرق أى يبين ويفصل . وقال عز وجل : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ
الْقَدْرِ »^(٢) أى مقدر فيها ما يكون في تلك السنة .

النوع الرابع : كتابة مستمرة كل يوم وهى كتابة الأعمال فإن الإنسان
لا يعمل عملاً إلا كتب ، إمّا له وإمّا عليه ، كما قال تعالى : « كَلَّا بَلْ
تُكْذِبُونَ بِالَّذِينَ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا
تَفْعَلُونَ »^(٣) ، وقال تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسُّوْسُ بِهِ
نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ
وَعَنِ الشَّمَالِ فَعِيدَ * مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ »^(٤) ، لكن هذه
الكتابة تختلف عن الكتابات السابقة ، فالكتابات السابقة كتابة لما يفعل ، وهذه
الكتابة كتابة لما فعل ، ليكون الجزاء عليه .

النوع الخامس : كتابة الملائكة التى تكون عند أبواب المساجد يوم
الجمعة . فإن أبواب المساجد يوم الجمعة يكون عليها ملائكة يكتبون الأول
فالأول ، فمن راح فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ، ومن راح فى
الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح فى الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن ، ومن
راح فى الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح فى الخامسة فكأنما قرب
بيضة ، ومن جاء بعد مجيء الإمام فليس له أجر التقدم ؛ لأن الإمام سبقه ،
وإذا حضر الإمام طويت الصحف ، وحضرت الملائكة يستمعون الذكر .

المرتبة الثالثة : المشيئة ومعناها : أن تؤمن بأن كل كائن وجوداً أو
عدمًا فهو بمشيئة الله ، وقد أجمع المسلمون على هذا فى الجملة فكل
المسلمين يقولون : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

كل شيء واقع بمشيئة الله ، أما ما كان بفعل الله فهو بمشيئته لا إشكال
فيه ، كالخلق ، والرزق والإحياء ، والإماتة . وكذلك ما كان من فعل

(١) سورة الدخان الآيتان : ٣ ، ٤ .

(٢) سورة القدر الآية : ١ .

(٣) سورة الانفطار الآيات : ١٦ - ١٨ .

(٤) سورة ق الآيات : ١٠ - ١٢ .

المخلوق فهو أيضا بمشيئة الله ، ودليل ذلك من الكتاب قوله تعالى : « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ »^(١) والافتتال فعل العبد فجعله الله عز وجل بمشيئته وقال تعالى : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ .. »^(٢) وقال تعالى في آية أخرى : « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ »^(٣) .

وقال تعالى : « لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ »^(٤) إذن فأفعالنا واقعة بمشيئة الله .

أما الدليل العقلي فأن يقال : هل الخلق ملك لله ؟ فالجواب : نعم ، هل يمكن أن يكون في ملك الله ما لا يريد ؟ الجواب : لا يمكن ، فمادام الشيء ملكه فلن يكون في ملكه ما لا يريد ، إذن فكل ما كان في ملكه فهو بإرادته وبمشيئته ولا يكون في ملكه ما لا يشاء أبدا ، إذ لو كان في ملكه ما لا يشاء لكان ملكه ناقصا ، وكان في ملكه ما يقع بدون اختياره وبدون علمه .

المرتبة الرابعة : الخلق ومعناها : الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى خلق كل شيء ، فنؤمن بعموم خلق الله تعالى لكل شيء ودليل ذلك : قال الله تعالى : « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مَلَكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرُهُ تَقْدِيرًا »^(٥) ، وقال تعالى : « اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ »^(٦) ، وقال تعالى : « بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أُنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »^(٧) ، وقال تعالى : « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ »^(٨) .

(١) سورة البقرة الآية : ٢٥٣ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ١١٢ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ١٣٧ .

(٤) سورة التکویر الايتين : ٢٨ ، ٢٩ .

(٥) سورة الفرقان الايتين : ١ ، ٢ .

(٦) سورة الزمر الآية : ٦٢ .

(٧) سورة الأنعام الآية : ١٠١ .

(٨) سورة القمر الآية : ٤٩ .

والآيات فى ذلك واضحة كثيرة : أن كل شىء مخلوق لله عز وجل حتى فعل الإنسان مخلوق لله تعالى ، وإن كان باختياره وإرادته لكنه مخلوق لله تعالى ، وذلك أن فعل الإنسان ناشئ من أمرين هما : الإرادة الجازمة ، والقدرة التامة .

مثال ذلك : أمامك حجر زنته عشرون كيلو ، فقلت لك : احمل هذا الحجر فقلت : لا أريد حمله ، فهنا انعدمت إرادتك على حمل الحجر ، قلت لك ثانية : احمل هذا الحجر ، فقلت : نعم سمعا وطاعة ، ثم أردت أن تحمله فعجزت عن حمله ، فهنا أنت لم تحمله لعدم القدرة . قلت لك الثالثة : احمل هذا الحجر فقلت : سمعا وطاعة وحملته فوق رأسك فهنا حملته لقدرتك وإرادتك .

فأفعالنا كلها التى نفعلها ناشئة عن إرادة جازمة وقدرة تامة ، والذى خلق هذه القدرة والإرادة هو الله عز وجل ، فلو أن الله جعلك مشلولاً ما قدرت ، ولو صرف همتك عن الفعل ما فعلت . ولهذا قيل لأعرابى : بم عرفت ربك ؟ قال : بنقض العزائم وصرف الهمم . فأحيانا يكون الإنسان عنده عزيمة أكيدة على الشئ ، ثم تنتقض هذه العزيمة بدون أى سبب ، وأحيانا يخرج الإنسان يريد الذهاب لأحد أصدقائه ، ثم ينصرف ولا يذهب بدون أى سبب ، لكن الله عز وجل يلقي فى قلبه انصراف الهممة فيرجع .

لهذا نقول : إن أفعال الإنسان مخلوقة لله ، لأنها ناشئة عن إرادة جازمة ، وقدرة تامة ، وخالق هذه الإرادة والقدرة هو الله سبحانه وتعالى .

ووجه كون الله هو الخالق لهذه الإرادة والقدرة ؛ لأن الإرادة والقدرة وصفان للمريد والقادر خالقه هو الله ، وخالق الموصوف خالق للوصف ، وبهذا اتضح الأمر وانجلي بأن أفعال الإنسان مخلوقة لله عز وجل .

مباحث فى باب القدر

الحمد لله رب العالمين وأصلى وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

ذكرنا من قبل أن كل شىء كائن بمشيئة الله سبحانه وتعالى حتى أفعال العباد ، وها هنا بحوث فى باب القدر ، لأن هذا الباب كما قلنا فى أول الكلام عليه باب شائك مشكل .

المبحث الأول : لله عز وجل مشيئة وله إرادة ومحبة :

قال الله تعالى : « وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ »^(١) وقال تعالى : « إِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَرِيدُ »^(٢) .

أولاً : هل المشيئة والإرادة شىء واحد ؟ أم يفترقان ؟ الجواب : بل يفترقان .

ثانياً : هل الإرادة والمحبة شىء واحد ، يعنى أن الله إذا أحب شيئاً أرادته ، وإذا أراد شيئاً فقد أحبه ؟ أو يفترقان ؟ الجواب : بل يفترقان .

فعندنا ثلاثة أشياء : المشيئة ، والمحبة ، والإرادة ، وهذه الثلاثة ليست بمعنى واحد ، بل تختلف .

المشيئة : تتعلق بالأمور الكونية سواء كانت محبوبة لله أو مكروهة له ، أى أن الله تعالى قد يشاء الشىء وهو لا يحبه ، وقد يشاء الشىء وهو يحبه .

فالمعاصى كائنة بمشيئة الله ، وهو لا يحبها ، والفساد فى الأرض كائن بمشيئة الله ، والله لا يحب الفساد . والكفر كائن بمشيئة الله ، والله لا يحب الكفر .

(١) سورة إبراهيم الآية : ٢٧ .

(٢) سورة الحج الآية : ١٤ .

فالمشيئة إذن تتعلق بالأمر الكونية فيشاء الله كونا ما لا يحبه وما يحبه .

المحبة : تتعلق بالأمر الشرعية ، فلا تكون إلا فيما يحبه الله ، فالمعاصي غير محبوبة لله ، وأما الطاعات فهي محبوبة له سبحانه ، سواء حصلت أم لم تحصل .

الإرادة : ولها جانبان : جانب تكون فيه بمعنى المشيئة ، وجانب تكون فيه بمعنى المحبة ، فإذا كانت بمعنى المحبة فهي الإرادة الشرعية ، وإذا كانت بمعنى المشيئة فهي الإرادة الكونية .

وإذا كانت الإرادة شرعية وهي التي تكون بمعنى المحبة ، فإنه لا يلزم منها وقوع المراد مثل قوله تعالى : « وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ »^(١) ، فهذه إرادة شرعية بمعنى المحبة ؛ لأنها لو كانت بمعنى المشيئة لوقعت التوبة على جميع الناس ، ونحن نشاهد أن من الناس من يتوب ومنهم من لا يتوب .

وأما الإرادة الكونية التي بمعنى المشيئة فيلزم فيها وقوع المراد ، فإذا أراد الله شيئا كونا وقع ولا بد وهذه الإرادة كالمشيئة ، تكون فيما يحبه وفيما لا يحبه ، لكن إذا أراد الله شيئا بهذا المعنى وقع ولا بد ، مثل قوله تعالى : « وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ »^(٢) فإنه كقوله : « وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ »^(٣) سواء بسواء ومثل قوله : « إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ »^(٤) ، فإنها بمعنى يشاء أن يغويكم ، وليست بمعنى يحب أن يغويكم ، لأن الله تعالى لا يحب أن يغوى عباده .

ويمكن أن تتفق الإرادتان - الشرعية والكونية - في حادث واحد ، مثل إيمان أبي بكر فهذا مراد الله شرعا وكونا ؛ لأن الله يحبه فهو مراد له شرعا ؛ ولأنه وقع فهو مراد له كونا .

وتتفق الإرادتان مثل (كفر المؤمن) فهو غير مراد لله شرعا ، لأنه

(١) سورة النساء الآية : ٢٧ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٥٣ .

(٣) سورة إبراهيم الآية : ٢٧ .

(٤) سورة هود الآية : ٣٤ .

يكرهه ، وغير مراد لله كونا ، لأنه لم يقع . ومثال الإرادة الكونية دون الشرعية مثل (كفر أبى جهل وأبى لهب) ، فقد تعلق بكفرهما الإرادة الكونية ، لأنه وقع الكفر دون الشرعية ، لأن الله لا يحب الكافرين .

ومثال الإرادة الشرعية دون الكونية ، مثل (إيمان فرعون) فهو مراد شرعا ، لأن الله عز وجل أرسل إليه موسى ودعاه ، لكن الله لم يردده كونا ، فلذلك لم يقع ولم يؤمن فرعون .

المبحث الثانى : كراهية الله سبحانه للكفر مع إرادته له :

إذا كان الله سبحانه وتعالى يكره الكفر فكيف يريد مع أنه لا أحد يكره الله عز وجل ؟ فالجواب : أن (المراد) نوعان :

النوع الأول : مراد لذاته : وهو المحبوب ، فالشئ المحبوب يريد من يريده لذاته كالإيمان ، فالإيمان مراد لله كونا وشرعا ؛ لأنه مراد لذاته .

النوع الثانى : المراد لغيره : بمعنى أن الله تعالى يقدره لا لأنه يحبه ، ولكن لما يترتب عليه من المصالح فهو مراد لغيره ، فيكون من هذه الناحية مشتملا على الحكمة وليس فيه إكراه .

مثال ذلك : الكفر مكروه لله عز وجل ولكن الله يقدره على العباد ، لأنه لو لا الكفر لم يتميز المؤمن من الكافر ، ولم يكن المؤمن محلا للثناء ؛ لأن كل الناس مؤمنون ، وأيضا لو لم يقع الكفر فلم يكن هناك جهاد فمن يجاهد المؤمن إذن ، ولو لم يقع الكفر ما عرف المؤمن قدر نعمة الله عليه بالإسلام ، ولو لم يقع الكفر ، وكان الناس كلهم مسلمين ما كان للإسلام فضل ، ولا ظهر له فضل ، ولو لم يقع الكفر لكان خلق النار عبثا ، وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى فى قوله : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَّجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »^(١) فتبين أن المراد الكونى - الذى يكون مكروها لله - يكون مرادا لغيره .

وأضرب مثلا « والله المثل الأعلى » برجل له ابن يحبه حبا جما ، ولو سقطت عليه شرارة من نار ، لكانت كالنار سقطت على قلب أبيه ، من

(١) سورة هود الايتان : ١١٨ ، ١١٩ .

محبته له ، فمرض هذا الابن فعرض على الأطباء ، فقال الطبيب : لابد من كيه بمسمار من نار ، فقال الأب : وهو كذلك . فهذا الكي للابن ليس محبوبا للأب لذاته بل محبوبا لغيره ، فتجد هذا الأب أراد - وبكل طمأنينة وراحة وانشراح صدر - أراد أن يكوى ابنه بمسمار من نار ، مع أنه لو سقطت على الابن شرارة لكانت ساقطة على قلب أبيه .

فعلم الآن أن المكروه قد يفعل ، لا لذاته ولكن لغيره ، فهكذا الكفر والمعاصي والفساد ، يريد بها الرب عز وجل لما تتضمنه من المصالح ، فهي مرادة لغيرها لا لذاتها .

المبحث الثالث : قضاء الله والرضا به :

نحن نؤمن بأن الله سبحانه يقضى كل شيء ، فنؤمن بقضاء الله أيأ كان هذا القضاء ، ويجب علينا أن نؤمن به ونرضى به أيأ كان ، لكن هل يجب علينا أن نرضى بالمقضى ؟ أو لا نرضى ؟ .

نقول : هذا أقسام ، فالمقضى نوعان : الأول : مقضى شرعا ، والثاني : مقضى كونا .

فالمقضى شرعا : يجب علينا أن نرضى به ، مثل أن قضى الله علينا بوجوب الصلاة ، فيجب أن نؤمن بهذا القضاء ، وأن نسلم لوجوب الصلاة ، ومثل : أن قضى الله بتحريم الزنا ، فيجب علينا أن نؤمن بهذا المقضى ، وأن الزنا محرم ، ومثل أن قضى الله بحل البيع فيجب علينا أن نرضى بذلك وأن نؤمن بأن البيع حلال ، ومثل : أن قضى الله بتحريم الربا ، فيجب علينا أن نؤمن بهذا ، وأن نستسلم لتحريم الربا .

فالخط العريض لهذه المسألة أن القضاء الشرعى يجب الرضا به ، والتسليم به ؛ لأن « وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ » (١) .

وأما الثانى فهو القضاء الكونى : أى ما يقضى به الله كونا - فإن كان محبوبا للنفس ، ملائما للطبع ، فالرضا به من طبيعة الإنسان وفطرته ، كما لو قضى الله سبحانه وتعالى للإنسان بعلم فإنه يرضى به ، وكذلك لو قضى الله

(١) سورة المائدة الآية : ٤٤ .

سبحانه للإنسان بما لا فإنه يرضى به ، وكذلك لو قضى بولد فإنه يرضى به .
وإما أن يكون المقضى كونا غير ملائم للإنسان ، ولا موافق لطبيعته
مثل المرض ، الفقر ، الجهل ، فقدان الأولاد ، أو ما أشبه ذلك ، فهذا
اختلف العلماء فيه فمنهم من قال : يجب الرضا ومنهم من قال : يستحب
الرضا ، والصحيح أن الرضا به مستحب .

وأحوال الإنسان عند هذا النوع من القضاء - وهو القضاء الذى لا يلائم
الطبع ويكون مكروها للإنسان - أحواله عنده أربع : السخط ، والصبر ،
والرضا ، والشكر .

أولا : السخط : وهو محرم كما لو أصيب رجل بمصيبة وهى تلف
المال ، فأخذ يتسخط من قضاء الله وقدره وصار يخمش وجهه ، ويشق
ثوبه ، ويجد فى نفسه كراهة لتدبير الله عز وجل ، فهذا محرم ، ولهذا لعن
النبي صلى الله عليه وسلم النائحة والمستبعدة وقال : « ليس منا من ضرب
الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية »^(١).

هل هذا الفعل مع كونه محرما ، ومن كبائر الذنوب هل يبرد من حرارة
المصيبة ؟ أبدا لا يبرد من حرارة المصيبة ، بل يزيدها ، ويبدأ الإنسان
يتسخط ويتحسر ولا يستفيد شيئا ؛ لأن هذا القضاء الذى قضاه الله عز
وجل ، لا بد أن يقع مهما كان ، يعنى لا تقدر أنك لو لم تفعل كذا لم يكن كذا
فهذا تقدير وهمى من الشيطان ، فهذا المقدر لابد أن يكون ، ولهذا قال النبي
عليه الصلاة والسلام : « ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن
ليصيبك »^(٢)، فلا بد أن يقع كما أراد الله عز وجل ، وقال النبي صلى الله
عليه وسلم : « احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجزن ، وإن
أصابك شيء - أى بعد أن تحرص على ما ينفعك وتستعين بالله - إن أصابك
شيء لا تقل لو أنى فعلت كذا لكان كذا وإن (لو) تفتح عمل
الشيطان »^(٣).

قلو أن إنسانا خرج للنزهة بسيارته - التى هى من أحسن السيارات -

(١) البخارى : كتاب الجنائز - باب ليس منامن شق الجيوب - فتح البارى ٣ / ١٦٣ .
(٢) جزء من حديث ابن عباس الذى أوله : (كنت خلف رسول الله يوما فقال : يا غلام إنى أعلمك كلمات
الترمذى : كتاب صفة القيام باب ٥٩ . سنن الترمذى ٤ / ٦٦٧ وقال : حسن صحيح .
(٣) مسلم : كتاب القدر - باب فى الأمر بالقوة وترك العجز . . . صحيح مسلم ٤ / ٢٠٥٢ .

فأصيب بحادث وتكسرت السيارة ، فبدأ يقول : لو أنى ما خرجت لهذه
النزهة ما تكسرت السيارة ، ويُندم نفسه ، ويلوم نفسه ، فهل ينفعه هذا ؟ أبدا
لا ينفع ، لأن هذا كُتب وسيجرى الأمر بما كتب مهما كان .

ثانيا : الصبر : يتألم الإنسان من المصيبة جدا ويحزن ، ولكنه
يصبر ، لا ينطق بلسانه ، ولا يفعل بجوارحه ، قابض على قلبه ، موقفه أنه
قال : « اللهم أجرنى فى مصيبتى ، واخلف لى خيرا منها » ، « إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا
إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » ، فحكم الصبر هنا الوجوب ، فيجب على الإنسان أن يصبر
على المصيبة ، وألا يحدث قولاً محرماً ، ولا فعلاً محرماً .

ثالثا : الرضا : تصيبه المصيبة فيرضى بقضاء الله ، والفرق بين
الرضا والصبر ، أن الراضى لم يتألم قلبه بذلك أبدا ، فهو يسير مع القضاء
« إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا
له » ، ولا يرى الفرق بين هذا وهذا بالنسبة لتقبله لما قدره الله عز وجل ،
أى أن الراضى تكون المصيبة وعدمها عنده سواء . هذه المسألة يقول بعض
العلماء : إنها واجبة ، لكن جمهور أهل العلم على أنها ليست بواجبة ، بل
مستحبة ، فهذه لاشك أنها أكمل حالا من الصبر ، وأما أن نلزم الناس ونقول
يجب عليكم أن تكون المصيبة وعدمها عندكم سواء ، فهذا صعب ولا أحد
يتحملة ، فالصبر يستطيع الإنسان أن يصبر ، ولكن الرضا يعجز أن
يرضى .

رابعا : الشكر : وهذه قد يستغربها الإنسان ، فكيف يمكن للإنسان أن
يصاب بمصيبة فيشكر الله ، وهل هذا إلا مناف لطبيعة البشر ؟ ولكن يكون
هذا إذا عرف الإنسان قدر ثواب المصيبة إذا صبر عليها قال تعالى : « إِنَّمَا
يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ »^(١) ، وقال : « وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ *
الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ
صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ »^(٢) فيقول : ما أرخص الدنيا عندى ، وما أقلها
فى عينى ، إذا كنت أنال بهذه المصيبة التى صبرت عليها أنال هذه الصلوات
وهذه الرحمة من الله عز وجل هذا الأجر الذى أوفاه بغير حساب ، فيشكر
الله على هذه النعمة ويرى أن هذه من نعمة الله عليه ، لأن كل الدنيا زائلة

(١) سورة الزمر : ١٠ .

(٢) سورة البقرة الآيات : ١٥٥ - ١٥٧ .

وفابية والأجر والصلوات والرحمة باقية ، فيشكر الله على هذه المصيبة -
والشكر هنا على المصيبة مستحب وليس بواجب ؛ لأنه أعلى من الرضا -
أما الشكر على النعم فهو واجب .

فهذه هي مراتب الإنسان بالنسبة للمقضى كونا مما يخالف الطبيعة ولا
يلائم رغبة الإنسان .

وهنا مسألة : إذا قال قائل : ما تقولون فى الرضا بالنسبة لما يفعله
الإنسان من الأمور الشرعية كما لو زنى إنسان ، أو سرق ، فهل ترضون
بزناه وسرقته ؟ .

فالجواب : أن فيها نظرين : الأول باعتبار أن الله قدرها وأوجدها ،
فهى من هذه الناحية قضاء كونى يجب علينا أن نرضى به ، فلا نقول لماذا
جعل الله الزانى يزنى ، وجعل السارق يسرق ، فليس لنا أن نعترض .

أما بالنسبة لفعل العبد لها فلا نرضى ، ولهذا فإننا نقيم عليه الحد قال
تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم
بهما رافة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله وباليوم الآخر وليشهد
عذابهما طائفة من المؤمنين »^(١) ، وفى السارق قال الله تعالى :
« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله
عزير حكيم »^(٢) ، ومعلوم أن جلدهما ، وقطع يد السارق والسارقة غير
رضا ، فلو كان رضا ما كنا تعرضنا لهم بعقوبة .

المبحث الرابع : احتجاج المذنبين بالقدر :

نحن ذكرنا أن كل شئ قد كتبه الله ، وكل شئ بمشيئة الله ، وكل شئ
مخلوق لله ، فهل هذا الإيمان يستلزم أن يكون للعاصى حجة على معصيته ؟
أو لا ؟ كما لو أمسكنا رجلا يعصى الله ، فقلنا له : لم تفعل المعصية ؟ فقال :
هذا بقضاء الله وقدره ، فهذا صحيح ، لكن إذا جاء بهذه الكلمة ليحتج بها
على معصيته ، فنقول : هذه الحجة باطلة ، ولا حجة لك بالقدر على معصية
الله عز وجل ، ودليل ذلك ، قال الله تعالى : « سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ
شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ

(١) سورة النور الآية : ٢٠ .

(٢) سورة المائدة الآية : ٣٨ .

مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بِأَسْنَا «^(١)»، فلم يقرهم الله سبحانه على احتجاجهم والدليل على أنه لم يقرهم قوله : « حَتَّى ذَاقُوا بِأَسْنَا » ، ولو كان لهم حجة فى ذلك ما أذاقهم الله بأسا .

ولكن سيورد علينا مورد خلاف ما قررناه ، سيقول قائل : ألم يقل الله تعالى : « اتَّبِعْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ »^(٢) فكيف تقول إن الله أبطل حجة الذين قالوا : « لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا » والله عز وجل يقول لرسوله : « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا » .

فالجواب : هناك فرق بين المراد فى الآيتين ، أما قوله : « اتَّبِعْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا .. » ، فهذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ، يبين الله له أن شركهم واقع بمشيئة الله ، من أجل أن يطمئن الرسول صلى الله عليه وسلم ويعلم أنه إذا كان بمشيئة الله فلا بد أن يقع ، ويكون به الرضا .

أما الآية الثانية : « سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا .. » ، فإنما أبطل الله ذلك ، لأنهم يريدون أن يحتجوا بالقدر على الشرك والمعصية ، فهم لو احتجوا بالقدر للتسليم به مع صلاح الحال لقبلا ذلك منهم ، كما لو أنهم عندما أشركوا قالوا : هذا شيء وقع بمشيئة الله ، ولكن نستغفر الله ونتوب إليه من ذلك ، لقننا : أنتم صادقون ، أما أن يقولوا حين ننهاهم عن الشرك : « لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ .. » ، فهذا غير مقبول منهم إطلاقا .

ثانيا : ويدل على بطلان احتجاج العاصى بالقدر أيضا قول الله تعالى حين ذكر الرسل : « إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ »^(٣) قال : « رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ »^(٤)، ووجه الدلالة بهذه الآية أن القدر لو كان حجة لم

(١) سورة الأنعام الآية : ١٤٨ .

(٢) سورة الأنعام الآيتان : ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٣) سورة النساء الآية : ١٦٣ .

(٤) سورة النساء الآية : ١٦٥ .

تنقطع هذه الحجة بإرسال الرسل ، لأن القدر قائم حتى بعد إرسال الرسل ، فلما كان إرسال الرسل حجة يقطع عذر العاصي تبين أن القدر ليس حجة للعصاة ، ولو كان القدر حجة لهم لبقى حجة لهم حتى بعد إرسال الرسل ، لأن القدر لا ينقطع بإرسال الرسل .

ثالثا : ومن الأدلة على بطلان الاحتجاج بالقدر أن يقال لمن احتج بالقدر : إن أمامه الآن طريقان ، طريق خير وطريق شر ، وهو قبل أن يدخل طريق الشر ، هل يعلم أن الله قدر له أن يدخل طريق الشر ؟ لا يعلم بلاشك ، وإذا كان لا يعلم فلماذا لا يُقدر أن الله قدر له طريق الخير ؟ لأن الإنسان لا يعلم ما قدره الله إلا بعد أن يقع ؛ لأن القضاء كما قال بعض العلماء : سر مكتوم ، لا يعلم إلا بعد أن يقع ونشاهده فنقول للعاصي : أنت أقدمت على المعصية ، وحين إقدامك لا تعلم أن الله قدرها لك ، فإذا كنت لا تعلم فلماذا لا تُقدر أن الله قدر لك الخير فتلج باب الخير ؟!

رابعا : أن نقول له : أنت في شئون دنياك تختار الخير أم الشر ؟ فسيقول : الخير ، فنقول له : لماذا لا تختار في شئون الآخرة ما هو خير ؟!

ومثال ذلك : إذا قلنا له أنت الآن ستسافر إلى المدينة قال : نعم ، فقلنا له ، هناك طريقان طريق اليسار غير مسفلت ، وفيه قطاع طريق وأخطار عظيمة ، وأما الطريق الأيمن فهو مسفلت وآمن فمن أين ستسافر ؟ بالتأكيد أنه سيقول من الأيمن ، فنقول له : لماذا في أمور الدنيا تذهب إلى الأمن الذي فيه الخير والنجاة ؟ لماذا لا تذهب إلى الطريق الأيسر ، الذي فيه قطاع الطريق وغير معبد وتقول هذا مقدر عليّ ؟ فسيقول : أنا لا أعلم المقدر ولكن بنفسى أختار الطيب ، فنقول له : لماذا لا تختار في طريق الآخرة ما هو طيب ؟!

مثال آخر : إذا أمسكنا واحدا من الناس ، وبدأنا نضربه ضربا مبرحا ، وهو يصيح ونحن نقول له : هذا قضاء الله وقدره ، وكلما صاح ضربناه وقلنا له : هذا قضاء الله وقدره ، فهل يقبل هذه الحجة ؟! بالتأكيد أنه لن يقبلها ، مع أنه إذا عصي الله قال : هذا قضاء الله وقدره ، ولكن نحن إذا عصينا الله فيه ما يقبل أن نقول له : هذا قضاء الله وقدره ، بل يقول : هذا من فعلكم أنتم ، أليست هذه حجة عليه ؟! ولهذا يذكر أن أمير المؤمنين عمر

ابن الخطاب رضى الله عنه جىء إليه بسارق فأمر بقطع يده ، لأن السارق يجب أن تقطع يده فقال : مهلاً يا أمير المؤمنين ، فو الله ما سرقت إلا بقضاء الله وقدره ، فهو صادق لكن أمامه عمر فقال له رضى الله عنه : ونحن لا نقطعك إلا بقضاء الله وقدره ، فأمر بقطعه بقضاء الله وقدره . فاحتج عليه عمر بما إحتج به هو على عمر .

فإذا قال قائل : إن لدينا حديثاً أقر فيه النبى صلى الله عليه وسلم الاحتجاج بالقدر وهو : أن آدم احتج هو وموسى فقال له موسى : أنت أبونا خيبتنا أخرجتنا ونفسك من الجنة ، فقال له آدم : أتومنى على شيء قد كتبه الله على قبل أن يخلقنى ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى »^(١) ، أى غلبه بالحجة مع أن آدم احتج بقضاء الله وقدره . فهل هذا الحديث إلا إقرار للاحتجاج بالقدر ؟ .

فالجواب أن نقول : إن هذا ليس احتجاجاً بالقضاء والقدر على فعل العبد ومعصية العبد ، لكنه احتجاج بالقدر على المصيبة الناتجة من فعله ، فهو من باب الاحتجاج بالقدر على المصائب لا على المعائب ، ولهذا قال : « خيبتنا ، أخرجتنا ونفسك من الجنة » ولم يقل : عصيت ربك فأخرجت من الجنة .

إذن احتج آدم بالقدر على الخروج من الجنة الذى يعتبر مصيبة ، والاحتجاج بالقدر على المصائب لا بأس به .

أرأيت لو أنك سافرت سفراً ، وحصل لك حادث ، وقال لك إنسان : لماذا تسافر لو أنك بقيت فى بيتك ما حصل لك شيء ؟ فيماذا ستجيبه ؟ الجواب : أنك ستقول له : هذا قضاء الله وقدره ، أنا ما خرجت لأجل أن أصاب بالحادث ، وإنما خرجت لمصلحة فأصبت بالحادث ، كذلك آدم عليه الصلاة والسلام ، هل عصى الله لأجل أن يخرج من الجنة ؟ لا فالمصيبة إذن التى حصلت له مجرد قضاء وقدر ، وحينئذ يكون احتجاجه بالقدر على المصيبة الحاصلة احتجاجاً صحيحاً ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : « حج آدم موسى حج آدم موسى » .

مثال آخر : ما تقولون فى رجل أصاب ذنباً وندم على هذا الذنب وتاب

(١) البخارى : كتاب القدر - باب تحاج آدم وموسى عن الله . فتح البارى ١١ / ٥٠٥ .

منه ، وجاء رجل من إخوانه يقول له : يا فلان كيف يقع منك هذا الشيء ؟ فقال : والله يابن الحلال هذا قضاء الله وقدره ، فهل يصح احتجاجه هذا أو لا ؟ نعم يصح ، لأنه تاب فهو لم يحتج بالقدر ليمضى فى معصيته ، لكنه نادم ومتأسف .

ونظير ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل على على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وعلى فاطمة بنت محمد رضى الله عنها وصلى الله وسلم على أبيها ، فوجدهما نائمين ، فكأن النبى صلى الله عليه وسلم لا مهما ، لماذا لم يقوما ؟ فقال على بن أبى طالب : يا رسول الله إن أنفسنا بيد الله فإن شاء الله أمسكها ، وإن شاء أرسلها ، فخرج النبى صلى الله عليه وسلم يضرب على فخذة وهو يقول : « وكان الإنسان أكثر شيء جدلا »^(١) . فهل الرسول قبل حجته ؟ لا ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم بين أن هذا من الجدل ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أن الأنفس بيد الله ، لكن يريد أن يكون الإنسان حازما ، فيحرص على أن يقوم ويصلى .

على كل حال تبين لنا أن الاحتجاج بالقدر على المصائب جائز ، وكذلك الاحتجاج بالقدر على المعصية بعد التوبة منها جائز ، وأما الاحتجاج بالقدر على المعصية تبريرا لموقف الإنسان واستمرارا فيها فغير جائز .

المبحث الخامس : هل الإنسان مسير أم مخير ؟ :

شاعت كلمة بين الناس فى هذا الزمن المتأخر وهى قولهم : هل الإنسان مسير أم مخير ؟ .

فقال أحد الحاضرين : الإنسان مسير فى الأمور التى ليست تحت قدرته وإرادته ، مثل الموت ، والمرض ، والحوادث التى تقع للإنسان وغير ذلك .

فرد فضيلته قائلا : ليس هذا المراد ، لأن ذلك لا يختلف فيه اثنان فى أنه لا اختيار للإنسان فيه ، ولا يمكن أن يتوجه السؤال هل هو مسير فيها ؟ أو مخير ؟ لأنه لا يوجد إنسان يُمرض نفسه ، ويصح نفسه ، ويميت نفسه ، ولكن السؤال : عن الأفعال التى يفعلها هو ، هل هو مسير فيها أم مخير ؟ .

الأفعال التى يفعلها الإنسان يكون فيها مخيرا ، فالإنسان مخير ،

(١) رواه البخارى فى كتب التهجد باب (٥) .

فبإمكانه أن يأكل ويشرب ، ولهذا بعض الناس إذا سمع أذان الفجر قام إلى الماء ليشرب ، وذلك باختياره ، وكذلك إذا جاء الإنسان النوم فإنه يذهب إلى فراشه لينام باختياره ، وإذا سمع أذان المغرب ، والتمر أمامه والماء ، فإنه يأكل باختياره ، وهكذا جميع الأفعال تجد أن الإنسان فيها مخيرا ، ولولا ذلك لكان عقوبة العصي ظلما ، فكيف يعاقب الإنسان على شيء ليس فيه اختيار له ، ولولا ذلك لكان ثواب المطيع عبثا ، فكيف يثاب الإنسان على شيء لا اختيار له فيه ؟! وهل هذا إلا من باب العبث ؟!

إذن فالإنسان مخير ، ولكن ما يقع من فعل منه فهو بتقدير الله ، لأن هناك سلطة فوق سلطته ولكن الله لا يجبره ، فله الخيار ويفعل باختياره .

ولهذا إذا وقع الفعل من غير إرادة من الإنسان فإنه لا ينسب إليه ، قال تعالى في أصحاب الكهف : « وَتَقَلَّبُهمْ ذَاتِ الْيَمِينِ وَذَاتِ الشَّمَالِ » (١) ، فنسب الفعل (نقلهم) إليه سبحانه ، لأن هؤلاء نَوْمَ فلا اختيار لهم ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من نسي وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه فإنما أطعمه الله وسقاه » ، فنسب الإطعام والسقي إلى الله ، لأن الناسى ما فعل الشيء باختياره فلم يختار أن يفسد صومه بالأكل والشرب .

الحاصل أن هذه العبارة لم أرها في كتب المتقدمين من السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، ولا في كلام الأئمة ، ولا في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ، أو ابن القيم أو غيرهم ممن يتكلمون ، لكن حدثت هذه أخيرا وبدءوا يطنطنون بها ، هل الإنسان مسير أم مخير ؟ ونحن نعلم أننا نفعل الأشياء باختيارنا وإرادتنا ، ولا نشعر أبدا أن أحدا يكرهنا عليها ويسوقنا إليها سوفا ، بل نحن الذين نريد أن نفعل فنفعل ، ونريد أن نترك فنترك .

لكن كما أسلفنا أولا في مراتب القدر فإن فعلنا ناشئ عن إرادة جازمة وقدرة تامة ، وهذان الوصفان في أنفسنا ، وأنفسنا مخلوقة لله ، وخالق الأصل خالق للفرع .

فوائد الإيمان بالقضاء والقدر :

الإيمان بالقضاء والقدر له فوائد :

(١) سورة الكهف الآية : ١٨ .

أولاً : تكميل الإيمان بالله فإن القدر قدر الله عز وجل ، فالإيمان به من تمام الإيمان بالله عز وجل .

ثانياً : استكمال لأركان الإيمان ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم ذكره ضمن أركان الإيمان فى حديث جبريل .

ثالثاً : أن الإنسان يبقى مطمئناً لأنه إذا علم أن هذا من الله رضى واطمأن وعرف أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وقد قلنا إنه لا يمكن أن يغير الشئ عما وقع أبداً ، فلا تحاول ، ولا تفكر ، ولا تقل (لو) ، فالذى وقع لا يمكن أن يتغير أو يتحول .

رابعاً : أن هذا من تمام الإيمان بربوبية الله ، وهذا يشبه الفائدة الأولى ، لأن الإنسان إذا رضى بالله ربا استسلم لقضائه وقدره واطمأن إليه .

خامساً : أن الإيمان بالقدر على وجه الحقيقة يكشف للإنسان حكمة الله عز وجل فيما يقدره من خير أو شر ، ويعرف به أن وراء تفكيره وتخيلاته من هو أعظم وأعلم ، ولهذا كثيراً ما نفعل الشئ أو كثيراً ما يقع الشئ فنكرهه وهو خير لنا . فأحياناً يشاهد الإنسان رأى العين أن الله يعسر عليه أمراً يريد ، فإذا حصل ما حصل وجد أن الخير فى عدم حدوث ذلك الشئ . وما أكثر ما نسمع أن فلاناً قد حجز فى الطائرة الفلانية على أنه سيسافر ثم يأتى فيجد أن الطائرة قد أقلعت ، وفاته السفر ، فإذا بالطائرة يحصل عليها حادث . فهو عندما حضر أولاً ليركب فيها ووجد أنها أقلعت يحزن ، لكن عندما يقع الحادث يعرف أن هذا خير له ، ولهذا قال الله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرَّةٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » (١) .

(١) سورة البقرة الآية : ٢١٦ .

الفصل الثالث

الإحسان

الحمد لله رب العالمين وأصلى وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد ...

فإنه لم يبق علينا في حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلا سؤال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم عن الإحسان والساعة حيث قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم : « ما الإحسان ؟ قال له النبي صلى الله عليه وسلم : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . فقال أخبرنى عن الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل » ..

أولا : الإحسان :

الإحسان : ضد الإساءة ، وهو أن يبذل الإنسان المعروف ويكف الأذى ، فيبذل المعروف لعباد الله في ماله وعلمه وجاهه وبدنه .

فأما المال فأن ينفق ويتصدق ويزكى ، وأفضل أنواع الإحسان بالمال الزكاة ، لأن الزكاة أحد أركان الإسلام ، ومبانيه العظام ، ولا يتم إسلام المرء إلا بها ، وهى أحب النفقات إلى الله عز وجل ، ويلي ذلك ، ما يجب على الإنسان من نفقة لزوجته وأمه وأبيه وذريته وإخوانه وبني إخوته وأخواته وأعمامه وعماته وخالاته إلى آخر هذا ، ثم الصدقة على المساكين وغيرهم ، ممن هم أهل للصدقة كطلاب العلم مثلا .

وأما بذل المعروف في الجاه فهو أن الناس مراتب ، منهم من له جاه عند ذوى السلطان فيبذل الإنسان جاهه ، يأتيه رجل فيطلب منه الشفاعة إلى ذى سلطان يشفع له عنده ، إما بدفع ضرر عنه أو بجلب خير له .

وأما بعلمه فأن يبذل علمه لعباد الله ، تعليما في الحلقات والمجالس العامة والخاصة ، حتى لو كنت في مجلس قهوة ، فإن من الخير والإحسان

أن تعلم الناس ، ولو كنت في مجلس عام فمن الخير أن تعلم الناس ، ولكن استعمل الحكمة في هذا الباب ، فلا تتقل على الناس بحيث كلما جلست مجلسا جعلت تعظمهم وتتحدث إليهم ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتخولهم بالموعظة ، ولا يكثر ، لأن النفوس تسأم وتمل فإذا ملت كلت وضعفت ، وربما تكره الخير لكثرة من يقوم ويتكلم .

وأما الإحسان إلى الناس بالبدن فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام : « وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها ، أو ترفع له عليها متاعه صدقة »^(١) ، فهذا رجل تعينه تحمل متاعه معه ، أو تدله على طريق أو ما أشبه ذلك فكل ذلك من الإحسان . هذا بالنسبة للإحسان إلى عباد الله .

وأما بالنسبة للإحسان في عبادة الله : فأنت تعبد الله كأنك تراه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذه العبادة أى عبادة الإنسان ربه كأنه يراه عبادة طلب وشوق ، وعبادة الطلب والشوق يجد الإنسان من نفسه حائثا عليها ، لأنه يطلب هذا الذى يحبه ، فهو يعبد ربه كأنه يراه ، فيقصده وينيب إليه ويتقرب إليه سبحانه وتعالى ، « فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وهذه عبادة الهرب والخوف ، ولهذا كانت هذه المرتبة ثانية في الإحسان ، إذا لم تكن تعبد الله عز وجل كأنك تراه وتطلبه ، وتحث النفس للوصول إليه فاعبده كأنه هو الذى يراك ، فتعبده عبادة خائف منه ، هارب من عذابه وعقابه ، وهذه الدرجة عند أهل العبادة أدنى من الدرجة الأولى .

وعبادة الله سبحانه وتعالى هى كما قال ابن القيم - رحمه الله - :

وعبادة الرحمن غاية حبه مع ذل عابده هما ركنان

فالعبادة مبنية على هذين الأمرين : غاية الحب ، وغاية الذل ، ففي الحب الطلب ، وفي الذل الخوف والهرب . فهذا هو الإحسان في عبادة الله عز وجل .

وإذا كان الإنسان يعبد الله على هذا الوجه ، فإنه سوف يكون مخلصا لله عز وجل ، لا يريد بعبادته رياء ولا سمعة ، ولا مدحا عند الناس ، وسواء اطلع الناس عليه أم لم يطلعوا ، الكل عنده سواء ، وهو محسن العبادة على كل حال ، بل إن من تمام الإخلاص أن يحرص الإنسان على ألا يراه الناس

(١) البخارى : كتاب الجهاد - باب فضل من حمل متاع صاحبه في السفر . فتح البارى ٦ / ٨٥ .

فى عبادته ، وأن تكون عبادته مع ربه سرا ، إلا إذا كان بإعلان ذلك مصلحة للمسلمين أو للإسلام ، مثل أن يكون رجلاً متبوعاً يقتدى به ، وأحب أن يبين عبادته للناس ليأخذوا من ذلك نبزاً يسرون عليه ، أو كان هو يحب أن يظهر العبادة ليقضى به زملاؤه وقرناؤه وأصحابه ، ففى هذا خير ، وهذه المصلحة التى يلتفت إليها ، قد تكون أفضل وأعلى من مصلحة الإخفاء ، لهذا يثنى الله عز وجل على الذين ينفقون أموالهم سرا وعلانية ، فإذا كان السر أصلح وأنفع للقلب وأخشع وأشد إنابة إلى الله أسروا ، وإذا كان فى الإعلان مصلحة للإسلام بظهور شرائعه ، وللمسلمين ، أعلنوه . والمؤمن يتحرى دائماً ما هو أنفع وأكمل له وللمسلمين .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الرابع الساعة وعلاماتها

ثم قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم : « أخبرني عن الساعة متى تكون ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما المسئول عنها بأعلم من السائل » فالمسئول هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، والسائل جبريل عليه السلام ، وكلنا يعلم أن هذين الرسولين أفضل الرسل فجبريل أفضل الملائكة ، ومحمد أفضل البشر ، بل أفضل الخلق علي الإطلاق عليه الصلاة والسلام ، وكلاهما لا يدري متى تقوم الساعة ، لأنه لا يدري متى تقوم الساعة إلا الرب عز وجل ، قال تعالى : « يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ »^(١) ، « يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا »^(٢) ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول لجبريل : إذا كنت لا تعلمها فأنا أيضا لا أعلمها ، وليس المسئول بأعلم من السائل ، وإذا كانت خفية عليك فهي أيضا خفية علي ، فلا يعلمها إلا الله ، « قال : فأخبرني عن أماراتها » أي علاماتها وأشراطها - كما قال تعالى : « فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا »^(٣) .

وأشراط الساعة هي العلامات الدالة على قربها ، وقد قسمها العلماء إلى ثلاثة أقسام :

أشراط مضت وانتهت ، وأشراط لم تزل تتجدد وهي وسط ، وأشراط كبرى تكون عند قرب قيام الساعة .

(١) سورة الأحزاب الآية : ٦٣ .

(٢) سورة النازعات الآيات ٤٢ - ٤٤ .

(٣) سورة محمد الآية : ١٨ .

فمن الأشراف السابقة المتقدمة بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وكونه خاتم النبيين دليل على قرب الساعة ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى »^(١) أى أنهما متقاربان .

وأما الأشراف التى تتجدد وهى صغيرة ، فمثل فتح بيت المقدس وغيرها مما جاءت به السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وأما الأشراف الكبرى التى تنتظر فمثل طلوع الشمس من مغربها ، فإن هذه الشمس التى تدور الآن ، هذه الشمس إذا غابت استأذنت من الله عز وجل أن تستمر فى سيرها ، فإن أذن الله لها وإلا قيل لها ارجعى من حيث جئت ، فترجعى وتخرج من مغربها ، وحينئذ يؤمن الناس إذا رأوها ، ولكن « لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا »^(٢) .

ثم ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم من أشرافها .

أولاً : قال : « أن تلد الأمة ربتها » وفى رواية أن تلد الأمة ربها ، ومعنى هذا أن من أشراف الساعة أن الأمة التى كانت تباع وتشترى تلد من يكونوا أسيادا ومالكين ، فهى كانت مملوكة فى الأول ، وتلد من يكونوا أسيادا مالكين .

ويكون معنى قوله : « ربتها » أو « ربها » إضافة إلى الجنس ، لا إضافة إلى نفس الوالدة ، لأن الوالدة لا يمكن أن يملكها ابنها ، ولكن المراد الجنس كما فى قوله تعالى : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ »^(٣) ، فالضمير فى (جعلناها) يعود إلى الذى يرمى به الشهب ، لكن لما كانت هذه الشهب تخرج من النجوم أضيفت إلى ضمير يعود عليها ، كذلك (ربها) أو (ربتها) فالمراد الجنس أى أن الأمة تلد من يكون سيدا أو تلد الأمة من تكون سيدة .

ثانيا : « وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان » ،

(١) مسلم : كتاب الفتن - باب قرب الساعة . صحيح مسلم ٤ / ٢٢٦٨ ، ٢٢٦٩ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ١٥٨ .

(٣) سورة الملك الآية : ٥ .

وهذه الأوصاف تنطبق على الفقراء الذين فى البادية يرعون الغنم ، يتناولون فى البنيان ، وهذا يلزم أن أهل البادية يرجعون إلى المدن فيتناولون فى البنيان ، بعدما كانوا حفاة ، عراة ، عالة يرعون الشاة ، وهذا وقع من زمان .

وهنا سؤال هل الرسول صلى الله عليه وسلم لما قال له جبريل : أخبرنى عن أماراتها ؟ قال : أن تلد الأمة ربها .. إلخ ، هل أراد الحصر ؟ أم أراد التمثيل ؟ . فالجواب : أنه أراد التمثيل ، وفى هذا دليل على أن الشيء قد يفسر ببعض أفرادها على سبيل التمثيل ، وإلا فهناك أشراف أخرى لم يذكرها النبى صلى الله عليه وسلم .

(فانطلق) ثم قال النبى عليه الصلاة والسلام : « أتدرون من السائل ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

فجبريل الذى له ستمائة جناح ، وقد سد الأفق ، أتى على صورة رجل ، ثم قال : « يعلمكم دينكم » ومع أن الذى علمنا الدين هو النبى صلى الله عليه وسلم ، لكن النبى صلى الله عليه وسلم جعل جبريل معلما ، لأنه هو الذى سأل وكان التعليم بسببه ، فيستفاد منه أن المتسبب كالمباشر .

وقد أخذ الفقهاء قاعدة من هذا فى باب الجنايات قالوا : (المتسبب كالمباشر) ولهذا سمى النبى صلى الله عليه وسلم جبريل الذى تسبب لتعليم الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الدين الذى أجاب به جبريل سماه معلما .

الثانى : أن الإنسان إذا سأل عن مسألة وهو يعلمها ، لكن من أجل أن يعرفها الناس صار هو المعلم .

الفصل الخامس

مفاتيح الغيب

الحمد لله رب العالمين وأصلى وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد ...

نبدأ بالدرس الجديد إن شاء الله تعالى وقد وعدنا أن نتكلم عن مفاتيح الغيب « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ »^(١) . وقد بينها النبي صلى الله عليه وسلم حيث تلا قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَىْ أَرْضٍ تَمُوتُ »^(٢) .

هذه مفاتيح الغيب ، وسميت مفاتيح لأن كل واحد منها فاتحة لشيء بعده ، « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ » فالساعة فاتحة للأخرة التي هي النهاية . « وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ » والغيث فاتحة لحياة النبات . « وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ » فاتحة لحياة كل شيء . « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا » فاتحة للمستقبل . « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَىْ أَرْضٍ تَمُوتُ » فاتحة لقيامة كل إنسان بحسبه ، علم الساعة القيامة العامة وأما قوله تعالى : « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَىْ أَرْضٍ تَمُوتُ » فهو فاتحة لقيامة كل إنسان ، لأن من مات فقد قامت قيامته .

أولاً : « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ » :

علم الساعة لا يمكن لأحد أن يدركه إلا الرب عز وجل ، فها هو أفضل الرسل من الملائكة جبريل يسأل أفضل الرسل من البشر محمداً صلى الله عليه وسلم يقول : « أخبرني عن الساعة » فقال النبي صلى الله عليه

(١) سورة الأنعام الآية : ٥٩ .

(٢) سورة لقمان الآية : ٣٤ .

وسلم : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » . أى علمى وعلمك فيها سواء ، فكما أنك لا تعلمها فأنا كذلك لا أعلمها ، ولهذا من ادعى علم الساعة فهو مكذب للقرآن ، ومكذب للسنة ، ومكذب لإجماع المسلمين وخارج عن المسلمين .

يقول الله تبارك وتعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ »^(١) وقال تعالى : « وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »^(٢) ، وتقديم الخبر فى قوله : « وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ » يفيد الحصر ، لأن من طرق الحصر تقديم ما حقه التأخير .

ومن صدّق من ادعى علم الساعة فهو كافر أيضا ، لأن من صدق من يكذب بالقرآن أو بالسنة فقد كذب القرآن والسنة . وعلى هذا فلا يمكن أن نصدق شخصا يدعى أنه يعلم متى تكون الساعة ، ومن صدقه فهو كافر لتكذيبه الكتاب والسنة وإجماع المسلمين .

لكن هل للساعة علامات ؟ فالجواب : نعم . قال تعالى : « فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْثَةٌ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ »^(٣) .

ثانيا : نزول الغيث :

« وينزل الغيث » وهنا لم يقل يعلم نزول الغيث ، بل قال : « وينزل الغيث » وإذا كان تنزيل الغيث ليس لأحد سوى الله ، فعلم نزوله ليس لأحد سوى الله عز وجل .

ولكن قد يقول قائل : ما الحكمة فى أن الله عز وجل قال فى الساعة : « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ » ، وفى الغيث قال : « وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ » ، دون أن يقول : ويعلم نزول الغيث ؟ مع أن عدم العلم بنزول الغيث مستفاد من كون الذى ينزل الغيث هو الله وحده ، فإذا كان الذى ينزل الغيث هو الله

(١) سورة الأعراف الآية : ١٨٧ .

(٢) سورة الزخرف الآية : ٨٥ .

(٣) سورة محمد الآية : ١٨ .

وحده لزم من ذلك أنه لا يعلم أحد نزول الغيث إلا من ينزله . لكن الحكمة والله أعلم أن الذى ينفع الناس ويستفيد الناس منه ويمسونه بأيديهم هو الغيث وهو الذى يكون مفتاحا لحياة الأرض .

إذن لا يعلم متى ينزل المطر إلا الله ، لأن الذى ينزل المطر والغيث هو الله .

لكن يرد علينا أننا نسمع فى الإذاعات ، يقولون : سينزل غدا مطر فى جهات معينة ، فهل هذا يناهى أن علم نزول الغيث خاص بالله ؟ فالجواب : أن هذا يشكل على كثير من الناس ، فيظن أن هذه التوقعات - التى تداع فى الإذاعات - يظن أنها تعارض قول الله تعالى : « وعنده مفاتيح الغيب » ، والحقيقة أنها لا تعارض ذلك ، لأن علمهم بهذا علم مستند إلى محسوس لا إلى غيب ، وهذا المحسوس هو أن الله عز وجل حكيم ، كل شئ يقع له سبب ، فالأشياء مربوطة بأسبابها ، فقد تكون الأسباب معلومة لكل أحد ، وقد تكون معلومة لبعض الناس ، وقد تكون غير معلومة لأحد ، فإننا لا نعلم سبب كل شئ وحكمة كل شئ . المطر إذا أراد الله عز وجل إنزاله ، فإن الجو يتغير تغيرا خاصا ، يتكون معه السحاب ، ثم نزول المطر ، كما أن الحامل عندما يريد الله عز وجل أن يخرج منها الولد فإن الجنين ينشأ فى بطنها شيئا فشيئا حتى يصل إلى الغاية ، فهؤلاء عندهم مرصد دقيقة ، تلامس الجو ، ويعرف بها كيف الجو ، فيقولون إنه سيكون مطرا ، ولهذا نجدهم لا يتجاوز علمهم أكثر من ثمان وأربعين ساعة هذا أكثر ما سمعت ، وإن كان قد قيل إنهم وصلوا إلى أن يعلموا مدى ثلاثة أيام ، على كل حال فعلمهم محدود ، لأنه مبنى على أسباب حسية لا تدرك إلا بواسطة هذه الآلات ، ونحن مثلا بحسنا القاصر إذا رأينا السماء ملبدا بالغيوم ، ورأينا هذا السحاب يرعد ويبرق ، فإننا نتوقع أن يكون ذلك مطرا ، هم كذلك يتوقعون إذا رأوا الجو تكيفا معينا يصلح معه أن يكون المطر وحينئذ لا معارضة بين الآية وبين الواقع ، على أنهم أيضا يتوقعون توقعا فربما يخطئون وربما يصيبون .

ثالثا : « ويعلم ما فى الأرحام » :

أولا : قوله تعالى : « ويعلم ما فى الأرحام » (ما) اسم موصول يفيد العموم ، وتعلق العلم بهذا العام هو تعلق عام أيضا ، فعلم ما فى الأرحام

لا يقتصر على علم كونه ذكرا أو أنثى ، واحدا أم متعددا ، بل علم ما فى الأرحام أشمل من ذلك ، فهو يشمل كونه ذكرا أو أنثى ، يشمل كونه واحدا أو متعددا ، يشمل يخرج حيا أو يخرج ميتا ، يشمل أن هذا الجنين سيبقى مدة طويلة فى الدنيا أو مدة قصيرة ، يشمل أن هذا الجنين سيكون ذا مال كثير أو فقر مدقع ، يشمل أن هذا الجنين سيكون عالما أو جاهلا ، فكل ما يتعلق بهذا الجنين يدخل فى قوله: « ويعلم ما فى الأرحام » ، فهو شامل عام خاص بالله تعالى .

ولكن يشكل على هذا أنه فى عصرنا الحاضر توصل الطب إلى أن يعلم أن ما فى بطن هذه الأنثى ذكر أو أنثى فهل يبقى معارضة فى الآية ؟ فالجواب : أنه ليس هناك معارضة للآية ، لأنهم لا يعلمون أنه ذكر أو أنثى إلا بعد أن يكون ذكرا أو أنثى ، أما قبل ذلك فلا يستطيعون العلم بأنه ذكر أو أنثى ، وإذا كان ذكرا أو أنثى وخلق ذكرا أو خلق أنثى فإنه يكون من عالم الغيب عند أكثر الناس ، ويكون من عالم الشهادة عند من يحصل له العلم بذلك ، فالملك مثلا يرسله الله تعالى إلى الرحم ، ويعلمه الله عز وجل أنه ذكر أو أنثى ، يقول : يارب ذكر أو أنثى . فيأمره الله تعالى بما أراد ، فصار هذا علم شهادة بالنسبة للملك ، وقبل أن يكون ذكرا أو أنثى فهو علم غيب حتى بالنسبة للملائكة .

إذن كونه يكون علم شهادة بواسطة تقدم الطب لا يعارض الآية الكريمة .

ثانيا : ذكرنا أن علم ما فى الأرحام لا يختص بعلم كونه ذكرا أو أنثى ، ولكنه يشمل أكثر من ذلك ، ولهذا لا يمكن لأحد إلى يوم القيامة أن يقول هذا الجنين سوف يخرج ويبقى مدة طويلة أو قصيرة ، ويكون غنيا أو فقيرا ، عالما أو جاهلا ، طويلا أو قصيرا ، لأن هذا كله أمره إلى الله عز وجل . وبهذا أتبين أن ما يتحدث عنه الأطباء اليوم من إمكان معرفة الجنين ، أنه ذكر أو أنثى لا يعارض الآية .

وبهذه المناسبة أود أن أقول لكم كل ما جاء به القرآن ، وصحت به السنة ، فإنه لا يمكن أن يعارض الواقع .

رابعاً : « وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا » :

وانظر إلى التعبير بقوله : « ماذا تكسب غدا » ، فإن الإنسان قد يدرى ماذا سيعمل غدا ، ولكنه لا يدرى هل سيكسب ذلك العمل أم لا . فلو أن شخصاً عنده عمل في المكتب ، ومرتب شئونه ، وقال غدا أول شيء أعمله كذا وكذا ، فإنه يكون قد علم ماذا يعمل غدا ، ولكنه لا يعلم هل سيكسب ذلك العمل ويحصل له أم لا ، ولهذا قال سبحانه : « وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا » .

فأنت قد تخطط لعمل مستقبل كغد مثلاً ، لكن لا تكسبه ، فقد يحول بينك وبينه مانع من موت أو مرض أو شغل آخر ترى أنه أقدم منه أو ما أشبه ذلك .

خامساً : « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » :

وصدق الله فلا أحد يستطيع أن يحكم بأنه سيموت في الأرض الفلانية ، فقد يقول الإنسان أنا لن أخرج من بلدي فسأموت في بلدي ، لكن هذا قد لا يتم فأحياناً يكون الإنسان في بلده لا يخرج أبداً منها ، فيمرض ، وتحديثه نفسه وتحذوه همته وعزيمته إلى أن يسافر للعلاج ، فإذا وصل إلى البلد الذي قرر أن يتعالج فيه مات فور وصوله ، وهذا موجود ويحدث ، إذن فهو لا يعلم بأي أرض يموت ، ومن باب أولى أيضاً فإنه لا يعلم في أي وقت يموت ؛ لأن الإنسان يتصرف في مكانه ، فربما يقول قائل : إذا أحس بالموت ورأى أنه لا شفاء له مثلاً قال : أذهب إلى الأرض الفلانية وأموت فيها ، فهذا ممكن ، أو معناه أن الإنسان قد يحدد الأرض التي يحب أن يموت فيها ، فإذا كان لا يعلم هذا فما بالك بالزمن الذي لا يمكن تحديده أبداً ، فالذي لا يعلم المكان لا يعلم الزمان من باب أولى .

ولقد جرت مسألتان : إحداهما أدركتها أنا ، والثانية حُدَّت بها من ثقة .

أما الأولى : فإنه كان راكباً على دباب - دراجة نارية - يمران بشارع فرعى ، وهناك سيارة تمر بالشارع العام ، فلما رأى صاحب السيارة هذا الدباب وقف من أجل أن يعبر الدباب ، والراكبان على الدباب لما رأيا السيارة وفقاً لتعبر السيارة ، فهذا تصرف سليم ، لكن في خلال دقيقة أو دقيقتين تحركت السيارة وتحرك الدباب واصطدما ، فمات أحد الراكبين ،

فبماذا نفسر هذه الواقعة ؟ نفسرها بأن هذا الرجل الذى مات بقى له من عمره دقيقتان أو دقيقة ، لو شاء الله عز وجل لعبور كل من السيارة والدباب بسلام ، أو لعبرا من أول ما التقيا بسرعة وحصل الحادث ، لكن حصل التوقف لمدة دقيقة أو دقيقتين من أجل أن يستكمل الأجل لهذا الذى مات ، وهذه من آيات الله عز وجل . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها » .

أما المسألة الثانية : فقد حدثنى بها من أثق به ، فقد كان الناس فى السابق يأتون مكة عن طريق البر على الجمال ، وكان الناس فى ذلك الوقت ينزلون جميعا ويسيطرون جميعا ؛ لأن البلاد غير آمنة أمنا تاما ، يقول فخرج الحجاج إلى مكة ، وكانوا يمشون فى الريعان - أى الجبال والأودية - على حدود الحجاز من نجد ، وكان أحد القوم معه أمه مريضة وهو يمرضها ، فسار الناس من مكان نزولهم ليلا ، وهو جالس يُمرض أمه ، ويمهد لها الفراش من أجل أن تنام على الراحة مستقرة ، ولما أكمل رحل المركب لأمه مشى، ولكنه أخطأ القوم، لأنهم تجاوزوا كثيرا ، يقول : فدخل فى طريق جادة صغيرة مع أحد الريعان ، وصار يمشى وهو يظن أنه على إثرهم حتى ارتفعت الشمس ، وخاف على نفسه من العطش ، فتبدى - ظهر - له خباء بدو - أى خيمة صغيرة - فاتجه إليها ووصل إليهم ، وقال أين طريق الحجاج ؟ قالوا له : طريق الحجاج وراءك ، لكن انزل أنت والمرأة التى معك ، حتى تستريح وندلك ، فنزل بأمه . يقول : فما أن وضع أمه على الأرض حتى فاضت روحها . سبحان الله العظيم ، فمن يقول إن امرأة من القصيم تأتى إلى الحجاز إلى هذه الأماكن التى قد لا يحلم ولا فى الليل أن يصل إليها ، حتى تموت فى هذا المكان ؟! « وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير » .

هذه مفاتيح الغيب التى لا يعلمها إلا الله عز وجل .

الفصل السادس

التوسل

التوسل في اللغة : مأخوذ من الوسيلة ، والوسيلة والوصيلة والتوسل والتوصل معناهما متقارب ؛ لأن السين والصاد دائماً يتعاونان ، يعني أحدهما يستعير المكان من الآخر ، ولهذا يقرأ قوله تعالى : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ »^(١) ويقرأ : « اهْدِنَا السَّارِطَ . . » بالسين ، وكلاهما قراءة سبعية فيجوز أن تقرأ : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ »^(٢) أو تقول : « اهْدِنَا السَّارِطَ الْمُسْتَقِيمَ * سِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ » .

فالتوسل والتوصل معناهما متقارب جدا ، والوسيلة هي السبب الموصل إلى المقصود هو الوسيلة ، ويكون عبادة يراد به التوصل إلى رضوان الله والجنة ، ولهذا نقول جميع العبادات وسيلة إلى النجاة من النار ودخول الجنة . قال الله تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ »^(٣) ، فإذا صمت رمضان فإنه يقال هذا وسيلة إلى مغفرة الذنوب ، وقمت رمضان وسيلة أيضا لمغفرة الذنوب ، وقمت ليلة القدر وسيلة لمغفرة الذنوب ، وكل هذا لابد أن يكون إيمانا واحتسابا .

وإذن الأعمال الصالحة كلها وسيلة ، والغرض من الأعمال الصالحة قوله تعالى : « فَمَنْ رُحِزَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ »^(٤) . ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيز من النار فيقول : « أعوذ بالله من النار » . ويل لأهل النار .

(١) سورة الفاتحة الآية : ٦ .

(٢) سورة الفاتحة الآيتان : ٦ - ٧ .

(٣) سورة الإسراء الآية : ٥٧ .

(٤) سورة آل عمران الآية : ١٨٥ .

أما النوع الثانى من الوسيلة فهو ما يتخذ وسيلة لإجابة الدعاء وهو أقسام :

القسم الأول : التوسل إلى الله تعالى بأسمائه سواء كان بالأسماء عامة أو كان باسم معين ؛ فالقسم الأول وهو التوسل إلى الله تعالى بأسمائه سواء كان بأسمائه على سبيل العموم أو باسم معين منها .

فمثال الأول التوسل بالأسماء على سبيل العموم ما ثبت فى الحديث الصحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه فى دعاء الهم والغم : « اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، اللهم إني عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك ، أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي » (١) .

والشاهد من الحديث قوله : « بكل اسم هو لك » . ونقول نحن اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى ، ودليل هذا القسم قوله تعالى : « وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا » (٢) .

أما الثانى وهو التوسل باسم خاص فمثل أن تقول : « يا غفور اغفر لى يا رحيم ارحمنى ، اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني » وهذا توسل باسم لكنه خاص .

وفى هذا النوع يجب أن يكون الاسم مناسباً للدعاء ، فإذا أردت أن تسأل الله الرزق تقول يا رزاق ، والمغفرة يا غفور ، والعفو يا عفو ، وهكذا .

لكن لو قلت اللهم يا شديد العقاب اعف عني فهذا غير مناسب ، فكيف تتوسل باسم يدل على العقوبة إلى عفو الله عز وجل ، إنما تدعو الله تعالى بالأسماء المناسبة لما تدعو به .

والقسم الثانى : التوسل إلى الله تعالى بصفاته سواء كان ذلك على

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ١ / ٣٩١ ، ٤٥٢ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٨٠ .

سبيل العموم أو بصفة خاصة ، ومن الصفات الأفعال ؛ فإن الأفعال صفات ، مثال ذلك أن تقول : « اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا » وهذا التوسل صحيح ، والتوسل بالصفات يكون كذلك عامًا ، ويكون خاصًا ، فمثال العام ما ذكرته آنفاً ، ومثال الخاص : « أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » فهنا توسل بصفة من صفات الله عز وجل صفة واحدة .

ومن التوسل بالأفعال : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم » فالتوسل هنا صلاة الله تدل على إبراهيم وآل إبراهيم فعل أو قول ؟ .

فأنت تسأل الله الذى منّ بصلاته على إبراهيم وعلى آل إبراهيم أن يمنّ بصلاته على محمد وعلى آل محمد ، فالكاف فى قولك : « كما صليت » ليست للتشبيه ولكنها للتعليل ؛ والكاف تأتى للتعليل كما قال ابن مالك فى الألفية :

شَبَّهَ بِكَافٍ وَبِهَا التَّعْلِيلُ قَدْ يُعْنَى وَزَائِدًا لِتَوْكِيدٍ وَرَدَّ

والشاهد من البيت قوله : « وبها التعليل قد يعنى » يعنى قد يراد بها التعليل . « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم » يعنى لأنك صليت على إبراهيم ، فمنتك على عبدك وخليتك إبراهيم وآله ، نتوسل بها إليك ، أن تصلى على خليك محمد وآله .

ومثال ذلك فى القرآن على أن الكاف للتعليل قوله تعالى : « وَادْكُرُوهُ كَمَا هَذَاكُمْ ^(١) » وادكروه لأنه هداكم ، وعلى كل حال إن المسألة معروفة ، وإن الكاف للتعليل .

وإذا قلنا إن الكاف للتعليل بقوله « كما صليت » سلمنا من شبهة مشهورة عند العلماء وهذه الشبهة يقولون : إذا قلنا الكاف للتشبيه حصل إشكال ؛ لأن معنى ذلك : أننا نطلب أن الله يصلى على محمد - صلى الله عليه وسلم - وآله ، صلاة دون صلاة إبراهيم وآله ، بناءً على أن المشبه أقل من المشبه به . فأنا إذا قلت فلان كالبحر فى كرمه ، أيهما أقوى ؟ البحر . فصل على محمد كما صليت فإذا جعلنا الكاف للتشبيه معناه أننا نطلب من الله

(١) سورة البقرة الآية : ١٩٨ .

صلاة تكون فى الواقع دون الصلاة على إبراهيم وآله .

فإذا قلنا إن الكاف للتعليل وأننا نريد بذلك التوسل بفعله السابق إلى أن يحقق الفعل لله وبذلك يزول الإشكال نهائياً .

ولا حاجة إلى ما ذكره بعض الناس وتكلف فيه من أهل العلم .
ومعنى اللهم صل على محمد ؛ صلاة الله على النبى صلى الله عليه وسلم ،
يعنى اللهم أثن عليه فى الملأ الأعلى ، واذكره بالجميل .

وليست صلاة الله على عبده بمعنى رحمته ، وإن كان بعض العلماء
قال : (إن الصلاة من الله الرحمة لكنه قول مرجوح بالآية التى قال الله
فيها : « أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ » ^(١) والعطف يقتضى
التغاير .

القسم الثالث : التوسل بالإيمان به ؛ أن يتوسل الإنسان إلى الله تعالى
بالإيمان به وبرسوله فيقول : اللهم بإيماني بك وبرسولك أسألك كذا وكذا .
فيصح هذا وجائز ، ودليله قوله تعالى : « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَإِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » إلى أن قال : « رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي
لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا » ^(٢) أى فبسبب إيماننا
برسولك فاغفر لنا ، فجعّلوا الإيمان به وسيلة للمغفرة : « فَاْمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ
لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا » ^(٣) .

فالتوسل بالإيمان بالله والإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم والإيمان
بمحبة الله والتوسل بمحبة الله ومحبة رسوله هذا جائز ؛ لأن الإيمان بالله
سبب موصل للمغفرة ، ومحبة الله ورسوله سبب موصل للمغفرة فصح أن
يتوسل إلى الله تعالى به .

القسم الرابع : التوسل إلى الله تعالى بحال الداعى أن يتوسل الداعى
إلى الله بحاله ولا يذكر شيئاً مثل أن يقول : « اللهم إني أنا الفقير إليك ، اللهم
إني أنا الأسير بين يديك » وما أشبه ذلك ، والدليل على ذلك قول موسى عليه
الصلاة والسلام حين سقى للمرأتين ثم تولى إلى الظل فقال : « رَبِّ إِنِّي لَمَّا
أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ » ^(٤) ولا ذكر شيئاً .

(١) سورة البقرة الآية : ١٥٧ .

(٢) سورة آل عمران الآيات : ١٩٠ إلى ١٩٣ .

(٤) سورة القصص الآية : ٢٤ .

وهذا التوسل نقول فيه : التوسل إلى الله تعالى بحال الداعي ، ووجه هذه الآية أن حال الداعي إذا وصفها الإنسان فإنها تقتضي الرحمة واللفظ والإحسان لا سيما إذا كانت بين يدي أرحم الراحمين جل وعلا .
أرأيت لو أن رجلا مشى معك وقال أنا فقير أبو عائلة لا أستطيع التكسب غريب الدار ، فيسأل ويتوسل إليك بحاله ، فأنت إذن تعرف الأمر وتعطيه إذا كنت كريما .

وهناك توسلات أخرى ممنوعة ؛ وهي أن يتوسل الإنسان بالنبي صلى الله عليه وسلم بذاته فيقول اللهم إني أسألك بنبيك أن تغثنا ، أسألك بنبيك أن تؤمننا في أوطاننا . فهذا لا يجوز فهذه خمسة .

والسادس التوسل بدعاء من ترجى إجابة دعائه ، ودليل ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم « كان يخطب الناس ذات يوم - الجمعة - فدخل رجل فاستقبل النبي صلى الله عليه وسلم وقال يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يغثنا فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يديه وقال اللهم أغثنا اللهم أغثنا اللهم أغثنا - ثلاث مرات - . قال أنس بن مالك والله ما نرى في السماء من سحب ولا قزعة »^(١) والقزعة هي القطعة الصغيرة من الغيم ، وما بيننا وما بين سمع من بيت ولا باق ؛ والسمع جبل بالمدينة تأتي من نحوه السحب . قال فخرجت من ورائه سحابة مثل الشرج فلما توسلت السماء انتشرت وترعدت وبرقت ونزل المطر فما نزل النبي صلى الله عليه وسلم من منبره إلا والمطر يتحادر من لحيته .

وفى هذا آيتان ؛ آية من آيات الله ، وآية من آيات رسوله صلى الله عليه وسلم ، أما من آيات الله فالقدرة العظيمة بهذه السرعة نشأ السحاب ورعد وبرق وأمطر ، فما إن نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من منبره إلا والمطر يتحادر من لحيته ، والمعروف أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يطيل الخطبة ، وهذا أتى في أثناء الخطبة .

« كانوا في غزوة الحديبية . . نفذ الماء الذي معهم فجاء الناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا يا رسول الله نفذ الماء . وكان بين يديه ركوة إناء من جلد فوضع يديه في الماء فجعل الماء يفور أمثال العيون حتى

(١) رواه مسلم في كتاب الاستسقاء من صحيحه . مسلم بشرح النووي ٦ / ١٩١ .

استغفى الناس وروا «^(١) والله على كل شيء قدير .

وهذه الآية تأييد للرسول صلى الله عليه وسلم وقد تكون الآية التي يرسلها الله عز وجل تكذيباً لمن أرسلت إليهم :

يقال إن مسيلمة الكذاب ادعى النبوة ، فجاء إليه قوم فدعوه بالوصف الكاذب ، وهو « يا رسول الله » وهو من أكذب عباد الله ، قالوا إن بئرا لنا نزحت وليس فيها إلا ماء قليل تأتي إليها لعل الله يأتي فيها البركة ، فجاء إلى البئر وأخذ ماءً بفمه ومجه فيها ينتظر أن يخرج الماء إلى أعلى ، ولكن الماء الذى فيها غار بالكلية ، فالماء الذى كان موجودا ذهب ، فهذه آية من آيات الله ، ولكنها آية لتكذيب هذا الرجل ولست لتأييده وتصديقه .

وأما كونه آية من آيات النبي صلى الله عليه وسلم فإن الله أجاب دعاءه بهذه السرعة ، وآيات النبي صلى الله عليه وسلم فى جلب الماء من السماء أو من الأرض معلومة ، فبقى المطر ينزل أسبوعاً كاملاً حتى سأل الوادى المعروف بالمدينة باسم قناة ، سأل شهراً كاملاً ، فجاء الرجل أو رجل آخر من الجمعة الثانية والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب فقال يا رسول الله تهدم البناء وغرق المال فادع الله يمسكها فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يديه وقال : « اللهم حوالينا ولا علينا » وجعل يشير بيده فما يشير إلى ناحية إلا انفرجت ، ليس بقدرة الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن بقدرة الله عز وجل ، « اللهم حوالينا ولا علينا » فجعل السحاب يتفرق ، يمطر حول المدينة ، ولا يمطر فى المدينة ، فخرجوا من الصلاة وهم يمشون فى الشمس .

فالرجل قال : « ادع الله يمسكها » فجعل دعاء الله أن يمسكها ؟ لا ، ليس إمساكها من المصلحة ، لكن دعا بدعاء تحصل به المصلحة وتزول المفسدة ، قال : « اللهم حوالينا ولا علينا » اللهم على الأركان وبطون الأودية ومنابت الشجر ، وفى هاتين القصتين كان الرسول صلى الله عليه وسلم يرفع يديه وهو يخطب .

وفى الأول عندما سأل الله الغيث رفع الصحابة أيديهم معه وهم يستمعون الخطبة ، فيستفاد من هذا أن الخطيب إذا دعا الغيث أو دعا

(١) رواه البخارى فى كتاب فضائل الصحابة باب (٢٥) حديث (٣٥٧٦) .

بالصحو أنه يرفع يديه وأن الناس يرفعون أيديهم معه إذا دعا بالغيث ، وفيما عدا ذلك إذا دعا الخطيب في خطبة الجمعة لا يرفع يديه ولا يرفع الناس ؛ لأن الصحابة رضی الله عنهم أنكروا على بشر بن مروان حين خطب ودعا في الخطبة ورفع يديه ، فرفع اليدين في الدعاء في حال الخطبة ليس من هدى الرسول صلى الله عليه وسلم إلا إذا دعا باستسقاء أو استصحاء .

فهذه ستة كلها جائزة ولكن ينبغي أن تلاحظ أنك إذا طلبت من شخص أن يدعو لك وهو من ترجى إجابته أن يكون غرضك بذلك مصلحته هو لا مصلحتك أنت .

فإذا سألت إنسانا مَرْجُو الإجابة بالدعاء أن تقصد بطلبك منه أن يدعو لك مصلحته هو لا مصلحتك أنت فكيف يكون مصلحته ؟ لأن الإنسان إذا دعا لأخيه بظاهر الغيب قال له الملك أمين ولك بمثله ، فإذا دعا لك أخوك الذي طلبت منه أن يدعو لك بظاهر الغيب قال الملك : أمين ولك بمثله .

أما إذا دعوته أن يدعو لك وأنت لا تريد إلا مصلحتك أنت فقط ، فإن هذا يخشى أن يكون من المسألة المذمومة ، لأن من جملة ما بايع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وعليه أن لا يسألوا الناس شيئا .

وهذه مسألة تقع كثيرا من الناس ، يقولون ادع الله لي ، أنا لا أقول ادع الله لي ؟ ولكن أقصد بذلك أنك تريد بذلك مصلحته ، وبالتالي مصلحتك أنت .

وهذه مسألة ينبغي أن يتنبه لها حتى لا تقع في ذل المسألة .

أما القسم الذي لا يجوز أن تتوسل إلى الله فيما ليس بوسيلة في الواقع مثل أن تتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم بذاته أو أن تتوسل بجاه النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن ذلك لا ينفعك أنت ، فجاء الرسول صلى الله عليه وسلم ومنزلته عند الله ينتفع بها الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه . أما أنت مالك فيها منفعة وكذلك ذاته من باب أولى ، لكن لو قلت أسألك بنبيك تريد أسألك بإيماني بنبيك كان هذا جائزا ، لكن ظاهر اللفظ أنه من القسم غير الجائز ، ولهذا نقول صحح العبارة وقل اللهم إني أسألك بإيماني بنبيك أو بمحبتى لنبيك أو باتباع نبيك وما أشبه ذلك .

ويدل على أن التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم الآن ليس بصحيح أن

الصحابه قحطوا فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فخرج بهم يستسقى بهم فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فنتسقينا - والصحابه يتوسلون بنبيهم بدعائه - وإنا نستشفع إليك بعم نبينا فاسقنا فيقوم العباس بن عبد المطلب ويدعو الله تعالى بالسقيا فيسقون^(١) . وهذا دليل على معنى التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم الوارد عن الصحابة إنما معناه أنهم يتوسلون بدعائه لا بذاته .

إلى هنا نصل إلى بيان أقسام التوسل ، وأن الجائز منه ستة أقسام .
القسم السادس : التوسل إلى الله بدعاء من يرجى إجابته .

وهو أن يذكر الإنسان بين يدي دعائه عملا صالحا يكون سببا في حصول المطلوب ، ومثاله قصة الثلاثة الذين حدث عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة من بنى إسرائيل أوأهم المغيب إلى غار ؛ والغار هو الشق فى الجبل فدخلوا الغار فأراد الله عز وجل بحكمته أن تنطبق عليهم صخرة ابتلاءً وامتحاناً وعبرة لعباده انطبقت عليهم الصخرة فأرادوا أن يدفعوها فعجزوا فقال بعضهم لبعض إنه لا يخرجكم من ذلك إلا أن تتوسلوا إلى الله تعالى بصالح أعمالكم ، فتوسلوا إلى الله بصالح أعمالهم فقال أحدهم : اللهم إنه كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبط قبلهما أهلا ولا مالا ، فأنا أتى طلب الشجر يوما ... عليهما فوجدتهما نائمين وكرهت أن أغبط أحدا قبلهما ، فبقى الإناء على يدي حتى برق الفجر ، ثم استيقظا فسقيتهما هذا معنى الحديث ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فاصرف عنا ما نحن فيه ، أو فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة قليلا لكنهم لا يستطيعون الخروج .

أما الثانى « فذكر أن له ابنة عم وكان يحبها حبا شديدا فأرادها على نفسها فأبت ، ثم إنه فى سنة من السنوات ألمت بها الحاجة فجاءت إليه تطلب دفع حاجتها فأعادها إلا أن تمكنه من نفسها - هى للضرورة مكنته من نفسها - فلما جلس منها مجلس الرجل من امرأته قالت له : يا هذا أتق الله ، ولا تفرض الخاتم إلا بحقه - فهذه كلمة عظيمة مؤثرة - قال : فممت عنها وهى

(١) رواه البخارى فى كتاب الاستسقاء باب (٣) حديث (١٠١٠) .

أحب الناس إلى - يعنى ما تركتها رغبة لأنى لا أريدها لكنه تركها خوفا من الله عز وجل حين ذكر به - وأعطاهما حاجتها « فجمع هذا الرجل بين كمال العفة والصلة ، قال : « اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة إلا أنهم لا يستطيعون الخروج » .

أما الثالث : « فذكر أن له أجراء - يعنى أناس استأجرهم - وأعطى كل واحد منهم أجره ، إلا واحدا لم يعطه أجره ، فنماه له ، وصار فيه إبل وغنم وبقر ورقيق حتى جاء العامل يطلب أجره فقال له كل ما ترى من الإبل والغنم والرقيق كله لك ، فقال له اتق الله ، لا تستهزئ بى ، يقولها الأجير « ولنفرض أن أجرته عشرة دراهم ثم يقال كل ما تراه من هذه الأموال فهى لك ، فظن الأجير أنه يستهزئ به ، فقال اتق الله لا تستهزئ بى فقال : لا أستهزئ بك هذه أجرتك ، فأخذها الأجير وذهب بها كلها . فهذه المعاملة الوفاء التام لهذا الرجل ؛ لأنه من الممكن أنه إذا جاء يطلب أجره أن يعطيه أجره وينتهى ، لكن لأمانته ووفائه أعطاه كل ما نماء أجره ، قال : اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة وخرجوا يمشون^(١) .

فلو قال قائل اللهم إنى أسألك ببر والدى أن توفقنى لبر أولادى بى ، وهذا توسل صحيح ؛ وهو توسل بالعمل الصالح .

التوسل الشركى :

أما توسل المشركين بأصنامهم وأوثانهم وتوسل الجاهلين بأوليائهم فهو توسل شركى ، لا نقول توسل بدعى بل هو توسل شركى ، ولا يصح أن نسميه توسلا بل هو شرك محض .

لأن هؤلاء المتوسلين يدعون من يزعمون أنهم وسيلة ، يأتى الرجل إلى من يزعمه وليا ويقول يا ولى الله أنقذنى بهذا اللفظ يا آل البيت أنقذونى ، يا نبي الله أنقذنى ، فهذا لا يصح أن نسميه وسيلة ولكن نسميه شركا ؛ لأن دعاء غير الله شرك فى الدين وسفه فى العقل ؛ شرك فى الدين لأنهم اتخذوا شركا مع الله ، وسفه فى العقل لأن الله يقول : « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ

(١) رواه البخارى فى كتاب الإجارة باب (١٢) حديث (٢٢٧٢) .

غَافِلُونَ»^(١) .

ويوم القيامة لا ينفعونهم « وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ »^(٢) فوصف الله هذه المدعوات بأنها عاجزة لا يستجيبون أبدا لو دعوهم إلى يوم القيامة وبأنها غافلة لا تدري من يدعوها ولا تحس بشيء من ذلك ، وبأنه إذا كان يوم القيامة وهو وقت الحاجة الحقيقية إذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ؛ كدعاء هذه الأولياء والأصنام وما أشبهها .

فلا يصح أن نقول إنها وسيلة بل هو شرك أكبر مخرج عن الدين : « وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ »^(٣) فسمى الله هذا الداعي كافرا .

فإن قال قائل إن هؤلاء ربما يدعون هذه الأصنام أو هؤلاء الأولياء ويحصل مطلوبهم ، ثم يأتون ويقولون دعونا الولي الفلاني فأجاب ، دعونا هذا الصنم فأجاب ، فما موقفنا من ذلك ؟ .

موقفنا من ذلك أن الله تعالى قد يحدث هذا الشيء عند الدعاء لا بالدعاء امتحانا للداعي يعنى ممكن أن يأتى الإنسان ويدعو هذا الولي صاحب القبر بدعاء ثم يحدث له ما دعا به امتحانا من الله عز وجل ، لا لأن هذا الولي هو الذى أعطاه إياه ، لأننا نعلم علم اليقين أن هذا الولي لن ينفعه ولن يستجيب له .

لكن قد يبئلى ؛ والابتلاء بتسهيل المعصية وارد فى الأمم السابقة ، وفى هذه الأمة ، وفى الأمم السابقة قال الله تعالى : « وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ »^(٤) فحرم الله عليهم أن يصطادوا السمك يوم السبت ، فبقوا على ذلك مدة من الزمن ، فابتلاهم الله فصارت الحيتان يوم السبت تأتى شرعا على وجه الماء من كثرتها وغير يوم السبت لا يشاهدونها ، واليهود أهل

(١) ، ٢) سورة الأحقاف الآية : ٥ ، ٦ .

(٣) سورة المؤمنون الآية : ١١٧ .

(٤) سورة الأعراف الآية : ١٦٣ .

مكر وكيد وخيانة ، وأهل طمع وشح ، قالوا كيف لا تأتينا كل يوم عدا يوم السبت ونحن ممنوعون من اصطيادها فماذا نصنع ؟ أنحرم منها ؟ بل ندبر حيلة نعمل شبكة وننصبها يوم الجمعة ، فإذا جاء السمك يوم السبت دخلت في الشبكة وإذا دخل لا يستطيع الخروج ، فإذا كان يوم الأحد نأتى إلى الشبكة ونأخذ السمك الذى فيها .

فهذه حيلة فيقولون نحن ما نصطاد يوم السبت ، فالشباك نصبناه يوم الجمعة والحيتان جاءت يوم السبت ، ونحن أخذنا الحيتان يوم الأحد ، ولقد عاقبهم الله على ذلك فقال : « وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ »^(١) فأمرهم الله أن يكونوا قرده ، وهذا أمر كونى ؛ وهو أن يكونوا قرده فكانوا قرده وإنما أراد الله عز وجل أن يكونوا قرده ؛ لأن القرده أسفه ما يكون بالإنسان ولهذا قال دارون وهو قرد : إن أصل بنى آدم قرده فلما كان القرد أسفه ما يكون بالإنسان ، وكان فعل هؤلاء شبيها بالمباح ؛ لأن ظاهره الإباحة وباطنه التحريم ، قال الله تعالى : « كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ » ولكن القرده الموجودة الآن غير القرده التى قلبت إليها هؤلاء الطائفة من اليهود ، فإياك أن تضرب قردا وتقول ، يا يهودى ، لأن القرده الذين مسخ بنو إسرائيل إليهم ، ذهبوا وفنوا بالكلية ، فهذه القرده جنس من الحيوان ، وهذا ابتلاء من الله عز وجل أن الحيتان تأتى يوم السبت كثيرة وتنقطع فى غير يوم السبت ، ولكن لم يصبر بنو إسرائيل على ذلك فاحتلوا على محارم الله .

وفى هذه الأمة ابتلى الله عز وجل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ببلوى ؛ إذا أحرم الإنسان بحج أو عمرة حرم عليه الصيد : « يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ »^(٢) فأراد الله عز وجل أن يبتلى أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم فأرسل الله إليهم صيدا تناله أيديهم ورماحهم ، فالصيد الذى يجرى على أرجلهم صاروا يمسكونه بأيديهم ، مثل الأرامس والظباء ، فالصيد الطائر الذى لا ينال إلا بالسهم صاروا ينالونه برماحهم « يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاخُكُمْ .. »^(٣) والحكمة ليعلم الله من يخافه بالغيب . فهل الصحابة وهم

(١) سورة البقرة الآية : ٦٥ .

(٢) سورة المائدة الآية : ٩٥ .

(٣) سورة المائدة الآية : ٩٤ .

محرمون صاروا يمسون هذا الصيد بأيديهم أو ينالونه برماحهم ؟ أبدا ولا أحد من الصحابة صاد صيدا ولا حتى تحيل عليه .

وبهذا نعرف الفرق بين صلاحية هذه الأمة وبين بنى إسرائيل على أنه وجد من خلف هذه الأمة من شابه اليهود فى التحيل على محارم الله ، فهناك من يتحيلون على الربا ، وهناك من يتحيلون على النكاح ، وهناك من يتحيلون على ظلم إخوانهم بأنواع الحيل ، وكل من تحيل من هذه الأمة إلى الشيء المحرم بحيله فهو مشابه لأسخف عباد الله ، وهم اليهود .

وهناك أناس الآن يقولون إذا أعطيت الإنسان عشرة آلاف ريال نقدا بأحد عشر ألف ريال إلى أجل فهذا حرام ، قال إذن : نحلل هذا الحرام ؛ فأبيع عليه أكياسا من الهيل - الذى يوضع فى القهوة - بأحد عشر ألفا وهى لا تساوى الآن إلا عشرة إلى سنة ثم يشتريها هذا المدين ويبيعها على صاحب الدكان ، برغم أن صاحب الدكان لا يشتريها منك بمثل ما اشتريتها أنت ، فيبيعها لصاحب الدكان بتسعة آلاف وخمسمائة فقط فيكوى هذا المدين من الجانبين ؛ فيكوى من جهة الذى باع عليه ، ومن جهة صاحب الدكان ، ثم يأخذ المدين الدراهم ويخرج بها وهذا لا يعد بيعا ؛ لأن الذى اشتراه هو الدائن ، ما يقلبه ولا ينظر ما فيه .

وأظن لو أن صاحب الدكان لو أتى بأكياس من القش ولفها وقال هذا الذى فيها هيل ، أو أتى بأكياس من الرمل ، وقال إن الذى فيها سكر وباعها على الدائن ، وباعها الدائن على المدين ؛ لأنه ما ينظر فيها الدائن ولا يقلبها ، والمدين كذلك لا يقلبها ولا ينظر فيها فترجع إلى صاحب الدكان ، فهذا لا يعد بيعا صحيحا .

ولكن هذا العمل جامع بين مفسدتين مفسدة الربا ومفسدة الخداع لله عز وجل وللمؤمنين « يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ » (١) .

فهذه الحيلة والعياذ بالله يسميها بعض العلماء الحيلة الربوية الثلاثية ، وفيها مفسد عظيمة .

وأما بيع السيارات مما كانت عنده لشخص يريد السيارة نفسها بثمن

(١) سورة البقرة الآية : ٩ .

مؤجل لكنه أكثر من الثمن الحاضر فهذا لا بأس به وهو جائز بالإجماع كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ، مثال ذلك أنا أحتاج إلى سيارة وأتيت إلى شخص صاحب معرض يبيع السيارات على عشرين ألف ، فقلت له أنا ليس عندي دراهم الآن بع على سيارة بخمس وعشرين ألفاً كل شهر خمسمائة ريال ، وقال صاحب الدكان لا بأس ، فهذا جائز حتى لو خيره صاحب المعرض ، وقال هذه السيارة إما بعشرين نقدا ، وإما بخمسة وعشرين مؤجلة ، فقال أخذها بخمسة وعشرين مؤجلة ، فإن هذا ليس به بأس ، وليس هذا بيع دراهم بدراهم ؛ لأن الذي اشترى السيارة لم تثبت عليه الدراهم مرتين ، فالأصل وقع على سلعة بدراهم ، وليس دراهم بدراهم .

ونحن نقول لو أن المشتري اشترى منك السيارة التي تساوي عشرين بخمسة وعشرين نقدا ؛ يعنى جاء واحد إلى وقال السيارة تباعها أنت بعشرين وأنا أشتريها منك بخمسة وعشرين نقدا خذ ، فأنا أريد أن أنظرك بالخمسة والعشرين زاده خيرا وأحسن إليه .

فتاوى فى التوحيد والعقيدة

سؤال : كثيرا ما نجد رسائل على أستار الكعبة على عنوانها جملة تقول : (إلى المولى عز وجل إلى الله الكريم) ، وبداخل الرسالة ما يلي : (يا حبيب الله نتمنى زيارة بيتك والقرب منه ، ونتمنى الصلاة فى حرمك الشريف ، وأرجوك يا حبيب الله أن تقبل طلبنا هذا ، وأن تقربنا منك مع حرمى وزوجى ، لأكون بقربك أسعد ، والصلاة عليك يا حبيب الله) (خادمك المطيع علوية بنت عائشة) فما رأيكم فيمن كتبها واعتقدها ؟ .

الجواب : هذه الرسالة موجهة من علوية عائشة إلى النبى صلى الله عليه وسلم - فيما يظهر - وهذه الرسالة تتضمن دعاء غير الله عز وجل ، ودعاء غير الله عز وجل شرك أكبر مخرج عن الملة ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم نفسه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ولا يملك لغيره نفعا ولا ضرا ، قال الله تعالى : « قُلْ - أَى يَا مُحَمَّد - لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ » (١) .

فهو صلى الله عليه وسلم ليس عنده خزائن الله فيعطيهما من شاء ولا يعلم الغيب ، فيحذر ما يأتى به الغيب ، وهو ليس بملك ، بل هو بشر ، بل هو عبد من عباد الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال بعدها : « إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ » فهو صلى الله عليه وسلم متبع لما أوحى إليه ، بل إن وصفه صلى الله عليه وسلم بالعبودية ؛ إنما جاء فى مقام الإكرام له كمقام إنزال القرآن ، ومقام الإسراء ، والدفاع عنه .

على كل حال فإن هذه الرسالة وما أشبهها شرك أكبر مخرج عن الملة ، والنبى صلى الله عليه وسلم لا يملك لهذه المرأة ولا لغيرها أن يدفع ضررا أو يجلب نفعا « قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا » (٢) ، وهو صلى الله عليه وسلم جمع عشيرته الأقربين وصار يناديهم بأسمائهم ويقول : « لا أغنى عنكم من الله شيئا » (٣) فعلى هذه المرأة أن تتوب إلى الله عز وجل ، وأن تجعل دعاءها إلى الله سبحانه ، فهو الذى يكشف السوء ، وهو الذى يجيب المضطر إذا دعاه .

(١) سورة الأنعام الآية : ٥٠ .

(٢) سورة الجن الآية : ٢١ .

(٣) البخارى : كتاب الوصايا - باب هل يدخل النساء والولد فى الأقارب . فتح البارى ٥ / - ٣٨٢ .

وفى كلامها نقطة نحب أن نعلق عليها وهى قولها فى الرسول صلى الله عليه وسلم : (يا حبيب الله) ، فهو حبيب الله لاشك ، ولكن هناك وصف أعلى من ذلك ، وهو (خليل الله) فالرسول صلى الله عليه وسلم خليل الله ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا »^(١) ، ولهذا فمن وصفه بالمحبة فقط ، فقد أنزله عن رتبته لأن الخلّة أعظم من المحبة وأعلى .

فكل المؤمنين أحبّاء الله ، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام فى مقام أعلى من ذلك ، وهى الخلّة ، لذلك نقول : إن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم خليل الله وهذا أعلى من قولنا : إنه حبيب الله .

* * *

سؤال : بعض الإخوة يقوم ببيع الكتب الدينية ، وكذلك الأشرطة أمام المساجد علما بأن الجهات المسئولة لا تسمح بذلك ، فهل يجوز الشراء منهم ؟ وما حكم هذا البيع ؟ .

الجواب : لاشك أن بيع الكتب الدينية والأشرطة الدينية إذا قصد الإنسان به معونة إخوانه على تعلم العلوم الشرعية ، لاشك أن الإنسان يؤجر على بيع هذه الأشياء ، سواء كان ذلك أمام المساجد ، أو فى أماكن أخرى مخصوصة .

ولكن إذا رأى أولياء الأمور أن يكون لبيع هذه الأشياء أماكن مخصوصة ، فإن الواجب على الرعية طاعة ولاة أمورهم ، إلا فى معصية الله ، قال النّبى صلى الله عليه وسلم : « على المرء المسلم : السمع والطاعة فيما أحب وكره ، ما لم يؤمر بمعصية »^(٢) .

وكون بعض الناس إذا صدر الأمر من ولاة الأمور لا يقبله إلا إذا كان الله قد أمر به ورسوله ، فإن ذلك لدليل على قصر علمه بشريعة الله ، لأن الله تعالى يقول : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ »^(٣) ، فطاعة ولاة الأمور فى غير معصية الله من طاعة الله ،

(١) رواه مسلم فى كتاب المساجد - صحيح مسلم بشرح النووى ١٣ / ٥ .

(٢) البخارى كتاب الأحكام - باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية . فتح البارى ١٣ / ١٢١ .

(٣) سورة النساء الآية : ٥٩ .

ونحن نتقرب إلى الله عز وجل بطاعة ولاة أمورنا في غير معصية الله ، لأن الله عز وجل أمرنا بذلك ، وإلا فهم بشر مثلنا ، لكن الله جعل لهم علينا بولاية أمرنا .

وتأمل الآية الكريمة : « وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ » ، لماذا لم يقل : وأطيعوا أولى الأمر منكم ؟ الجواب : لأن طاعة ولي الأمر تابعة لطاعة الله ورسوله ، فإذا تضمنت طاعة ولي الأمر معصية الله ورسوله ، فحينئذ لا يطاع ولي الأمر ، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق فإذا رأى ولي الأمر ألا تباع هذه الأشياء سواء كانت كتباً دينية ، أو أشرطة ، أو غيرها ، في هذا المكان لمصلحة رآها في ذلك ، فإنه يطاع ، ثم إذا رأى بعد ذلك أن من المصلحة أن تباع في هذا المكان ؛ لأنها أقرب تناولا للناس مثلاً ، فإنه من الممكن أن يراجع ولي الأمر ، ويبين له الفائدة ، حتى يحصل المقصود ، أما المعاندة فهذا لا يجوز شرعاً .

ومن هذه النقطة أنتقل إلى أمر مهم يتعلق بالمسجد الحرام : ولاة الأمور منعوا إدخال الطعام إلى المسجد الحرام ، لماذا ؟ لأن إدخاله كان فيه مضرة عظيمة شاهدناها ، فكانت أرض المسجد الحرام تمتلئ بفضلات الطعام ، والفتات ، وما أشبه ذلك ، حتى إنك لا تستطيع أن تسجد على الأرض من النتن ، والرائحة الكريهة ، فرأى القائمون على المسجد الحرام أن تمنع هذه الأشياء منعاً باتاً ، ولكن بعض الناس صار يتحیل بإدخال الأطعمة بطرق ملتوية ليفر من المراقبة ، ولكن إذا فر من مراقبة المخلوق فهل يفر من مراقبة الخالق ؟ كلا .

بعض الناس يقول : إنه معتكف ، ولا يكفيه التمر والماء ، فنقول له : إن الاعتكاف سنة ، وطاعة ولي الأمر في غير معصية الله واجبة ، فإذا لم يمكن تنفيذ هذه السنة إلا بالوقوع في المحرم ، فدع السنة ؛ لأنه لا معارضة بين الواجب وبين المستحب ، أو نقول له : اسلك طريقاً آخر أباحه الله عز وجل ، وهو أنك إذا كنت لا بد أن تأكل طعاماً ، ولم تتمكن من تعويد معدتك على التمر والماء ، فأخرج من المسجد وكل ، وأنت إذا خرجت للأكل الذي لا بد لك فيه من الخروج فإن ذلك جائز .

* * *

سؤال : كيف يمكن أن يكون القضاء والقدر مُعيناً على زيادة إيمان المسلم ؟ .

الجواب : يكون الإيمان بالقضاء والقدر عوناً للمسلم على أمور دينه ودنياه ؛ لأنه يؤمن بأن قدرة الله عز وجل فوق كل قدرة ، وأن الله عز وجل إذا أراد شيئاً قلن يحول دونه شيء ، فإذا آمن بهذا فعمل الأسباب التي يتوصل بها إلى مقصوده ، ونحن نعلم فيما سبق من التاريخ أن هناك انتصارات عظيمة انتصر فيها المسلمون مع قلة عددهم وعددهم ، كل ذلك لإيمانهم بوعد الله عز وجل وبقضائه وقدره وأن الأمور كلها بيده سبحانه .

* * *

سؤال : هل نفهم أن الله تعالى صفة الملل من ظاهر الحديث : « إن الله تعالى لا يمل حتى تملوا »^(١) ، أو أن هناك معنى آخر ؟ .

الجواب : من المعلوم أن القاعدة عند أهل السنة والجماعة أننا نصف الله تعالى بما وصف به نفسه من غير تمثيل ولا تكيف ، فإذا كان هذا الحديث يدل على أن لله مللاً ، فإن ملل الله تعالى ليس كمللنا نحن بل هو ملل ليس فيه شيء من النقص ، أما ملل الإنسان فإن فيه شيئاً من النقص ، لأنه يتعب نفسياً وجسيمياً مما نزل به لعدم قوة تحمله ، وأما ملل الله إن كان هذا الحديث يدل عليه فإنه ملل يليق به عز وجل ولا يتضمن نقصاً بوجه من الوجوه .

* * *

سؤال : قرأت في كتاب شرح العقيدة الواسطية أن صفة (الحى) لله عز وجل مسبوقة بالعدم ، فهل هذا صحيح ؟ .

الجواب : حياة الله عز وجل حياة كاملة ، لم تسبق بعدم ، ولا يلحقها زوال ، وشرح العقيدة الواسطية الذى قرأ فيه أن حياة الله عز وجل تسبق بعدم خطأ بلاشك ، وهذا خطأ مطبعي فيما يظهر ، لأنه إذا قيل حياة كاملة فالحياة الكاملة لا تسبق بعدم ، فحياة الله عز وجل حياة كاملة متضمنة لجميع الصفات الكاملة فلم تسبق بعدم ، ولا يلحقها زوال .

* * *

(١) البخارى : كتاب الإيمان - باب أحب الدين إلى الله أدومه . فتح البارى ١ / ١٠١ .

سؤال : هل ثبتت رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم لربه عز وجل في اليقظة أو في المنام ، في أى المراجع ذكر ذلك ؟ .

الجواب : رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لربه عز وجل في اليقظة لم تثبت ، حتى ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية : إن ابن عباس لم يقل إن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعينه ، ولا يمكن لأحد أن يرى الله تعالى في الدنيا بعينه يقظة ؛ لأن موسى لما قال : « رَبِّ أَرْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ » قَالَ اللَّهُ لَهُ : « لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ » (١) .

أما رؤيته في المنام فقد ورد حديث في السنن ، صححه كثير من الحفاظ : أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه في المنام ، وقد شرح ابن رجب هذا الحديث في رسالة مختصرة أحيل الأخ السائل عليها ، فإن ابن رجب رحمه الله أحد تلاميذ ابن القيم ، وابن القيم تلميذ لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

* * *

سؤال : ما الحكم بجهل حكم ما ، كأن يصرف شيئاً من الدعاء لغير الله وهو لا يدري أنه شرك ؟ .

الجواب : الجهل بالحكم فيما يكفر كالجهل في الحكم فيما يفسق ، فكما أن الجاهل فيما يفسق يعذر بجهله ، فكذلك الجاهل فيما يكفر يعذر بجهله ، ولا فرق ، لأن الله عز وجل يقول : « وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ » (٢) ، ويقول عز وجل : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » (٣) ، وهذا يشمل كل ما يعذب عليه الإنسان . ويقول عز وجل : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ

(١) سورة الأعراف الآية : ١٤٣ .

(٢) سورة القصص الآية : ٥٩ .

(٣) سورة الإسراء الآية : ١٥ .

بِغُلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِ» (١) .

ولكن هذا الجاهل إذا كان مفرطاً بالتعلم فلم يسأل ولم يبحث فهذا محل نظر ، فالجاهل فيما يكفر وفيما يفسق إما ألا يكون منهم تفریط وليس على بالهم إلا أن هذا العمل مباح فهو لاء يعذرون ، ولكن يدعون إلى الحق فإن أصروا حُكِمَ عليهم بما يقتضيه هذا الإصرار .

وأما إذا كان الإنسان يسمع أن هذا محرم أو أن هذا يؤدي إلى الشرك ، ولكنه تهاون أو استكبر فهذا لا يعذر بجهله .

* * *

سؤال : ذكرت أن منزلة الصبر أقل من منزلة الرضا ، (لكن) ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن أحد التابعين عند وفاة ابنه أنه تبسم فقيل له في ذلك ، فقال : إنما أبْتَسِمُ رِضاً بقضاء الله . قال الشيخ : وحال النبي صلى الله عليه وسلم أكمل حين قال عند وفاة ابنه : « إن القلب ليحزن وإن العين لتدمع وأنا لفراقك لمحزونون » (٢) ، فحاله صلى الله عليه وسلم الصبر لأنه أنسب للمقام . فأرجو من فضيلتكم الجمع بين ذلك ؟ .

الجواب : الواقع أن التبسم عند المصائب لا يدل على كمال المرتبة ، بل يدل على نقص المرتبة ، وأن الإنسان أراد أن يطرد ما في قلبه من الحزن بهذا التبسم ، لكن إذا كان الحزن لم يرد على القلب من الأصل فذلك أكمل . وعلى هذا فإن الإنسان إذا أصيب بمصيبة ، وحزن لها ، ولكنه بالنظر لقضاء الله وقدره هي عنده سواء مع عدمها ، فإن هذا هو الرضا ، لكن كون الإنسان يصاب بمصيبة ، كأن يكون له ابن ميت وهو في المقبرة يضحك أو يبتسم فهذا غير مناسب ، وهذا يدل على أن قلبه لم يتحمل ، وأراد أن يطرد هذا بهذا ، فنقصت حاله عن حال من كان قلبه متحملاً بدون أن يوجد شيء ظاهر يطرد هذا الشيء ، وإلا فقد صرح ابن القيم - رحمه الله - في الفوائد ، وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية أن الرضا أكمل ، وأن الصبر واجب بالاتفاق ، وأن الرضا مختلف فيه ، وجمهور العلماء على أنه مستحب .

(١) سورة التوبة الآية : ١١٥ .

(٢) البخارى : كتاب الجنائز - باب قول النبي إنابك لمحزونون . فتح البارى ٣ / ١٧٢ .

سؤال : يحس في نفسه عند السفر إلى الخارج بالإحراج والخجل إذا لبس لبسه الذي يدل على إسلامه . فما هو توجيهكم ؟ .

الجواب : صحيح ما قاله السائل وللأسف الشديد ، فعلى الرغم من أننا نحن الأعلون نجد فينا ضعف الشخصية ، ونشعر أننا أذئاب لغيرنا في الواقع وأتباع لهم ، تجد الإنسان منا إذا رأى شيئا مفيدا لا يعزوه إلى نفسه ، ولا إلى غيره من المسلمين ، إنما يقول هذا من الحضارة الغربية أو الشرقية ، وتجده لا يعتز بشخصيته أمام تيار الفساد لهؤلاء ، وإذا كان هؤلاء يأتون إلينا في بلادنا بلباسهم الفاضح العارى الخليع حتى إن نساءهم في بلاد المسلمين تأتي ونصف فخذها عار ، ونحرها عار ورقبتها عارية ، وتمشي تدق الأرض بقدميها ، حتى تكاد تنهدم الأرض من تحتها ، ولا تبالي وهي امرأة ، فكيف بنا الرجال المسلمين ؟ كيف نخجل إذا كنا نمشي بلباسنا الساتر الإسلامي في بلادهم ؟ أفليس هذا أكبر دليل على ضعف الشخصية ؟

الجواب : بلى ، إذا عاملناهم بالمثل فقد عاملناهم بالعدل . إذا كانوا هم يأتون إلى بلادنا بلباسهم غير مبالين بشعورنا ، فلماذا لا نأتي نحن بلباسنا حين نسافر إليهم ولا نبالي بشعورهم .

على أنه حدثني من أثق به - وهو الآن رهين في قبره - يقول : إنه سافر إلى عاصمة بلد غربية وكان في لباسه الإسلامي الوطني - مشلح وقميص ، وعقال وغترة - يقول : فوجدت منهم الإكرام الكثير ، حتى إنهم يتبادرون لفتح باب السيارة إذا أردت الركوب ، انظر الإنسان إذا اعتر بالله عز وجل أعزه الله ، لكن أما أن نتخذل أمامهم فإن هذا ليس من شأن المسلم ، ولو أننا راجعنا التاريخ وإلى معاملة المجاهدين المسلمين لأعدائهم في الحروب لوجدت كيف كانت العزة من هؤلاء المسلمين مع أعدائهم ، ثم إن الذي ينبغي للإنسان المسلم أن يحافظ على كرامته بحيث لا يعتقد أن مدنيتهم الزائفة هي الحضارة ، بل الصواب أن تبدل الضاد بالقاف فتكون (الحقارة) ، لأن الحضارة التي تؤدي إلى هدم الأخلاق ، وإلى التفسخ ، بل وإلى الكفر بالله عز وجل ، والله لا يصح أن نسميها حضارة مهما كان الأمر ، الحضارة الحقيقية وهي التقدم النافع إنما هي بالتمسك بدين الإسلام وأخلاقه ، فلماذا نعطي هؤلاء الثمن رخيصة ؟ لنقول أنتم أهل الحضارة ونحن أهل التأخر ، مع أن الواجب أن نتقدم نحن بإسلامنا عقيدة وعملا ومنهاجا لتكون الحضارة منا إليهم .

الصدق أليس من الحضارة ؟ الجواب : بلى وهو يوجد فى الإسلام ، والإسلام يحث عليه : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » (١) ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » (٢) .

لكن مع الأسف أن كثيراً من المسلمين قد فقد منهم الصدق ، إذن فنحن لم نمثل الإسلام فى هذا الجانب الكبير العظيم .

النصح والبيان فى المعاملة جاء به الإسلام ، يقول عليه الصلاة والسلام : « البَيْعَان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما ، وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما » (٣) . فهل هذا النصح والبيان موجود فى معاملة كل المسلمين ؟ الجواب : لا ، بل هو مفقود فى المعاملة من بعض المسلمين ، بعض المسلمين لا يصدق ولا يبين ، بل يأتى إليك ويقول : هذه السلعة قيمتها مائة ريال ، والحقيقة أن قيمتها خمسون ريالاً ، أليس هذا كذبا وغشاً ؟! والإسلام ينهى عن ذلك ، ويقول النبى صلى الله عليه وسلم : « من غش فليس منا » (٤) فيتبرأ منه النبى صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك فبعض المسلمين يغش - والعياذ بالله - وإذا تأملت أحوالنا نحن المسلمين - وجدت أمراً مخجلاً ، وجدت أن التعاليم الإسلامية التى تأمر بالصدق ، والبيان ، واللين ، واللطف ، مفقودة من بيننا ، والعكس هو الموجود فى كثير منا ولذلك يمكن أن نقول إن بعض المسلمين يُنْفَر من الإسلام بسلوكة المخالف للإسلام .

* * *

(١) سورة التوبة الآية : ١١٩ .

(٢) البخارى : كتاب الأدب - باب قول الله تعالى «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ» .

فتح البارى ٥٠٧ / ١٠

(٣) البخارى : كتاب البيوع - باب إذا بين البيعان ولم يكتما ونصحا . فتح البارى ٤ / ٣٠٩ .

(٤) مسلم : كتاب الإيمان - صحيح مسلم شرح النووى ١٠٩ / ٢ .

سؤال : ما رأيك فى الحادثة ؟ .

الجواب : قال فضيلته بعد أن استوضح الأمر من الحاضرين :

أولاً : الحادثة على حسب ما فهمنا أنها حرب على اللغة العربية التى هى لغة القرآن ، والذى فهمت الآن من كلامكم أن منها أناساً عرباً تنكروا لعروبتهم ، وهذا لاشك لا يرضاه أى إنسان عاقل أن يتنكر للغته مهما كان ؛ ولهذا تجد أن الإنجليز فى القمة فى الفرح والسرور أن تكون لغتهم هى المستخدمة فى عامة العالم ، لأن استخدام اللغة وبقاء اللغة هو بقاء لأهلها ، فهؤلاء القوم الآن يريدون أن يقتلوا أنفسهم بمحو لغتهم التى يمحي بها وجودهم ، ويكونوا بين الناس لا يُشعر بعروبتهم ، ولا بلغتهم التى هى أكمل لغة فى العالم منذ خلق الله العالم إلى اليوم .

ثانياً : فهمت منكم أيضاً أنهم يريدون القضاء على الأديان السماوية حتى اليهودية والنصرانية ، فهم لا يرضون لأنفسهم أن يكونوا مسلمين ، ولا يهود ، ولا نصارى ، لأن هذا ينتمى إلى دين ، وهم على حسب ما سمعت من شروحك لا يريدون الانتماء إلى شىء سابق ، حتى لو كان دين الله وشرعية الله .

ولاشك أن هذا إلحاد تام يشبه قول من قال الله فيهم : « وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ »^(١) ، ولا يرتاب عاقل أن هذه ردة ، وأن من قام بها يستتاب ، فإن تاب وإلا وجب قتله ، لأنه مرتد ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من بدل دينه فاقتلوه »^(٢) .

ثالثاً : فهمت من كلامكم أيضاً أنهم يريدون القضاء على كل خلق حسن مادام قد كان سابقاً ، لأن القاعدة يجب أن تنجر على كل شىء ، على دين ، خلق ، لغة ، وما أشبه ذلك . إذن يجب القضاء على كل خلق حسن سليم ، وحينئذ ينسلخ الإنسان حتى من بشريته ، ويلتحق بالبهائم العجم التى إذا اشتهى الفحل أن ينزو على الأنثى نزا عليها ، وأقرانه يشاهدونه ، وإذا اشتهى أى شىء لم يمنعه عن تناوله أى عقل .

(١) سورة الأنعام الآية : ٢٩ .

(٢) البخارى : كتاب الجهاد - باب لايعذب بعذاب الله . فتح البارى ٦ / ١٤٩ .

رابعاً : وفهمت من تقريركم لها أن هذه الحداثة تلبس لباس النفاق وهو البلية العظمى ، وقد قال الله تعالى فى المنافقين : « هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ »^(١) ، وقال عن الشيطان : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا »^(٢) ، ومن تأمل الفرق بين الأسلوبين وجد أن المنافقين أعظم ضرراً على المؤمنين من الشياطين .

فيجب علينا - معشر المسلمين - أن ندعو هؤلاء بالوازع الإيماني دعوة صدق وإخلاص إلى أن يرجعوا إلى دين الله عز وجل ، وإلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن نبرهن لهم أن هذا كفر محض ، فإن لم يُجد شيئاً فالواجب علينا وعلى ولاية الأمور أن يستعملوا معهم الردع السلطاني المبني على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم حتى لا ينتشر هذا السم القاتل فى جسم الأمة الإسلامية .

وإذا كنا نحاول القضاء على المخدرات ، وهو من واجبنا ، لأن المخدرات قتل للمعنويات وللرجولة وفساد للأخلاق ، فيجب علينا القضاء على هذا المذهب الخبيث أكثر وأكثر من القضاء على المخدرات والمسكرات وسيئات الأخلاق .

وعلى شبابنا المثقف أن يبين ما يخفى تحت ستار تغيير الأسلوب فى النظم والنثر وأن يكشف ما يخفى تحت هذا الستار من هذه المعانى التى ذكرتموها لإخوانكم هنا . فالأمر خطير مادام هذا شأنه .

ليست المسألة أن تغير أسلوب :

قفا نبيك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

إلى كلام منثور لا يعرف أوله من آخره ، وليس بين معانيه ارتباط ، ولا بين ألفاظه تناسب ، فهو عار عن الفصاحة وخال من البلاغة .

وسبحان الله إذا انتكست القلوب رأت المعيبة حسنة ، وإلا فمن قرأ هذه الأشعار عرف أنه ليس بشعر . شخص يأتى بشرط كامل مكون من كلمة

(١) سورة المنافقون الآية : ٤ .

(٢) سورة فاطر الآية : ٦ .

والشطر الذى بعده من عشر كلمات فهل يسمى هذا شعرا ؟ أين الشعر الذى يهز المشاعر ؟ وأين النظم الذى يكون رائقا للنفوس محببا إليها ؟ ولكن لا نحب أن نذكر مثالا يليق بهذا الذوق ونسأل الله تعالى لهم الهداية ، وأن يردهم إلى الحق ، وأن يعيذنا وإياكم من مضلات الفتن وأن يجعلنا ممن رأى الحق حقا واتبعه ورأى الباطل باطلا واجتنبه .

* * *

سؤال : ما هى البدعة وما هى ضوابطها ؟ .

الجواب : البدعة ضابطها التعبد لله عز وجل بما لم يشرعه الله ، وإن شئت فقل : التعبد لله تعالى بما ليس عليه النبي صلى الله عليه وسلم ولا خلفاؤه الراشدون .

فالتعريف الأول مأخوذ من قوله تعالى : « **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ** » ^(١) ، والتعريف الثانى مأخوذ من قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « **عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور** » ^(٢) .

فكل من تعبد لله تعالى بشيء لم يشرعه الله أو بشيء لم يكن عليه النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون فهو مبتدع سواء كان ذلك التعبد فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته ، أو فيما يتعلق بأحكامه وشرعه .

أما الأمور العادية التى تتبع العادة والعرف ، فهذه لا تسمى بدعة فى الدين ، وإن كانت تسمى بدعة فى اللغة ، لكن ليست بدعة فى الدين ، وليست هى التى حذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والبدع الدنيوية كثيرة جدا ، منها مثلا فى المبانى والمسكن والفرش والكراسى وغيرها كثيرا جدا .

وليس هناك بدعة حسنة فى الدين ، فالسنة الحسنة هى التى توافق الشرع ، وهذه تشمل أن يبدأ الإنسان بالسنة ، أو يحييها بعد إماتتها ، أو

(١) سورة الشورى الآية : ٢١ .

(٢) رواه مسلم فى كتاب الجمعة - باب تخفيف الصلاة والخطبة . صحيح مسلم ٥٩٢ / ٢ .

يفعل شيئاً يسنه يكون وسيلة لأمر متعبد به .

فهذه ثلاثة أشياء :

أولاً : إطلاق السنة على من ابتدأ العمل وهو سبب الحديث فإن النبي صلى الله عليه وسلم حث على التصديق على القوم الذين قدموا عليه صلى الله عليه وسلم وهم في حال صعوبة جدا ، فحث على التصديق ، فجاء رجل من الأنصار بصرة من فضة قد أثقلت يده ، فوضعها في حجر النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها »^(١) .

ثانياً : السنة التي أميتت ثم فعلها الإنسان فأحيها ، فهذا يصح أن نقول إنه سنّها ، بمعنى أحيها ، مثل أن تكون بعض السنن أماتها الناس ، وصاروا لا يعملون بها ، ثم يأتي رجل موفق فيعمل بها ، ويبدأ الناس بالعمل بها ، فهذا يقال سن سنة ، بمعنى أنه أحيها ، وإن كان لم يشرعها من عنده .

ثالثاً : أن يفعل شيئاً يكون وسيلة لأمر مشروع ، فهو في نفسه غير مشروع لكنه وسيلة ، مثل بناء المدارس ، وطبع الكتب ، وتصنيف العلم ، وما أشبه ذلك ، فهذا لا يتعبد لله تعالى بذاته ، لأنه وسيلة لغيره . فكل هذا داخل في قوله صلى الله عليه وسلم : « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

* * *

سؤال : ما مدى صحة هذا الحديث : « لو رمى أحدكم بحبل لوقع على الله » ، وما معناه ؟ وما مدى تأثيره على العقيدة الإسلامية إن صح ؟ .

الجواب : هذا الحديث كما قال السائل : إن صح ، والعلماء مختلفون في تصحيحه ، والذين قالوا إنه صحيح يقولون : إن معنى الحديث : لو

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٦ / ٢٢٦ . كتاب العلم حديث (١٥) .

أدليتم بحبل لوقع على الله عز وجل ، لأن الله تعالى محيط بكل شيء فكل شيء هو في قبضة الله سبحانه ، حتى إن السموات السبع والأرضين السبع في كف الرحمن عز وجل كخردلة في يد أحدنا ، يقول الله تعالى في القرآن : « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ »^(١) ، ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن يكون دالا على أن الله سبحانه وتعالى في كل مكان أو على أن الله تعالى في أسفل الأرض السابعة ، فإن هذا ممتنع شرعا وعقلا وفطرة ، لأن علو الله سبحانه قد دل عليه كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والعقل والفطرة والإجماع .

أما الكتاب : فقد قال الله تعالى : « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ »^(٢) وقال : « سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى »^(٣) وقال : « ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ »^(٤) ، والأدلة كثيرة جدا فكل آية تدل على صعود الشيء إلى الله أو رفع الشيء إلى الله أو نزول الشيء من الله ، فإنها تدل على علو الله عز وجل .

وأما السنة : فإنها أيضا متواترة على علو الله عز وجل ، من قول الرسول صلى الله عليه وسلم وفعله وإقراره ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينٌ مِنْ فِى السَّمَاءِ »^(٥) . وأما فعله ؟ فقد خطب النبي صلى الله عليه وسلم في أمته يوم عرفة فقال لهم : « أَلَا هَلْ بَلَغْتَ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، فَرَفَعَ إصْبَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ ، وَبَنِكَتْهَا لِلنَّاسِ ، وَيَقُولُ : اللَّهُمَّ اشْهَدْ »^(٦) .

وأما إقراره صلى الله عليه وسلم : فحين سأل الجارية أين الله ؟ قالت :

(١) سورة الزمر الآية : ٦٧ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ٦١ .

(٣) سورة الأعلى الآية : ١ .

(٤) سورة الحديد الآية : ٤ .

(٥) البخارى : كتاب المغازى - باب بعث على بن أبى طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن . فتح البارى ٨ /

٦٧ .
(٦) انظر صحيح البخارى كتاب العلم - باب (٣٠ ، ٣٧) .

(فى السماء) قال : « أعتقها فإنها مؤمنة » (١) .

وأما الإجماع : فقد أجمع الصحابة ، والتابعون لهم بإحسان من أئمة هذه الأمة ، وعلمائها على أن الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء ، ولم ينقل عنهم حرف واحد أن الله ليس فى السماء ، أو أنه مختلط بالخلق ، أو أنه لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا متصل ولا منفصل ، ولا مباين أبدا . بل النصوص عندهم كلها متفقة على أن الله تعالى فى العلو وفوق كل شيء .

وأما العقل : فإنه يدل أيضا على علو الله بأن نقول : هل العلو صفة كمال أم السفلى ؟ فالجواب : العلو ، والله عز وجل قد قال فى كتابه : « **وَاللَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى** » (٢) ، فكل وصف أكمل فهو لله عز وجل ، وإذا كان العقل يدل على أن العلو كمال وجب أن يثبت العلو لله عز وجل ، وتقرير ذلك أن يقال : إن الله عز وجل إما أن يكون فى الأعلى أو فى الأسفل أو فى المحاذى ، ففى الأسفل مستحيل لنقصه ، وفى المحاذى فهو أيضا مستحيل لنقصه ، لأنه يلزم أن يكون مساويا للمخلوق ، فلم يبق إلا العلو ، والله سبحانه وتعالى عال فوق كل شيء .

أما الفطرة : فإن كل إنسان مفطور على أن الله تعالى فى السماء ، تجد الإنسان يقول يا الله . أين يذهب ؟ إلى السماء ، حتى الإنسان الذى ما درس ولا قرأ عندما يقول : يا الله ما يجد فى قلبه ضرورة إلا إلى العلو ، ولهذا كان أبو المعالى الجوينى - عفا الله عنه - كان يقرر فى الاستواء على العرش ويقول : إن الله كان ولا مكان وهو الآن على ما كان عليه . يريد بذلك أن ينكر استواءه على عرشه ، فقال له أبو العلاء الهمدانى : يا شيخ أو قال يا أستاذ : دعنا من ذكر الاستواء ، لأن الاستواء على العرش إنما ثبت بالسمع لا بالعقل ، وأخبرنا عن هذه الضرورة التى نجدها فى نفوسنا ، ما قال عارف قط يا الله ، إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو ؟ فجعل أبو المعالى يضرب على رأسه ويقول : حيرنى الهمدانى ، أى جعلنى فى حيرة ، فلا أستطيع أن أرد على هذه الفطرة ، لأن الدلالة الفطرية لا يمكن إبطالها أبدا .

فنحن نقول : إن الله تعالى فوق كل شيء ، وإذا كان فوق كل شيء فإنه

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٥ / ٢٤ .

(٢) سورة النحل الآية : ٦٠ .

لا يمكن أن يكون المراد بهذا الحديث « لو رميتم بحبل إلى الأرض السابعة لوقع على الله » لا يمكن أن يراد به أن الله تعالى في الأرض السابعة .

وأما ما جاء في القرآن ما يدل ظاهره على خلاف ما قررناه مثل قوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ »^(١) فلا تقتضى هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى في الأرض كما هو في السماء ، لأن الله تعالى يخبر عن ألوهيته هو في السماء إله وفي الأرض إله ، لا يخبر عن مكانه أنه في السماء والأرض ، لكن يخبر أنه إله في السماء وإله في الأرض . كما تقول : فلان أمير في المدينة وأمير في مكة ، فالمعنى أن إمارته ثابتة في المدينة وفي مكة ، وإن كان هو قطعاً في أحد البلدين وليس فيهما جميعاً ، فهذه الآية لا تعارض ما ثبت من علو الله عز وجل .

* * *

سؤال : كيف يتعامل المسلم المتبع للسنّة مع أخيه صاحب البدعة ؟ وهل يجوز هجره ؟ .

الجواب : البدع تنقسم إلى قسمين : بدع مكفرة ، وبدع دون ذلك ، وفي كلا القسمين يجب علينا نحن أن ندعو هؤلاء الذين ينتسبون إلى الإسلام ومعهم البدع المكفرة وما دونها ، أن ندعوهم إلى الحق دون أن نهاجم ما هم عليه إلا بعد أن نعرف منهم الاستكبار عن قبول الحق ، لأن الله تعالى قال للنبي صلى الله عليه وسلم : « وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ »^(٢) ، فندعو هؤلاء أولاً إلى الحق ببيان الحق وإيضاحه بأدلته ، والحق مقبول لدى كل ذي فطرة سليمة ، فإذا وجد منهم العناد والاستكبار فإننا نبين باطلهم ، على أن بيان باطلهم في غير المجادلة معهم أمر واجب .

أما هجرهم ، فهذا يترتب على البدعة ، إذا كانت البدعة مكفرة ويجب هجره ، وإذا كانت دون ذلك فإننا نتوقف في هجره : إن كان في هجره مصلحة فعلناه ، وإن لم يكن فيه مصلحة اجتنبناه ، وذلك أن الأصل في المؤمن تحريم هجره لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لرجل

(١) سورة الزخرف الآية : ٨٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ١٠٨ .

مؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث»^(١) . فكل مؤمن وإن كان فاسقا فإنه يحرم هجره ما لم يكن في الهجر مصلحة ، فإذا كان في الهجر مصلحة هجرناه ، لأن الهجر دواء ، أما إذا لم يكن فيه مصلحة أو كان فيه زيادة في المعصية والعنوة ، فإن ما لا مصلحة فيه تركه هو المصلحة .

فإن قال قائل : يرد على ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم هجر كعب ابن مالك وصاحبيه الذين تخلفوا عن غزوة تبوك .

فالجواب : أن هذا حدث من النبي صلى الله عليه وسلم وأمر بهجرهم ، لأن في هجرهم فائدة عظيمة ، فقد ثبت هؤلاء على ما هم عليه ، وازدادوا تمسكا بذلك ، حتى إن كعب بن مالك رضى الله عنه جاءه كتاب من ملك غسان يقول فيه : (إنه بلغني أن صاحبك - أى الرسول صلى الله عليه وسلم - قد جفاك ، وإنك لست في دار هوان ولا مذلة ، فالحق بنا نواسك ، فأخذ الكتاب وذهب به فأحرقه في التنور ، وقال : إن هذا من البلاء) وصدق ، فإن هذا من البلاء والفتنة ، لو لم يكن عنده من الإيمان الراسخ ما عنده لفرح بهذا الكتاب ، وذهب إلى الملك ليجعله من أبناء الملوك ، وانظر ثاقب حكمته رضى الله عنه حيث ذهب بالكتاب فأحرقه في التنور ، لأنه لو بقى بيده لكان يخشى أن يفكر ويعيد التفكير مرة ثانية فيغويه الشيطان ويذهب إلى ملك غسان .

فهؤلاء حصل في هجرهم مصلحة عظيمة ، ثم النتيجة التي لا تعدلها نتيجة أن الله أنزل فيهم كتاباً يتلى إلى يوم القيامة : « وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » ثم قال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ »^(٢) ، كما صدق هؤلاء . فأنزل الله فيهم هذه الآية .

* * *

سؤال : ما حكم الحلف بغير الله تعالى ؟ مع أن النبي صلى الله عليه وسلم روى عنه أنه قال : « أفلح وأبيه إن صدق » ؟ .

(١) البخارى : كتاب الأدب - باب الهجرة . فتح البارى ١٠ / ٤٩٢ .

(٢) سورة التوبة الآيتان : ١١٨ ، ١١٩ .

الجواب : الحلف بغير الله عز وجل مثل أن يقول : (وحياتك) أو (وحياتي) أو (والسيد الرئيس) أو (والشعب) كل هذا محرم بل هو من الشرك ؛ لأن هذا النوع من التعظيم لا يصح إلا لله عز وجل ومن عظم غير الله بما لا يكون إلا لله فهو شرك ، لكن لما كان هذا الحالف لا يعتقد أن عظمة المحلوف به كعظمة الله لم يكن الشرك شركاً أكبر ، بل كان شركاً أصغر ، فمن حلف بغير الله فقد أشرك شركاً أصغر .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت »^(١) وقال صلى الله عليه وسلم : « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك »^(٢) فلا تحلف بغير الله أياً كان المحلوف به ، حتى لو كان النبي صلى الله عليه وسلم أو جبريل أو من دونهم من الرسل أو من الملائكة أو البشر ، أو من دون الرسل ، فلا تحلف بشيء سوى الله عز وجل .

أما قول النبي صلى الله عليه وسلم : « أفلح وأبيه إن صدق »^(٣) فهذه الكلمة : (وأبيه) اختلف الحفاظ فيها فمنهم من أنكرها وقال لم تصح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وبناء على ذلك فلا إشكال في الموضوع ، لأن المعارض لابد أن يكون قائماً ، وإذا لم يكن المعارض قائماً ، فهو غير مقاوم ولا يلتفت إليه .

وعلى القول بأنها ثابتة - أى كلمة - وأبيه - فإن الجواب على ذلك : أن هذا من المشكل والحلف بغير الله من الواضح - أى من المحكم - فيكون لدينا محكم ومتشابه ، وطريق الراسخين في العلم في ذلك أن يدعوا المتشابه ويأخذوا بالمحكم ، قال الله تعالى : « هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا »^(٤) .

(١) البخارى : كتاب الأدب : فتح البارى ١٠ / ٥١٦ .

(٢) الترمذى : كتاب النذور - باب ماجاء فى كراهية الحلف بغير الله - سنن الترمذى ٤ / ١١٠ وقال : حديث حسن .

(٣) رواه مسلم فى كتاب الإيمان . صحيح مسلم شرح النووى ١ / ١٦٨ .

(٤) سورة آل عمران الآية : ٧ .

ووجه كونه متشابهاً ، أن فيه احتمالات كثيرة ، فقد يكون هذا قبل النهي ، وقد يكون هذا خاصاً بالرسول عليه الصلاة والسلام لبعد الشرك بحقه ، وقد يكون هذا مما يجرى على اللسان بغير قصد ، ولما كانت هذه الاحتمالات واردة على هذه الكلمة إن صحت عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، صار الواجب علينا أن نأخذ بالمحكم وهو النهي عن الحلف بغير الله .

ولكن قد يقول بعض الناس : إن الحلف بغير الله قد جرى على لسانه ويصعب عليه أن يدعه فما الجواب ؟ .

نقول : إن هذا ليس بحجة ، بل جاهد نفسك على تركه والخروج منه . وأذكر أنني قد نهيت رجلاً يقول : (والنبي) وكان يخاطبني في شيء فقال : (والنبي لا أعود لها) فهو قالها على أساس أنه يؤكد أنه لن يعود لها ، لكنها تجرى على لسانه . فنقول : حاول بقدر ما تستطيع أن تمحو من لسانك هذه الكلمة ، لأنها شرك ، والشرك خطره عظيم ولو كان أصغر ، حتى إن شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول : إن الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : لأن أحلف بالله كاذباً أحب من أن أحلف بغيره صادقاً .

قال شيخ الإسلام : وذلك لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكبيرة .

* * *

سؤال : هل للدعاء تأثير في تغيير ما كتب للإنسان قبل خلقه ؟ .

الجواب : لاشك أن للدعاء تأثيراً في تغيير ما كتب ، لكن هذا التغيير قد كتب أيضاً بسبب الدعاء ، فلا تظن أنك إذا دعوت الله فإنك تدعو بشيء غير مكتوب ، بل الدعاء مكتوب وما يحصل به مكتوب ، ولهذا نجد القارئ يقرأ على المريض فيشفى ، وقصة السرية التي بعثها النبي صلى الله عليه وسلم فنزلوا ضيوفاً على قوم ولكنهم لم يضيفوهم ، وقدر أن لدغت حية سيدهم فطلبوا من يقرأ عليه ، فاشتراط الصحابة أجره على ذلك ، فأعطوهم قطيعاً من الغنم ، فذهب أحدهم فقرأ عليه الفاتحة ، فقام اللدغ

كأنما نشط من عقاله^(١) . أى كأنه بعير فك عقاله ، فقد أثرت القراءة فى شفاء المريض .

فللدعاء تأثير لكنه ليس تغييراً للقدر ، بل هو مكتوب بسببه المكتوب ، وكل شيء عند الله بقدر ، وكذلك جميع الأسباب لها تأثير فى مسبباتها بإذن الله ، فالأسباب مكتوبة والمسببات مكتوبة .

* * *

سؤال : قال بعض الناس : معنى لا إله إلا الله إخراج اليقين الفاسد على الأشياء وإدخال اليقين الصادق على الله أنه هو الضار والنافع والمحى والمميت وكل شيء لا يضر ولا ينفع وأن الله هو الذى وضع فيه الضر والنفع ، فما قولكم ؟ .

الجواب : قول هذا القائل قول ناقص ، فإن هذا المعنى من معانى لا إله إلا الله ومعناها الحقيقى الذى دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكفر به المشركون أنه لا معبود بحق إلا الله ، فالإله بمعنى مفعول ، وتأتى فعال بمعنى مفعول ، وهذا كثير ، ومنه فراش بمعنى مفروش ، وبناء بمعنى مبنى ، وغراس بمعنى مغروس ، فإله بمعنى مألوه ، أى الذى تأله القلوب وتحبه وتعظمه ولا يستحق هذا حقاً إلا الله . فهذا معنى لا إله إلا الله .

وقد قسم العلماء التوحيد إلى أقسام ثلاثة : ربوبية وألوهية وأسماء وصفات . فتوحيد الربوبية هو إفراد الله سبحانه بالخلق والملك والتدبير ، وتوحيد الألوهية هو إفراد الله سبحانه بالعبادة ، وتوحيد الأسماء والصفات هو إفراد الله بما يجب له من الأسماء والصفات بأن نثبتها لله تعالى على وجه الحقيقة من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل .

وقد يقول البعض إن هذا التقسيم للتوحيد بدعة . ولكن نقول بتتبع النصوص الواردة فى التوحيد وجدناها لا تخرج عن هذه الأقسام الثلاثة ، والاستدلال المبني على التتبع والاستقراء ثابت حتى فى القرآن ، كما فى قوله تعالى : « أَفَرَأَيْتِ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا »^(٢) والجواب : لا هذا ولا هذا ، ولهذا

(١) رواه البخارى فى كتاب الطب - باب الرقى بفاتحة الكتاب . فتح البارى ١٠ / ١٩٨ .

(٢) سورة مريم الآيات : ٧٧ - ٧٩ .

قال تعالى : « كلا سنكتب ما يقول »

وبعض المتكلمين قالوا : التوحيد أن تؤمن أن الله واحد في أفعاله لا شريك له ، واحد في ذاته لا جزء له ، واحد في صفاته لا شبيه له . وهذا تقسيم قاصر .

* * *

سؤال : ما الفرق بين التشبيه والتمثيل في الأسماء والصفات ؟ .

الجواب : التشبيه والتمثيل في الأسماء والصفات بينهما فرق ؛ ولهذا ينبغي أن نقول من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تكييف ولا تمثيل ، بدل قول من غير تأويل ولا تعطيل ولا تكييف ولا تشبيه .

فالتعبير بالتمثيل أولى ؛ لأنه الموافق للفظ القرآن في قوله تعالى : « ليس كمثله شيء »^(١) « فلا تضربوا لله الأمثال »^(٢) ولم يقل ليس كشبيهه شيء ، ولا قال فلا تضربوا لله الأشباه .

وكذلك فقد صار التشبيه وصفا يختلف الناس في فهمه فعند بعض الناس إثبات الصفات يسمى تشبيها ، ويسمون من أثبت صفة لله مشبها ، فتجد ذلك عند المعتزلة كما يقول الزمخشري في تفسيره الكشاف : وقالت المشبهة . ويقصد أهل السنة والجماعة .

وثالثا : أن نفى التشبيه على الإطلاق بين صفات الخالق وصفات المخلوق لا يصح ؛ لأنه ما من صفتين ثابتتين إلا وبينهما اشتراك في أصل المعنى وهذا الاشتراك نوع من المشابهة : فالعلم مثلا للإنسان علم وللرب سبحانه علم ، فاشتركا في أصل المعنى ، لكن لا سواء . أما التمثيل فصحيح أن تنفى نفيا مطلقا .

وأیضا فلا يقال من غير تأويل بل من غير تحريف ؛ لأن التأويل في أسماء الله وصفاته ليس منفيا على كل حال ، بل ما دل عليه الدليل فهو تأويل ثابت وهو بمعنى التفسير ، وإنما المنفى هو التحريف وهو صرف اللفظ عن ظاهره بغير دليل كما صنع أهل التعطيل الذين اختلفوا فيما نفوا وأثبتوا من

(١) سورة الشورى الآية : ١١ .

(٢) سورة النحل الآية : ٧٤ .

أسماء الله وصفاته ، فمنهم من أثبت الأسماء وبعض الصفات ونفى أكثر الصفات ، ومنهم من أثبت الأسماء ونفى الصفات كلها ، ومنهم من نفى الأسماء والصفات كلها ، ومنهم من نفى كل إثبات وكل نفى ، فقال : لا تصف الله بإثبات ولا نفى .

وأهل السنة بريئون من هذا ويثبتون لله تعالى كل ما أثبتته لنفسه من الأسماء والصفات .

وكذلك فقد جاء النص بدم التحريف فى قوله : « يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ »^(١) ولم يقل يؤولون ، والتزام الألفاظ الشرعية التى جاء بها الكتاب والسنة أولى من إحداث ألفاظ أخرى لأن ما جاء فى الشرع أسد وأقوى .

* * *

سؤال : لماذا زعموا أن القرآن مخلوق فى عهد الإمام أحمد بن حنبل ، وهى الفرقة التى كانت بيدها الأمور ؟ .

الجواب : فى عهد الإمام أحمد رحمه الله وقبله ظهرت فتنة خلق القرآن وكان يقوم بها المعتزلة ، فيقولون : إن كلام الله عز وجل مخلوق من جملة المخلوقات وليس وصفا من أوصاف الله عز وجل فهو غير قائم بالله بل هو مخلوق منفصل عن الله ، فلا يفرقون بين السماء وبين كلام الله ، ولا بين الأرض وبين كلام الله ، فالكل - كما يقولون - مخلوق ، وكذلك الأنعام والمطر ، فالكل منزل ، ولاشك أنه يلزم على قولهم لوازم باطلة ، فيلزم أن يصح قول من يقول : كلام الناس هو كلام الله لأن كلام الناس مخلوق ، وإذا قلتم كل كلام مخلوق فإنه كلام الله وكذلك قولهم : إن كلام الله مخلوق . فيقال فكلام المخلوقات يعتبر كلاما لله ، لأنه مخلوق ويلزم على ذلك إبطال التقسيم فى قوله تعالى : « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ »^(٢) فإن الأمر إنما يكون عن طريق الكلام ، فإذا صار الكلام مخلوقا فالكل مخلوق وليس هناك خلق وأمر بل ليس هناك إلا خلق . ويؤدى كذلك إلى إبطال دلالة القرآن الكريم ، وله لوازم كثيرة ذكرها أهل العلم فى الكتب المطولة .

(١) سورة النساء الآية : ٤٦ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ٥٤ .

وقد امتحن الإمام أحمد رحمه الله وغيره من أهل العلم لأن المأمون - وكان خليفة المسلمين - تزعم قيادة هذا القول ودعا الناس إليه ، وكما تعرفون أنه إذا التزم الحاكم شيئاً يصعب على الناس الخروج منه ، فلم يصبر على مخالفة هذا إلا أفضاذ قليلون من الرجال ، وكان هو الذي صمد صموداً تاماً كاملاً وكان له بالتعبير المعاصر شعبية كبيرة جداً رحمه الله ، ولهذا انصب عليه العذاب والحبس واشتهر بهذا رحمه الله وحمل الله به عقيدة أهل السنة من القول بخلق القرآن ، فبقى الناس والحمد لله يقولون : القرآن كلام الله منزل غير مخلوق .

* * *

سؤال : كيف يمكن الجمع بين الأحاديث الآتية : « كان الله ولم يك شيء قبله وكان عرشه على الماء وكتب بيده كل شيء ثم خلق السموات والأرض »^(١) . وفي مسند أحمد عن لقيط بن صبرة قلت : يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : « كان في عماية .. »^(٢) . وحديث : « أول ما خلق الله القلم »^(٣) . فظاهر هذه الأحاديث متعارض في أي المخلوقات أسبق في الخلق ، وكذلك ما جاء أن أول المخلوقات هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .

الجواب : هذه الأحاديث متفقة مؤتلفة وليست بمختلفة ، فأول ما خلق الله من الأشياء المعلومة لنا هو العرش واستوى عليه بعد خلق السموات ، كما قال تعالى : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » وأما بالنسبة للقلم فليس في الحديث دليل على أن القلم أول شيء خلق ، بل معنى الحديث أنه في حين خلق القلم أمره الله بالكتابة ، فكتب مقادير كل شيء ، وأما محمد صلى الله عليه وسلم فهو كغيره من البشر ، خلق من ماء أبيه عبد الله بن عبد المطلب ولم يتميز على البشر من حيث الخلقة ، كما قال عن نفسه : « إنما أنا بشر أنسى كما تنسون »^(٤) . فهو عليه الصلاة والسلام يجوع ويعطش ويبرد ويصيبه الحر ويمرض ويموت ، فكل شيء يعتري

(١) رواه البخاري : كتاب التوحيد - باب وكان عرشه على الماء . . فتح الباري ١٣ / ٤٠٣ .
(٢) مسند الإمام أحمد ٤ / ١١ ، ١٢ . وهو عند الترمذي وفيه : (كان في عمامة ماتحته هواء وما فوقه هواء وخلق عرشه على الماء .) وقال : حديث حسن . سنن الترمذي ٥ / ٢٨٨ .
(٣) رواه الترمذي : كتاب التفسير - سورة القلم . وقال حسن غريب . سنن الترمذي ٥ / ٤٢٤ .
(٤) (رواه البخاري : كتاب الصلاة - باب التوجه نحو القبلة حيث كان . فتح الباري ١ / ٥٠٣ .

البشرية من حيث الطبيعة البشرية فإنه يعتريه ، لكنه يتميز بأنه يوحى إليه وأنه أهل للرسالة كما قال تعالى : « اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » (١) .

* * *

سؤال : ما هي البدعة الحسنة والبدعة السيئة ؟ .

الجواب : كل بدعة سيئة ، والذي أخبرنا بذلك هو رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي اجتمع في خبره كل صفات الكمال : العلم ، والنصح ، والصدق ، والفصاحة ، وهذه أمور مسلمة عند جميع المسلمين .

وقد قال صلى الله عليه وسلم في كلام واضح جلى : « كل بدعة ضلالة » (٢) . وهذه جملة عامة شاملة مسورة بكل التي هي نص في العموم ، ولم يقسمها إلى حسنة وسيئة ، ومن ادعى في بدعة أنها حسنة فدعواه باطلة لأنه إما أن يظنها بدعة وليست بدعة ، وإما أن يظنها حسنة وليست حسنة . ولكن أن يجتمع في الشيء أنه بدعة وأنه حسن فلا يمكن ؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « كل بدعة ضلالة » .

وإذا تأملت كلام من قسم البدعة إلى حسنة وسيئة وغيره من أهل العلم وجدت أن ما سموه بدعة ليس ببدعة ، لأن البدعة هي أن يبتدع الإنسان في دين الله ما ليس منه ، أما ابتداع وسائل غير معروفة في عهد النبوة يتوصل بها إلى تحقيق أمر شرعى فالوسائل تكون بحسب هذه المقاصد ، ولهذا كان من العبارات المشهورة عند أهل العلم : للوسائل أحكام المقاصد .

فمن البدع التي لم تكن معروفة في عهد النبوة تصنيف العلوم الشرعية : هذا علم تفسير ، وهذا حديث ، وهذا فقه ، وتقسيم مسائل الفقه : هذا صوم ، وهذه صلاة ، وهذه طهارة ... فلم يوجد ذلك في الأحاديث النبوية الشريفة ، ولا أعلمه في كلام الخلفاء الراشدين ، ولكن أهل العلم قسموه لتقريب العلم وحصره حتى لا يتشتت في أذهان الناس ، فهو حينئذ وسيلة لتحقيق أمر ثبتت مشروعيته .

وكذلك لم يكن المصحف مكتوبا على هذا النحو الموجود عليه اليوم ،

(١) سورة الأنعام الآية : ١٢٤ .

(٢) صحيح مسلم ٥٩٢/ ٢ .

فقد نَقط وشكل ، وهذه بدعة غير مستقلة ، بل هي وسيلة لتحقيق أمر مشروع وهو ضبط القرآن وحفظه حتى لا يلحن فيه الناس ، بل إن الناس مع ذلك يخطئون ويلحنون ، ونحمد الله فقد انتشرت مدارس تحفيظ القرآن وتعليم تجويده وتلاوته .

أما ما جاء عن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضى الله عنه وأرضاه ، عندما جمع الناس على إمام واحد فى صلاة التراويح وقال : « نعمت البدعة هذه » . فهذه بدعة نسبية إلى الزمن ؛ لأن القيام على إمام واحد حدث على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد صلى بأصحابه عدة ليال ثم تركه خوفاً أن تفرض عليهم ، وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام زالت هذه العلة ، وبقي الناس يصلون أوزاعاً فجمعهم عمر وأعاد ما كان وأمر أبى ابن كعب وتميماً الدارى أن يقوموا للناس بإحدى عشرة ركعة ، كما هو العدد الثابت عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وإن هذا العدد ليس على سبيل الوجوب ، ومن قال لا تجوز الزيادة عليه أو النقص عنه فقد أخطأ ، بل ذلك جائز .

ومن صلى خلف إمام يزيد على هذا العدد فالسنة فى حقه أن يتابع الإمام لعموم قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما جعل الإمام ليؤتم به » ، ولأن السلف قد اختلفوا فى عدد ركعات قيام رمضان ، فدل ذلك على أن الأمر جائز . والله أعلم .

* * *

سؤال : هل علامات القيامة الكبرى تأتى بالترتيب ؟ وكيف يظهر خروج يأجوج ومأجوج ؟ وهل الحيوانات تشعر بعلامات القيامة دون الإنس والجن ؟ .

الجواب : أشراط الساعة الكبرى بعضها مرتب ومعلوم ، وبعضها غير مرتب ولا يعلم ترتيبه ، فمما جاء مرتباً نزول عيسى بن مريم وخروج يأجوج ومأجوج والدجال ، فإن الدجال يبعث ثم ينزل عيسى بن مريم فيقتله ثم يخرج يأجوج ومأجوج .

وقد رتب السفاريني رحمه الله فى عقيدته هذه الأشراط لكن بعض هذا الترتيب تطمئن إليه النفس وبعضها ليس كذلك .

والترتيب لا يهمننا ، وإنما يهمننا أن للساعة علامات عظيمة إذا وقعت فإن الساعة تكون قد قربت ، وقد جعل الله للساعة أشرطا ؛ لأنها حدث هام يحتاج الناس إلى تنبيههم لقرب حدوثه .

ولا ندري هل تشعر البهائم بذلك ، ولكن البهائم تبعث يوم القيامة وتحشر ويقتص من بعضها لبعض فيقتص للشاة الجلحاء من القراء .

* * *

سؤال : ما معنى قول الأشاعرة في الرؤية ، إن الله لا يرى إلا بالجهة ، وما هو رد أهل السنة والجماعة ؟ .

الجواب : يقول الله عز وجل في القرآن حين ذكر القيامة : « وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ »^(١) فأضاف النظر إلى الوجوه ، والذي يمكن به النظر في الوجوه هو العين ، ففي الآية دليل على أن الله سبحانه وتعالى يرى بالعين ، ولكن هل رؤيتنا لله عز وجل تقتضى الإحاطة به ؟ لا ، أبدا ولا يمكن أن تحيط به ؛ لأن الله تعالى يقول : « وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا » فإذا كنا لا يمكن أن نحيط بالله علما ، والإحاطة العلمية أوسع وأشمل من الإحاطة البصرية ، دل ذلك على أنه لا يمكن أن نحيط به إحاطة بصرية ، ويدل على ذلك قوله تعالى : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ »^(٢) فالأبصار وإن رأت لا يمكن أن تدركه فالله عز وجل يرى بالعين رؤية حقيقية ، ولكنه لا يدرك بهذه الرؤية ؛ لأنه عز وجل أعظم من أن يحاط به ، وهذا الذى ذهب إليه السلف ، ويرون أن أكمل نعيم ينعم به الإنسان أن ينظر إلى وجه الله عز وجل ، ولهذا كان من دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم : « أسألك لذة النظر إلى وجهك »^(٣) ما قال النظر ، قال : « لذة النظر » ؛ لأن لهذه النظرة لذة عظيمة لا يدركها إلا من أدركها بنعمة من الله ، وفضل منه ، وأرجو الله أن يجعلنى وإياكم منهم .

هذه هي حقيقة الرؤية التى أجمع عليها السلف ، أما من زعم أن الله لا يرى بالعين وأن الرؤية عبارة عن كمال اليقين ، فإن قوله هذا باطل مخالف للأدلة ، ويكذبه الواقع أيضا ؛ لأن كمال اليقين موجود فى الدنيا أيضا ، قال

(١) سورة القيامة الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ١٠٣ .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ٥ / ١٩١ . وكذلك سنن النسائي كتاب السهو .

النبي صلى الله عليه وسلم فى تفسير الإحسان : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وعبادة الله كأنك تراه فهذا هو كمال اليقين .

فدعوى أن النصوص الواردة فى الرؤية تعنى كمال اليقين ؛ لأن المتيقن يقينا كاملا كالذى يشاهد بالعين ، أقول إن هذا تحريف وليس بتأويل ، بل هو تحريف باطل يجب رده على من قال به .

وهنا أمثلة ، أو هنا مثل أضربه لكم لتتحرزوا من كتب أهل البدع ، فإن أهل البدع عفاريت ، يأتون بأساليب إذا قرأها الإنسان قال ما شاء الله هذا الكلام الطيب ، وهذا الكلام الحسن فيغتر بها . فالزمخشري صاحب الكشاف وهو كتاب تفسير معروف جيد باللغة العربية ، لكنه فى الاعتقاد ردىء ؛ لأنه معتزلى ، لما أتى على تفسير قوله تعالى : « فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ » (١) .

قال : وأى فوز أعظم من دخول الجنة ، وأن يزحزح عن النار ، فهذا الكلام ظاهره جيد صحيح ، أى فوز أعظم من أن يزحزح الإنسان عن النار ويدخل الجنة ، هذا بالدنيا كلها .

لكنه أراد بهذا الكلام نفى رؤية الله عز وجل ؛ لأن رؤية الله أعظم فوزا من دخول الجنة ، ولكن عندما يقرؤه الإنسان العادى لا يظن هذا الظن ، وأنا ضربت لكم هذا المثل لتحترزوا من الكتب التى ألفها أهل البدع ، فإنها قد تضلکم وأنتم لا تشعرون ، وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى الفتوى الحموية : قال إنهم يسيغون هذه الشبهات بعبارات طويلة غريبة يحسبها الإنسان حقا بما أتته من زخارف القول ولكنها كما قيل :

حجج تهافت كالزجاج ثقالها حقا وكل كافر مكسور

* * *

سؤال : هل الرقية تنافى التوكل على الله ؟ أرجو إيضاح ذلك .
الجواب : التوكل هو صدق الاعتماد على الله عز وجل فى جلب

(١) سورة آل عمران الآية : ١٨٥ .

المنافع ودفع المضار ، يعنى أن نعتد على الله اعتمادا صادقا فى جلب المنافع ودفع المضار مع فعل الأسباب التى أمر الله بها ، وليس التوكل أن نعتد على الله بدون فعل الأسباب ، فإن الاعتماد على الله بدون فعل الأسباب طعن فى الله عز وجل وفى حكمته تبارك وتعالى ؛ لأن الله تعالى ربط المسببات بأسبابها ، وهنا سؤال من أعظم الناس فى التوكل على الله وأكملهم توكلا على الله ، والرسول صلى الله عليه وسلم هل كان يعمل الأسباب التى يتقى بها الضرر ؟ نعم ، كان إذا خرج إلى الحرب يلبس الدروع يتوقى بها السهام ، وفى غزوة أحد ظاهر بين درعيه يعنى لبس درعا ، كل ذلك استعدادا لما قد يحدث ، ففعل الأسباب لا ينافى التوكل ، إذا اعتقد الإنسان أن هذه الأسباب مجرد أسباب فقط لا تأثير لها ، إلا بإذن الله سبحانه وتعالى ، وعلى هذا فالقراءة ، قراءة الإنسان على نفسه وقراءته على إخوانه المرضى لا تنافى التوكل ، وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنه كان يرقى نفسه بالمعوذات »^(١) وثبت عنه أنه كان يرقى أصحابه إذا مرضوا .

* * *

سؤال : ما حكم الحلف ببعض صفات الله كالغضب والرضى .. سواء إضافتها إلى الله أو بدون إضافة ؟ أرجو التوسع فى هذه المسألة .

الجواب : الحلف لا يجوز إلا بالله سبحانه وتعالى أو بصفة من صفاته ، أما الحلف بغير الله فهو شرك ، سواء كان المحلوف به وجيها عند الله عز وجل ، أم كان من سائر العباد ، ولهذا لا يجوز أن نحلف بالنبى صلى الله عليه وسلم أو أن نحلف بجبريل أو بالكعبة أو بأى شئ من المخلوقات ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت »^(٢) وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك »^(٣) والنبى محمد صلى الله عليه وسلم هو نفسه لا يرضى أن نحلف به ، ولما قال له رجل ما شاء الله وشئت ، قال : « أجعلتنى لله ندا ،

(١) رواه البخارى فى كتاب الطب - باب (٤١) - حديث (٥٧٥١) .

(٢) فتح البارى ١٠ / ٥١٦ .

(٣) سنن الترمذى ٤ / ١١٠ . وقال : حسن .

بل ما شاء الله وحده» (١) .

فتحلف بالله عز وجل فتقول والله ، والرحمن ، ورب العالمين ، ومجرى السحاب ، ومنزل الكتاب ، وما أشبه ذلك ، وكذلك تحلف بصفاته ، مثل : وعزة الله ، وقدرة الله ، وما أشبهها .

وتحلف بالمصحف ؛ لأنه كلام الله عز وجل وأنت لا تريد الحلف بالورق والجلود ، وإنما تريد الحلف بما تضمنته هذه الأوراق والجلود ، وهل يجوز الحلف بآيات الله ؟ يعنى نقول وآيات الله لأفعلن كذا فإن قصد بالآيات الآيات الشرعية أو القرآن فلا بأس ، وإن قصد بالآيات الآيات الكونية كالشمس والقمر والليل والنهار فهذا لا يجوز ، فالعامة الآن يحلفون بآيات الله . ماذا يريدون ؟ فالظاهر لى أن العامة الذين يحلفون بآيات الله لا يريدون من ذلك إلا القرآن ، وعليه فيكون الحلف بآيات الله جائزا بناءً على ما كان معروفاً ، ومعهوداً عند الحالفين بها .

* * *

سؤال : الرجال فى الجنة لهم أزواج من الحور العين ، فما الدليل على النساء ؟ .

الجواب : للنساء رجال من الذين هم من أهل الجنة ، والرجال الذين من أهل الجنة أفضل من الحور العين ، وأفضل عند الله منهم ، وعلى هذا فنصيب النساء فى الجنة قد يكون أكبر من نصيب الرجال فيها من حيث النكاح ، على أن المرأة فى الدنيا أيضا يكون لها أزواج فى الجنة ، وإذا كانت المرأة لها زوجان فإنها تخير بينهما ، وتختار أحسنهما خلقا .

* * *

سؤال : ما الفرق بين القضاء والقدر وكيف نرد على من فعل المعاصى بحجة أنها من أقدار الله ، وقال إن الله قدر عليه ؟ .

الجواب : القضاء والقدر اختلف العلماء فى الفرق بينهما فمنهم من قال : إن القدر تقدير الله تعالى فى الأزل ، والقضاء حكم الله تعالى بالشئ عند وقوعه ، فإذا قدر الله تعالى أن يكون الشئ المعين فى وقته فهذا قدر ،

(١) انظر مسند الإمام أحمد ١ / ٢١٤ .

فإذا جاء الوقت الذى سيكون فيه هذا الشيء ، فإنه يكون قضاءً ، وهذا كثير فى القرآن مثل قوله تعالى : « وَقَضَى الْأَمْرَ »^(١) « وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ »^(٢) وما أشبه ذلك .

فالقدر تقدير الله تعالى الشيء فى الأزل ، والقضاء قضاؤه به عند وقوعه ، وأما من احتج بالقدر على معاصي الله فإن حُجته باطلة ، أبطلها الله تعالى فى القرآن فقال : « سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ »^(٣) فهؤلاء احتجوا على شركهم وشرك آبائهم وتحريمهم ما أحل الله ، بأن ذلك بمشيئة الله ، وأن الله لو شاء ما أشركوا ، ولكن الله تعالى أبطل هذا فقال : « كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا » أى عذابنا ، وهذا دليل على إبطال هذه الحجة ، كذلك أيضا يبطل هذا المحتج بالقدر ، يبطل حُجته بفعله هو ، فإن هذا الرجل لو أن أحدا أمسك به بجلابيبه وجعل يضربه من خد إلى خد وقال له لِمَ تضربنى ؟ قال : هذا قدر الله ، وهذا لا يوافق عليه ، ولهذا يقال : إن سارقا رفع إلى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، فأمر عمر بقطعه ، فقال السارق مهلا : يا أمير المؤمنين ، والله ما سرقت إلا بقدر الله ، فقال له عمر : ونحن لا نقطع يدك إلا بقدر الله ، فأبطل عمر رحمه الله حُجته بحجته .

وأیضا نقول لهذا الرجل الذى احتج بالقدر : هل أنت حين عملت المعصية تعلم أن الله قدرها عليك حين أقدمت عليها وقدرت أنك ستفعلها ، هل تعلم أن الله قدرها عليك ؟ .

وأیضا نقول لهذا الرجل الذى هم أن يعمل المعصية ثم أقدم عليها ، هل هو حين هم بها علم أن الله قدرها عليه ؟ لا ؛ لأن القضاء والقدر سر مكتوم ما يطلع عليه إلا الله عز وجل ، أو من شاهده بعد وقوعه ، فإذا كان هو لا يعلم بقضاء الله حين أقدم على المعصية ، فلماذا لا يقدر أن الله كتبه سعيدا ممتثلا لأمر الله ، فيعمل بما يقتضى السعادة ؟ نقول : الآن حالك فيه

(١) سورة البقرة الآية : ٢١٠ .

(٢) سورة غافر الآية : ٢٠ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ١٤٨ .

احتمالان :

يحتمل أنك مكتوب شقياً ، ويحتمل أن تكون سعيداً .

وهل أنت تعلم ذلك ؟ ما تعلم ، فلماذا لا تعمل بعمل السعداء ، وتقدر أن الله تعالى كتبك سعيداً ؟ ، ونقول : أيضاً هل تؤمن بأن الله كتب لك رزقك ؟ فسيقول : نعم ، وهل أنت تسعى لهذا الرزق وتعمل له ؟ سيقول : نعم ، أسعى وأعمل له ، إذن فهو يسعى للرزق ويطلبه ويسافر ويضرب الأرض يميناً وشمالاً من أجل الحصول على الرزق ، مع أنه يعلم أن الرزق مكتوب ، ليس يقول سألني في بيتي وما قدر لي فيصلي إليّ ، ونقول له : إذا كان الله تعالى قدر لك أولاداً ، فهل أنت تطلب هؤلاء الأولاد بالزواج أو تترك الزواج ، ونقول سيأتي الأولاد إن شاء الله ، وبالطبع فهو يختار الثاني ، يطلب الزواج حتى يحصل الأولاد .

والحاصل أن الاحتجاج بالقدر على معاصي الله احتجاج باطل وليس له حجة أبداً والله أعلم .

* * *

سؤال : ما الفرق بين الإرادة والمشئنة الشرعية والكونية ؟ .

الجواب : الإرادة تنقسم إلى قسمين : إرادة كونية ، وإرادة شرعية . فما كان بمعنى المشئنة فهو إرادة كونية ، وما كان بمعنى المحبة فهو إرادة شرعية . قال الله تعالى : « وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ »^(١) فهذه إرادة شرعية ؛ لأنه بمعنى المحبة ، ولماذا لا تكون بمعنى المشئنة ؛ لأنه لو شاء الله أن يتوب علينا لتاب على جميع العباد ، وهذا أمر لم يكن ، فإن أكثر بني آدم من الكفار ، إذن يريد أن يتوب عليكم ، يعني يحب أن يتوب عليكم . قال تعالى : « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ »^(٢) .

فإذا كانت إرادة شرعية يعني هذا أنها محبة ، يحب اليسر بكم لكن قد يقع اليسر وقد لا يقع « إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا »^(٣) معناه أن العسر موجود ، ولو كانت الإرادة هنا بمعنى المشئنة ما وجد عسر أبداً ؛ لأن ما شاء الله

(١) سورة النساء الآية : ٢٧ .

(٢) سورة البقرة الآية : ١٨٥ .

(٣) سورة الانشراح الآية : ٦ .

كان ، وما لم يشأ لم يكن .

إذن يريد الله بكم اليسر ، إرادة شرعية .

يقول هود عليه السلام لقومه : « إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ »^(١) فهي إرادة كونية ؛ لأن الله لا يريد أن يغوى العباد .

إذن ما يصح أن يكون المعنى : (إن كان الله يحب أن يغويكم) لا يمكن هذا ، بل المعنى : (يريد أن يغويكم) أى يشاء أن يغويكم ، فهي إذن إرادة كونية . « فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا .. »^(٢) فهي بمعنى المشيئة ، والشاهد الذى يدل عليه من القرآن : « مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »^(٣) ، إذن هذا توازن « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ » « وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ » فكانت الإرادة هنا بمعنى المشيئة فهي إذن كونية .

وما الفرق بين الإرادة الكونية والشرعية من حيث المراد أم من حيث وقوع المراد ؟ .

نقول : الفرق بينهما ، الكونية لا بد فيها من وقوع المراد ، فإذا أراد الله شيئاً كوناً فلا بد أن يقع « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »^(٤) .

أما الإرادة الشرعية فقد يقع وقد لا يقع ، فقد يريد الله عز وجل هذا الشيء شرعاً ويحبه ، ولكن لا يقع ؛ لأن المحبوب قد يقع وقد لا يقع .

فإذا قال قائل : هل الله يريد المعاصي ؟ يريدونها كوناً لا شرعاً ؛ لأن الإرادة الشرعية بمعنى المحبة والله لا يحب المعاصي ، لكن يريدونها كوناً ، أى مشيئة فكل ما فى السموات والأرض فهو بمشيئة الله .

وما تقولون فى إيمان أبى بكر رضى الله عنه ، فهل هو مراد كوناً ، أو مراد شرعاً ؟ فهو مراد شرعاً وكوناً ، فكونه شرعاً ؛ لأن الله يحبه ، وكونه كوناً لأنه وقع .

(١) سورة هود الآية : ٣٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ١٢٥ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٣٩ .

(٤) سورة يس الآية : ٨٢ .

وإيمان أبي جهل ، شرعاً لا كوناً يعنى أن الله يحب أن يؤمن أبو جهل لكنه سبحانه وتعالى ما أرادته لحكمة ، إذن هو مراد شرعاً لا كوناً .

كفر المؤمن ؟ فهذا رجل مؤمن بالله ، فكفره بالنسبة للإرادة غير مراد شرعاً ولا مراد كوناً ، فغير مراد شرعاً ، لأنه لا يحب أن يكفر ، ولا كوناً ؛ لأنه لم يكفر .

فتبين بهذا أن الإرادتين قد تجتمعان وقد تنتفيان ، وقد تنتفي إحداهما دون الأخرى .

أما المشيئة فإنها ليست إلا قسماً واحداً فقط وهى أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وكل ما فى الكون من وجود أو عدم ، فإنه بمشيئة الله عز وجل .

فإذا قال قائل : كيف يشاء الله عز وجل أن يكفر الكافر ؟ .

الجواب : أنه يشاء سبحانه وتعالى ذلك لما فيه من المصلحة العظيمة .. لولا وجود الكفر لم يحصل فضل الإيمان ؛ لأن الأشياء تتبين بضدها ، فلولا وجود الكفر ما قام الجهاد فى سبيل الله ، ولولا وجود المعاصى ما قام أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ولولا وجود الكفار والعصاة ما صار هناك امتحان للإنسان ؛ لأن الإنسان إذا وجد كل الناس مؤمنين صار إيمانه عادياً وتبعاً لغيره ، فصار وجود المعاصى لاشك حكمة عظيمة .

بل لولا وجود المعاصى ما كنا نرفع أيدينا إلى الله ونقول : اللهم اغفر لنا وارحمنا ، فإذا تأملت وجدت أن ما شاء الله تعالى فهو حكمة ، وكل شيء معلق بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة ، ودليل ذلك قوله تعالى : « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا » (١) فمشيئته سبحانه وتعالى مبنية على علم وحكمة ، بخلاف مشيئة الخلق ، فإن الإنسان قد يشاء الشيء بغير حكمة ، أما مشيئة الله فإنها مقرونة بالحكمة .

* * *

(١) سورة الإنسان الآية : ٣٠ .

سؤال : رأى النبي صلى الله عليه وسلم أحوال أهل الجنة والنار ليلة الإسراء ولم يدر جزاء ولا حساب ؟

نقول : إن النبي صلى الله عليه وسلم أخبرنا بذلك ، وأنه رأى الجنة والنار ، ورأى أقواماً يعذبون ، وأقواماً ينعمون ، والله أعلم بكيفية ذلك ؛ لأن أمور الغيب لا يدركها الحس ، فمثل هذه الأمور إذا جاءت يجب علينا أن نؤمن بها كما جاءت ، وأن لا نتعرض لطلب الكيفية ؛ لأن عقولنا أقصر وأدنى من أن تدرك هذا الأمر .

فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن أمور لا يمكن إدراكها بالأصل ، أخبر صلى الله عليه وسلم : « أن الله ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير كل ليلة ، ويقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له »^(١) ومعلوم الآن أن ثلث الليل يدور على الكرة الأرضية ، فإذا انتقل من جهة حل في جهة أخرى ، فقد تقول أنت كيف يكون ذلك ، فنقول لك عليك أن تؤمن بما أخبرك به النبي صلى الله عليه وسلم ولا تقل كيف ولم ؟ .

وبعض العلماء ذكر كلمة موجزة نافعة . قال : قل بَمَ أمر الله ، ولا تقل لم أمر الله ؟ ؛ لأنك إذا قلت بَمَ أمر الله تسأل عن المأمور به لتفعله ، لكن إذا قلت لِمَ ، معناها قد تكون متعنتاً تسأل عن حكمة إن بدت لك وإلا استكبرت ، وأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها لما سُئِلَتْ : ما بال الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ؟ فهل قالت : إن الصلاة تتكرر كل يوم وفي قضائها على الحائض مشقة ، والصوم لا يأتي في السنة إلا مرة ويصير عليها القضاء . أهكذا قالت عائشة ؟ . بل قالت : كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة^(٢) . إذن ما هي الحكمة ؟ الحكمة أن هذا هو الشرع ، وأمر الله ورسوله ، فإذا علمنا أن هذا أمر الله ورسوله ، فإننا نعمل علم اليقين أنه مبنى على الحكمة .

* * *

سؤال : ما صحة هذه العبارة : يقول شخص للآخر اجعل صلتك بالرسول ، وهل صحيح أن نقول : اجعل صلتك بالله ؟ .

(١) رواه البخارى فى كتاب التهجد باب (١٤) حديث (١١٤٥) .

(٢) رواه مسلم فى كتاب الحيض . صحيح مسلم بشرح النووى ٤ / ٢٨ .

الجواب : معلوم أن الإنسان إذا نصح أخاه قال : اجعل بينك وبين الله صلة بمعنى أن تديم طاعة الله ولا سيما في الصلاة ؛ لأن الصلاة صلة بين العبد وبين ربه ، ولا حرج أن نقول : اجعل بينك وبين الرسول صلة من حيث اتباع سنته صلى الله عليه وسلم ، لا من حيث أن تستغيث به ، أو أن تدعوه هو ، فإن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم شرك أكبر ، والاستغاثة به شرك أكبر ، وهو صلى الله عليه وسلم لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا . قال الله تعالى له : « قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ » ^(١) وقال الله له : « قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا * قُلْ إِنِّي لَا يُجِيرُنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا » ^(٢) فمن استغاث برسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مشرك شركا أكبر مخرجاً عن الملة ، وكذلك من دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أغثنى ، يا رسول الله هبى لى مالا ، يا رسول الله ارزقنى ولداً وما أشبه ذلك .. فهذا شرك أكبر مخرج عن الملة ، ويجب على من وقع منه ذلك أن يتوب إلى الله عز وجل ، وأن يجعل دعاءه واستغاثته بالله سبحانه وتعالى ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يغيثه .

والرسول صلى الله عليه وسلم لا يستطيع أن يشفع للخلق إلا بإذن الله ، فكيف يغيث الخلق بدون الله عز وجل .

فالذى يقول اجعل بينك وبين الله صلة ، أى بالتعبد له ، واجعل بينك وبين الرسول صلة أى باتباعه فهذا حق ، أما إذا أراد بقوله اجعل بينك وبين الرسول صلة أى اجعله هو ملجأك عند الشدائد ومستغاثك عند الكربات فإن هذا محرم بل هو شرك أكبر مخرج عن الملة .

* * *

سؤال : ما هو مذهب أهل السنة والجماعة في الرجاء والخوف ؟ .

الجواب : اختلف العلماء : هل يقدم الإنسان الرجاء أو يقدم الخوف ، فهل الأفضل أن تقدم الرجاء وتؤمن بالله عز وجل أو تقدم الخوف وتخشى عقابه ، فقال الإمام أحمد رحمه الله ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه

(١) سورة الأنعام الآية : ٥٠ .

(٢) سورة الجن الآيتان : ٢١ ، ٢٢ .

واحداً أى لا يغلب الخوف ولا يغلب الرجاء ، قال رحمه الله : فأيهما غلب هلك صاحبه ؛ لأنه إن غلب الرجاء وقع الإنسان فى الأمن من مكر الله ، وإن غلب الخوف وقع فى القنوط من رحمة الله .. وكيف ذلك ؟ .

فإذا غلب جانب الرجاء صار يفعل المعاصى ، وإذا قيل له اتق الله ولا تفعل المعاصى قال : إن الله غفور رحيم ، وأنا أومن أن يغفر لى ، فيستمر فى المعاصى مع توفر النعيم لديه ، فيقع فى الأمن من مكر الله عز وجل ، وإن غلب جانب الخوف صار إذا فعل الطاعة قال : أخشى ألا تقبل منى ، لا يقول ذلك لكى يحث نفسه على الأمن ، لكن يقول ذلك يأساً من رحمة الله فيهلك بهذا ، وقال بعض العلماء ينبغى تغليب الرجاء عند فعل الطاعة وتغليب الخوف عند إرادة المعصية ؛ لأنه إذا فعل الطاعة فقد أتى بموجب حسن الظن ، فينبغى أن يغلب الرجاء وهو القبول ، أن الله يتقبل ويتيب ، وإذا هم بالمعصية فليغلب جانب الخوف لئلا يقع فى المعصية ، وقال آخرون ينبغى للصحيح أن يغلب جانب الخوف ، وللمريض أن يغلب جانب الرجاء ؛ لأن الصحيح إذا غلب جانب الخوف تجنب المعصية ، والمريض إذا غلب جانب الرجاء لقى الله وهو محسن الظن به ، فالذى عندى فى هذه المسألة أن هذا يختلف باختلاف الأحوال ، وأنه إذا خاف إذا غلب جانب الخوف أن يقنط من رحمة الله وجب عليه أن يرد ويقابل ذلك جانب الرجاء ، وإذا خاف إذا غلب جانب الرجاء أن يأمن مكر الله ، فليرد ليغلب جانب الخوف .

والإنسان فى الحقيقة طبيب نفسه إذا كان قلبه حياً ، أما صاحب القلب الميت الذى لا يعالج قلبه ولا ينظر أحوال قلبه فهذا لا يهमे الأمر وبهذه المناسبة أودّ أن أبلغكم أن أهم شىء هو تطهير القلب ؛ لأن الأعمال الظاهرة كل إنسان يمكن أن يقوم بها حتى المنافقون يذكرون الله ويصلون وينفقون ، لكنهم لا يقومون إلى الصلاة إلا وهم كسالى ، ولا ينفقون إلا وهم كارهون ، لكن المدار على القلب ، صَحَّ القلب ، اجعل قلبك مخلصاً لله لا تريد بعبادتك رياءً ولا سمعة ، واجعل قلبك أيضاً متبعاً للرسول صلى الله عليه وسلم ، لا تجعل بديلاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يكون لك هجرتان ؛ هجرة إلى الله بالإخلاص ، وهجرة إلى الرسول بالمتابعة له صلى الله عليه وسلم ، هذه نقطة يجب علينا أن نلاحظها دائماً ، ننظر إلى القلوب : هل هى حية ؟ هل هى ميتة ؟ ، هل فيها ما يشوبها ؟ ، أو هى

خالصة ؟ حتى نطهرها ، انظر إلى قوله تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ »^(١) فطهارة القلب هي الأصل .

نسأل الله تعالى أن يطهر قلوبنا وقلوبكم ، وأن يجعلها لينة لذكره مطمئنة بالإيمان .

* * *

سؤال : هناك قاعدة ثابتة لدى الكيميائيين والفيزيائيين أن المادة لا تستحدث ولا تنعدم ، وأغلب العلوم تقوم على هذه القاعدة ، والله سبحانه وتعالى يقول : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » فهل هناك تناقض بين القاعدة والآية ؟ .

الجواب : نعم نقول لهؤلاء الفيزيائيين والكيميائيين إن علومهم مبنية على التجارب وكثير منها يكون ظنونا لا حقيقة لكن ما دل عليه الكتاب والسنة دلالة صريحة فهو يقين حقيقي ؛ لأنه جاء من خالق الكون ، ونقول لهم ثانيا : لاشك أن هذا الكون وجد من عدم ، وما وجد من عدم فهو قابل للعدم ، وهذه قضية نظرية عقلية : كل ما كان وجوده ممكنا كان عدمه ممكنا ، وليس شيء في الوجود وجوده واجب إلا خالق الوجود سبحانه وتعالى فكل الكون وجد من عدم ، وما جاز وجوده جاز عدمه ، فإذا كانت دلالة الكتاب والسنة على أن المادة تفنى كانت المادة تفنى ، ونضرب بكل قاعدة يؤصلها هؤلاء وجوههم ، لا أقول عرض الحائط ، ولكن نضرب بها وجوههم ؛ لأن كل شيء يخالف كتاب الله وسنة رسوله مخالفة صريحة فإن الواجب أن يضرب به وجه صاحبه حتى يرتد على عقبه ، وهذا جواب على هذا السؤال .

* * *

سؤال : فسر بعض العلماء « استوى » بمعنى (استقر) ، ونسب ذلك إلى السلف الصالح مع أن بعض الأئمة ينكرونه كالذهبي في كتابه (العلو للعلی الغفار) وقال عند ترجمة أبي أحمد الفصالح : قوله استوى أي استقر ، وكذلك رد الإمام البغوي العلو .

ثم وافقه الشيخ الألباني وذكر ابن حجر العسقلاني في فتح الباري

(١) سورة المائدة الآية : ٤١ .

ج ١٣ كتاب التوحيد ، وهل ينقل عن ابن بطال التفسير أنه من تفسير المجسمة . أفيدونا جزاكم الله خيراً ؟ .

الجواب : لو سئلت أنا الآن : ما معنى قول الله تعالى : « إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ »^(١) يعنى علا عليه واستقر ، هذا هو الذى يفهمه كل إنسان ، فإذا كان هذا هو المفهوم من لغة العرب حتى عند عامة الناس ، فإن تفسيره باستولى باطل مخالف للنص ومخالف للمعهود ، لو قلنا استوى بمعنى استولى لكان العرش حين خلق السموات والأرض لغير الله ولكن الله تعالى حارب هذا الذى عنده العرش ثم استولى عليه ، وهذا غير معقول ، ولو قلنا استوى مرادف لاستولى ، لصح أن نقول إن الله استوى على الجبل واستوى على البعير واستوى على السيارة واستوى على كل ما يملكه .

فإذا قلنا استوى واستولى معناهما واحد صح أن نطلق استوى على كل ما يملكه الله عز وجل وهو مالك لكل شيء ، فيكون على هذا مستوياً على كل شيء .

ثم إن قوله تعالى : « وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ »^(٢) أى لتستولوا على ظهوره ، ولا يصير هذا ، وما قال (ما تركبون) وأنت مستولٍ على ظهره قبل أن تتركب وبعد أن تتركب فبعبيرك مستولى عليه قبل الركوب وبعده ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن استوى بمعنى علا على الشيء ، واستقر عليه ، لكن يجب أن نعلم صفات الله عز وجل لا تماثل صفات المخلوقين ، فليس استواءه تبارك وتعالى على عرشه كاستواء الإنسان على الفلك ، وعلى السرير وعلى الدابة ، وما أشبه ذلك بل هو استواء يليق بجلاله وعظمته ، لا نعلم كيفيته . ولهذا لما سئل الإمام مالك رحمه الله ، جاء رجل وهو جالس فى الحلقة قال : يا أبا عبد الله « الرحمن على العرش استوى » كيف استوى ، فأطرق مالك برأسه حتى علاه الخوف ، تعظيماً لهذا السؤال وخجلاً وحياءً من الله عز وجل ثم رفع رأسه وقال كلمته المشهورة التى هى ميزان لجميع الصفات ، قال : « الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب

(١) سورة يونس الآية : ٣ .

(٢) سورة الزخرف الايتان : ١٢ - ١٣ .

والسؤال عنه بدعة ، وما أراك إلا مبتدعاً ، ثم أمر به أن يخرج من المسجد » .

فالكلام : الاستواء غير مجهول ومعناه يعني معلوم فى اللغة العربية التى نزل القرآن بها ، والكيف غير معقول يعنى أننا لا ندركه بعقولنا ، فإذا لم ندركه بعقولنا فلنرجع إلى الدليل السمعى ، فهل ورد السمع به بالكيف يعنى هل ذكر الله كيف استوى . لا ، فإذا انتفى عنه الدليلان العقلى والسمعى وجب الكف عنه .

والإيمان به أى بالاستواء واجب . والسؤال عنه أى عن كيفيته بدعة^(١) .

* * *

سؤال : ما تفسير قوله تعالى : « إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا » ؟ .

الجواب : يقول الله عز وجل : « إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا »^(٢) أى أقرب ، لأن كاد بمعنى قرب أى أقرب من أخفائها ، ولكننى لم أخفها ، والمراد أنه سبحانه وتعالى لم يخف قربها وذلك بما جعله من الأشرط الدالة على اقترابها كقوله تعالى : « فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا »^(٣) فأشراط الساعة دليل على قربها ، والعلم بقربها نوع من العلم بها ، أما العلم بوقوعها فعلاً فهذا لا يصل إليه أحد من البشر ولا من غير البشر ، « ولهذا لما سأل جبريل النبى صلى الله عليه وسلم عن الساعة قال له : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال فأخبرنى عن أماراتها ، فأخبره »^(٤) .

هذا هو المعنى الصحيح للآية الكريمة .

وإن كان بعض العلماء يقول : إن معنى الآية أكاد أخفيها عن نفسى ،

(١) استوفى فضيلة الشيخ هذه المسألة بالتوضيح والشرح فى موضعها من شرحه للعقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وقد نشرته مكتبتنا حديثاً والحمد لله

(٢) سورة طه الآية : ١٥ .

(٣) سورة محمد الآية : ١٨ .

(٤) جزء من حديث جبريل ، أخرجه مسلم فى أول كتاب الإيمان من صحيحة .

وهذا من باب المبالغة في إخفائها ونظير هذا قول صلى الله عليه وسلم « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » فإن هذا من باب المبالغة في الإخفاء وإلا فإن الإنسان إذا تصدقت يمينه بصدقة فإن شماله سوف تعلم بلا شك ، ولكن المعنى الذى ذكرته الأول هو الصحيح ، أن المعنى « أكاد أخفيها » بحيث لا أجعل لها علامات ولكنى جعلت لها علامات ، وهذا نوع من العلم بها ؛ لأن الإنسان إذا رأى أشراف الساعة علم بقربها .

* * *

سؤال : ما رأيكم فيمن يقول حين يدعو توكلت على الله واعتصمت بالله واستجرت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله واستجرت برسول الله هل هو صحيح ؟ .

الجواب : أما قول القائل : آمنت بالله وتوكلت على الله واعتصمت بالله فهذا ليس به بأس وهذه حال كل مؤمن أنه متوكل على الله تعالى مؤمن به معتصم به ، وأما قوله واستجرت برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها كلمة منكورة والاستجارة برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته لا تجوز ، أما الاستجارة به في حياته في أمر يقدر عليه فهي جائزة ، قال الله تعالى : « وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ » (٢) .

فالاستجارة بالرسول صلى الله عليه وسلم بعد موته محرمة ، بل قد تكون شركاً ، وإذا سمعت أحداً يقول مثل ذلك فإن عليك أن تنصحه لأنه قد يكون سمعها من بعض الناس وهو لا يدري ما معناها وأنت إذا أخذته وبينت له أن هذا لا يجوز فلعل الله ينفعه على يدك .

سؤال : هل يجوز الشكر لله بالصدقة والذبح والصلاة أم أنه أمر توقيفي على سجدة الشكر ؟ .

الجواب : نعم كل طاعة يقوم بها العبد فإنه من شكر الله عز وجل ،

(١) رواه مسلم في كتاب الزكاة . صحيح مسلم بشرح النووي ٧ / ١٢٠ ، ١٢١ .

(٢) سورة التوبة الآية : ٦ .

قال الله تعالى : « اَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا »^(١) فكل عمل صالح تتقرب به إلى الله فإنه شكر ، فعلى هذا إذا حصل من النعمة فإنه يشرع له أن يسجد سجود الشكر ولا بأس أن يتصدق أو أن يعتق أو ما أشبه ذلك من أجل شكر الله تعالى على هذه النعمة وأما الذبح فقد سبق لنا أن التقرب إلى الله بالذبح لا يجوز إلا في وقته ، والذي يتقرب به إلى الله من ذبح أنواع : الأضاحي والهدى والفدية والعقيقة .

وهل الوليمة يتقرب الإنسان إلى الله بذبحها أو بلحمها ؟ .
والذى يظهر أنها من باب التعبد باللحم .

* * *

سؤال : إننى شاب متمسك بالصلاة والصيام والحمد لله ، ولكن يأتى لى فى بعض الأوقات تفكير من الشيطان يشككنى فى وجود الله ، والرسول ، والقرآن وهل هو كلام الله ؟ وهل جميع ما نفعله من صيام وصلاة وأعمال حسنة سوف نحاسب عليها يوم القيامة ؟ وأنا حائر من هذا الوسواس وأودّ التخلص منه ، وكيف أقتنع بدينى ؟ وكيف أدفع هذا الوسواس ؟ .

الجواب : أن نقول : إن هذا الوسواس الذى حصل لك هو نتيجة إيمانك لأنه كلما رأى الشيطان أن هذا الإنسان قد تمسك وأيقن أدخل عليه باب الشكوك والتشكيك لعله يفسد عليه دينه ، « وقد شكّا الصحابة رضى الله عنهم إلى النبی صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فقال : أوجدتموه . قالوا : نعم . قال : ذاك صريح الإيمان »^(٢) ومعنى صريح الإيمان أى خالص ، أى أن هذا هو الإيمان الخالص الذى ليس فيه شك ، وإنما قال الرسول صلى الله عليه وسلم « ذاك صريح الإيمان » ؛ لأن الشيطان لا يأتى إلى قلب خراب ليفسده ، ولما قيل لابن مسعود أو ابن عباس : إن اليهود لا يوسوسون فى صلاتهم . قال : نعم ، وما يصنع الشيطان فى قلب خراب . فالقلب الخراب لا يأتى إليه الشيطان ، ولكن قلب العامل هو الذى يأتى الشيطان إليه ليفسده ويدمره ، لكن ما العلاج لهذه المسألة :

(١) سورة سبأ الآية : ١٣ .

(٢) رواه مسلم فى كتاب الإيمان . صحيح مسلم بشرح النووى ٢ / ١٥٣ .

العلاج ما أرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم وهو أن يستعيز بالله فيقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وينتهي ، أى يعرض عن هذا ولا يلتفت إليه .

* * *

سؤال : ما حكم قول ما شاءت قدرة الله ، وإذا كان الجواب بعدمه فلماذا ؟ مع أن الصفة تتبع موصوفها ، والصفة لا تنفك عن ذات الله ؟ .

الجواب : لا يصح أن نقول : شاءت قدرة الله ؛ لأن المشيئة إرادة ، والقدرة معنى ، والمعنى لا إرادة له ، وإنما الإرادة للمريد ، والمشيئة للشائي ولكننا نقول : اقتضت حكمة الله كذا وكذا ، أو نقول عن الشيء إذا وقع هذه قدرة الله ، كما نقول هذا خلق الله ، وأما أن نضيف أمراً يقتضى الفعل الاختياري إلى القدرة فإن هذا لا يجوز . وأما قول السائل : (إن الصفة تتبع الموصوف) فنقول : نعم ، وكونها تابعة للموصوف تدل على أنه لا يمكن أن نسند إليها شيئاً يستقل به الموصوف وهي دارجة على لسان كثير من الناس ، يقول شاءت قدرة الله كذا وكذا ، شاء القدر كذا كذا ، وهذا لا يجوز ؛ لأن القدر والقدرة أمران معنويان ولا مشيئة لهما ، وإنما المشيئة لمن هو قادر ولمن هو مقدر .

* * *

سؤال : يقول ما رأى فضيلتكم فى هذا البيت من الناحية العقدية : وما الدهر إلا من رواة قصائدى إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

الجواب : أقول كما قال الله عز وجل :

« والشعراء يتبعهم الغاؤون * ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات »^(١) .

الشعراء دائماً يأتون بمبالغات كبيرة فالشاعر قد لا يكون عنده حينما قال هذا البيت نظر للعقيدة ولكنه من المبالغة قال :

(١) سورة الشعراء الآيات : ٢٢٤ : ٢٢٧ .

إن الدهر من رواة قصائدى يعنى أننى إذ قلت قصيدة تناقلها الناس مدى الدهور فإذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً .

ولم يرد أن الدهر - إذا قال الشعر هذا الشاعر - يقوم الدهر فينشد أبداً ولكنه يريد المبالغة .

وقد قال الشعراء إن أعذب الشعر أكذبه فدعوا الشعراء ومبالغاتهم وكذبهم .

* * * *

سؤال : فضيلة الشيخ يقوم كثير من الناس بتوزيع ورقة يدعى أنها وصية الإمام أحمد خادم الحرم فهل فيها افتراء أم ماذا ؟

الجواب : هذه الوصية من شخص مجهول سمى نفسه الشيخ أحمد ولكن فعله ليس بأحمد ، هذا الرجل ادعى أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم وأوصاه بوصية وحثه على نشر هذه الوصية وتوعد من لم ينشرها بمصائب تأتية أو تأتى أولاده ولكن هذه الوصية مكذوبة والعجيب أن الشيخ محمد رشيد رضا المشهور يقول إن هذه قد راجت منذ أكثر من مائة سنة يقول هذه راجت وأنا فى سن الطلب . وهى كلما انتهز الوضاعون الكذابون الفرصة نشروها بين الناس وعلى من رأى هذا المنشور أن يمزقه ولا يحل له أن ينشره إلا إذا كتب فيه بأن هذا موضوع مكذوب عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

* * * *

سؤال : ما هى عقيدة أهل السنة والجماعة فى أسماء الله وصفاته وكيف تميز بين الاسم والصفة وهل يلزم من ثبوت الاسم ثبوت الصفة ومن ثبوت الصفة ثبوت الاسم ؟ ومثل للصفة الفعلية والأخرى للخبرية ؟

الجواب : عقيدة أهل السنة والجماعة فى أسماء الله وصفاته هى إثبات ما أثبتته الله لنفسه من الأسماء والصفات من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل .

الفرق بين الاسم والصفة :

الاسم : ما سمي الله به ، والصفة : ما وصف الله به . وبينهما فرق ظاهر منها : أن الاسم يعتبر علماً على الله عز وجل متضمناً للصفة . هل يلزم من إثبات الاسم إثبات الصفة ؟ .

الجواب : يلزم مثاله « إن الله غفور رحيم » غفور اسم يلزم منه المغفرة ورحيم يلزم منه إثبات الرحمة .

هل يلزم من إثبات صفاته إثبات الاسم ؟

الجواب : لا يلزم مثل الكلام لا يلزم أن تثبت لله اسماً المتكلم مثلاً بناءً على ذلك تكون الصفات أوسع لأن كل اسم متضمن لصفة وليس كل صفة متضمنة لاسم .

الصفة الفعلية مثل المجيء في قوله تعالى « وجاء ربك والملك » الإتيان صفة فعلية الاستواء على العرش والصفة الخبرية مثل الوجه واليدين والعينين والقدم والساق وما أشبهها .

* * * *

سؤال : ما هي العبادات التي يمكن إهداؤها إلى الميت ؟

الجواب : القول الراجح أن جميع العبادات يمكن إهداؤها إلى الميت كالحج والصوم والصدقة والإعتاق عنه وقراءة القرآن له والعمرة وغير ذلك ولكن الذي دلت عليه السنة ألا تهدي الأعمال الصالحة للأموات يعني أن ذلك ليس بمشروع ولا مطلوب من الإنسان أن يهدي العبادات إلى الأموات وإن كان جائزاً وإنما المشروع أن يدعو لهم لقول النبي صلى الله عليه وسلم : (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له) وعلى هذا لو أتى الإنسان وقال هل الأفضل أن أتى بعمرة لأبى أو أدعو له ؟ قلنا الأفضل أن تدعو له لأن هذا الذي أرشد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * * *

سؤال : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك ما حكم هذا الدعاء وهل للسائلين حق على الله ؟

الجواب : يجب علينا أولاً أن نعلم أن التوسل إلى الله تعالى قسمان :
قسم جائز : وهو ما جاء به الشرع .
قسم ممنوع : والممنوع ما منعه الشرع .
والجائز أنواع : والتوسل إلى الله تعالى في حال الدعاء ينقسم إلى قسمين : جائز . وممنوع .

ونعني بالجائز هنا ما ليس بممنوع فلا يمنع أن يكون مستحباً .

أولاً : التوسل إلى الله بأسمائه وهذا جائز ودليله قوله تعالى « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم :
(أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك ..) إلى آخر الحديث .

ثانياً : التوسل إلى الله بصفته ومنه ما جاء في الحديث : (اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيراً لي وتوفني ما علمت الوفاة خيراً لي) فإن علم الله الغيب صفة وقدرته على الخلق صفة وهذا التوسل إلى الله تعالى بعلمه وقدرته .

ثالثاً : التوسل إلى الله تعالى بأفعاله يعني أن تدعو الله بشيء ثم تتوسل إليه في تحقيق هذا الشيء بفعل نظيره ومنه حديث الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم) فإن صلاة الله على إبراهيم وعلى آل إبراهيم من أفعاله .

وكذلك أيضاً تقول (اللهم كما أنزلت علينا المطر فاجعله غيثاً نافعاً)
فهنا توسل إلى الله بإنزال المطر وهو فعل من أفعال الله .

رابعاً : التوسل إلى الله بالإيمان ومنه قوله تعالى « ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا » ثم قال « فاغفر لنا ذنوبنا

وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار» ^(١) . التوسل إلى الله بالإيمان .

خامساً : التوسل إلى الله بالعمل الصالح : العمل الصالح منه حديث الثلاثة الذين خرجوا في سفر فأواهم الليل إلى غار دخلوه ثم انحدرت عليهم صخرة من الجبل فسدت الباب فتوسل كل واحد منهم بصالح عمله فانفجرت الصخرة .

سادساً : التوسل إلى الله بدعاء من ترجى إجابته . يعنى أن تطلب من شخص ترجى إجابته أن يدعو الله لك وهذا كثير ومنه ما ثبت في الصحيحين عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب الناس يوم الجمعة فدخل رجل فقال يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل (يعنى من قلة المطر والنبات) فادع الله أن يغيثنا فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يديه وقال (اللهم أغثنا اللهم أغثنا اللهم أغثنا) فقامت السماء وخرجت سحابة فرعدت وبرقت وأمطرت .

وقولنا التوسل إلى الله بدعاء من ترجى إجابته هذا من النوع الجائز ولكنه هل هو من الأمر المشروع يعنى هل يشرع لك أن تقول لشخص ما ادع الله لى نقول فى هذا تفصيل :

إن كان الأمر عام يعنى طلبت من هذا الرجل أن يشفع لك فى أمر عام لك ولغيرك فلا بأس به ومنه الحديث الذى أشرت إليه فى قصة الرجل الذى جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (هلكت الأموال وانقطعت السبل) فإن هذا الرجل لم يسأل شيئاً لنفسه وإنما سأل شيئاً لعموم المسلمين .

أما إذا كان لغير عامة المسلمين فالأولى ألا تسأل أحداً يدعو لك إلا إذا كنت تقصد من وراء ذلك أن ينتفع الداعى .

فتأتى لشخص وتقول ادع الله لى هذا لا بأس به بشرط ألا تقصد به إذلال نفسك بالسؤال ولكن قصدك نفع الداعى لأنه إذا دعا لأخيه بظهر الغيب قال الملك (آمين ولك بمثله) فهذه أنواع ستة كلها جائزة .

(١) سورة آل عمران الآية : ١٩٣ .

● أما التوسل الممنوع فهو : أن يتوسل الإنسان بالمخلوق فإن هذا لا يجوز فالتوسل بالمخلوق حرام . يعنى لا بدعائه ولكن بذاته مثل أن تقول (اللهم إني أسألك بمحمد صلى الله عليه وسلم كذا وكذا) فإن هذا لا يجوز . وكذلك لو سألت بجاه الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه لا يجوز لأن هذا السبب لم يجعله الله ولا رسوله سبباً .

وأما ما جاء فى السؤال (أسألك بحق السائلين عليك) فالسائل يسأل هل للسائلين حق ؟ الجواب : نعم للسائلين حق أوجبهم الله على نفسه فى قوله تعالى : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان » وكذلك فإن الله يقول إذا نزل فى السماء الدنيا (من يدعونى فأستجيب له من يسألنى فأعطيه) فهذا حق السائلين وهو من فعل الله عز وجل والتوسل إلى الله بفعله لا بأس به .

* * * *

سؤال : فضيلة الشيخ ما معنى حديث (لو دليتم بحبل للأرض السابعة لوقع على الله) وكيف تردون على من قال بأنه يدل على الحلول ؟

الجواب : هذا الحديث أولاً أن العلماء اختلفوا فى صحته فمنهم من قال إنه حديث صحيح لا تقام به حجة والذين صححوه قالوا إن معناه إحاطة الله تعالى بكل شيء فإن الإنسان لو دلدل حبلاً من الأرض التى هو فيها فإنه سيقع على الله لأن الله يحيط بكل شيء مهما كانت فى أى بقعة من الأرض فالسماء فوقك والله فوق السماء إذن فلو أن الإنسان أدلى بحبل إلى الأرض السفلى فإنه سيقع على الله بمعنى أنه ينتهى إلى الله سبحانه وتعالى لأن الله فوق كل شيء والأرض بالنسبة للكرسى وبالنسبة للعرش ليست بشيء هى كحلقة أقيت فى فلاة من الأرض .

وأما الرد على من قال بالحلول معتمداً على هذا الحديث فإننا نقول إن الحلول مناف لكمال الله ومناقض لما أجمع عليه السلف من علو الله بذاته وحينئذ لا يمكن أن يكون الحديث الذى ذكره النبى عليه الصلاة والسلام أو ذكر عنه مناقضاً لما دل عليه القرآن وأجمع عليه المسلمون .

سؤال : فضيلة الشيخ ما الأمور التي يجب تعليقها بالمشيئة والأمور التي لا ينبغي تعليقها بالمشيئة ؟

الجواب : كل شيء مستقبل فإن الأفضل أن تعلقه بالمشيئة لقول الله تعالى « ولاتقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً * إلا أن يشاء الله » ^(١) أما الشيء الماضي فلا يعلق بالمشيئة إلا إذا قصد بذلك التعليل .

فمثلاً لو قال لك شخص دخل شهر رمضان هذا العام ليلة الأحد إن شاء . فلا يحتاج أن نقول إن شاء الله لأنه مضي وعلم . ولو قال لك قائل لبست ثوبى إن شاء الله وهو لابسها فلا يحسن أن يعلق بالمشيئة لأنه شيء مضي وانتهى إلا إذا قصد التعليل أى قصد لبس كان بمشيئة الله . فهذا لا بأس به .

فلو قال قائل حين صلى صليت إن شاء الله إن قصد فعل الصلاة فإن الاستثناء هنا لا ينبغي لأنه صلى وانتهى وإن قصد إن شاء الله الصلاة المقبولة فهنا يصح أن يقول إن شاء الله لأنه لا يعلم أقبلت أم لم تقبل .

* * * *

سؤال : ما صحة نسبة هذه الأسماء إلى الله عز وجل « الهادى » « المعين » « المنان » « المنتقم » ؟

الجواب : أما المنان فقد صحت عن النبي صلى الله عليه وسلم وأما المنتقم فليست من أسماء الله لأن الله تعالى لم يذكر هذا الوصف لنفسه إلا مقيداً وكل وصف جاء مقيداً فهو ليس من أسماء الله . لأن أسماء الله كمال على الإطلاق لا تحتاج إلى تقييد والله سبحانه وتعالى إنما ذكر المنتقم فى مقابلة الإجرام فقال « **إنا من المجرمين منتقمون** » وحينئذ لا يكون المنتقم من أسماء الله .

أما « الهادى » فبعض العلماء من أثبتها من أسماء الله وبعضهم قال بل هذا من أوصاف الله وليس اسماً .

(١) سورة الكهف الآيةان : ٢٣ ، ٢٤ .

« والمعين » كذلك ليس من أسماء الله ولكنه من صفاته فإنه هو الذى يعين من شاء من عباده .

ومن العلماء من قال إنه من أسمائه لأنه دال على معنى حسن وليس فيه نقص بوجه من الوجوه .

والله سبحانه وتعالى يقول « والله الأسماء الحسنی فادعوه بها »

* * * *

سؤال : هل نستطيع أن نثبت صفة الملل والهرولة لله تعالى ؟

الجواب : جاء فى الحديث عن النبى عليه الصلاة والسلام قوله (فإن الله لا يمل حتى تملوا) فمن العلماء من قال إن هذا دليل على إثبات الملل لله لكن ملل الله ليس كملل المخلوق . إذ إن ملل المخلوق نقص لأنه يدل على سأمه وضجره من هذا الشئ أما ملل الله فهو كمال وليس فيه نقص ويجرى هذا كسائر الصفات التى تثبتها الله على وجهه الكمال وإن كانت فى حق المخلوق ليست كمالاً .

ومن العلماء من يقول إن قوله (لا يمل حتى تملوا) يراد به بيان أنه مهما عملت من عمل فإن الله يجازيك عليه فاعمل ما بدا لك فإن الله لا يمل من ثوابك حتى تمل من العمل وعلى هذا فيكون المراد بالملل لازم الملل .

ومنهم من قال إن هذا الحديث لا يدل على صفة الملل لله إطلاقاً لأن قول القائل لا أقوم حتى تقوم لا يستلزم قيام الثانى وهذا أيضاً (لا يمل حتى تملوا) لا يستلزم ثبوت الملل لله عز وجل .

وعلى كل حال يجب علينا أن نعتقد أن الله تعالى منزّه عن كل صفة نقص من الملل وغيره وإذا ثبت أن هذا الحديث دليل على الملل فالمراد به ملل ليس كملل المخلوق وأما الهرولة فجاءت فى الحديث أيضاً .

(من أتانى يمشى أتيته هرولة)

فاختلف العلماء فى ذلك فقال بعضهم إن المعنى من فعل الطاعات على وجه بطيء فإن الله تعالى يثيبه على وجه سريع وليس هذا إثباتاً للهرولة فإن الله تعالى لا يهرول .

ومن العلماء من قال بل تثبته على ظاهره ونقول إن لله هرولة تليق بجلاله وعظمته .

* * * *

سؤال : ذكرت أن النبي هو ما أوحى إليه بالشرع ولم يؤمر بتبليغه أما الرسول فهو ما أوحى إليه بالشرع وأمر بتبليغه ولكن كيف لا يؤمر النبي بتبليغ الشرع وقد أوحى إليه ؟

الجواب : أوحى الله إلى النبي بالشرع من أجل إحياء الشرع بمعنى أن من رآه واقتدى به واتبعه دون أن يلزم بإبلاغه ومن ذلك ما حصل لآدم عليه الصلاة والسلام فإن آدم كان نبياً مكلفاً كما جاء ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع هذا فليس من الرسل لأنه قد دلت السنة بل دل القرآن والسنة وإجماع الأمة على أن أول رسول أرسله الله هو نوح عليه السلام . وآدم لابد أن يكون متعبداً لله بوحي من الله فيكون قد أوحى إليه ولم يؤمر بالتبليغ ولهذا لا يعد من الرسل .

* * * *

سؤال : ذكرتم في كتابكم المجموع الثمين - أفادنا الله به - أن المسيح الدجال غير موجود الآن وغير حي وهذا الكلام ظاهره فيه تعارض مع حديث فاطمة بنت قيس في الصحيح عن قصة تميم الداري ؟

الجواب : ذكرنا هذا مستدلين بما ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال (إنه على رأس مائة سنة لا يبقى على وجه الأرض ممن هو عليها اليوم أحد) فإذا طبقنا هذا الحديث على حديث تميم الداري صار معارضاً له لأن ظاهر حديث تميم الداري أن هذا الدجال يبقى حتى يخرج فيكون معارضاً لهذا الحديث الثابت في الصحيحين وأيضاً فإن سياق حديث تميم الداري في ذكر الجساسة في نفسى منه شيء هل هو من تعبير الرسول صلى الله عليه وسلم أولاً .

* * * *

سؤال قرأنا لك جواباً عن العذر بالجهل فيما يكفر ولكن نجد في كتاب كشف الشبهات للشيخ محمد بن عبد الوهاب عدم العذر بالجهل وكذلك في كتاب التوحيد له مع أنك ذكرت في جوابك أقوال الشيخ محمد ابن عبد الوهاب وكذلك ابن تيمية في الفتاوى وابن قدامة في المغنى نرجو التوضيح ؟

الجواب : الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله قد ذكر في رسائله أنه لا يكفر أحداً مع الجهل وإذا كان قد ذكر في كتاب كشف الشبهات أنه لا عذر بالجهل الذى كان فى صاحبه تفريط فى عدم التعلم مثل أن يعرف أن هناك شيئاً يخالف ما هو عليه ولكن يفرط ويتهاون فحينئذ لا يعذر بالجهل .

* * * *

الباب الثاني

التفسير والحديث

الفصل الأول التفسير

حول تفسير الفاتحة

فإننا نقرأ هذه السورة على أقل تقدير سبع عشرة مرة في اليوم ، ومع ذلك فإن كثيراً من المسلمين يقرءونها ولا يفهمون معناها فهم بالنسبة إليها بمنزلة الأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ، والقرآن إنما تنزل ليتدبر الناس آياته وليتذكروا بما فيه « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ »^(١) وهذه السورة أعنى سورة الفاتحة هي أفضل سورة في كتاب الله ، وهي السبع المثاني التي قال الله عنها : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ »^(٢) في سورة الحجر .

ولهذا فرض الله على لسان رسوله على كل مصل أن يقرأها في كل ركعة لقوله صلى الله عليه وسلم : (كل صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج)^(٣) يعنى فاسدة .

وقال صلى الله عليه وسلم : (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب)^(٤) .

وآياتها سبع بالاتفاق « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي » فآياتها سبع ولكن ما هذه الآيات ، قال بعض العلماء إن آياتها سبع ، تبدأ بالبسملة ، فتكون كالآتي : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا

(١) سورة ص : الآية ٢٩ .

(٢) سورة الحجر : الآية ٨٧ .

(٣) رواه أحمد والشيخان .

(٤) رواه الجماعة .

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » هذه سبع آيات ، ولكن القول الراجح أنها سبع آيات تبتدىء بالحمد رب العالمين .

ودليل ذلك ما ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله تعالى قال قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين ، فإذا قال الحمد لله رب العالمين ، قال الله حمدنى عبدى ، وإذا قال الرحمن الرحيم ، قال أثنى على عبدى ، وإذا قال مالك يوم الدين ، قال مجدنى عبدى ، وإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين ، قال هذا بينى وبين عبدى ، نصفين ، وإذا قال اهدنا الصراط المستقيم ، قال الله هذا لعبدى ولعبدى ما سأل)^(١) .

وهذا يدل على أن أول الفاتحة هو قوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين » .

كما أن بقية السور ليست بالبسملة آية منها ، فكذلك سورة الفاتحة ، ويدل لذلك أيضا المعنى واللفظ ؛ أما المعنى أن الله تعالى قال فى هذه السورة : (إنه قسمها بينه وبين عبده نصفين) ، فيقتضى أن تكون آيات منها لله وثلاث آيات منها للعبد وآية منها بينهما .

فلننظر « الحمد لله رب العالمين » آية « الرحمن الرحيم » ثانية ، « مالك يوم الدين » ثالثة ، وهذا كله لله ، « اهدنا الصراط المستقيم » آية ، « صراط الذين أنعمت عليهم » آية ، « غير المغضوب عليه ولا الضالين » آية ، فهذه ثلاث .

« إياك نعبد وإياك نستعين » آية ، بين الله وبين العبد نصفين ، ثم هذه الآية على حسب الترتيب الذى نكرت « إياك نعبد وإياك نستعين » تكون هى الآية النصف ؛ لأن قبلها ثلاث آيات وبعدها ثلاث آيات . وهذا مرجح آخر .

والمرجح الثالث أننا إذا قلنا إن أول الآيات « الحمد لله رب العالمين » صارت الآيات متناسقة متقاربة ، وإذا قلنا أن أول آياتها « بسم الله الرحمن

(١) رواه مسلم .

الرحيم » ، صارت الآية السابعة طويلة لا تتناسب مع ما قبلها ، لأنها تكون « صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » فقارنها بين قولها : « الحمد لله رب العالمين » تكون طويلة لا نسبة بينهما .

وعلى هذا فيكون القول المتعين أن أول آيات سورة الفاتحة هي : « الحمد لله رب العالمين » .

المبحث التالي : وهى معنى قوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين » فهل هو خبر بمعنى التحدث عن صفات الله الكاملة ، أو هو خبر بمعنى الأمر أى أحمد الله ؟

فالجواب هو خبر بدليل قوله تعالى فى الحديث القدسي : (حمدنى عبدى) وهذه خبر إذن الجملة خبرية محضة ليست بمعنى الأمر ، ومعنى « الحمد » هو وصف المحمود بالكمال ، يعنى أن « الحمد » يتضمن وصف المحمود بالكمال الذاتى وبالكمال المتعدى للغير فيحمد الله عز وجل على كمال صفاته وعلى كمال إحسانه ؛ أما كمال صفاته فقد قال الله عن نفسه « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى »^(١) ومعنى المثل ، الصفة ، والدليل على أن المثل يأتى بمعنى الصفة قوله تعالى : « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ »^(٢) فمعنى المثل الصفة .

ولله الصفة العليا ، فكل وصف كمال فالله عز وجل أكمله فيحمد الله على كماله . ومن ذلك قوله تعالى : « وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبِّرُهُ تَكْبِيرًا »^(٣) فهذا وصف يتعلق بكمال الصفات ، والوصف على كمال الإحسان مثل قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ »^(٤) فهذا حمد على كمال الإحسان على النعم .

وفى الحديث : (إن الله ليرضى على العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها

(١) سورة النحل : الآية ٦٠ .

(٢) سورة محمد : الآية ١٥ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ١١١ .

(٤) سورة النحل : الآية ١٥ .

ويشرب الشربة فيجمده عليها^(١) وهذا حمداً على الإحسان .
إذن فالله تعالى محمود على كمال صفاته وعلى إحسانه لعباده ، فيحمد
على هذا أو على هذا .

والفرق بين الحمد والثناء ، والله عز وجل فرّق بينهما فقال في الجملة
الأولى : (الحمد لله رب العالمين قال حمدني عبدي) ، والثانية قال :
(أثنى عليّ عبدي) ففرّق الله بين الحمد وبين الثناء .

فالحمد وصف المحمود بالكمال وإن لم يتكرر ، والثناء لا بد فيه من
تكرار الوصف بالكمال ، فإذا قرر وصف الكمال صار ثناء .

« الحمد لله رب العالمين » فالله عز وجل حمد نفسه ؛ لأنه رب
العالمين ، ومعنى الرب هو المالك الخالق المدبر ، « والعالمين » كل من
سوى الله ، فكل من سوى الله فهو عالم ، لكنهم أصناف ، عالم البشر ، عالم
الحيوان ، عالم الأفلاك ، وهكذا ، فكل من سوى الله فهو عالم حتى السموات
والأرض والنجوم والشمس والقمر ، وكل شيء فهو عالم ، وسمى عالماً
لكونه علماً على خالقه عز وجل ؛ لأن كل شيء في الكون فهو شاهد على
آيات الله ، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد ، فالعالم إذن كل من
سوى الله ، من حيوان ومن غير حيوان ، من حي وميت ، لأنه علم على
خالقه .

« الرحمن الرحيم » هذا ثناء ؛ لأنه تكرر لوصف الكمال « والرحمن »
ذو الرحمة الواسعة ، و « الرحيم » الرحمة الخاصة بالمؤمنين .

وقال بعض العلماء « الرحمن » باعتبار وصفه ، و « الرحيم » باعتبار
فعله وهذا أحسن ؛ أنه رحمن باعتبار وصفه ، ولهذا جاءت على وزن
فعلان ، ووزن فعلان يدل على السعة والامتلاء ، و « الرحيم » جاءت على
وزن فعيّل الدالة على صدور الفعل .

فالله عز وجل : « رحمن رحيم » ؛ أي ذو رحمة واسعة يرسلها إلى
من شاء من عباده ، والرحمة والإحسان إلى الخلق ، ولكن هذا ليس

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر . شرح النووي ٥١/١٧ .

بصحيح ، فليست الرحمة إرادة الإحسان ، ولا الإحسان إلى الخلق ؛ لأن إرادة الإحسان من آثار الرحمة ؛ لأن الرحيم يريد الإحسان ، والإحسان إلى الخلق نفسه من آثار الإرادة .

ولكننا نقول الرحمة صفة اتصف الله بها عز وجل وهي رحمة تليق به كسائر صفاته كسمعه وبصره وقوته وعزته فنحن نقول الرحمة صفة اتصف بها الخالق عز وجل ، وهي حقيقة لكنها رحمة تليق به .

والذى فسر الرحمة بالإحسان أو بإرادة الإحسان هم الأشاعرة ومنعوا أن يوصف الله بالرحمة ، يعنى لا تقول إن الله رحمة غير الإرادة وغير الإحسان ؛ قالوا لأن الرحمة تقتضى الرقة واللين ، والرب عز وجل منزّه عن ذلك .

فالرب قوى عظيم قادر قاهر فكيف يكون رحيماً ، ولهذا تقول الرحيم فلان ؛ يعنى رقت له ، والله عز وجل لا يمكن أن يوصف بالرقة .

وأيضاً الإرادة لها دليل عقلى ، والرحمة ليس لها دليل عقلى ، ونحن لا نثبت من صفات الله إلا ما دل على العقل .

أما نحن فنقول نثبت لله تعالى ما أثبتته لنفسه .

لذلك قالوا المراد بالرحمة الإحسان الذى هو الشئ المنفصل عن الله أو أنه إرادة الإحسان ؛ لأنهم يثبتون الإرادة .

قالوا ودليل الإرادة العقلى التخصيص ؛ يعنى كون الله عز وجل يجعل السماء سماء ، والأرض أرضاً ، والإنسان إنساناً ، والبعير بعيراً ، والحصان حصاناً فهذا يدل على الإرادة أنه أراد أن تكون السماء سماءً ، وأراد أن يكون الإنسان إنساناً فهذا التخصيص .

وهذا صحيح ونحن نوافق على أن تخصيص المخلوقات بعضها بخصائصه يدل على الإرادة .

والرحمة يقولون أيضاً الإحسان إلى الخلق ، والذى يدل عليه الرحمة ، فهل يحسن إلى غيره من ليس فيه رحمة لا ، ودلالة الإحسان إلى الخلق على الرحمة أظهر وأوضح وأبين من دلالة التخصيص على الإرادة ؛ لأن دلالة التخصيص على الإرادة لا يفهمها إلا طالب علم .

ودلالة الإحسان على الرحمة كل إنسان يفهمها ، فلو خرجت مثلاً في بعض المطر وقابلك عامي قلت له من أين المطر هذا ، قال هذا والله من رحمة الله ، فالعامي الذي لا يفهم يستدل بنعم الله على رحمة الله ، فالرحمة قد دل عليها العقل ودلالته عليها أقوى من دلالة التخصيص على الإرادة ، لكن قالوا كيف يكون هذا ، والرحمة هي الرقة واللين والله منزّه عن هذا .

فنقول إن الرحمة التي تقتضي الرقة واللين أمام الشيء إنما هي رحمة البشر ، أما رحمة الخالق فلا تستلزم ذلك ولا تقتضيه ، على أننا نمنع قولكم إن الرحمة تقتضي اللين ، لأننا نجد مثلاً ملكاً من الملوك قويا ذا سلطان وقدرة ومع ذلك يرحم الضعيف ، وبعد في حقه هذا كمألاً لا نقصاً .

فلو رأينا ملكاً قويا ذا سلطان ونفوذ وله هيبة ، لكن إذا رأى الضعيف رق له ورحمه ، هل نقول إن هذا دليل على ضعف الملك أم لا ؟ نقول لا أبداً بل هو دليل على كماله .

والمهم أن هذا بحث يستفيد منه طالب العلم . وهو أن كل من نفى صفة من صفات الله بحجة عقلية فإن هذه الحجة عليه وليست له ؛ لأنه إما أن يقر بالجميع ، وأما ينكر الجميع ، أما أن يقر بالبعض وينكر البعض فهذا من باب التناقض .

و « الرحمن » معناه ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي لا يدركها العقل و « الرحيم » الموصل للرحمة لمن شاء من عباده يعذب من يشاء ، ويرحم من يشاء .

« مالك يوم الدين » وفيها قراءة « مَلِك يوم الدين » « مالك » ، و « ملك » فيها قراءتان ، فأيهما أولى ، قال بعض العلماء :

الأولى أن نقرأ مالك بالآلف من أجل أن يكسب زيادة عشر حسنات ، وزيادة العشر حسنات جاءت من الآلف ؛ لأن كل حرف في القرآن فيه عشر حسنات ، فنقرأ مالك ، ولا نقرأ ملك ؛ لا شك إذا قرأت مالك كسبت زيادة عشر حسنات .

لكن القول الصحيح أنك تقرأ أحياناً ملك ، وأحياناً مالك ، وأن هذا أفضل من اقتصارك على مالك أو على ملك ؛ « لأن ملك صحت عن النبي

صلى الله عليه وسلم بالنقل المتواتر وتمام الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم أن تقرأ كما قرأ فى مالك وفى ملك ، وهكذا نقول فى كل آية فيها قراءتان .

إن الأفضل أن تقرأ بهذه القراءة تارة وبالقراءة الأخرى تارة أخرى ليتحقق لك متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولأجل أن لا تنسى القراءات الثابتة ؛ لأنك إذا كنت تقرأ بهذا مرة وبهذا مرة بقيت حافظاً للقراءات كلها ولكن احذر أن تقرأ بقراءة لم تتيقننها ؛ يعنى لو أن واحداً قرأ الآية على غير الموجود فى المصحف فقال : لأننى أظن أن فيها قراءة ؟ قلنا له القراءة واردة على هذا الوجه ، وإلا وجب عليك الترك .

ويستفاد من القراءتين فائدة لا تحصل بانفراد إحداهما :

انك إذا جمعت بينهما استفدت من ذلك الملكية والتصرف ؛ يعنى صار فى الآية دليلاً على ثبوت الملكية والتصرف ؛ فالملكية من ملك ، والتصرف من مالك .

ومعلوم أن الملكية والسلطان أعلى من مجرد التصرف ، لكن يوجد من يكون ملكاً بلا ملك ، ففى الملوك السابقين ، تسمع بملوك بنى أمية ، وملوك بنى العباس وغيرهم ، وأنهم ملوك صورة فقط لا يتصرف ، والذى يتصرف هم وزراءه ، وحاشيته ، أما هو فلا يتصرف ، فهذا يقال عنه إنه ملك بلا ملك ، أما الرب عز وجل فهو ملك بملك تام .

فاستفيد من القراءتين فائدة لا تكون فى إحداهما : وهو أن ملك الله عز وجل تام من كل وجه فهو ملك مالك . « يوم الدين » فيوم الدين هو القيامة « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » ^(١) هذا اليوم سمي يوم الدين ؛ لأن الناس سيَدانون به ؛ يعنى يجزون به ، والدين يطلق تارة على الجزاء وتارة على العمل قال الله تعالى : « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ » ^(٢) فالمراد بالدين هنا العمل فالإسلام عمل ، وقال تعالى : « يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ » ^(٣) فالمراد هنا

(١) سورة الانفطار : الآية ١٩ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٩ .

(٣) سورة الانفطار : الآيات من ١٥ - ١٧ .

الجزاء ، ومعناها فى الفاتحة « مالك يوم الدين » فالمراد هنا الجزاء .
يقال : (كما تدين تدان) أو (كما تعمل تجازى) ، فإذا قال قائل أليس
الرب عز وجل مالك يوم الدين والدنيا ؟
فالجواب بلى ، مالك للدين والدنيا .

إذن لماذا خص بالدين ؛ لأن ملكه يظهر تمامًا فى ذلك اليوم .
ففى ذلك اليوم يتلاشى مُلك كل مَلِكٍ ، قال الله تعالى : « يَوْمَ هُمْ
بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ
الْقَهَّارِ »^(١) فليس يوجد ملك لأحد فتلاشى الملكيات إلا مُلك الرب عز
وجل ، ولهذا قال : « مالك يوم الدين » أما فى الدنيا ففيه ملوك ، لكن فى
الآخرة ما فى ملوك .

فالكبير والصغير سواء ، والسيد والمملوك سواء ، والذكر والأنثى
سواء (يحشر الناس حفاة غرلا)^(٢) ومعنى الحفاة ما عليهم نعال ، والنبي
صلى الله عليه وسلم : (نهى عن كثرة الإرفاه ، وأمر بالاحتفاء
أحيانًا)^(٣) ، ومعنى « عراة » أى ليس عليهم كساء أو لباس ، ومعنى
« غرلاً » غير مختونى الغلف التى تقطع فى الختان تعود يوم القيامة كما
قال تعالى : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَظَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ »^(٤) .
وورد فى مسند أحمد « بُهْمًا »^(٥) أى ليس معهم مال يحشرون هكذا .
قالت إحدى أمهات المؤمنين يا رسول الله : (الرجال والنساء سواء
ينظر بعضهم إلى بعض ، قال الأمر أعظم من أن يهتمهم ذلك) « يَوْمَ يَفِرُّ
الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ
يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ »^(٦) نسأل الله أن يجعله علينا وعليكم يومًا يسيرًا .

(١) سورة غافر : الآية ١٦ .

(٢) رواه البخارى فى كتاب الرقاق - باب (٤٥) - حديث (٦٥٢٧) .

(٣) رواه أبو داود فى كتاب الترجل ٤ ٧٥ .

(٤) سورة الأنبياء : الآية ١٠٤ .

(٥) وردت رواية الحديث بهذه الزيادة فى مسند الإمام أحمد ٣/٤٩٥ .

(٦) سورة عبس : الآيات من ٣٤ - ٣٧ .

فهو يوم شديد عسير ، لكنه على المؤمنين يسير .

إذن فخص الملك بيوم الدين بظهور الملكية فيه لله عز وجل ؛ ولأن الدنيا فيها ملوك ، أما الآخرة فليس فيها إلا الملك الواحد القهار عز وجل .
قوله : « **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** » « **فإياك نعبد** » الخطاب لله عز وجل وأنتم تجدون أن الآيات الثلاث الأولى الحديث فيها بلفظ الغائب ، « **فالحمد لله رب العالمين** » وليس الحمد لك يارب العالمين ، « **الرحمن الرحيم** » غائب ، « **مالك يوم الدين** » غائب غير مخاطب ، « **إياك نعبد** » مخاطب ولم يقل إياه نعبد ، قال : « **إياك نعبد** » ففي الآية التفات والالتفات تغيير أسلوب الخطاب ، والالتفات من الغيبة إلى الخطاب .

والالتفات له فوائد :

الأولى : تنبيه المخاطب ، وهذا في كل التفات ففيه تنبيه للمخاطب .
قال تعالى : « **وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ** »^(١) ولو كانت الآية بدون التفات لقال **وَبَعَثَ مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا** لكن قال « **وبعثنا** » فيها التفات .

ويكون تنبيه المخاطب بسبب الالتفات ؛ لأن الكلام إذا جاء على نسق واحد انطبع معه الإنسان ولم يحدث شيء يوجب التفكير ، فإذا تغير الأسلوب أوجب ذلك أن يفكر الإنسان كيف يغير الأسلوب ، فإذا كان الأسلوب على وتيرة واحدة ما انتبه الإنسان ؛ لأنه متناسق ، وإذا تغير الأسلوب انتبه ، فما الذي غيره ، وكيف انتقلنا من الغيبة إلى الخطاب لماذا ؟ فإن يننبه .

ثانياً : إن في الالتفات فائدة يعينها السياق وهذه الفائدة تختلف باختلاف السياقات ففي السورة التي معنا لما حمد الإنسان ربه وأثنى عليه ومجده صار كأنه حاضر عنده يخاطبه « **الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين** » كل هذه الأوصاف جعلت المتكلم كأنه يخاطب الله عز وجل فلما انتقل من الغيبة إلى الخطاب قال : « **إياك نعبد** » ولهذا نحن في التشهد نقول : (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته) مع أن النبي

(١) سورة المائدة : الآية ١٢ .

ليس بحاضر لكن قوة استحضاره جعلتنا كأننا نخاطبه مخاطبة الحاضر .
ولهذا كان المشروع أن نقول : السلام عليك أيها النبي إلى قيام الساعة
ولا نقول كما روى البخاري عن ابن مسعود (السلام على النبي) بل نقول :
(عليك أيها النبي) ؛ لأن البخاري روى عن ابن مسعود قال : (كنا نقول
والنبي صلى الله عليه وسلم حي السلام عليك أيها النبي ورحمة الله فلما مات
قلنا السلام على النبي)^(١) .

فنقول لا ، نحن نقول السلام عليك أيها النبي ، ولو بعد موته ؛ لأن
الرسول صلى الله عليه وسلم حين علمنا ذلك لم يقل قولوا السلام عليك أيها
النبي ما دمت حياً فإذا مت فقولوا السلام عليك ؛ ولأن الصحابة وهم يقولون
السلام عليك أيها النبي لا يقصدون أنهم يخاطبونه بذلك ؛ لأنهم يقولون هذا
وهم بعيدون عنه وهو لا يسمعهم ، يكون هذا وهم في بلد آخر غير المدينة ،
فهم لا يقصدون بذلك أن يخاطبوه حتى نقول إن هناك فرقاً بين حياته
وموته .

ولهذا خطب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه كما ثبت ذلك في موطأ
مالك : (خطب الناس وعلمهم التشهد بلفظ السلام عليك أيها النبي ورحمة
الله وبركاته ولم ينكر عليه أحد ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه معلوم
بالفقه والعلم والتواضع ، ولهذا نقول إن ما ذكره أمير المؤمنين عمر هو
الصواب ، وأما ما ذكره عبد الله بن مسعود فهو اجتهد منه .

قد يكون فيه مصيباً وقد يكون فيه مخطئاً فنحن الآن نقول السلام عليك
أيها النبي ؛ لا أنه أمامنا نخاطبه بل لأنه لقوة استحضارنا له كأننا نخاطبه .

وفى قوله تعالى : « إياك نعبد » فيها ما يسمى عند البلاغيين بالحصر
وهو إثبات الحكم في المحصور فيه ونفيه عما سواه ، وطريق الحصر في
هذه الآية ، تقديم ما حقه التأخير ، وهو « إياك » ضمير مفعول به ورتبة
المفعول به بعد عامله ، و « نعبد » عامل و « إياك » معمول ، وحق المعمول

(١) انظر تحقيق الحافظ ابن حجر لهذا اللفظ عند شرحه لحديث ابن مسعود من كتاب
الأذان - باب (١٤٨) - حديث (٨٣١) .

التأخير عن العامل ؛ لكن قدم هنا لإفادة الحصر . إذن ففيها حصر وعلى هذا فيكون قوله تعالى : « إياك نعبد » على وزن قولنا : (لا إله إلا الله) من حيث المعنى ، فلا إله إلا الله فيها حصر الألوهية لله ، وأنه هو الإله وحده ، و « إياك نعبد » فيها حصر العبادة في الله ، وأنه وحده المعبود .

لكن قد يقول قائل الآية : « إياك نعبد » في العبادة (ولا إله إلا الله) في الألوهية . فنقول الألوهية هي العبادة ، لكنها بالنسبة لله تسمى ألوهية ، وبالنسبة للعبد تسمى عبودية ، ولهذا تجدون العلماء تارة يقولون توحيد الألوهية ، وتارة يسمونه توحيد العبادة .
« إياك نعبد » يعنى لا نعبد إلا إياك .

والعبادة تطلق على معنيين :

تطلع على المتعبد به ، وعلى التعبد نفسه ، فتارة يراد بها التعبد الذى هو فعل العابد ، وتارة المتعبد به الذى يتقرب به الإنسان إلى الله ؛ فعلى الأول وهى التعبد ، نقول : العبادة تذلل الإنسان لله بفعل أوامره واجتناب نواهيه ، وعلى الثانى أن العبادة بمعنى المتعبد به .

نقول كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

العبادة هى اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، فالصلاة عبادة بمعنى المتعبد به ، لكن إذا قام الإنسان يصلى أمامنا قلنا إن صلاته حركاته وأقوله وأفعاله عبادة على معنى التعبد . والعبادة لله وحده ، فلو أن رجلاً يقرأ هذه الآية « إياك نعبد » وإذا خرج من المسجد ذهب إلى قبر الولي وجعل يسجد له ويذبح له فهل صدق فى قوله : « إياك نعبد » ؟ ما صدق ؛ لأنه أشرك بالله .

ولو أن رجلاً يقرأ هذه الآية : « إياك نعبد » فخرج من المسجد فذهب يأخذ المال بالربا ، والغش والخيانة ، فهل صدق فى قوله : « إياك نعبد » ؟ ما صدق ؛ لأنه عبد الدرهم ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : (تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة ، تعس عبد الخميصة ، تعس

وانتكس وإذا شيك فلا انتقش^(١) فسمى المنهمك بتحصيل (الدرهم والدينار) سماه عبداً ، وسمى المنهمك (بالخميسة) أى بالثوب ، و (بالخميلة) أى الفراش سماه عبداً .

إذن فالمنهمك بهذه الأشياء التى يحصلها بالحلال والحرام لم يصدق فى قوله : « إياك نعبد » لكنه ليس كالذى يعبد الصنم ، بل هذا فيه نوع شرك ، لكنه لا يخرج من الملة . « إياك نعبد » فهذه جملة حق لله .

« وإياك نستعين » وهذه أيضاً فيها حصر ، يعنى لا نستعين إلا إياك ، لكن المراد بذلك استعانة العبادة ، ولا تكون إلا لله عز وجل ، أما الاستعانة بغير الله فيما يقدر عليه المستعان فهذه جائزة ، فلو قلت لشخص أعننى على حمل فراشى إلى السيارة فهذا جائز ؛ لأنه ليست استعانة عبادة وليس هذا مما لا يقدر عليه ، بل هو مما يقدر عليه وهو استعانة يراد بها أن يعين أخاه ، ولهذا قال الله تعالى : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى »^(٢) .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم وهو يعدد الصدقات قال : (وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة)^(٣) ، وكذلك أخبر أن من حق المسلم على أخيه أن يعينه إذا ظلم على دفع الظلم عنه) .

إذن الاستعانة الخاصة لله هى استعانة العبادة التى يستعين الإنسان بالله ، وهو يعتقد أن ربه أعظم منه وأعلى منه ، وأنه عبد لله ، والله ربه .

فهذه الجملة حق للآدمى فهو يطلب العون والعبادة ، يطلب التقرب إلى الله لكن هذه يطلب العون من الله ، ولهذا قال الله تعالى فى الحديث القدسى : (هذا بينى وبين عبدى نصفين) فجمع بين العبادة والاستعانة من أجل ألا يعتمد الإنسان على نفسه ويتكل على نفسه حتى فى العبادة .

استعن بالله لا تعتمد على نفسك ؛ لأنك إن وكلت إلى نفسك وكلت إلى ضعف وعجز وعورة ، فكلما أردت أن تفعل عبادة فاستحضر أنك مستعين

(١) رواه البخارى فى كتاب الجهاد - باب (٧٠) - حديث (٢٨٨٧) . وفى كتاب الرقاق

- باب (١٠) - حديث (٦٤٣٥) .

(٢) سورة المائدة : الآية ٢ .

(٣) رواه البخارى فى كتاب الجهاد - باب (٧٢) - حديث (٢٨٩١) .

بالله ، فإذا أردت أن تتوضأ فاستحضر أنك مستعين بالله فلولا إعانة الله وتيسير الماء حتى وصل إليك ، وأن الله أعطاك قدرة على استعماله ما توضأت . كل شيء أجعله مربوطاً باستعانتك ببرك عز وجل ، ولهذا قال : « إياك نعبد وإياك نستعين » .

فتستفيد باستعانة الله فائدتين عظيمتين :

الأولى : التعبد لله بالاستعانة .

الثانية : تيسير أمرك ؛ لأن الله إذا أعانك تيسر لك الأمر ، ألم تعلم أن سليمان بن داود : (قال والله لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تلد كل واحدة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله ، فقيل له قل إن شاء الله فقال لا - يعني ما قال إن شاء الله - فطاف على تسعين امرأة فيجامعهن فلم تلد إلا واحدة شق إنسان - يعني نصف إنسان -) ليرى الله عز وجل عباده أن الأمر أمره وأنه إذا لم يعنك خذلت .

وفي الجمع بين العبادة والاستعانة إشارة إلى أنه يجب على الإنسان أن يقرن جميع أعماله بالاستعانة بالله حتى لا يكله الله إلى نفسه .

قوله : « اهدنا الصراط المستقيم » .

والهداية هنا يراد بها الهدايتان :

هداية الدلالة ، وهداية التوفيق ، فالهداية هنا تشمل المعنيين .

والدليل على أنه يوجد هدايتان : الدلالة والتوفيق ، قال تعالى : « وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى »^(١) ، « فهديناهم » هنا هداية دلالة ، ولكنهم لم يوفقوا « فاستحبوا العمى على الهدى » . وقال تعالى : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ »^(٢) .

يخاطب نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، وهذه هداية التوفيق ، يعني لا تستطيع يا محمد أن توفق شخصاً ضالاً فيهدى ، لأن ذلك إلى الله تعالى ، قال الله تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »^(٣) وهذه هي هداية

(١) سورة فصلت : الآية ١٧ .

(٢) سورة القصص : الآية ٥٦ .

(٣) سورة الشورى : الآية ٥٢ .

الدلالة ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يدل الناس على الخير ، بل حتى غير الرسول يدل الناس على الخير ، قال الله تعالى : « وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ »^(١) ففي سورة الفاتحة : « اهدنا الصراط المستقيم » طلبوا الهداية من الله بالمعنيين جميعاً ، هداية الدلالة ، وهداية التوفيق .

ولهذا لم تتعد بالي ، فلم يقل الإنسان : « اهدنا إلى الصراط » بل قال : « اهدنا الصراط المستقيم » ليشمل الهدايتين جميعاً ، والصراط المستقيم هو شرع الله ، لأن الله تعالى وضع هذا الشرع ليوصل إليه ، كالطريق الذى يفتح ليوصل إلى غايته فى المكان . فالصراط هنا الشرع الذى شرعه لعباده ليوصلهم إليه ، والمستقيم هو الذى استقام حساً ومعنى ليس فيه اعوجاج وليس فيه فساد .

بل هو مستقيم حساً ومستقيم معنى ، ولو تدبرت شريعة الله ولا سيما شريعة النبى صلى الله عليه وسلم لوجدتها مستقيمة صالحة لكل زمان ومكان . فلو جاءنا رجل وقال إذا كنتم تقولون إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ، ولكن زمننا هذا لا يصلح أن تخرج المرأة إلا متبرجة حتى تشابه بنات جنسها ، فكيف تحجبها والنساء يمينا وشمالاً متبرجات كاشفات الوجوه ؟

وجاء رجل آخر قال : الاقتصاد الدولى الآن لا يستقيم إلا بالربا ؛ لأن مسألة البيع ، بيع السلع والعقارات والسيارات وما أشبه ذلك متعب لكن الربا يأخذ مائة وبعد سنة مائة وعشرين فهذا سهل ، ولا يستقيم الاقتصاد إلا بالربا ، وإذا كان لا يستقيم إلا بالربا وأنت تقول إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان فالربا من الإسلام .

وجاء رجل آخر ثالث فقال : الأديان كلها أفيونة الشعوب تقيد الحريات فتقول للرجل الذى يريد أن يشرب الخمر لا تشرب الخمر ، والذى يريد أن يزنّى لا تزن ، والذى يريد أن يسرق لا تسرق ، هذا كبت للحريات فنريد أن نطلق الحريات ، ومن يريد أن يسرق لا تسرق ، ومن يريد أن يشرب

(١) سورة السجدة : الآية ٢٤ .

الخمير فليشرب الخمر ؛ لأن هذا الزمن لا يصلح إلا بهذا ، وأنت من قاعدتك أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان .

وبعض الناس اتخذ من هذه العبارة أن جعل الإسلام بمنزلة العجينة كل يقوص على من يريد هذا خبزًا كبيرًا ، وهذا يريد خبزًا صغيرًا ، وبعض الناس اتخذ من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (أنتم أعلم بأمور دنياكم)^(١) أن مسائل المعاملات لا دخل للشرع فيها يحكم فيها العادة ، لأنه يقال : (أنتم أعلم بأمور دنياكم) ؛ يعنى وأنا لست أعلم منها شيئًا ، وهذه العبارة يتخذ منها من فى قلبه زيغ غرضًا يصل به إلى هواه « فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ »^(٢) .

ونحن نقول فى الرد على الأول ، صالح لكل زمان ومكان نقول : إن المرأة إذا خرجت كاشفة الوجه وقلت إن هذه من الصلاح ، نقول : إنك كاذب ، هذا ليس من الصلاح ، بل هذا من الفساد ، والواقع شاهد بذلك . فانظر إلى الشعوب ماذا وصلت إليه لما قيل للمرأة اخرجى كاشفة الوجه فهل اقتصرت المرأة على كشف الوجه ، بل كشفت الوجه والرأس والرقبة والنحر والساق والذراع والعضد ، وهذا فساد غير صلاح .

والمرأة حين كشفت وجهها لم تكشفه على طبيعته ، بل عملت فيه المكياج ، محمار ، سواد ، وهكذا ؛ يعنى سودت العين ، وحمرت الشفاه ، ومكيجة الخدود ، وخرجت ولم تقتصر على طبيعتها ، وهذا شيء لا نقوله عن تخرج ، نقوله عن أمر واقع ، والمرأة كما تعلمون ضعيفة ترغب أن تخرج متجلمة متمكيجة ترغب هذا فتخرج فتكون فتنة لنفسها ولغيرها ، فكيف نقول إن التبرج هو الصالح للزمان ، فالتبرج غير صالح للزمان ، بل هو فساد للزمان .

والذى قال أن الربا صالح للزمان ؛ لأنه به قوام الاقتصاد نقول : من قال هذا ، يقول لأننى أقسم الربا إلى قسمين : قسم استثمارى ، وقسم استغلالي أى استهلاكى ، فالمحرم القسم

(١) رواه مسلم فى كتاب الفضائل . شرح النووى ١١٧/١٥ ، ١١٨ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٧ .

الاستغلالى أى الاستهلاكى ، أما القسم الاستثمارى فإنه جائز ، لأن فيه مصلحة فائدة ، والإسلام صالح لكل زمان ومكان ، وهذا صلاح .

فنقول : هذا ليس بصحيح ، هذا كذب ، أما الربا الاستغلالى فظاهر أنه ظلم الذى يراد منه استغلال الفقير ، تجد الفقير ليس عنده ثوب ، ليس عنده دابة ، ليس عنده سيارة ، فهو محتاج مضطر ، فنقول أنا أعطيك ألف ريال لكن إن كانت حاجتك شديدة وإنك فقير ، فمرة يكون الألف اثنين ، فإن كان متوسط الحال فالألف بألف وخمسمائة ، وإن كان لك حول الغنى ، فالألف بألف ومائتين ، فلما اشتدت حاجته وعظم فقره زادت الضريبة عليه ؛ لأن التاجر لا يريد من هذا الربا أن يرحم الناس بل يريد أن يستعبدهم ويستغلهم ، فيقول هذا أوافق على أنه حرام ؛ لأنه ظلم ، أما إذا كان الربا استثمارياً يقصد به تنمية المال فهذا لا بأس به ، فنقول متى يكون هذا استثمارياً إنه لا يمكن أن يوجد ربا زيادة لشخص وإلا وهى نقص فى جانب الشخص الآخر ، فهذا لا بد منه زيادة يقابلها نقص كما تقول $1 + 1 = 2$ أمر واضح ، حتى وإن كان استثمارياً ؛ لأنك سوف تستثمر على حساب الآخرين فهذا ظلم .

ثم قال لك إن الربا لا يكون إلا ظلماً فقد يكون ربا غير ظلم ، ويدل لهذا أن النبى صلى الله عليه وسلم : (جىء إليه بتمر جيد فقال صلى الله عليه وسلم أكل تمرنا كهذا قالوا لا يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لكننا نأخذ الصاع هذا بالصاعين - فتكون المائة بالمائتين والصاعين بالثلاثة ، وتكون المائة بمائة وخمسين - والمهم إذا زاد زاد الكسب - فقال النبى صلى الله عليه وسلم ردوه عين الربا عين الربا)^(١) .

مع أن هذا الربا فيه ظلم ، لأن الصاع الطيب يساوى فى القيمة صاعين من الردىء ، والتراضى بين الطرفين حاصل ، فالبائع غير مظلوم ، والمشتري غير مظلوم ، ومع ذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : (هذه عين الربا ردوه) بطل البيع ، وبهذا تبين أن الربا بنوعيه حرام لا للاستثمارى ولا للاستغلال ؛ وهذا التقسيم إذا كان صاحبه يعتقد أنه عقل فهو عقل فاسد ؛ لأن كل شىء يخالف النص فهو فاسد لا يقبل .

(١) رواه البخارى فى كتاب الوكالة - باب (١١) - حديث (٢٣١٢) .

والثالث وهو صاحب الحريات فهو يريد أن يبيح الزنا والخمر والسرقة ويعطى الناس حريتهم ، لأن الحرية هى صلاح لكن حرية كاذبة خادعة ، تكون على حساب رق الآخرين ما هى صالحة ، نقول : أنت الآن زعمت أن الزنى صلاح ؛ لأنها حرية ، لكنها حرية لك ، رق لغيرك ، فساد للأنساب ، اختلاط فى الحياة ، تشويه للسمعة ، فيخرج الشعب كل واحد لا يدرى من أبوه ؛ لأن المياه اختلطت ، فيه أيضاً مرض جديد وهو بسبب الزنا أرسله الله عقوبة رجزاً من السماء وهو (الإيدز) .

والسرقة فيقول : أبغى أن أسرق عشرة آلاف ريال ، أسرق عشرين ألف ريال ، وأذهب وأشتري سيارة ، وأؤسس البيت ، فهذا خير وحرية ، لكنها على حساب الآخرين ، فهذا المسروق منه يمكن ما عنده إلا الذى أنت سرقت ؛ فأصبح هذا المسروق منه فقيراً مُعَدِّماً ، وأصبحت أنت غنياً بغير حق .

إذن أين الحرية فهذه ليست بحرية ، بل حرية خادعة باطلة على حساب رق الآخرين .

فجاء الذى يشرب الخمر فقال دعونى أكون حُرّاً ، أشرب الخمر ، ما عليكم منى ، فهذه حريتى ، فماذا نقول له ؟ نقول : أنت زعمتها حرية ، وهى رق لك أنت قبل كل أحد ؛ لأن شارب الخمر يصبح مجنوناً فيتكلم بكلام غير معقول ، وذكر بعض الوعاظ ، ولا يُدرى أن هذا صحيح أم لا ، أن شارب خمر جعل يبول ويتوضأ ببوله ويقول اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين نسأل الله العافية ؛ لأن السكر يؤدى إلى الجنون ، فهذه رق وغير حرية ، فانهبس عقلك فصرت مأسوراً ليس عندك حرية فأين الحرية .

ويأتى الصنف الرابع الملحد المارق من الإسلام ومن الأديان كلها ، فيقول : الأديان أفيونة الشعوب ومؤخرة الشعوب .

نقول له كذبت ، فالأديان عز الشعوب ، ولهذا كانت الأمة الإسلامية وهى متمسكة بدينها كانت أعز دول العالم ملكوا كسرى وقيصر ، وكان كسرا وقيصر فى ذلك الوقت كالروس والأمريكان فى وقتنا هذا .

فأعظم دول ملكها الصحابة رضى الله عنهم فى سنوات قليلة ، فكيف يقال إنه أفيون الشعوب ، لكن ضعف الشخصية فى الواقع عند المنتسبين للإسلام هى الأفيون فى الحقيقة ، ومع الأسف الآن إن الشعوب الإسلامية عندها ضعف شخصية وعندها تبعية للكفار لا ترى فى نفسها القوة ولا الانتصار الذى وعدها الله ؛ لأن العزة التى يكون بها النصر مفقودة من غالب الشعوب الإسلامية ، ولكن نحن نقول إن الشعوب الإسلامية اليوم فيها والله الحمد يقظة تبين لكثير من شبابها أن التبعية للكفار مهزلة ومزلة ، وأنه يجب أن نكون أمة إسلامية قوية تدين بدين الله عز وجل لتقهر أعداء الله ؛ لأن الله يقول : « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ »^(١) - يعنى يجعله فوق كل شىء ، ولا يظهر الإسلام إلا بظهور أهله ، ولا يظهر أهل الإسلام إلا بإظهارهم الإسلام واقتخارهم به واعتزازهم به ، وأن لا يجعلوا أنفسهم أذنانا للغير .

إن تبين والحمد لله أن الدين الإسلامى فيه كمال الحرية ، لكنها حرية متزنة تقيد النزوات ، وتقيد الانطلاقات الزائفة ، وتجعل من الشعوب شعباً معتدلاً متوازناً .

وهناك شبهة أخرى وهى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (أنتم أعلم بأمور دينكم) هذا الحديث استدل به كثير من المتأخرين على تحليل كثير من المحرمات فى باب المعاملات وقالوا إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : (أنتم أعلم بأمور دينكم) .

نقول : ما سبب الحديث حتى نعرف ما المراد به سبب الحديث ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم : (لما قدم المدينة وجد الناس يصعدون إلى الفحول - فحول النخل - ويأخذون ثمرها ثم ينزلون منها ثم يصعدون إلى إناث النخل ويلقحونها بثمر الفحول) وهذا فيه تعب وفيه إضاعة وقت ، وفيه خطر أيضاً ، فقد يسقط الإنسان من النخلة أو من الفحل ، فلما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك قال : (ماذا يغنى عنكم هذا الشىء فتركه الناس فصاروا لا يلقحونه ففسدت الثمار تلك السنة ، والذى أفسدها عدم

(١) سورة الفتح : الآية ٢٨ .

التلقيح ، فما لقحت ، وعادة إذا لم تلقح النخلة أصبحت شيصًا فاسدًا لا ينتفع به ، فجاءوا للرسول صلى الله عليه وسلم وأخبروه فقال : (أنتم أعلم بأمور دنياكم) ، ما قال بأحكام دنياكم ، فأحكام الدنيا والدين لله عز وجل ، لكن ما يكون بالتجارب هذا إلى الإنسان فقد يدرك بالتجارب ما يدركه الآخر فأنت لو طلبت منى أن أصنع كرسيًا ما عرفت ، ولو طلبت منى أن أصنع تسجيلًا ما عرفت ، ثم يجيء لكع بن لكع فيصنع مثل هذا المسجل والكرسى ، وهو دونك فى المعرفة والتقوى ؛ لأنه تعود بالممارسة ، وهذا هو الذى أراده الرسول صلى الله عليه وسلم ، أن مسائل الصناعة والحرف ترجع إلى أصحابها فهم أعلم بها ، فكل من كان محترفًا فى شىء فهو أعلم به من غيره . أما الأحكام فهى للشرع .

فالشرع يقول هذا حرام ، فحرام ، ويقول هذا حلال ، فحلال ، لكن الصناعة حرفة فهى تعود إلى الصانع .

إن هذا الحديث الذى تشبث به بعض الناس ، وهم بعض المعاصرين اليوم ، وقالوا إنه إذا كنا أعلم بأمور دنيانا فنحن نرى أن الاقتصاد لا يقوم إلا بالربا ، وحينئذ يكون عندنا علم غير علم الشرع فالربا حلال ، نقول : هذا ليس بصحيح لسنا أعلم بالأحكام من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن فى الصنائع والحرف التى لم يمارسها الرسول صلى الله عليه وسلم يكون الناس أعلم منه بها ، ولهذا كان الذين يلحقون أعلم من الرسول صلى الله عليه وسلم فى التلقيح ، فالأمر والحمد لله واضح ، وشرعية الله لا تتغير ولا تتبدل أبدًا .

واستدل بعض الناس ببعض التصرفات من الخلفاء فقالوا : إن بعض الخلفاء غير الحكم الشرعى لمصلحة رآها ، قلنا فما هى ، قالوا : إن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : (جعل الطلاق الثلاث ثلاثًا ، وكان الطلاق الثلاث فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاثة واحدة)^(١) يعنى لو قال الإنسان لزوجته أنت طالق ثلاثًا لا يقع إلا واحدة ، فلما كثر ذلك فى زمن عمر ألزم الناس بما ألزموا به

(١) رواه مسلم فى كتاب الطلاق - باب طلاق الثلاث . شرح النووى ٧٠/١٠ - ٧٢ .

أنفسهم وجعل الثلاث ثلاثا ، قال هذا تغيير اقتضته الحال ، فإذا اقتضت الحال أن يُحَلَّ الربا حللناه ، وقال أيضا إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما أكثر الناس من شرب الخمر ، استشار الصحابة وقال : ما رأيكم ؟ لأن شرب الخمر ليس فيه حد عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإنه كان يؤتى بالشارب فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم فيقوم الناس إليه يضربونه بشتى أنواع الضرب بدون حد معين ، ولهذا قال على بن أبى طالب : إن النبى صلى الله عليه وسلم لم يسنه . يعنى عقوبة شارب الخمر ، فاستشار عمر الصحابة ماذا يصنع فقال عبد الرحمن بن عوف : (أخف الحدود ثمانون) ، فجعله عمر ثمانين^(١) ، وأخف الحدود الذى هو ثمانون حد القذف .

فنقول فى الجواب عن هذا ، إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يغير الحكم الشرعى ولكنه زاد فى العقوبة لا فى مسألة الطلاق الذى ألزمه به فى ، ولكن فى مسألة زيادة عقوبة شارب الخمر ، والزيادة فى العقوبة تقتضيها المصلحة ، فلو قلت أنت الآن لما انهمك الناس فى الربا سألهم عليهم التحريم قلنا هذا صحيح ، أما لو قلت لما انهمك الناس فى الربا سأحلل الربا ، فهذا غير صحيح .

وإلا لكانت الشريعة ألعوبة ويتخذ كل جيل شريعة خاصة له .

نرجع إلى كلامنا على قوله تعالى : « اهدنا الصراط المستقيم » فذكرها بلفظ الجمع « اهدنا » والسائل هنا واحد ، وكان المتوقع أن يقال « اهدنى » كما جاء ذلك فى استفتاح صلاة الليل ، كان النبى صلى الله عليه وسلم يستفتح صلاة الليل بقوله : (اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلفوا فيه من الحق بإذنك)^(٢) فقال « اهدنى » ولم يقل اهدنا ، فلماذا جاءت فى سورة الفاتحة « اهدنا » ، وأنت تدعو وحدك تصلى منفردا وتصلى حتى مع الإمام ، وتقول « اهدنا » ؟

قال أهل العلم ، لأن المقام يقتضى ذلك ، فإن من كان يدعو الله عز وجل فإنه فى مقام عال ومنزلة رفيعة ؛ لأن الدعاء عبادة ، ولكن قد يقال

(١) انظر شرح ابن حجر للباب الرابع من كتاب الحدود فى صحيح البخارى .

(٢) رواه مسلم فى كتاب المسافرين . شرح النووى ٥٦/٦ .

هذا ينقض بأن الرسول قال : (اهدنى لما اختلف) وهو دعاء ، ولكن الظاهر والله أعلم ، أنه لما علم الله سبحانه وتعالى أن هذه السورة سيقروها من يكون إماماً للناس صارت للفظ « اهدنا » ليكون الدعاء للإمام القارىء ولمن خلفه ، ولو كان الإمام يقول : (اهدنى الصراط المستقيم) لكان يدعو لنفسه ولا يليق أن يدعو لنفسه ثم يقول الناس وراءه (آمين) فيأمنون على دعاء لا ينتفع به إلا الداعى ، وهذا ما ظهر والله أعلم .

وعلى كل حال فنحن نقول : « اهدنا الصراط المستقيم » والضمير يعود على جميع الأمة الإسلامية ، ولا يمكن أن تكون الأمة الإسلامية رفيعة المقام عزيزة المنال ، إلا إذا تمت الهداية لها جميعاً بحاكمها ومحكومها ، فإن انتفت الهداية فى أحد منهم ، اختل من العزة والكرامة بقدر ما اختل من الهداية ، ولهذا ينبغى لنا أن نستشعر ونحن نقول : « اهدنا الصراط المستقيم » أننا ندعو لأنفسنا وللأمة جميعاً .

ثم قال عز وجل : « صراط الذين أنعمت عليهم » (الذين أنعمت) فالخطاب لله عز وجل وهم أربعة أصناف بينهم الله فى قوله : « وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ »^(١) أربعة أصناف « والذين أنعمت عليهم » هم الذين علموا الحق وعملوا به ، فهؤلاء هم الذين أنعم الله عليهم وهم أربعة أصناف .

ففى هذه الآية قال : « صراط الذين أنعمت عليهم » وفى آية أخرى قال الله تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ »^(٢) وفى آية ثالثة : « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ »^(٣) فأضاف الصراط إلى نفسه ، وهنا أضافه إلى البشر ، أى إلى غيره ، فكيف يكون الأمر ، فهل هناك تناقض ، أو هناك وجه جمع ؟

الجواب : هناك وجه جمع ؛ وذلك لأن القرآن لا يمكن أن يتناقض

(١) سورة النساء : الآية ٦٩ .

(٢) سورة الشورى : الآيتان ٥٢-٥٣ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ١٥٣ .

« وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »^(١) فلا يمكن أن يتناقض القرآن بعضه مع بعض ، ولا يمكنه أن يتناقض القرآن مع صحيح السنة ، ولا يمكن أن تتناقض السنة الصحيحة بعضها مع بعض أبدًا ، فإن تراءى لك تناقض فأعد النظر مرة بعد أخرى حتى يتبين لك أن لا تناقض ، فإن لم يتبين فاعلم أن علمك قليل وفهمك ثقیل ، فعلمك قليل ؛ لأنك لم تعرف الأدلة التي يقوم بها الجمع ، أو فهمك ثقیل ؛ لأنك بليد ما تعرف أن تجمع بين النصوص .

أما مع العلم والفهم فإنه لا يمكن أيها الأخوة أن يوجد تناقض في كتاب الله ؛ ولا تناقض بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا تناقض بين كتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ووجه الجمع بين هذه الآية « صراط الذين أنعمت عليهم » وفي آية « صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » فالجمع بينهما سهل ، فنقول :

أضيف الصراط إلى الله بأمرين : الأمر الأول أنه هو الذي وضعه لعباده وشرعه لهم ، والأمر الثاني أنه موصل إليه ؛ كما لو قلت مثلًا هذا طريق مكة ؛ يعنى موصل إليها ، فصارت إضافة الصراط إلى الله بأمرين : الأمر الأول : أنه هو الذي وضعه وشرعه لعباده .
الثاني : أنه موصل إليه .

ووجه إضافته للذين أنعم الله عليهم ؛ لأنهم هم الذين رضوه وسلكوه ، فأضيف إليهم ، كما تقول مثلًا هذا شارع فلان ، إذا كان هو الذي يمشى فيه ويسير عليه ، هذا أيضا الصراط أضيف إلى الذين أنعم الله عليهم رضوا هذا الصراط وسلكوه ، فأضيف إليه .

إذن لا تناقض بين الآيات ؛ لأن كل واحدة منها حملت على وجه لا يناقض ما حملت عليه الآية الأخرى .

والذين أنعم الله عليهم هم الذين علموا الحق وعملوا به ، وهم أربعة أصناف : النبيون والصديقون والشهداء والصالحون ؛ ويدخل في النبيين هنا

(١) سورة النساء : الآية ٨٢ .

الرسول من باب أولى ؛ لأن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً .

ومعلوم أن الأعم يدخل في الأخص ، والصدِّيقون هم الذين قالوا الصدق وصدَّقوا به ، قال الله تعالى : « وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ »^(١) فمن قال الصدق وصدَّق به فهو الصَّدِّيق ، من قال الكذب ، أو كذب بالصدق فليس بالصَّدِّيق قال النبي صلى الله عليه وسلم : (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر ليهدي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً - لأنه يصدق - وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً)^(٢) ، والشهداء هم الذين قُتِلُوا في سبيل الله ، وقيل هم العلماء ، والقاعدة في التفسير أن الآية إذا كانت تحتل معنيين لا يتناقضان ، فإنها تحمل عليهما جميعاً ، لأن ذلك أوسع في مدلولها ، فإن كان لا يتناقضان رجع ما يترجح وترك الآخر ، مثال المعنيين اللذين لا يتناقضان هذه الآية الشهداء فإذا فسرت بالعلماء وبالذين قتلوا في سبيل الله لم تتناقض .

وأمثلة أخرى مثل : « وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ »^(٣)

ومعنى عسعس : أى أقبل ، وقيل معناه أدبر ، ولا تناقض بين المعنيين ؛ لأن الصبح حين إقباله وإدباره آية من آيات الله ، فهو آية من آيات حال الإقبال ، وفي حال الإدبار ، ولهذا أقسم الله « بالليل إذا عسعس ، وبالصبح إذا تنفس » ؛ يعنى أقسم الله بالليل في حال إقباله وفي حال إدباره ؛ لأن إقباله وإدباره كليهما من آيات الله .

أما إذا تناقض المعنيان فيجب الترجيح مثل قوله تعالى : « وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ »^(٤) والقروء جمع قرء بالفتح ، وفسر القرء بالحيض ، وفسر أيضا بالطهر ، ومعلوم أنه يختلف المعنى ، ولا

(١) سورة الزمر : الآية ٣٣ .

(٢) رواه مسلم في كتاب البر - باب تحريم الكذب . شرح النووى ١٥٩/١٦ .

(٣) سورة التكوير : الايتان ١٧-١٨ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٢٢٨ .

يمكن أن يتفق المعنى هذا مع هذا ، بل المعنى إما كذا ، وإما كذا ، فالمعنيان يتناقضان ، ولا يمكن أن يتفقا وحينئذ تعمل بالترجيح ، والراجح أن القرء هو الحيض ؛ لأن النبي قال في الاستحاضة (دعى الصلاة أيام أقرائك) .

يعنى أيام حيضك ، وعلى كل حال ليس هذا المقام مقام بيان وجه الرجحان ، لكن نريد أن نمثل لهذه القاعدة وهى : إذا احتملت الآية معنيين لا يتناقضان حملت على المعنيين جميعاً ؛ لأن حملها على المعنيين جميعاً أوسع فى مدلولها ، وإذا كان المعنيان يتناقضان وجب الترجيح ، وعملنا بالراجح .

إنّ الشهداء يشمل العلماء والذين قتلوا فى سبيل الله ، والعلماء أعظم شهادة من غيرهم ، قال الله تعالى : « شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوَّلُوا الْعِلْمِ »^(١) فالملائكة وأولوا العلم شهدوا بوحدانية الله ، وكلما كان الإنسان أعلم كانت شهادته بتوحيده الله أقوم وأؤكد وأعظم .

ولهذا يشهد العلماء من آيات الله وتوحيده ما لا يشهده غيرهم ، ومن ثم يتسلط الشيطان على طالب العلم بإلقاء الوسوس فى قلبه حتى إنه يأتى بوسوس يحب الإنسان أن يحترق ولا يتسلم ، فيجب أن يخر من السماء ويتمزق قبل أن يصل إلى الأرض ولا يتكلم بها ، فهى وسوس عظيمة خطيرة . يلقيها الشيطان فى قلب الإنسان إذا رأى منه إقبالا على العلم ؛ لأن العلم يوصل إلى اليقين ، والشيطان يريد منا أن نشك وأن ننزع من الدين ، لكن هذه الوسوس لا تؤثر على الإنسان بل هى صريح إيمانه كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم لما أخبروه بذلك قال : (أوجدتموه) قالوا : نعم . قال : (ذاك صريح الإيمان)^(٢) سبحانه الله وسوس تكون صريحة نعم ؛ لأن هذه الوسوس حينما يلقيها الشيطان على قلب صريح الإيمان - يعنى خالص الإيمان - لأن القلب الدامر الذى عنده شكوك يكون الشيطان معه مستريحاً ، ما يأتى إليه ويوسوس ؛ لأنه قلب خراب ، ولهذا قيل لعبد الله بن عباس أو ابن مسعود قيل له : إن اليهود لا يوسوسون فى صلاتهم قال نعم صحيح ، وما يصنع الشيطان بقلب خراب فلماذا يأتى

(١) سورة آل عمران : الآية ١٨ .

(٢) تقدم تخريجه .

الشيطان إليه طالما هو خراب .

لكن الشيطان يأتي إلى القلب العامر حتى يدمره .

ودواء هذه الوسواس أمران قال النبي صلى الله عليه وسلم : (فليستعذ بالله ولينته)^(١) ويستعيذ بالله يعنى يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لكن يقولها بقلب صادق يفتقر إلى الله عز وجل لا يقولها على اللسان ولا تصل إلى القلب ؛ لأنه إذا قالها على اللسان ولم تصل إلى القلب لا ينتفع بها ، فلا بد أن يشعر في تلك الحال أنه مفتقر إلى الله ، وأنه معتصم به ويلتجئ إلى من بيده ملكوت كل شيء وهو الله عز وجل .

الثانية : أن ينتهى أى يعرض عن هذا ، بتركه ما كأنه شيء يلهى عنه ولا يلتفت إليه ، فكثير من الناس الآن يأتيه الشيطان في مسألة الوضوء ويقول له إنك أحدثت ، فبيداً يشك هل أحدث أم لا ؟

فنقول له استعذ بالله وانته عن هذه الوسواس ، ولا تخرج من المسجد أو تقطع الصلاة حتى تسمع صوتاً أو تجد ريحاً .

والصنف الرابع الصالحون وهم الذين صلحوا في ظاهرهم وباطنهم ، وصلاح الإنسان يكون بفعل الأوامر وترك النواهي لكنه لا يصل إلى درجة الصديقية والشهداء ، ولكن يكون دون ذلك ، فالصالح من قام بحق الله وحق العباد وإن لم يصل إلى مرتبة الصديقية والشهادة .

ثم قال الله تعالى : « غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » فإذا قلنا إن الذين أنعم الله عليهم هم الذين علموا الحق وعملوا به ، وقسيم هؤلاء اثنان من جهل الحق ، ومن علم به ولم يعمل به ، ولهذا قال : « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » ، (فالمغضوب عليهم) هم الذين علموا الحق ولم يعملوا به وعلى رأسهم اليهود ، قال الله تعالى : « قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَّعْنَةِ اللَّهِ وَغَضَبِ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ »^(٢) .

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان . شرح النووي ١٥٣/٢ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٦٠ .

وهؤلاء هم اليهود ، فاليهود علموا الحق ويعرفون النبی صلی الله علیه وسلم كما يعرفون أبناءهم ولكن كذبوه فصاروا عالمين بالحق وليسوا عاملين به .

والضال هو من لم يعلم بالحق وصار يتخبط في عبادته ، وعلى رأس هؤلاء النصارى ؛ فإن النصارى ضالون لعدم علمهم بالحق ، لكن إذا علموا الحق ولم يعملوا به صاروا من جنس اليهود .

فأنت في كل صلاة الآن تسأل الله أن يهديك صراط الذين أنعم الله عليهم وأن يجنبك صراط الذين غضب الله عليهم أو أضلهم .

والذين عصوا من علماء هذه الأمة أ يكونون من المغضوب عليهم أو من الضالين ؟ بل يكونون من المغضوب عليهم ، ومن عصي من عبادنا الجاهل فهو من الضالين ، ولهذا قال سفيان بن عيينة رحمه الله : من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى ؛ لأن النصارى عبدوا الله على ضلال ، واليهود استكبروا عن عبادة الله من علم .

فصارَت هذه الآية الكريمة تشتمل على غرر من الدعاء لها أهمية عظيمة في حياة الفرد والمجتمع أيضا .

لكن هل نحن نستحضر هذه المعاني ؟ لا نستحضر هذه المعاني ، بل نقرأها للتعبد بلفظها فقط ، أما المعنى فنحن لا نعلم ، ويأسف الإنسان أن يجد من إخوانه ولا سيما الشباب ممن لا يعرف معنى ما يقرأ ؛ لأن الذين لا يعرفون معنى ما يقرءون وصفهم الله بأنهم أميون ، فقال : « وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي »^(١) أي إلا قراءة ، أما المعنى فلا ، وقد كان من هدى السلف خصوصاً الصحابة أنهم لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلم القرآن فتعلمنا القرآن ، والعلم والعمل جميعا . وهكذا المؤمن يتربى بعلمه ينتفع به ، لا يكون كالحمار يحمل أسفارا لا ينتفع بها ، لو أتيت بمجلدات من الكتب نافعة وحملتها على الحمار فهل يصبح الحمار عالما فلا يصبح عالما وإنما

(١) سورة البقرة : الآية ٧٨ .

هو بلية سواء حملته كتباً أم لا ، وقد مثل الله عز وجل اليهود بأنهم كالحمار فقال : « مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا »^(١) لا ينتفع بها .

فأنت يا طالب العلم إذا حملت العلم فانتفع به وأنت يا قارئ القرآن إذا حملت القرآن فانتفع به ، اعرف معناه وطبقه حتى لا يكون القرآن حجة عليك ؛ لأن القرآن إما حجة باللسان ، وإما حجة على الإنسان .

إذن ينبغي أن نعرف معنى هذه السورة العظيمة ، ولو على سبيل الإجمال حتى إذا قرأناها انتفعنا بها ، أما أن نقرأها ونحن لا نعرف المعنى فلا شك أن هذا قصور جداً وإن كان يجزىء من حيث العزة وإبراء الذمة ، لكن هو قصور في الواقع ، وفي النهاية يقول القارئ (آمين) ، (وآمين) اسم فعل بمعنى استجب ، وتقول آمين بدون تشديد الميم ؛ لأنك لو شددت الميم وقلت آمين فسد المعنى ؛ لأن المعنى يكون حينئذ القاصدين ، كما قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشُّهُرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْفَلَاحِ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ »^(٢) أى قاصديه .

أما بقية آيات القرآن فلا يمكن أن نتعرض لها في هذا المقام ؛ لأنها طويلة وكثيرة لكن يكفي أن نتعرض لهذه التنبيهات من معنى هذه السورة العظيمة التي هي ركن في كل ركعة يقوم بها المصلى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب) ولا بد من القراءة باللسان ؛ لأن بعض الناس يقرأ بقلبه ، يعنى يمر القرآن على قلبه بدون نطق فهذا لا يجزئه قراءته ، فلا يجزئه قراءة في الصلاة ، ولا قراءة على أنه ورد يحمي الإنسان ، ولا قراءة على أنه يحصل على عشر حسنات في كل حرف ، والقراءة بالعين كذلك لا تجزىء ؛ لأن بعض الناس يفتح المصحف ثم ينظر إلى الصفحات ، فينظر إلى الصفحة اليمنى بالعين ويتابع الحروف بعينه وينظر إلى الصفحة اليسرى كذلك ، ثم يقلب فتستغرق قراءته بالعين يمكن دقيقة واحدة ، فالصفحتان ينهيهما في دقيقة ؛ لأنه يمر بالعين فقط على الآيات والكلمات فهذا لا ينفعه ولا يثاب عليه ثواب القارئ بلسانه ، فالقراءة لا تكون إلّا باللسان لا بالقلب أو العين .

(١) سورة الجمعة : الآية ٥ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٢ .

أول سورة البقرة

من تأمل أول هذه السورة وجد أن الله سبحانه قسم الناس إلى ثلاثة أقسام : مؤمن ظاهراً وباطناً ، وكافر ظاهراً وباطناً ، ومنافق - مؤمن ظاهراً كافر باطناً - .

ففى قوله تعالى: «الْم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون »^(١) .

فى هذه الآيات ذكر سبحانه أن القرآن هدى للمتقين ، وذكر فى آيات أخرى أنه هدى للناس ، ويوفى بين ذلك أن هدى للناس أى دليل لهم على الخير يبينه لهم ويدلهم على مواقع الشر ويحذرهم منها ، فيرغب فى الخير ، ويحذر من الشر . وكل الناس يحصل لهم ذلك بالقرآن . أما كونه هدى للمتقين فالمراد هنا هداية التوفيق ، فالمتقون يوفقون فيهدون به وينتفعون به . واستمع إلى قوله سبحانه فى سورة التوبة : « وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكّم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون »^(٢) . فآية واحدة صارت لقوم هدى وشفاء ولقوم عمى وضلال والعياذ بالله ، وكلما ازداد الإنسان تقى ازداد انتفاعاً بالقرآن فى حفظه وفهمه والعمل به .

وقوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب » الغيب هو ما غاب عن الأبصار مما أخبر الله به ، كالיום الآخر والجزاء والجنة والنار . أما المشاهد فكل إنسان يؤمن به ، كالسما والارض والشمس والقمر والنجوم

(١) سورة البقرة : الآيات ١ - ٥ .

(٢) سورة التوبة : الآيتان ١٢٤ - ١٢٥ .

والجبال والشجر ، والمؤمن بذلك لا يستحق مدحًا ، لأنه لا ينكره إلا مكابر مثل السفسطائية الذين ينكرون المحسوس وقد ينكرون أنفسهم فيسألون : أين أنا ، من أنا . وهم مجانين ، ويمكن أن يقول أحدهم على الشمس هذا قمر ، ويسمون أنفسهم عقلاء .

وقوله : « سواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » أى يستوى عليهم الإنذار وعدمه .

وهذه الآية مشكلة مع الواقع فإن من الكفار من أنذره النبي صلى الله عليه وسلم فأمن مثل عمر . ومنهم من أنذره فلم يؤمن كأبى لهب ، فنقول : إن المراد بالآية الذين حقت عليهم كلمة العذاب ، أى وجبت عليهم ، ودليل ذلك قوله سبحانه : « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم »^(١) .

ولابد أن نعلم أن ما صح عن الله وعن رسوله لا يمكن أن يتناقض ، لقوله تعالى : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا »^(٢) . فإذا مر بك شيء ظاهره التعارض والتناقض فأعد النظرة مرة بعد أخرى حتى يتبين لك الجمع ، فإن لم يتبين فالواجب أن تقف وأن تقول كما يقول الراسخون فى العلم : « آما به كل من عند ربنا »^(٣) .

وقد جعل الله سبحانه فى القرآن أشياء متشابهة من أجل الابتلاء والامتحان والمؤمنون يقولون فى كل ذلك : كل من عند ربنا ، أما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون هذا المتشابه ويأخذون منه قدحاً فى القرآن ، كما قال تعالى : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله »^(٤) .

ثم قال سبحانه : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر » (من) هنا أى بعض الناس وهم المنافقون ، يقولون ذلك بألسنتهم ، « وما

(١) سورة يونس : الآيتان ٩٦ - ٩٧ .

(٢) سورة النساء : الآية ٨٢ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٧ .

(٤) سورة آل عمران : الآية ٧ .

هم بمؤمنين » أى بقلوبهم ، وهؤلاء هم المنافقون الخلس .

وهناك قوم قالوا آمنا فقال الله سبحانه لرسوله : « قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم »^(١) فهؤلاء أحسن حالا من المنافقين و (لما) تفيد الانتفاء مع قرب الوقوع ، فهو لم يدخل لكنه قريبا يدخل .

والعجب أن هؤلاء المنافقين يقولون هذا القول ويقسمون عليه ويشهدون به ، لكنهم يحلفون على الكذب وهم يعلمون ، واستمع إلى قول الله تعالى : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون »^(٢) . فهم يؤكدون قولهم بأدوات التوكيد إن ، واللام . والله يشهد إنهم لكاذبون فى قولهم إنهم يشهدون أن محمدا رسول الله .

وقد جاء سياق الآية على جهة بليغة حيث ذكر الله سبحانه قوله : « والله يعلم إنك لرسوله » قبل قوله : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » لئلا يوهم أن الله يكذب كون محمد رسول الله ، فأكد كونه رسول الله ثم عقبها بتكذيبهم فى أنهم يشهدون بذلك .

وسلاح المنافقين دائما هو الحلف كما قال سبحانه : « اتخذوا أيمانهم جنة » ولهذا إذا رأيت إنسانا كلما تكلم حلف وأقسم فاتهمه بالكذب لأن من يكثر من الحلف غير واثق من كلامه ويرى الناس لا يثقون به إلا بالحلف ، ولا ينبغي للإنسان أن يحلف إلا على أمر هام جدا ، أو إذا طلب منه الحلف . وقد ذكر الله سبحانه من أوصاف المنافقين فى هذه الآيات التى فى أول سورة البقرة عدة أوصاف :

أولاً : ادعوا الإيمان وهم كاذبون .

ثانيا : يخادعون الله والذين آمنوا ، أى يأتون بالأشياء ليخدعوا بها وهم فى الحقيقة يخدعون أنفسهم ، ولن ينخدع الله والمؤمنون ولن ينطلى عليهم باطل هؤلاء وكفرهم .

(١) سورة الحجرات : الآية ١٤ .

(٢) سورة المنافقون : الآية ١ .

ثالثا : مرض القلوب ، وليس هو الألم الذى يحسه الإنسان فى قلبه ، فهذا مرض جسدى يصيب المؤمن وغير المؤمن ، لكنه المرض الدينى ، ويكون فى شيئين : شبهة وشهوة . فالشبهات هى الشكوك التى منشؤها الجهل ، فتدخل على الإنسان الشكوك فى أمور يجب اليقين فيها .

والشهوة وهى مرض الإرادة أن يكون الإنسان عالما بالحكم كحرمة الخمر مثلا أو الزنا أو السرقة ولكنه يفعلها ، فلا يريد الخير بل يريد الشر . والمنافقون فى قلوبهم مرض الشك ومرض سوء القصد ، فإنهم لا يريدون الخير بالمسلمين ، بل يريدون لهم الشر ما استطاعوا .

رابعا : الإفساد فى الأرض ، بالمعاصى والخداع والكيد للمسلمين وموالاتة الكفار ، ومع ذلك لو قيل لهم لا تفسدوا قالوا إنما نحن مصلحون . خامسا : يأتون الكفار بحقيقتهم وإذا جاءوا إلى المؤمنين أظهروا الإيمان .

ولهم أوصاف كثيرة فى كتاب الله .

من سورة آل عمران

قال الله تعالى : « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ » ^(١) .

فقوله : (فإن تولوا) فالضمير يعود على هؤلاء النصارى الذين طلب منهم النبی صلی الله عليه وسلم المباهلة : « فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ » ^(٢) .

وسبق أنهم امتنعوا عن المباهلة ؛ لأنهم يعلمون لو باهلو لأخذهم العذاب ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم حق وهم على باطل ، يقول الله عز وجل : « فَإِنْ تَوَلَّوْا » يعنى عن المباهلة وعن اتباعك يا محمد فإنما هم مفسدون ، ولهذا قال : « فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ » ولم يقل بهم بل أظهر فى موضع الإضمار ، والإظهار فى موضع الإضمار له فوائد :

الفائدة الأولى : انطباق الوصف فى هذا المظهر على من يعود عليه ؛ يعنى أن هذا الوصف الذى جعل فى موضع الضمير ينطبق على موضع الضمير ، فكأنه قال : « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِهِمْ » لكن وصفهم بالفساد .

الفائدة الثانية : العموم ؛ لأنه جاء الضمير هنا حسب السياق « فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِهِمْ » اختص العلم بهم هم ، فإذا قال : (بالمفسدين) صار عاماً فيهم وفى غيرهم .

الفائدة الثالثة : أن هذا الفعل الذى حصل من هؤلاء الذين جاء موضع الإظهار فى موضع الإضمار عنهم هو نوع من هذا الوصف الذى عبر به فى موضع الضمير ؛ يعنى أن فعله فساد وهو التولى والاعراض عن دين الله .

(١) سورة آل عمران : الآية ٦٣ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٦١ .

ففى فوائد هذه الآية الكريمة تهديد من تولى عن دين الله عز وجل ،
 ووجه ذلك قوله : « فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ » ، لأن المقصود من ذكر
 علمهم بهم تهديدهم وأنه لا يخفى عليه حالهم وسيعاقبهم بما تقتضيه حالهم .
 ومن فوائد الآية الكريمة : أن التولى عن دين الله فساد كما قال الله
 تعالى : « ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ » (١) .

والتولى نفسه فساد وسبب للفساد ؛ ووجه كونه فساداً أنه إذا تولى عن
 دين الله حل محله ما سواه ، ومعلوم أن دين الله صلاح وما سواه فساد ،
 ولهذا نجد القوانين المحكمة فى عباد الله لا تصلح الخلق ، ولا يصلح الخلق
 منها إلا ما وافق الشرع ، وأما ما خالف الشرع فإنه فساد مهما كان وضع
 القوانين فى الذكاء والفهم لأحوال الناس ؛ فإنهم إذا وضعوا من القوانين ما
 يخالف شرع الله فإنه فساد بكل حال .

إذا نفس التولى فساد ثم كلها سببها المعاصى قال الله تعالى : « ظَهَرَ
 الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا
 لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » ، وقال تعالى : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا
 عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا
 يَكْسِبُونَ » (٢) ، وقال تعالى : « وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً
 يَأْتِيهَا رِزْقُهَا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ
 وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » (٣) .

إذن فالتولى عن دين الله فساد . وسبب للفساد .

ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن كل من تولى عن دين الله فهو مفسد
 وإن زعم أنه مصلح لقوله : « فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ » . ولهذا قال
 كثير من المفسرين فى قوله تعالى : « وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ
 إِصْلَاحِهَا » (٤) قال أى لا تفسدوها بالمعاصى ، فكل عاص فهو مفسد شاء

(١) سورة الروم : الآية ٤١ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٩٦ .

(٣) سورة النحل : الآية ١١٢ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ٥٦ .

أَمْ أبى ، وكل مطيع لله فهو مصلح ؛ لأن بضدها تتبين الأشياء ، فإذا كان العاصي مفسدًا فالطائع مصلحًا ، لكن الطائع فى الحقيقة قد يكون صالحًا بنفسه غير مصلح لغيره ، وقد يكون صالحًا بنفسه مصلحًا لغيره فإذا كان عبدًا عابدًا داعيًا إلى الله صار صالحًا مصلحًا ، وإذا كان عابدًا غير داعٍ لله صار صالحًا غير مصلح ، لكنه ليس على وجه التمام فى صلاحه ؛ لأن من تمام الصلاح ان تدعو إلى الله عز وجل .

ثم قال تعالى : « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » ^(١) فالخطاب فى قوله يقول : (للرسول صلى الله عليه وسلم ، وهنا قاعدة : أن الله تعالى إذا صدر الشئ بيقول الموجه للرسول صلى الله عليه وسلم فإنه يقتضى زيادة العناية به ؛ لأنه أمر بأن يبلغ هذا الشئ بخصوصهم ، وإلا فإن جميع القرآن مأمور النبى صلى الله عليه وسلم أن يقوله .

« قل يا أهل الكتاب » وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى ، وعلى هذا فالمراد بالكتاب الجنس ليكون شاملاً للتوراة والإنجيل ؛ فمعناه قل يا أهل التوراة والإنجيل ، وإنما خاطب هؤلاء بأهل الكتاب أو وصفهم بذلك ؛ لأنه لا يوجد كتب منزلة لا يوجد آثارها إلا التوراة والإنجيل .

ولهذا سُمى بأهل الكتاب ؛ وإلا فإنه ما من رسول إلا ومعه كتاب يدعو به كما قال تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم - أى مع الرسل - الكتاب والميزان » ^(٢) لكن الكتب التى بقيت وأثرت ، وإن كان فيها شئ من التغيير هى التى عند اليهود والنصارى .

(١) سورة آل عمران : الآية ٦٤ .

(٢) سورة الحديد : الآية ٢٥ .

من سورة المائدة

« حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق »^(*).

هذا من المحرم المفصل ، وقد قال الله سبحانه : « وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه »^(١) وإنما كان التفصيل في المحرم ؛ لأن ما أحل الله لنا أكثر مما حرم علينا ، فجعل المحرمات محصورة مفصلة معينة ، وما سوى ذلك فهو حلال .

وبناء على هذه الآية لو شككنا في شيء من المأكولات أو الملبوسات أو المستعملات هل هو حرام أو حلال ، فهو حلال ؛ لأنه لو كان حراما لفصله الله لنا ، لأن الله سبحانه قد فصل لنا ما حرم علينا .

فلو صاد الإنسان طيرا وأشكل عليه هل هو حرام أو حلال فهو حلال ، وهذا هو الأصل . ولو وجد زاحفا في الأرض من الحيوانات وأشكل هل هو حرام أو حلال فهو حلال حتى يقوم دليل على تحريمه .

وهذه المحرمات المفصلة إذا اضطر الإنسان إليها صارت حلالا ولو كانت أخبث ما يكون ولا يستثنى شيء ، لقول الله سبحانه : « إلا ما اضطررتم إليه » .

وفي هذه الآيات التي معنا يقول سبحانه : « حرمت عليكم الميتة » والذي حرمها هو الله سبحانه ؛ لأنه لا يتولى التحريم والتحليل إلا الله عز وجل ، كما قال سبحانه : « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب »^(٢) . ولقوله عز وجل : « قل آلهة

(*) سورة المائدة : الآية ٣ .

(١) سورة الأنعام : الآية ١١٩ .

(٢) سورة النحل : الآية ١١٦ .

أذن لكم على الله تفترون»^(١) .

فالذى بيده التحريم والتحليل والإيجاب والإباحة هو الله سبحانه .

والميتة كما قال العلماء : هي كل حيوان مات حتف أنفه أو مات بغير ذكاة شرعية . فالأول ميتة لغة وشرعا . والثاني ميتة شرعا ، فقد ينهر الدم إلا أنه بغير ذكاة شرعية ، كمن ذكى شاة بسكين حادة وقطع كل ما يعتبر قطعه ولكنه لم يذكر اسم الله عليها فإنها ميتة محرمة ، لأنها لم تذك على الوجه الشرعى ، ولو أن وثنيا أو مرتدا ذبح شاة وقال بسم الله وقطع ما يجب قطعه فإن هذه الشاة ميتة شرعا .

ولو أن رجلا لا يصلي ذكى شاة وقال بسم الله . وقطع ما يجب قطعه فإن هذه الشاة لا تحل ؛ لأن الذى لا يصلى مرتد كافر لا تحل ذبيحته . ويستثنى من ذلك ما استثناه الرسول صلى الله عليه وسلم وهو السمك والجراد فإن السمك ميتته حلال وإن لم تصده ، ولو وجدته على ساحل البحر ميتا فهو حلال .

وكذلك انجراد لو وجدته ميتا فهو حلال تأكله إلا أن يكون قتل بمواد كيماوية يخشى منها الضرر فلا يؤكل لضرره لا من أجل أنه ميتة . وقد جاء فى الحديث عن ابن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أحلت لنا ميتتان ودمان ، أما الميتتان فالجراد والحوت وأما الدمان فالكبد والطحال)^(٢) .

وقوله تعالى : « والدم » وهذا عام يشمل كل دم لكن بشرط ألا يكون الدم مما ذكى ذكاة شرعية فهو حلال . فالدم الذى يظهر من الذبيحة المذكاة ذكاة شرعية هو دم حلال ولو كان كثيرا ، أما ما خرج من حيوان حي فهو حرام . وقد كانوا فى الجاهلية إذا سافروا وانقطع بهم السفر ونفذ طعامهم يفصد الإنسان عرقا من ناقته ويمص منه الدم فيشرب . وهذا عند الضرورة لا بأس به وبدون ضرورة لا يجوز .

وقوله تعالى : « ولحم الخنزير » وهو حيوان خبيث معروف .

(١) سورة يونس : الآية ٥٩ .

(٢) انظر سنن ابن ماجه كتاب الأطعمة باب (٣١) .

وقد علل الله تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير بأنه رجس ، وذلك في قوله تعالى : « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس »^(١) أى خبيث شرعا وخبيث طبعاً ؛ لأن هذه الثلاثة تؤثر على صحة الإنسان تأثيرا بالغا ، وأحيانا تظهر آثار هذا التأثير سريعا وأحيانا تتأخر .

(١) سورة الأنعام : الآية ١٤٥ .

من سورة المائدة

قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (١) .

فإذن قدر الله الخطاب (بيايها الذين آمنوا) فإنه ينبغي لك أن تنتظر .

وأن تستمع كما قال ابن مسعود رضي الله عنه قال الله يا أيها الذين آمنوا فأعطها سمعك ، فإما خير تأمر به ، وإما شر تنهى عنه ، وإذا كان النداء بوصف النداء دل ذلك على أن القيام بمقتضى هذا الخطاب من مقتضيات الإيمان ، وأن مخالفة هذا الخطاب نقص في الإيمان ، هذه الآية الكريمة قدرها الله عز وجل بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » .

إذن فالعمل بها من مقتضيات الإيمان وترك العمل بها من نقصان الإيمان ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : (الطهور شطر الإيمان) (٢) أى نصفه ؛ لأن الإيمان تَحَلٍّ وَتَحَلٍّ ؛ تحل عما يحل بالإيمان من الشك والإينكار ، وتحل بما يقوى الإيمان من العمل الصالح وغير ذلك .

وقوله سبحانه وتعالى : « إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ » قال العلماء إن قوله : « إِذَا قُمْتُمْ » أى إذا أردتم القيام والتعبير عن الفعل بإرادته موجود فى كتاب الله ، وموجود كذلك فى السنة ، قال الله تعالى : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » (٣) ، والمعنى إذا أردت أن تقرأ القرآن ، وفى حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم :

(١) سورة المائدة : الآية ٦ .

(٢) رواه مسلم .

(٣) سورة النحل : الآية ٩٨ .

(إذا دخل الخلاء قال أعوذ بالله من الخبث والخبائث)^(١) ، فقوله : (إذا دخل الخلاء) ؛ أى إذا أراد دخول الخلاء ولا يعبر بالفعل عن إرادته إلا إذا كان فى الإرادة جازمة ومقارنة للفعل ، ولهذا لا يصح أن أعبر من صلاة الظهر بإرادتها فى وقت الليل ؛ لأن هناك فارقاً بين الفعل وبين إرادته .

« إذا قمتم » أى إذا أردتم القيام ؛ لأن الإنسان يؤمر بالوضوء لها حين فعل الصلاة ، ولكن حين إرادة فعل الصلاة ، وقوله تعالى : « إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ » يشمل كل الصلوات ، فكل ما يسمى صلاة فإنه داخل فى ذلك سواء كانت فرضاً أم نفلاً ، وسواء كانت صلاة ذات ركوع وسجود أو صلاة ذات تكبير وسلام مثل صلاة الجنابة .

وقوله : « فَأَغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ » والغسل جريان الماء على العضو ، ولا يشترط فيه التدليك أى تدليك لا يدخل فى مسمى الغسل بل الغسل يكفى أن يجرى الماء على العضو .

وقوله : « بِوُجُوهِكُمْ » جمع وجه والوجه ما تحصل به المواجهة ويطلق الوجه على كل مستقبل البدن ، ويطلق على الوجه الأعلى الذى فى الرأس ، وهذا الأخير هو المراد .

فحد الوجه الذى يجب غسله طويلاً من منحنى الجبهة إلى أسفل اللحية ، وعرضاً من الأذن إلى الأذن .

إذن فالبياض الذى بين العارض والأذنين يكون داخلاً فى حد الوجه .
وقوله سبحانه وتعالى : « وَأَيِّدِيكُمْ إِلَى الْمُرَافِقِ » هذه معطوفة على قوله : « وَجُوهَكُمْ » وهى جمع يد ؛ واليد عند الإطلاق إنما تكون للكف فقط الذى حده الكوع ؛ والكوع هو العظم الذى يلى الإبهام عند رأس الذراع ويقابله الخرسوغ وما بينهما يسمى الرساغ .

ويقول الشاعر :

وعظم يلى الإبهام كوع وما يلى لخنصره الخرسوغ

واليد إذا أطلقت فهى إلى الكوع لا يدخل فيها الذراع ، ولهذا لما قال

(١) رواه الشيخان .

الله عز وجل : « وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا » ^(١) كان الذى يقطع من السارق إلى اليد وهو الكف فقط ، لكنها هنا قيدت بقوله : « إلى المرافق » والمرافق جمع مرفق ؛ وهو العظم الناتىء فى المفصل ؛ الذى بين العضد والذراع .

قوله : « وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ » والمسح أن تبل يدك بالماء ثم تمر بها على العضو وليس غسل يجرى عليه الماء ، ولكنك تبل يدك بالماء وتتمر بها على العضو ، هذا هو المسح .

وقوله : « وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ » الباء قال العلماء إنها هنا للإِنصاف وللاستيعاب أيضا ، فإن المسح يعم جميع الرأس ، والرأس مأخوذة من التروؤس وهو العلو ؛ لأنه يكون فى أعلى البدن ، وحده من جهة الوجه : (فهو من منحنى الجبهة) وحده من الخلف : (منابت الشعر) ، فالرقبة ليست منه ، ومن الرأس الأذنان ، ولهذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحافظ على مسح أذنيه مع رأسه .

قال تعالى : « وَأَرْجِلُكُمُ إِلَى الْكَعْبَيْنِ » وفى هذه قراءتان . إحداهما : « وَأَرْجِلُكُمُ » والثانية « وَأَرْجِلُكُمُ » ، فعلى قراءة النصب تكون معطوفة على « وَجُوهَكُمْ » ؛ لأن العطف عند تعدد المعطوفات يكون على الأول لها على ما بعده ؛ لأن بما بعده تابع ، والتابع لا يكون متبوعاً .

فإذا قلت أكرمت زيدا وعمراً وبكراً وخالداً ؛ فزيداً هو المفعول الأول ، وبكراً معطوف عليه ، وخالداً ، ولا يصلح أن يكون معطوفاً على ما يليه ذلك ؛ لأن ما يليه معطوف على ما قبله فهو فرع والفرع لا يكون أصلاً متبوعاً ، والقراءة الثانية وهى « وَأَرْجِلُكُمُ » بالجر فهى تكون معطوفة ، قال بعضهم : إنها معطوفة على « وَجُوهَكُمْ » لكنها كسرت للمجاورة .

وعلى هذا فهى منصوبة بفتحة مقدرة على آخرها منع من ظهورها حركة المجاورة .

وقال بعض العلماء : إن القراءة بالجر معطوفة على قوله « رُءُوسِكُمْ »

(١) سورة المائدة : الآية ٣٨ .

أى « وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم » بالكسر فيكون فرض الرجلين إما غسلًا ، وإما مسحًا ، فيكون غسلًا على قراءة النصب ، ويكون مسحًا على قراءة الجر ، ويبقى عندنا إشكال ، فهل الإنسان مخير فى تطهير رجله بالوضوء بين المسح والغسل ؟ الجواب لا .

لكن السنة بينت أن للرجلين حالين ؛ حالاً تغسل فيها ، وحالاً تمسح فيها ، فإن كان على الإنسان خفان فالمسح ، وإن لم يكن عليه خفان فالغسل ، وهذا الوجه الأخير هو الراجح بل هو المتعين ؛ وذلك الجر بالمجاورة ضعيف .

واللغة الضعيفة الشاذة لا ينبغي أن يحمل عليها القرآن ، ذلك لأن الله تعالى يقول : « نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى * قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ »^(١) .

وقوله : « إِلَى الْكَعْبَيْنِ » والكعبان هما العظامان الناتئان فى أسفل الساق فتغسل الرجل من الأصابع إلى الكعبين .
انتهى القسم الأول من الآية ، لأن الله تعالى جعل هذه الآية ثلاثة أقسام :

قسم للوضوء ، وقسم للغسل ، وقسم للتييم .
ثم قال تعالى : « وَإِنْ كُنْتُمْ جُنْبًا فَأَطْهَرُوا » .

« وَجُنْبًا » هذه خبر كان واسمها التام الدال على الجمع ، ونحن إذا رأينا كلمة جنب وجدناها مفردة ، فكيف صح أن يخبر بالمفرد عن الجماعة ؟ قال علماء اللغة ؛ لأن كلمة جنب يستوى فيها المفرد وغيره ، فيقال القوم جنب ، والرجلان جنب ، والرجل جنب ، وإذا كان يستوى فيها المفرد وغيره فإنه يصح أن يخبر بها عن الجماعة .

والجنب هو الذى حصلت منه الجنابة ، والجنابة شرعاً : إما إنزال المنى بشهوة ، وإما الجماع وإن لم يحصل إنزال لقول النبى صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه من حديث أبى هريرة : (إذا جلس بين شعبها الأربع

(١) سورة الشعراء : الآيات ١٩٣ - ١٩٥ .

ثم جهدا فقد وجب الغسل وإن لم ينزل (١) ، وهذه مسألة تخفى على كثير من الناس فما أكثر الذين يعملون ذلك يأتون أهلهم بدون إنزال ولا يغتسلون ، يظنون أنهم لا غسل إلا بإنزال ، وتجدهم يصلون عدة صلوات وهم على جنابة لم يشعروا بها .

ولهذا ينبغي لطالب العلم أن ينشر هذه المسألة بين الناس ولا سيما المتزوجون حتى لا يتركوا الاغتسال ظناً منهم أنه لا يجب .

يقول الله عز وجل : « **وإن كنتم جنبا فاطهروا** » أى فطهروا ، ولم يبين الله تعالى كيف نتطهر بل جعله مجملاً وهو واضح فى المعنى فى الواقع ، لا يحتاج إلى بيان ؛ لأننى لو قلت لك تطهر لعرفت أنه يجب أن يعم الماء جميع بدنك على أى وجه كان .

إذن هذه الجملة فاطهروا ليست جملة مبهمة تحتاج إلى بيان ، لكنها جملة مبهمة لا تحتاج إلى تفصيل فى أدائها ، فإذا تطهرت من الجنابة على أى وجه كان فقد طهرت حتى لو نويت وانغمست فى بركة أو انغمست فى البحر وخرجت وتمضمضت واستنشقت فإن ذلك يجزئه ، ولا حاجة إلى أن تعمل شيئاً آخر ، هذا على سبيل الإجزاء ، ولكن السنة بينت كيف يغتسل الإنسان من الجنابة ، وهو على سبيل الاستحباب وليس على سبيل الوجوب ، أعنى الكيفية التى جاءت بها السنة على سبيل الاستحباب لا الوجوب .

فكان النبى صلى الله عليه وسلم : (إذا اغتسل من الجنابة غسل كفيه ثلاثاً وغسل فرجه وتوضأ وضوءه للصلاة وأفاض الماء على رأسه ثلاثاً ويخلل شعر رأسه ، ثم يفيض الماء على سائر جسده) (٢) فبيداً أولاً بالوضوء ، ولو أنك لم تفعل هذا وأفضت الماء على جميع بدنك بدون وضوء قبله فيصح غسلك ؛ لأن الله قال : « **إن كنتم جنبا فاطهروا** » ولم يذكر تفصيلاً هذا هو القسم الثانى مما جاء فى هذه الآية .

قال تعالى : « **وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً** » هذا هو

(١) رواه البخارى فى كتاب الغسل - باب (٢٨) - حديث (٢٩١) .
(٢) رواه البخارى فى كتاب الغسل - باب (١٠ ، ١١) - حديث (٢٦٥ ، ٢٦٦) .

القسم الثالث من الطهارة فى هذه الآية ؛ وهو طهارة التيمم .

« أو كنتم مرضى » والمراد بالمرضى هنا ما يشق معه استعمال الماء مثل لو كان مريضاً بجروح ، أو كان مريضاً بمرض أقعده عن العمل ما يستطيع أن يتوضأ ، أو كان يخشى من البرد الشديد الذى يهلكه أو يضره أو على سفر معروف ، يعنى ولم تجدوا ماءً فتيمموا .

وقوله : « أو جاء أحد منكم الغائط » قال بعضهم أن (أو) بمعنى الواو ، أى « وجاء أحد منكم من الغائط » و « الغائط » فى اللغة العربية الموضع المنخفض من الأرض ، ومنه قولهم فى اللغة العرفية الآن الدارجة

هذا شىء غويط ، ومعنى (غويط) العميق فى الأرض ، فالغائط هو الموضع المنخفض من الأرض ، وكانوا فيما سبق عند نزول الآية كانوا يقصدون هذا الموضع ليختلوا به أى ليقضوا حاجتهم به ؛ لأن البيوت ليست بها محل للبراز ، فكانوا يقصدون إلى البر ، فإذا وجدوا مكاناً منخفضاً قضا فيه الحاجة ؛ لأنه يكون مستتراً .

وفى الآية الكريمة من الكناية عما يستقبح ذكره ما هو ظاهر ؛ لأن المراد بقوله : « أو جاء أحد منكم من الغائط » أى المراد به أو تغوط أحد منكم لكن الله عز وجل كنى عن ذلك بهذه العبارة التى لا يستقبحها السامع ، « أو لامستم النساء » وفى قراءة « أو لمستم النساء » والمراد بالملامسة فسرهما ابن عباس رضى الله عنهما وهو ترجمان القرآن بأنها الجماع « لامستم » أى جامعتم ، ولهذا جاءت « لامستم » هنا على صيغة (فاعلتم) كما هى فى « جامعتم » فيكون المراد بالملامسة الجماع أى جامعتم النساء ، ولكن الله عز وجل يكنى عن الجماع باللمس والتماسة والملامسة والإتيان وما أشبه ذلك ؛ لأنه قد يستحى من ذكره ، ولهذا ينبغى أن نقول : ولهذا من الأدب فى المخاطبة أن لا تعبر بشئ يستحيا من ذكره ، إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

وفىها قراءة ثانية سبعية « لامستم » فيها قراءة « أو لمستم النساء » فهما بمعنى واحد وهو الصحيح ، لأن اللمس والمس يطلقان أيضا على الجماع قال الله عز وجل : « لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ

تَفَرَّضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً»^(١) وقال الله تعالى : « وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ »^(٢) وقال تعالى : « فَتَخْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا »^(٣) وعليه فيكون معنى الآيتين واحد ، لكن إحداهما تفسر الأخرى تفسيراً لا مجال للعدول عنه ؛ وهى أن المراد باللمس بدون الألف الملامسة ؛ التى هى الجماع ، وذهب بعض العلماء إلى أن المراد باللمس (اللمس باليد) وقالوا إن الرجل إذا مس المرأة بيده مطلقاً انتقض وضوءه ، لكن هذا القول ضعيف يضعفه ، فلو قلنا إن المراد باللمس ، أو الملامسة (المس باليد) الذى يوجب الوضوء ، لكان الله تعالى ذكر فى الآية الكريمة سببين موجبين للوضوء ولم يذكر سبباً لما يوجب الغسل .

فإذا قلنا : « إذا جاء أحد منكم من الغائط » فهذا يوجب الوضوء ، أو « لامستم النساء » أى باليد يوجب الوضوء ، إذا كان المراد أن يمسك باليد ، فهنا ذكر فى الآية سببين بشىء واحد وهو الوضوء ، لكن إذا فسرنا الملامسة بالجماع صار فى الآية ذكر سببين بحدثين سبب للوضوء وسبب للغسل ، ومعلوم أن هذا أشمل للدلالة وأعم وأكمل فى التفصيل .

ثم قال تعالى : « فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ » ، « فتيمموا » بمعنى اقصدوا ، فالتيمم فى اللغة بمعنى القصد ، أما شرعاً : فهو قصد الصعيد الطيب للتطهر به ، أو بعبارة أخرى للتطهير منه صعيداً طيباً ، والمراد بالصعيد وجه الأرض ، كما جاء فى الحديث : (إن الله يجمع الخلائق يوم القيامة على صعيد واحد)^(٤) وفى الحديث القدسى قال الله عز وجل : (يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى)^(٥) ، فالصعيد إذن وجه الأرض .

وقوله : « طيباً » الطيب ضد الخبيث ، والخبيث هنا النجس فيكون

(١) سورة البقرة : الآية ٢٣٦ . .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٣٧ .

(٣) سورة المجادلة : الآية ٣ .

(٤) رواه البخارى فى كتاب الأنبياء - باب (٣) - حديث (٣٣٤٠) .

(٥) رواه مسلم فى كتاب البر - باب تحريم الظلم - شرح النووى ١٣٢/١٦ .

الطيب الطاهر : « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه » وبين النبي صلى الله عليه وسلم كيفية ذلك وهو بأن يضرب الإنسان بيديه على الأرض مرة واحدة ثم يمسح وجهه ثم يمسح كفيه بعضهما فى بعض ^(١) .

وقوله : « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه » قيل إن من للابتداء ، وقيل للتبعيض ، فعلى القول إن (من للتبعيض) يشترط أن يكون فى هذا الصعيد تراب يمكن أن ينقل إلى الوجه والكفين ، وعلى القول بأنها (للبيان) فإنه لا يحتاج أن يكون فيه تراب وهذا هو القول الصحيح .

ثم قال الله تعالى : « مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ » .
« يريد » هنا من الإرادة الشرعية ؛ لأنها بمعنى (يحب) ؛ يعنى أن الله عز وجل لا يحب أن يجعل على العباد حرجاً أى ضيقاً ومشقة فيما أمرهم به .

وقوله : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » و « من » هنا حرف جر زائد زائد ، بينهما فرق حرف جر زائد من حيث الإعراب ، لكنه زائد للمعنى ، يعنى يزيد فى المعنى فهو حرف جر زائد ، وزائد الأولى من زاد اللازم ، وزائد الثانية من زاد المتعدى ؛ لأن كلمة زاد ونقص تستعمل لازماً ، وتستعمل متعدياً . فكلمة زاد ونقص تستعمل لازماً ومتعدياً ، فيقال زاد المرض ونقص المرض ، هذا لازم ، زاد الإيمان ، ونقص الإيمان لازم ، وتقول زاده خيراً متعدياً ، وتقول نقصه كذا متعدٍ ، قال الله تعالى : « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَادَهُمْ إِيمَانًا » ^(٢) وقال تعالى : « ثُمَّ لَمْ يَنْقُصْكُمْ شَيْئًا » ^(٣) متعدى أيضاً .

وقلنا فى الأولى زائد من زاد اللازم ، والثانية من زاد المتعدى فهو زائد من حيث الإعراب .

ولكنه من حيث المعنى يزيد المعنى توكيداً ، فإذا قلت فى النفى ما رأيت رجلاً ، فهذا نفى لرؤية الرجل ، ولو قلت ما رأيت من رجل يكون هذا النفى

(١) رواه البخارى فى كتاب التيمم - باب (٨) - حديث (٣٤٧) .

(٢) سورة التوبة : الآية ١٢٤ .

(٣) سورة التوبة : الآية ٤ .

أبلغ ، فقوله عز وجل : « مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ » فالمعنى أنه لا يريد أن يجعل علينا سبحانه وتعالى وله المنة والفضل ، أى حرج كان فى دين الله .

وهذا كقوله : « مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » ، « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ »^(١) . فليس فى دين الله حرج ومشقة إطلاقاً « وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ » ، واللام فى قوله :

« لِيُطَهِّرَكُمْ » لام التعليل إذا جاءت متعلقة بفعل الإرادة فإنها زائدة لفظاً ، زائدة معنى ؛ لأنها لو حذفت وقال : « وَلَكِنْ يُرِيدُ أَنْ يُطَهِّرَكُمْ » صح بدون اللام ، ولهذا يعربون اللام الواقعة فى سياق الإرادة على أنها (زائدة) من حيث الإعراب « وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ » ويتم هذه النعمة بهذا التطهير الذى شرعه لنا « لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

والآية الكريمة من حيث الإجمال قسمت الطهارة إلى ثلاثة أقسام : طهارة بالماء من الحدث الأصغر وتنتهى عند قوله : « وَأَرْجَلَكُمْ إِلَى الْكَفَّيْنِ » ، وطهارة بالماء من الحدث الأكبر عند قوله : « وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا » ، وطهارة بالتيمم عن الحدثين ، جميعاً فى قوله : « وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى - إِلَى قَوْلِهِ - مِنْهُ » .

(١) سورة البقرة : الآية ١٨٥ .

فوائد هذه الآيات

أولاً : أهمية الطهارة من الحدث الأصغر والأكبر بقسميها المائية والترابية ونأخذ الأهمية من أن الله قدرها بالنداء .

ثانياً : أن الوضوء من مقتضيات الإيمان ، لأن الخطاب به صدر بـ « يأيها الذين آمنوا » وأن الإخلال نقص في الإيمان ؛ لأنه صدر بـ « يأيها الذين آمنوا » .

ثالثاً : عناية الله عز وجل بالصلاة حيث فرض علينا أن نتطهر إذا قمنا إليها . وغيرها من العبادات لا يشترط لها الطهارة ، ولم يجمع العلماء على أن شيئاً من العبادات يشترط له الطهارة إلا الصلاة .

وما عداها ففيه خلاف ؛ فمثلاً الطواف بالبيت جمهور أهل العلم على أنه يشترط له الطهارة ، وذهب بعض العلماء ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلى أنه لا يشترط له الطهارة ، ومس المصحف جمهور العلماء أو أكثرهم على أنه لا يجوز إلا بطهارة ، وذهب بعض العلماء ومنهم الشوكاني إلى أنه لا يشترط له الطهارة ، وأظن أهل الظاهر كذلك .

رابعاً : وجوب الطهارة لصلاة الجنائز لقوله تعالى : « إذا قمتم إلى الصلاة » والصلاة على الجنائز صلاة كما تدل على ذلك الأحاديث الكثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : (مثل أنه صلى على النجاشي وقال صلوا على صاحبكم)^(١) ، ودفن شهداء أحد ولم يصل عليهم ، وهى أحاديث لا تحصى ، تطلق الصلاة على هذا الدعاء المخصوص على الميت ، وعلى هذا ، فالصلاة على الجنائز لا بد فيها من طهارة .

بقى عندنا سجود التلاوة وسجود الشكر ، فإن قلنا إنهما صلاة اشترط لهما الطهارة ، فمن قال إنهما يبدآن بالتكبير ويختتمان بالتسليم قال إنهما صلاة وجب لهما الطهارة .

(١) رواه البخارى فى كتاب الجنائز - باب (٤) - حديث (١٢٤٥) .

ومن قال لا يبدآن بالتكبير ولا يختمان بالتسليم قال لا يشترط لهما الطهارة .

خامسًا : وجوب غسل الوجه في الوضوء لقوله تعالى : « فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ » والأصل في الأمر الوجوب .

سادسًا : تحريم مسح الوجه لقوله : « اغسلوا » وقوله في الرءوس « امسحوا » ففرق الله تعالى بين الغسل والمسح .

سابعًا : أنه يجب في الوضوء إزالة ما يمنع وصول الماء ، لأنه لو كان على العضو مانع يمنع الماء لم يصدق عليه أنه غسله .

ولهذا يجب على الذين يمارسون الشغل في البوية أن يلاحظوا ذلك ؛ لأن البوية تمنع وصول الماء ، فإذا منع وصول الماء لم تصح الطهارة .
ثامنًا : شرف الوجه على بقية الأعضاء ، لأن الله تعالى بدأ به .

تاسعًا : أنه لا يجب غسل الكفين قبل غسل الوجه ؛ يعني لو أن الإنسان توضأ وبدأ بغسل وجهه دون أن يغسل كفيه فوضوءه صحيح ، ووجه الدلالة من الآية ؛ لأن الله لم يذكر ذلك ، ولو كان واجبا لذكره ، لكن غسل الكفين في مقدمة الوضوء سنة فعله النبي صلى الله عليه وسلم .

عاشرًا : وجوب المضمضة والاستنشاق من قوله : « اغسلوا وُجُوهَكُمْ » ؛ لأن الأنف والفم داخلان في مسمى الوجه ، وعلى هذا فتجب المضمضة والاستنشاق ، والمضمضة معناها ظاهر ، والاستنشاق ، أن يستنشق الماء بأنفه أى يشفطه ، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالمبالغة في الاستنشاق إلا أن يكون الرجل صائمًا^(١) .

الحادى عشر وجوب غسل اليدين لقوله تعالى : « وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ » ولكن هل تدل الآية على أن الأفضل أن يبدأ الإنسان بغسل اليدين من أطراف الأصابع ، قال بعض العلماء : إن في الآية الكريمة على أنه ينبغى أن تغسل اليد من أطراف الأصابع مارًا بها بالمرفق ؛ يعنى فلو أنك وضعت يدك تحت الصنبور وبدأت من عند المرفق لكان هذا خلاف المطلوب ، ولكن هذا الاستدلال عندى فيه نظر ؛ لأن الغاية تكون هي

(١) رواه الترمذى فى كتاب الصوم ، وقال : حسن صحيح . تحفة الأحوذى ٤٩٩/٣ .

الأخيرة إذا ذكر الابتداء ، أما إذا لم يذكر فإن ذلك محل نظر وعلى كل حال فالظاهر من فعل الرسول صلى الله عليه وسلم أنه يبدأ عند غسل يده من غسل اليد من أعلاها .

ولكن ننبه على مسألتين يجهلها بعض الناس :

المسألة الأولى : أنك تشاهد أحياناً أقواماً يغسلون أيديهم من تحت الصنبور فتجده يغسل الذراع إلى المرفق ويترك الكف وهذا كثير ، وهذا خطأ ، لأن الكف يجب غسله مع الذراع ، ومنهم من يخطئ ويفرط في المرفق ولا سيما في أيام الشتاء ، فإنه يكون عليه ثياب كثيرة ثم إذا كثرت الثوب ما يستره سترًا كاملاً يخرج من ورائه المرفق فتجده إذا وصل إلى المرفق وقف .

إذن على هذه الحال لا يكون قد غسل المرافق وهذا خطأ يجب التنبيه

له .

الثاني عشر : وجوب مسح الرأس لقوله : « وامسحوا برءوسكم » وأن المسح يجب تعميم الرأس به لقوله : « رءوسكم » ولم يقل : (ببعض رءوسكم) فلو غسل الإنسان الرأس بدلاً من مسحه هل يجزئه ذلك ، فهذا يقتضى تقييد النص بالعلة ، ونحن نعلم جميعاً أن الحكمة من كون الأعضاء الثلاثة تغسل وهى الوجه واليدان والرجلان ، وأن الرأس يمسح ، فالحكمة من ذلك التخفيف على الأمة ؛ لأن الرأس لو غسل والغالب أن فيه شعراً تأذى الإنسان منه ، ولا سيما في أيام الشتاء وعندئذ يجزئه .

وقد قال بعض العلماء إن الغسل لا يجزئ ؛ لأنه خلاف أمر الله ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)^(١) ، إذن فلا يجزئ الغسل بدلاً عن المسح .

وقال آخرون يجزئ الغسل إن أمر يده على الرأس ، لأنه أى بالمسح وزيادة ، وهذا القول هو الأرجح .

ومع ذلك فإننا نقول : إن هذا خلاف الأولى ، وأن الأولى أن يمسح

(١) رواه البخارى ومسلم .

الإنسان رأسه كما أمر الله به .

الثالث عشر : وجوب مسح الأذنين ، لأن الأذنين من الرأس وعلى هذا فتكون الآية دالة على وجوب مسح الأذنين ، لأنهما من الرأس .
الرابع عشر : وجوب غسل الرجلين إلى الكعبين لقوله : « وأرجلكم إلى الكعبين » .

الخامس عشر : جواز المسح على الخفين والجوربين وهذا على قراءة « وأرجلكم » بالكسرة بقراءة الجر كما شرحناه قبل قليل .

السادس عشر : وجوب الترتيب بين الأعضاء الأربعة :
فبدأ بالوجه ، ثم اليدين ، ثم الرأس ، ثم الرجلين ، لأن الله تعالى بدأ بها مرتبة ، ولأن الله عز وجل أدخل ممسوحاً بين المغسولات ، والبلاغة تقتضى أن تذكر المغسولات وحدها والممسوح وحده إلا لسبب ، ولا نعلم لذلك سبباً إلا مراعاة الترتيب ، وعلى هذا فيكون في الآية دلالة على الترتيب من وجهين :

الوجه الأول : أن الله نكرها مرتبة والنبي صلى الله عليه وسلم :
(حين أقبل على الصفا ليسعى قرأ « إن الصفا والمروة من شعائر الله »
نبدأ بما بدأ الله به) وفي رواية للنسائي : (أبدءوا بما بدأ الله به)^(١) .

الوجه الثاني : على الترتيب ، أن الله تعالى أدخل الممسوح بين المغسولات ولا نرى لذلك فائدة إلا مراعاة الترتيب .

السابع عشر : أنه لا يجب الترتيب بين اليمنى واليسرى ، وأنه لو قدم اليسرى على اليمنى أجزأه ، لأنه قال : « وأيديكم إلى المرافق » ولم يقل اليد اليمنى ثم اليسرى ، وقال : « وأرجلكم إلى الكعبين » ولم يقل اليمنى قبل اليسرى ، ولكن مع ذلك التيامن أفضل ، يعني أن تبدأ باليد اليمنى قبل اليسرى ، وبالرجل اليمنى قبل اليسرى أفضل .

قالت عائشة رضي الله عنه كان النبي صلى الله عليه وسلم : (يعجبه التيمن في تنعله وترجله وطهوره وفي شأنه كله)^(٢) .

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي .

(٢) متفق عليه .

الثامن عشر : وجوب الموالاة يعنى أن لا تؤخر غسل عضو عن الذى بعده بزمان كثير تنقطع به الموالاة ، لأن الله تعالى يقول : « اغسلوا وجوهكم وأيديكم » لأنها ذكرت متوالية وهى واقعة فى جواب الشرط ، والشرط « إذا قمتم فاغسلوا » ومعلوم أن جواب الشرط يلى المشروط ، فإذا كان جواب الشرط يلى المشروط وقد ذكرت الأعضاء متوالية دل ذلك على أنه لابد من الموالاة .

وقد جاءت السنة بذلك ، وأن الرجل لو أخر عضوا عن الذى قبله بزمان كثير يعد منفصلاً ووجب عليه الإعادة .

التاسع عشر : جواز المسح على الخفين ، وكذلك على الجوربين ، والفرق بين الخفين والجوربين ، أن الخفين تكون من جلود وشبههما والجوربان تكون من الصوف والقطن والكتان وما أشبه ذلك ، وتسمى الجوارب عند الناس شُرْبًا ، وعلى هذا فيجوز المسح على الخفين أو الجوارب بدلالة القرآن ، كما أن السنة متواترة به ، فقد تواتر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه مسح على الخفين وجاء فيه عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة نحو أربعين حديثاً .

وقد نظم الشاعر الأحاديث أو بعض الأحاديث المتواترة فى بيت :

**ومن بنى لله بيتاً : ورؤية شفاعة والحوض
ومسح خفين وهذه بعضه**

ويشترط لجواز المسح على الخفين أن يتقدم لبسهما طهارة ، ودليل ذلك حديث المغيرة بن شعبة رضى الله عنه : (كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فتوضأ فأهويت لأنزع خفيه فقال دعهما فإنى أدخلتهما طاهرتين)^(١) .

فلا بد أن تلبسهما على طهارة .

فلو أن أحداً لبسهما على غير طهارة للتدفئة ونسى ومسح عليهما وصلى فهل وضوءه صحيح وصلاته صحيحة ؟

الجواب : لا ، فإن وضوءه ليس بصحيح وصلاته ليست بصحيحة ؛

(١) رواه مسلم فى كتاب الطهارة . شرح النووى ١٧٠/٣ .

لأنه لم يطهر رجله الطهارة الواجبة ، وهذا ليس من باب فعل المحذور ، ولكنه من باب ترك المأمور ، وعلى هذا فلو أن أحداً لبس الجوارب على غير طهارة ثم مسحها عند الصلاة وصلى لقننا له إن صلاتك باطلة لأن وضوءك باطل ، وعليه أن يعيد الوضوء من جديد ويغسل رجله ويصلى . وفي (حديث المغيرة) دليل على أن من كان عليه خفان فإن مسحهما أفضل من الغسل ، وذلك من قوله (دعهما) فمن كان لابسا للخفين فالأفضل المسح ، ومن لم يكن لابسا فالأفضل الغسل ، بمعنى أن لا نقول له البس الخفين لتمسح .

فالرجل إن كانت مكسورة فإنها تمسح ، وإن كانت غير مكسورة فإنها تغسل .

ومن شروط المسح على الخفين أن يكون في المدة المحددة وهي يوم وليلة للمقيم وثلاثة أيام بلياليها للمسافر .

ودليل ذلك حديث على بن أبي طالب أن النبي صلى الله عليه وسلم : (جعل للمقيم يوم وليلة وللمسافر ثلاثة أيام)^(١) . يعني في المسح على الخفين ، وكذلك حديث صفوان بن عسال رضى الله عنه قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا كنا سفراً أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام بليالهن إلا من جنابة ولكن من غائط وبول ونوم)^(٢) .

وقيل تبدأ هذه المدة وهو قول شاذ ، تبدأ من اللبس ، وقيل تبدأ من الحدث بعد اللبس ، وقيل تبدأ من المسح بعد الحدث ، ولنمثل مثلاً تبدأ به هذه المدة ، فهذا رجل توضع لصلاة الفجر في الساعة الرابعة وعشر دقائق ولبس ثم أحدث في الساعة الثامنة ثم مسح في الساعة الثانية عشرة فعلى قول بأنه من المسح فيكون ابتداء المدة أربعة وعشرة .

ومن الحدث بعد اللبس الساعة الثامنة ، ومن المسح الساعة الثانية عشرة . والقول الراجح أنها تبتدىء من المسح ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ليمسح) ، وجعل المسح ، ولا يتحقق المسح إلا بوجوده

(١) رواه مسلم في كتاب الطهارة - شرح النووي ١٧٥/٣ .

(٢) رواه الترمذى في كتاب الطهارة ، وقال : حسن صحيح . تحفة الأحوذى ٣١٨/١ .

فعلاً .

فابتداء المدة إذن من أول مرة مسح بعد الحدث .

وتوضيحاً لذلك نقول : لبس رجل الخفين في الساعة الرابعة وعشر دقائق من صباح يوم الأربعاء وبقي على وضوئه كل النهار ونام بعد أن صلى العشاء وقام لصلاة الفجر من اليوم الثاني في الساعة الرابعة وعشر دقائق فمسح ؛ فتبتدىء المدة من الرابعة وعشر دقائق من صباح يوم الخميس ، لأن ما قبل المسح لا يحسب من المدة ، ثم عد أربعاً وعشرين ساعة بعد المسح إذا كنت مقيماً واثنين وسبعين ساعة بعد المسح إذا كنت مسافراً .

ومن شروط المسح على الخفين أن يكون المسح في الحدث الأصغر ، أما في الجنابة فلا مسح ، ودليل ذلك حديث صفوان الذي أشرنا إليه من قبل (إلا من جنابة ولكن من غائط وبول ونوم) .

فإذا حصل للإنسان جنابة وعليه خفان فالواجب عليه أن يخلعهما ليغسل رجليه ، لأن طهارة الجنابة أغلظ من طهارة الحدث الأصغر لهذا يحرم على من عليه الجنابة ما لا يحرم على من عليه حدث أصغر .
وإذا تمت المدة فهل يبطل الوضوء ؟

أولاً : نأتى بمثال : هذا رجل مسح وهو مقيم في الساعة الثانية عشرة من يوم الثلاثاء ، فلما صارت الساعة الحادية عشرة والنصف من يوم الأربعاء توضأ ومسح فتمت الساعة الثانية عشرة وصلى الظهر ، فهل نقول إن وضوءه انتقض لما جاءت الساعة الثانية عشرة من يوم الأربعاء ؟ الصحيح أنه لا ينتقض وضوءه ، وأن وضوءه باق ولو تمت المدة ، لكن لا يمسح بعد تمام المدة ؛ ووجه كون ذلك هو القول الصحيح ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما وقت المسح ولم يوقت الطهارة ، ما قال الطهارة يوم وليلة ، إنما وقت المسح .

فإذا تم اليوم واللييلة فإن مقتضى ذلك أن لا أمسح ، وليس مقتضاه أن يبطل وضوئي ، هذا وجه .

الوجه الثاني : أن هذا الذي مسح قبل تمام المدة بنصف ساعة ، ثم تمت المدة وهو ماسح قد صح وضوءه بمقتضى دليل شرعى ، وأن ما صح

بمقتضى الدليل الشرعى ، فإنه لا يمكن إفساده إلا بدليل شرعى .
وليس لمن قال إنه ينتقض بتمام المدة ليس لديه دليل شرعى يدل على ذلك .

ولو أن الرجل خلع الجورب الذى مسحه أو الخف فهل تنتقض طهارته ؟

فيه خلاف كالأول ، لكن الصحيح أن طهارته لا تنتقض ، لأننا نقول هذا الرجل الذى مسح على الجورب أو على الخف صحت طهارته ، لأن المدة ما زالت باقية ، فإذا خلع الخف فإننا نقول ما دامت طهارته قد صحت بمقتضى دليل شرعى فإننا لا ننقضها إلا بدليل شرعى .

وأين الدليل على أن خلع الخف ناقض للوضوء ؟

ليس هناك دليل ، وأيضا لو أن رجلاً توضأ وعليه شعر كثير على رأسه ومسحه ثم بعد أن أتم وضوءه حلق رأسه فقد زال الممسوح فهل ينتقض وضوءه ؟

فلا ينتقض وضوءه ، حتى على قول من يقول إن الوضوء ينتقض بخلع الخف ، وعلى هذا فإذا خلع خفه فإن طهارته لا تنتقض ، لكن لا يمكن أن يعيد الخف مرة أخرى إلا بعد أن يتوضأ ويغسل رجليه .

التاسع عشر : جواز التيمم بل وجوبه عند عدم الماء أو عند الضرر باستعماله ودليل ذلك : « وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا » .

العشرون : أن التيمم يكون فى الحدث الأكبر والأصغر لقوله : « أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ » على التفسير الصحيح لقوله : « أَوْ لَامَسْتُم » .

الحادى والعشرون : أن الغائط ناقض للوضوء ، ودليل ذلك قوله : « أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا » وهذا دليل على أن الغائط ناقض للوضوء .

وهل البول مثله ؟

نعم مثله ، لأنه خارج من السبيل ، وهل مثله الريح ؟ نعم ، لأنه خارج

من السبيل ، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم : (أنه قال إذا وجد أحدكم فى بطنه شيئاً فأشكل عليه أخرج منه شيء أم لا فلا يخرجن من المسجد حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً)^(١) . وهذا يدل على أن الريح ناقض للوضوء . فلو خرج من السبيلين دم ليس بولاً ولا غائطاً وريحاً لكنه دم ، مثل أن يكون بالإنسان بواسير أن تنجرح المثانة فيخرج الدم ، فهل ينتقض الوضوء أم لا ؟

نعم ينتقض الوضوء ، ولهذا نقول كل خارج من السبيلين فإنه ناقض للوضوء سواء كان بولاً أم غائطاً أم دمًا أو ماءً أم مذيًا . أما المني فإنه يوجب الغسل .

الثانى والعشرون : جواز التيمم على كل أجزاء الأرض لقوله : « فتييموا صعيداً طيباً » فيجوز التيمم على الأرض سواء كانت رملية أو طينية أو ذات غبار أو ليس له غبار ؛ لأن الله تعالى لم يفصل ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يسافرون ويمرون بالأراضي الرملية والترابية ، ويتيممون ، وهذا يدل على أنه يجوز التيمم بكل ما كان على وجه الأرض . هذا إذا كان من التراب ؛ يعنى من أصل الأرض والأحجار والأتربة وما أشبه ذلك .

فإن كانت فرشاً فهل يتيمم عليه الإنسان ؟

الصحيح أنه لا يتيمم عليه إلا إذا عدم مكاناً من الأرض وكان عنده فرس وفيها غبار فحينئذ يجوز أن يتيمم عليه .

الثالث والعشرون : أنه يشترط للتراب المتيمم به أن يكون طاهراً لقوله : « فتييموا صعيداً طيباً » .

الرابع والعشرين : تساوى الطهارتين فى التيمم ، طهارة الحدث الأصغر والأكبر ، لأن الله عز وجل يقول : « أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتييموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه » بينما الأعضاء المغسولة أو المطهرة فى الطهارة الصغرى تختلف فى الطهارتين من الغسل فى طهارة الماء .

(١) رواه البخارى فى كتاب الوضوء - باب (٤) - حديث (١٣٧) .

ففى الجنابة يغسل جميع البدن ، وفى الوضوء لا يغسل إلا الأعضاء الأربعة ؛ أما التيمم فإن الطهارتين فيه على حد سواء ، والفرق ظاهر ؛ لأن المقصود بالتيمم إظهار التعبد لله ، حيث إن الإنسان يمسح أشرف أعضائه بهذا التراب ، وهذا لا يختلف فيه الموجب للغسل ، والموجب للوضوء ، فإن التعبد حاصل بخلاف الطهارة بالماء ، فإن فيها تنظيفا ، فلذلك خص الأعضاء الأربعة فى الوضوء وجميع البدن بالغسل .

الخامس والعشرون : وجوب مسح الوجه فى التيمم والدليل : « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه » ، فلو أن رجلاً هبت عاصفة أمامه وليس عنده ماء ، جاز له أن يتيمم ، فهبت تلك العاصفة فاستقبلها بوجهه حتى امتلأ غباراً واستقبلها بيديه أيضاً حتى امتلأ غباراً ، واستقبلها بيديه أيضاً حتى امتلأت غباراً فهل يجزئه هذا أم لا ؟ فلا يجزئه ، لأنه ليس فيه مسح والله عز وجل أوجب المسح .

السادس والعشرون : أن التيمم مطهر لقوله : « ولكن يريد ليظهركم » .

وقد جاءت السنة أيضاً بما جاء به القرآن وهو أن التيمم مطهر مثل قوله صلى الله عليه وسلم : (جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً)^(١) . والفرق بين طهوراً ، وطُهِرُوا ، أن الطُّهُور فعل المتطهر ، والطهور ما يتطهر به . ومنه السُّحُور ، والسُّحُور ، فالسُّحُور هو ما يتسحر به وبالضم نفس الأكل .

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (لا تزال أمتى بخير ما أخر السحور ، أو السحور)^(٢) السُّحُور وهو الفعل .

وكما قلنا أن الطُّهُور ما يتطهر به وبناءً على ذلك لو تيمم الإنسان لصلاة الفجر وبقي على طهارته إلى صلاة الظهر فإنه يصلى صلاة الظهر بنفس التيمم وإن بقي إلى العصر صلى العصر وإن بقي إلى المغرب صلى المغرب وإن بقي إلى العشاء صلى العشاء ، لأن هذا التيمم طهره بمقتضى القرآن والسنة ، والطهارة لا ترتفع إذا ثبتت بدليل شرعى إلا بدليل شرعى .

(١) رواه الإمام أحمد .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

ولا دليل على أن التيمم ينتقض بخروج الوقت ، وعلى هذا فما دمت على طهارتك فإنك تبقى على طهارتك ولا تتيمم ، وهذا القول ؛ أعنى أن التيمم رافع للحدث هو القول الصحيح الذى اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية وجماعة من المحققين ، لكن رفعه للحدث رفع مؤقت إذا وجد الماء أو زال المانع من استعمال الماء ، وجب عليه أن يتوضأ إذا كان تيممه من حدث أصغر ، وأن يغتسل إن كان تيممه عن حدث أكبر ، ودليل ذلك ما ثبت فى صحيح البخارى من حديث عمران بن الحصين فى قصة نقض الماء عليه ، وأخذهم المزايدة من المرأة المشركة وتوضؤهم منها وسقيهم الإبل ، وكان هناك رجل لما فرغ النبى صلى الله عليه وسلم من صلاته رآه معتزلاً قال له النبى صلى الله عليه وسلم : (ما منعك أن تصلى معنا) قال : يا رسول الله أصابتني جنابة ولا ماء . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : (عليك بالصعيد فإنه يكفيك عن الماء) . وهذه الجملة دليل على أن التيمم رافع للحدث ؛ لأن الماء رافع للحدث ، ثم جلس الرجل فلما جىء بالماء وارتوى الناس واستقوا وبقي بقية قال للرجل خذ هذا فأفرغه على نفسك . فقلوه : (خذ فأفرغه)^(١) يدل على أن التيمم رفع الحدث عنه رفعاً مؤقتاً حتى يجد الماء ، فإذا وجده فليستعمله ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث أبى هريرة : (الصعيد الطيب طهور المسلم وإن لم يجد الماء عشر سنين فإذا وجده فلينق الله وليمسه بشرته)^(٢) .

السابع والعشرون : إثبات الإرادة لله عز وجل بالمعنى الشرعى لقلوه : « مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ » .

الثامن والعشرون : أن الحرج منقضى شرعاً ، ولهذا يقول العلماء كلما وجدت المشقة وجد التيسير وبعدهم يعبر عن المعنى بعبارة أخرى فيقول المشقة تجلب التيسير وهذا صحيح .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم لعمران بن الحصين : (صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب)^(٣) وهذا تيسير لوجود المشقة .

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه أصحاب السنن ، وقال الترمذى حديث حسن صحيح .

(٣) رواه البخارى فى كتاب قصر الصلاة - باب (١٩) .

وقال ابن عباس رضى الله عنه : جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء فى المدينة من غير خوف ولا مطر . قالوا : ما أراد بذلك ؟

قال أراد أن لا يخرج أمته^(١) . أى أن لا يشق عليهم .

وصلى النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه فى رمضان ثلاث ليال ثم ترك ذلك فى الليلة الرابعة والثالثة ثم قال إني خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها^(٢) . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة)^(٣) ، وقال حين تأخر فى صلاة العشاء إلى ثلث الليل قال : (إن هذا لوقتها لولا أن أشق على أمتي)^(٤) . والآيات فى هذا كثيرة كلها تدل على أن هذا الدين ليس فيه حرج ولا مشقة لا فى أصل العبادات ولا فيما وجد طارئ يقتضى التخفيف . فالصوم مثلاً إذا سافر الإنسان فإنه يفطر ، وإذا كان مريضاً يفطر ؛ لأن ذلك قد يشق عليه .

التاسع والعشرون : أنه لا يجوز أن يمس القرآن رجل بغير وضوء ، والدليل على ذلك قوله : « ولكن يريد ليطهركم » وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا يمس القرآن إلا طاهر)^(٥) . فإذا قارنت الحديث بالآية عرفت أن معنى الطاهر هو الذى توضع ، والذى توضع وتطهر بالماء أو بالتيمم .

وعلى هذا فلا يجوز أن يمس القرآن إلا طاهر ، وقد قال بعض العلماء إنه يجوز لغير الطاهر أن يمس القرآن - يعنى لغير المتوضىء - وقالوا إن قوله صلى الله عليه وسلم : (لا يمس القرآن إلا طاهر) أى إلا متوضىء ، وقالوا : (لا يمس القرآن إلا طاهر) أى مؤمن ، واستدلوا

(١) رواه مسلم فى كتاب المسافرين . شرح النووى على مسلم ٢١٦/٥ .

(٢) رواه البخارى فى كتاب التهجد - باب (٥) - حديث (١١٢٩) .

(٣) رواه مالك والشافعى والبيهقى والحاكم .

(٤) رواه مسلم والنسائى .

(٥) انظر الموطأ - كتاب القرآن - الباب الأول .

لقولهم بقول النبي صلى الله عليه وسلم : (إن المؤمن لا ينجس)^(١) .
ولقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ »^(٢) فقالوا
المراد بالطاهر المؤمن ؛ أى لا يمس القرآن إلا مؤمن سواء كان متوضئاً
أم غير متوضئ ، ولكن هذا ليس بصواب ؛ لأننا ما عهدنا أن النبي
صلى الله عليه وسلم يعبر عن المؤمن بالطاهر ، وإنما يعبر عن المؤمن
بالإيمان ، ألم تر إلى قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ
وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ »^(٣) ولم يقل (إنما الطاهرون الذين إذا ذكر الله وجلت
قلوبهم) .

الثلاثون : أن الشرع من تمام النعمة لقوله : « وَيَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ »
ويدل على أن الشرع من تمام النعمة قوله تعالى : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ
وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا »^(٤) ولا شك أن أكبر
نعمة ينعم الله بها على العباد أن يشرع لهم ديناً يوصلهم إليه .

أرأيت أن قرية من القرى على رأس جبل والوصول إليها صعب فجاؤ
بعض المحسنين وفتح لها طريقاً سهلاً معبداً ، هل يعتبر ذلك إحساناً منه ؟
نعم يعتبر ؛ ففتح الطريق الشرعى الموصل إلى الجنة لا شك أنه إحسان
ولا طريق يوصل إلى الجنة إلا التمسك بشريعة الله عز وجل ، فإن الله تعالى
قد سد جميع الطرق إلا الطريق الذى جاء به النبي صلى الله عليه وسلم .
الواحد والثلاثون : وجوب الشكر لله لقوله : « لِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » ومنها
إثبات الحكمة فى أفعال الله وشرع الله ؛ لأنه قال : « وَلِيَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ
لِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

وأود أن أقول إن من المهم أن نفقه كلام الله ونفهم معناه ، ليس المهم
أن نقرأه فقط ؛ لأن الله يقول : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ
وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ »^(٥) ونحن إذا رجعنا إلى تفاسير أهل العلم وجدنا أن

(١) رواه البخارى فى كتاب الغسل - باب (٢٣) - حديث (٢٨٣) .

(٢) سورة التوبة : الآية ٢٨ .

(٣) سورة الأنفال : الآية ٢ .

(٤) سورة المائدة : الآية ٣ .

(٥) سورة ص : الآية ٢٩ .

أكثرها لا يعتنى باستنباط الأحكام من الآيات ، وهذا فى الحقيقة قصور .
والذى ينبغى أن نستنبط الأحكام من الآيات لأجل أن نستفيد بفوائد أكثر .

ويذكر عن الإمام الشافعى رحمه الله أنه استضاف الإمام أحمد يوماً بل استضافه ليلة من الليالى والشافعى شيخ الإمام أحمد ، فجاء إليه فى ليلة من الليالى فقدم الإمام أحمد العشاء للشافعى وأكل العشاء كله - يعنى الإمام الشافعى - أكل العشاء كله ثم لما رجع من صلاة العشاء نام - أى الشافعى - ولم يقم يتهدج ثم لما خرج إلى صلاة الفجر خرج بدون وضوء ، وكان السلف الصالح رحمهم الله ينشئون أهلهم على طاعة الله وعلى العلم ، فهم ليسوا مثلنا ، فتجد الواحد منا لا يأكل مع أولاده ولا مع أهله إلا نادراً وإذا جاء يأكل معهم تجد الحديث فى غير فائدة فى الغالب .

والرسول صلى الله عليه وسلم كان ينشر العلم حتى حين قال لعمر بن أبى سلمة وهو غلام يأكل معه وطاشت يده فى الصحفة قال له النبى صلى الله عليه وسلم : (يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك)^(١) .

وأقول إن الإمام أحمد رحمه الله لما قدم الطعام إلى الشافعى وأكله كله ولم يقم يتهدج وخرج إلى الصلاة بغير وضوء فأهل الإمام أحمد استنكروا ذلك وسألوا الإمام أحمد ، قالوا كيف الإمام الشافعى الذى كنت تثنى عليه كيف يأكل الطعام كله وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : (حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه - وحسب بمعنى كاف - فإن كان لا محالة فتثلاث لطعامه وثلاث لشرابه وثلاث لنفسه)^(٢) ؟ فكيف ينام ولا يتهدج ، وكيف يقوم يصلى الفجر وهو نائم ولا يتوضأ ؟ فقال الإمام أحمد أسأله عن ذلك ، فسأل الإمام أحمد الإمام الشافعى لم هذا العمل ؟ قال أما أكلى للطعام فإننى لا أجد فى هذه المدينة طعاماً أحل من طعام الإمام أحمد ، فأردت أن أملأ بطنى منه - لأن الإمام أحمد رحمه الله مشهور بالورع ، حتى إن ابنه صالح وهو يأخذ من السلطان بعض الأشياء إذا خبز للإمام أحمد فى تنوره ما يأكل من الخبز ، جاءوا إليه مرة حين طلب الطعام جاءوا إليه بخبز قال من أين هذا الخبز

(١) رواه مسلم فى كتاب الأشربة . شرح النووى على مسلم ١٣/١٩٣ .

(٢) رواه الترمذى فى الزهد ، وقال : حسن صحيح . تحفة الأحوذى ٥١/٧ .

قالوا من تنور صالح ابنه قال ارفعوه فترك أكله مع حاجته إليه وهذا من تمام ورعه رحمه الله ، ولكن مثل هذا العمل بمثل هذا الورع محمود وقد يكون غير محمود ؛ لأن الورع يختلف باختلاف الناس .

جاءت امرأة إلى الإمام أحمد وقالت يا أبا عبد الله إن السلطان إذا مر علينا بالليل ومعه أنواره فإن غزلنا يزيد أو قالت نسجنا يزيد بسبب الأنوار ، فهل تحل لنا هذه الزيادة ؟

قال الإمام أحمد نعم تحل ، ولما انصرفت المرأة فكر لم هذا السؤال فسأل من عنده ، فقال من هذه المرأة ؟ قال هذه أخت إبراهيم بن أدهم ، فجاء بها وقال تعالى : من بيتكم خرج الورع لا تزيد في النسيج إذا مرت بكم أنوار السلطان .

ففي الأول قال لا بأس به ، والثاني قال لا ، وذكر له رجل استأذن أن يغطي القلم بدواة صاحبه هل يجوز أن أعطى قلمي بدواة جاري بدون إذنه ؟ فقال هذا ورع مظلم ؟ لأن مثل هذه الأمور جرت العادة بأنه لا يحتاج إلى استئذان .

أرأيت رجلاً واقفاً في الشمس وهو كبير الجسم وأنت صغير الجسم وله ظل فأردت أن تجلس في ظله فهل تقول له هل تسمح لي أن أجلس في ذلك ؟ فإنك لا تقول هذا .

نرجع إذن إلى قول الإمام الشافعي للإمام أحمد ، قال إنني لم أجد طعاماً أحل من طعام الإمام أحمد فأردت أن أملاً بطني منه ، ولماذا لم تقم تتهجد ؟ قال لأنني أتدبر حديثاً وهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (يا أبا عمير ما فعل النغير)^(١) ، فاستنبط منه فوائد فأنا سمعت أنها حوالى ألف فائدة ، لكن قال بعض الناس إنها أربعمئة ، فاستنبط من هذا الحديث أربعمئة فائدة ، وأعتقد لو كلنا جميعاً نستنبط الفوائد لاستنبطنا عشر فوائد أو أقل ، لكن هذا استنبط على أقل ما سمعت أربعمئة فائدة .

لكن بقي طول الليل يتدبر ولم يقم يتهجد ، لماذا ؟ لأن طلب العلم أفضل من التهجد ، وبهذا نعرف أن حضور المعتكف لجلسات العلم أفضل من

(١) رواه البخاري في الأدب - باب (٨١) - حديث (٦١٢٩) .

تفرغه للقراءة ؛ لأن طلب العلم قد يكون فرض عين لا سيما إذا كان هذا الطلب لا يستغرق جميع الأوقات ، وأنه بإمكانه أن يتفرغ للعبادة القاصرة التي لا تتجاوز في أوقات أخرى .

ولماذا خرجت إلى صلاة الفجر بدون وضوء ؟ لأنه لم ينم .

فرجع الإمام أحمد إلى أهله فأخبرهم ، فعرف بذلك فضل أئمتنا رحمهم الله . وأن الإنسان منا يجب أن يستحي ويخجل إذا أراد أن يقارن نفسه بهؤلاء الأئمة نسأل الله لنا ولكم السلامة والعافية وأن يجعلنا هداة مهتدين وصالحين .

وإن وصيتي لنفسي وإياكم تقوى الله عز وجل في السر والعلن ، وأن الإنسان إذا هم بالسيئة قد يتذكر الله عز وجل حتى يدعها وإن سولت له نفسه أن يفعلها ، فليتذكر عظمة من خالفه وعظمة من عصاه حتى يقلع عن المعصية وليتذكر هذه الآيات الكريمة العظيمة : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ » ^(١) .

وليتذكر عند المعصية عظمة من يعصيه لا ينظر إلى عظمة المعصية وهل هي من العظام أو الصغائر لها ، فلينظر إلى عظمة من يعصيه حتى يرتدع فإن الإنسان إذا نظر إلى المعصية من حيث إنها معصية قد يستهين بها ولا يبالي أيفعلها أم لا ، ولكن إذا ذكر عظمة من يعصيه فإنه سوف يقلع .

(١) سورة آل عمران : الآيات ١٣٢ - ١٣٦ .

من سورة يس

نتكلم حول موضوعين من آيات هذه السورة :

فالأول منهما قوله تبارك وتعالى : « أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسَى خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ »^(١) والمراد بالإنسان هنا الإنسان المنكر للبعث سواء كان معيناً بشخصه أم معيناً بوصفه .

واعلم أن ما جاء فى كتاب الله عز وجل فإنه معلق بوصفه غالباً وإن جاء ذكر أحد بعينه فإنما ذلك لمعنى يقتضيه .

« أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ » فإن بعد أن خلق من هذه النطفة الجامدة التى ليس فيها أكتاف وليس فيها بيانه « إِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ » يخاصم بخصوصة بليغة وما يخاصم فيه أنه يقول : « من يحيى العظام وهى رميم » فالرميم هى العظام البالية النخرة ، فيقول هذا الإنسان المنكر للبعث يقول كيف تحيا هذا العظام التى رمت وبليت وتلفت من الذى يحييها ؟ فاستمع إلى الجواب ، ثم استمع إلى ما تضمنه إلى هذا الجواب : من الأدلة العقلية البرهانية يقول الله تعالى : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ »^(٢) هذا هو الدليل الأول ، ودليل عقلى برهانى لا يمكن أن ينكره أحد فيقال لهذا الذى يقول : « من يحيى العظام وهى رميم » يقال له من الذى أنشأها أول مرة فسيقول الله عز وجل : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » ؛ لأن القادر على ابتداء الخلق ، قادر على انتهائه ، قادر على إعادته من باب أولى كما قال الله عز وجل : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ »^(٣) أى إعادته أهون عليه ، وهذا الدليل دليل معقول لا يمكن أن يجادل فيه المجادل ؛ لأن المعروف أن الإعادة أهون من الابتداء ،

(١)، (٢) سورة يس : الآيات ٧٧ - ٧٩ .

(٣) سورة الروم : الآية ٢٧ .

أرأيت لو بنيت قصرًا فخماً مشيداً ثم انهدم البناء ثم أراد أحد أن يعيده أليس الإعادة أهون من الابتداء لأنها لا تحتاج إلى تخطيط ولا إنشاء من جديد وإنما تحتاج إلى إعادة ، والإعادة أهون ولهذا قال : « قل يحييها الذي أنشأها أول مرة » .

والدليل الثانى : « وهو بكل خلق عليم » فالعليم بكل خلق الذى لا يخفى عليه كيف يخلق ولا كيف ينشأ ، عليم بإعادة الخلق ، وكيف يعاد هذا الخلق ؟

وهذا استدلال بعموم علم الله بكل خلق ، ولا يمكن أن يكون العجز عن الشيء إما لأحد أمرين إما الجهل ، وإما العجز ، ولهذا لو قيل لشخص ما اصنع وهو لا يدري كيف يصنع فلا يمكن أن يصنعه ، ولو قيل لإنسان عالم بهذه الصنعة ، لكنه غير قادر عليها ، فلو قيل له اصنع هذا المسجل فلا يستطيع أيضاً ؛ لأنه ليس بقادر ، فالرب عز وجل بكل خلق عليم ، وهو قادر عليه .

فهذا دليل آخر على إمكان إعادة البعث وإمكان إعادة العظام الرميمة . ولا نقول فى حق الله تعالى أنه ما دام يستطيع كذا ؛ لأن الاستطاعة لا تجوز أن تكون فى حق الله تعالى ، بل نعبر عن القدرة بالقدرة ، لأن الاستطاعة لا تجوز أن تكون فى حق الله تعالى : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ »^(١) ولهذا وصف الله نفسه بالقدرة ولم يصف نفسه بالاستطاعة .

لكن قد يورد علينا قول الله تعالى عن الحواريين : « هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ »^(٢) فهنا قولوا : « هل يستطيع ربك » والجواب على هذا أن المراد بالاستطاعة هنا الإرادة يعنى هل يريد الله أن ينزل لأن الحواريين لا يشكون فى قدرة الله عز وجل .

والدليل الثالث : قول الله تعالى : « الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مُنَّةُ ثَوَقْدُونَ »^(٣) فانظر إلى قوله : « جعل لكم من الشجر

(١) سورة التغابن : الآية ١٦ .

(٢) سورة المائدة : الآية ١١٢ .

(٣) سورة يس : الآية ٨٠ .

الأخضر نارًا فإذا أنتم منه - ولم يقل به ، بل قال - منه توقدون » وكيف ذلك ؟

أن هناك شجرًا معروفًا كان الناس يستعملونه قبل إيجاد الوسائل الأخيرة ، شجر يضرب بالزند من الحديد ثم ينطلق نارًا فيوقد الناس منها . فالنار حارة يابسة ، والشجر الأخضر رطب بارد ، ومع ذلك يخرج الله هذه النار الحارة اليابسة من هذا الشجر الأخضر الرطب البارد والقادر على إيجاد الشيء من بدئه ، قادر على إعادة العظام الرميمة بعد أن كانت رميمة .

الدليل الرابع : قوله تعالى : « **أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ** »^(١) فأيهما أكبر خلق الإنسان أم خلق السموات والأرض ، فخلق السموات والأرض أكبر ؛ لأن الله يقول : « **لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ** »^(٢) فخلق السموات والأرض أعظم من خلق الإنسان ، فالذى قدر على خلق السموات والأرض وعلى إيجادهما وما بهما من المصالح والمنافع والكواكب العظيمة الهائلة قادر على أن يعيد العظام بعد أن كانت رميمة .

« **أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم** »
بلى قادر على أن يخلق مثل الإنسان ؛ لأنه خلق السموات والأرض وهى أعظم من خلق الإنسان .

الدليل الخامس : قوله تعالى : « **وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ** » .

الخالق من الناحية اللغوية صيغة مبالغة تدل على كثرة خلق الله عز وجل وهى من وجه آخر صفة مشبهة تدل على اتصاف الله عز وجل بالخلق إتصافًا لا ينفك منه ، ولهذا لم يزل الله عز وجل ولا يزال خلاقًا عليما ، ولهذا قال : « **بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ** » فالخالق القادر على الإيجاد العليم بذلك قادر على أن يعيد العظام وهى رميم حتى تكون خلقًا جديدًا .

الدليل السادس : قوله : « **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ** »

(١) سورة يس : الآية ٨١ .

(٢) سورة غافر : الآية ٥٧ .

فَيَكُونُ»^(١) فكلمة (شيئاً) نكرة فى سياق الشرط ؛ والنكرة فى سياق الشرط تفيد العموم يعنى إذا أراد أى شىء من الأشياء أن يقول له (كن) فقط (فيكون) ؛ وكلمة (فيكون) والفاء دالة على الترتيب وعلى السببية أيضاً ، يكون هذا الشىء حول قول الله عز وجل : « كن » ولا يتأخر المراد عن الأمر ويأتى فوراً بدون مهلة .

والدليل قوله تعالى : « وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ »^(٢) واحدة ثم يكون المأمور كلمح بالبصر ولا يكون شيئاً أسرع من لمح البصر . إذن مراد الله عز وجل الذى أمره أن يكون يأتى بمرة واحدة « كلمح بالبصر » وانظر إلى الباء فلا تتأخر عن أمر الله ، يقول الله عز وجل : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ »^(٣) على وجه الأرض ، ويقول الله عز وجل : « إِنَّ كَانَتْ إِلَّا صَنِيعَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ »^(٤) كلهم محضرون إلى الله عز وجل بهذا الكلمة الواحدة . فالذى يقول للشىء كن فيكون قادر على أن يعيد هذه العظام التى كانت رميم يعيدها خلقاً آخر .

« أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء » .

الدليل السابع : قوله تعالى : « فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ » أى تحت قدرته وقهره وملكوته . بمعنى ملك لكنها على صيغة المبالغة وملكوت كل شىء يعنى جميع الملك بيدى الله عز وجل لا يستعصى عليه شىء ومن بيده ملكوت كل شىء لا يمكن أن يعجزه شىء .

الدليل الثامن : قوله تعالى : « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » ووجه الدلالة من هذه الآية الإشارة إلى أن الله عز وجل إنما خلق الخلق من أجل أن يرجع إليه .

(١) سورة يس : الآية ٨٢ .

(٢) سورة القمر : الآية ٥٠ .

(٣) سورة النازعات : الآيتان ١٣ ، ١٤ .

(٤) سورة يس : الآية ٥٣ .

فإذا كان المرجع إلى الله فلا بد أن يحيى هذه العظام الرميمة حتى يجازى كل إنسان بما يستحق : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »^(١)

(١) سورة الزلزلة : الآيتان ٧ ، ٨ .

من سورة « ص »

ونتكلم كذلك حول موضوعين من آيات هذه السورة :

الموضوع الأول حول قوله تعالى : « وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ »^(١) وهل الاستفهام هنا « هل أتاك نَبَأُ الْخَصْمِ » هل هو سؤال استخبار واستعلام أم يراد به شيء آخر ؛ يعنى هل الله يسأل داود عليه الصلاة والسلام جاءه الخبر أم لا والله يعلم أن الخبر لم يأت ، إذن ليس هو استفهام استعلام واستخبار .

لكن له معنى آخر وهو التشويق وفتح الذهن ؛ لأن الإنسان إذا ألقى إليه الكلام على صيغ الاستفهام انفتح ذهنه له ، ولهذا لما سئل النبي صلى الله عليه وسلم : (عن بيع الرطب بالتمر أينقص إذا جف قالوا نعم فهاهم عن ذلك)^(٢) والقصة هذه تعنى بيع التمر بالتمر لابد فيه من شرطين :

الشرط الأول التساوى ، والشرط الثانى :

فإذا بعث رطباً بتمر والتمر هو اليابس فهل ينقص الرطب ، إذا جف نعم يجف وينقص وزنه أيضاً لما قالت الصحابة يا رسول الله هل يباع التمر بالرطب (فلم يقل لا) لكن قال : (هل ينقص إذا جف ، قالوا نعم فهاهم عن ذلك) ، والرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أن الرطب ينقص إذا جف ، لكن أراد أن يبين العلة على هذا الوجه الذى شوق السامع : « هل أتاك نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ » .

وهنا سؤال إلى علماء النحو (فالخصم مفرد) (والجمع خصماء) (والمثنى خصمان) فهنا قال « الخصم إذ تساوروا المحراب » والواو هذه واو الجماعة فكيف تعود واو الجماعة على مفرد ؟

الجواب : هو مفرد فى اللفظ جمع فى المعنى ، وقد يكون اللفظ مثنى

(١) سورة ص : الآيتان ٢١-٢٢ .

(٢) رواه أبو داود فى كتاب البيوع - باب (١٨) . سنن أبى داود ٢٥١/٣ .

فى اللفظ وجمعاً فى المعنى قال الله تعالى : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا »^(١) فراعى الجمع « فأصلحوا بينهما » راعى اللفظ ولم يقل : (بينهم) ، إذن (الخصم) مفرد لفظاً ، جماعة معنى « إذ تسوروا المحراب » (تسوروا) أى صعدوا السور ولم يدخلوا من الباب ، والمحراب ليس هو المحراب الذى يوجد الآن فى المساجد ، ولكن المحراب مكان العباد .

ولهذا رأيت فى بعض المساجد كتبوا على المحراب « كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا »^(٢) لكن ما كتبوا (وجد عندها رزقا) يخافون أن يطالبوهم برزق ، ويظنون أن المحراب هو ذات القبلة وليس كذلك ، بل المحراب موضع العبادة .

« تسوروا المحراب فدخلوا على داود ففرع منهم » ووجه فزعه ؛ أنهم دخلوا من غير الباب وتسوروا عليه وهو مشغول بعبادته .

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يختلفون عن الناس فى الطباع البشرية ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : (إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون)^(٣) ، دخلوا على داود ففرع منهم « قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَخَكُمُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ »^(٤) فكلمة (تشطط) أى لا تمل ولا تجر ، (واهدنا إلى سواء الصراط) يعنى دلنا على الطريق السوى الذى ليس فيه ظلم ولا جور ثم بدعوا قصتهم فقال أحد الخصمين : « إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ » (والنعجة) هى الشاة ويرى بعض المفسرين أنها المرأة ، « له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها » يعنى خصنى بها وأعطنى إياها ، فإذا أعطاه إياها وله تسع وتسعون فيبقى عنده مائة والآخر لا شىء له ، فهذا الذى عنده تسع وتسعون طلب من الذى عنده

(١) سورة الحجرات : الآية ٩ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٣٧ .

(٣) رواه البخارى فى كتاب الصلاة - باب (٣١) - حديث (٤٠١) .

(٤) سورة ص : الآية ٢٢ .

نعجة واحدة أن يعطيه شاته ليكمل بها المائة .

« وعزنى فى الخطاب » ومعنى عزنى فى الخطاب أن غلبنى فى الخطاب ؛ لأنه رجل فطن جيد الخصومة ، فماذا قال داود : « قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَى نَعَاجِهِ » وهنا إشكال من الناحية النحوية (سأل) لا تتعدى بإلى وهنا عديت بإلى فلماذا ؟

لأن هنا (بسؤال نعجتك) ضامًا لها نعاجه كأنه ضمن معنى السؤال الضم يعنى سألَكَ ليضم نعجتك إلى نعاجه .

« وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ » وهذه جملة قال بعض المفسرين إما من كلام الله ، وقال بعضهم وإما من كلام داود .

ثم قال تعالى : « وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتْنَاهُ فَاستَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ » (وفتناه) بمعنى اختبرناه ، يعنى سجد وأناب إلى الله .

والمشهور عند الفقهاء أن لا يسجد فى الصلاة فى هذه السجدة ؛ لأنها سجدة شكر .

وسجدة الشكر إذا سجدها الإنسان وهو يصلى بطلت صلاته .
والصحيح أنها سجدة تلاوة ؛ لأنه لو لا تلاوتنا لكتاب الله ما سجدناها ، وفى سجدة التلاوة إذا تلاها الإنسان ولو فى الصلاة فإنه يسجد .

والاختبار فى هذه القصة أن داود عليه الصلاة والسلام حكم بدعوى الخصم بدون أن يسأل الخصم الآخر وكأنه عليه الصلاة والسلام فعل ذلك ليعود إلى عبادته الخالصة فهو ما أغلق الباب على نفسه وخلق بمحرابه إلا ليتعبد عبادة خاصة ، وداود عليه الصلاة والسلام له وظيفة عظيمة وهى الحكم بين الناس : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ » فهو خلق بعبادته الخاصة ، وترك أمر الناس ، فاختره الله بهذه القصة ، فهو عليه الصلاة والسلام حكم لأحد الخصمين دون أن يسأل الخصم الآخر وهذا غير جائز فلا بد أن تسمع الخصم الآخر .

وقال صلى الله عليه وسلم : (لو يعطى الناس بدعواهم لادعى قوم

دماء قوم وأموالهم ولكن البينة على المدعى واليمين على من أنكر^(١) فهذا وجه .

والوجه الثاني : أن داود عليه الصلاة والسلام خلى فى عبادة خاصة وأغلق المحراب على نفسه ، والدليل على أنه أغلقه أنهم تسوروا المحراب ، ما دخلوا من الباب ، والإنسان المكلف بالحكم بين الناس يجب أن يكون مفرغا نفسه للحكم بين الناس ، وهذا أيضا فيه شىء من الإخلال باستقبال أحكام الناس ولهذا رآه داود فاستغفر ربه وخر راکعاً وأتاب .

الوجه الثالث : وهو فزع داود منهم ، فلماذا يفزع أليس هذا ينافى التوكل ؟ ولكن هذا ليس بصواب ؛ لأن الفزع فى مثل هذه الصورة من طبيعة البشر ولا يلام ، فهذا موسى عليه الصلاة والسلام مع قوته وشدته فى ذات الله خرج من مصر خائفاً يترقب ، وهذا أمر لا يلام عليه الإنسان ، لأنه من طبيعته ، فإذا نظرنا إلى هذه القصة رأيناها واضحة فى القرآن ، لكن مع ذلك يوجد فى كتب المفسرين التى تنقل الإسرائيليات أن داود عليه الصلاة والسلام كان له رجل مع الجند ، ولهذا الرجل زوجة حسناء جميلة وعند داود تسع وتسعين امرأة ففكر داود عليه الصلاة والسلام كيف يصل إلى هذه المرأة الحسناء الجميلة فدبر حيلة وكيداً ؛ أنه بعث هذا الرجل فى جيش ليلاقى الأعداء فيقتل هذا الرجل ثم يتزوج داود زوجته . فبالله عليكم هل يمكن أن ينسب مثل هذا إلى نبي من أنبياء الله ، كلا والله فهذا لا يمكن لأى عاقل ولو لم يكن مؤمناً أن يتصرف هذا التصرف .

فكل إنسان يرى أن هذا التصرف من أشد الأمور نكراً وخداعاً ، ولا يمكن أن يقع من نبي من أنبياء الله ، ولكن اليهود عليهم لعائن الله إلى يوم القيامة يتبعون أن يدبروا مثل هذه الأمور ، وأن يقدحوا فى الأنبياء بمثل هذه الأمور ، وقد علم من حالهم أنهم يقتلون الأنبياء بغير حق ، ويقتلون الذين يأمررون بالقسط من الناس وليس بغريب عليهم أن يدبروا هذه القصة والكذب على داود ، ولهذا يسمى داود عندهم حتى الآن ملك ، يرون أنه ملك وليس بنبي .

(١) رواه مسلم فى أول كتاب الأفضية . شرح النووى ٢/١٢ .

حتى عندهم نجمة يسمونها نجمة الملك داود ، ولا يقرون بأنه نبي ، فإنه أظهر وأزكى وأحسن أخلاقاً من أن يدبر هذه المكيدة العظيمة فعلينا أن نعرف للأنبياء حقهم وأن نقول إن داود عليه الصلاة والسلام اجتهد وهذا الاجتهاد الذي وقع منه على هذا النحو الذي عرفناه والقصة واضحة والله الحمد .

الموضوع الثاني : فى معنى العبودية

أن الله تعالى وصف أشرف خلقه بأنهم عباد الله عز وجل وهم الأنبياء من أولى العزم وغيرهم بأنهم عباد الله ، وعبودية الله سبحانه وتعالى ثابتة على كل أحد وهى نوعان :

عبودية عامة تشمل كل من فى السموات والأرض من مؤمن وكافر وبر وفاجر ومطيع وفاسق ومنها قوله تعالى : « **إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا عَاتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا** »^(١) وهذه العبودية هى الخضوع لحكم الله الكونى ، فما من أحد فى السموات والأرض ، إلا وهو خاضع لحكم الله الكونى ، فهذا فرعون رأس الطغاة خضع لأمر الله الكونى ؛ أغرقه الله عز وجل بالماء الذى كان يفتخر به عند قومه ويقول : « **أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ** »^(٢) فأهلكه الله بجنس ما يفتخر به ، بماذا ؟ بالغرق ، أغرقه الله عز وجل : « **حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ** - ف قيل له - **الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** »^(٣) وهو أطفى الطغاة .

إذن هو عبد الله بمقتضى الحكم الكونى ، وقال الله تعالى عن عاد قوم هود : « **فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً** - فقال الله تعالى - **أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً** » وتأمل قوله : « **أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ** » ولم يقل : (الله الذى خلق السموات والأرض) بل قال : « **أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ** » ليبين له الضعف أمام

(١) سورة مريم : الآية ٩٣ .

(٢) سورة الزخرف : الآية ٥١ .

(٣) سورة يونس : الآيتان ٩٠ ، ٩١ .

خلقهم عز وجل ، فالذى خلقهم أشد منهم قوة « وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ »^(١) ودليل هذه العبودية ؛ أعنى العبودية العامة قوله تعالى : « إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا » فالكافر العاتى يمرض ويصاب بعقله ويصاب بأهله ، ويصاب بماله ولا يستطيع أن يدفع قضاء الله الذى قضاه عليه كونا .

أما النوع الثانى : من العبودية فهى العبودية الشرعية وهى الخضوع لحكم الله الشرعى ، وهذه خاصة للرسل واتباعهم ، والرسل عليهم الصلاة والسلام هى رءوس هذا النوع من العبودية كما فى سورة (ص) : « وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ »^(٢) « وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ »^(٣) « وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ »^(٤) « وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ »^(٥) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى يبين الله فيها أن الرسل عليهم الصلاة والسلام عباد من عباد الله ، وبهذا نعرف خلال أولئك القوم الذين يتعلقون بالرسل خوفا وخشية واستغاثة ورجاء ، مع أن الرسل فى جانب الربوبية كغيرهم لا يملكون شيئا ، فالمتعلق بهم ضال فى دينه ، سفيه فى عقله ، أما ضلاله فى دينه ، فلأن الرسل عليهم الصلاة والسلام وعلى رأسهم خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم أمره الله أن يعلن للملأيقول : « لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ »^(٦) وأمره أن يقول : « قُلْ إِنِّي لَا أُمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا * قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا »^(٧) وإذا كانت هذه حال محمد صلى الله عليه وسلم وهو أعظم الناس جاها عند الله وأشرف الرسل ، فما باللك بمن دونه من الخلق ، أليسوا أولى بأن لا يملكوا هذا ، بلى أولى أن لا يملك هذا ، وإذا كانوا لا يملكون ذلك فاستمع إلى قول الله

(١) سورة فصلت : الآية ١٥ .

(٢) سورة ص : الآية ١٧ .

(٣) سورة ص : الآية ٤١ .

(٤) سورة ص : الآية ٤٥ .

(٥) سورة ص : الآية ٤٨ .

(٦) سورة الأنعام : الآية ٥٠ .

(٧) سورة الجن : الآيتان ٢١ - ٢٢ .

عز وجل : « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دَعَائِهِمْ غَافِلُونَ »^(١) .

ولقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم عشيرته وجعل يناديهم بأسمائهم يعلن لهم بأنه لا يملك لهم من الله شيئا حتى قال لفاطمة بنت محمد رضى الله عنها وصلى الله وسلم على أبيها قال : (يا فاطمة بنت محمد سليني من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئا)^(٢) الله أكبر ، أطلبى من مالى ما تشائين أعطيك لكن فيما يتعلق بالله عز وجل لا أغنى عنك من الله شيئا ، وإذا كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام عبادا لله لا يملكون لغيرهم نفعا ولا ضرا فمن دونهم من باب أولى . فما ظنك بالذى يتعلق بالبدوى وعبد القادر الجيلانى أو بفلان وفلان مما لا نعلم ولا نحب أن نذكرهم ، ما ظنك بهؤلاء الذين يتعلقون بأولئك أليسوا أشد ضللا ممن يتعلقون بالأنبياء ؟ بلى ، ولكن ياإخوانى الواجب على أهل العلم فى جميع بلاد الإسلام أن يتقوا الله عز وجل ، وأن يبينوا للعامة الذين خضعوا فى هذه الأمور أن هذا شرك أكبر ، وقد قال الله فيمن أشرك به شركا أكبر : « إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ »^(٣) إن الذين يدعون أحدا غير الله لكشف الضر وحصول النفع ، إنه لن ينفعهم الصلاة ولا الصدقة ولا الصيام ولا الحج لماذا ؟ لأن المشرك لا ينفعه العمل الصالح قال الله تعالى : « وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ »^(٤) ويحبط العمل السابق ، إذا أشرك الإنسان ومات على الشرك « وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »^(٥) .

قلت لكم هذين السببين ، السبب الأول :

أنا قرأنا ما فى كتاب الله عز وجل لوصف الرسل بأنهم عباد الله .

(١) سورة الأحقاف : الآية ٥ .

(٢) رواه البخارى فى كتاب الوصايا - باب (١١) - حديث (٢٧٥٣) .

(٣) سورة المائدة : الآية ٧٢ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ٨٨ .

(٥) سورة البقرة : الآية ٢١٧ .

الثانى : الثانى أننى سمعت من يتمسح بالكعبة ويقول يا الله ، يا رسول الله ؛ فالكلمة الأولى حق ، والكلمة الثانية باطل تبطل الكلمة الأولى تمحوها محوًا : « وَقَدِّمْنَا إِلَى مَا عَمَلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا »^(١) لكن نصحبهم بعض الناس وقال هذا ، فرؤى على وجوههم الانشراح والقبول ، وهذا يدل على أن هؤلاء العامة لو أنهم نبهوا وأخبروا لاستقاموا ؛ لأنهم يريدون الخير ولكنهم يجهلون .

إذن فأقول من هذا المكان كلمة لجميع علماء المسلمين وأرجو الله يبلغهم كلًا فى هذا بأنه يجب عليهم وهم مسئولون أمام الله ؛ لأنهم ورثة الأنبياء أن يبلغوا شعوبهم الجهال ، بأن مثل هذه الأعمال شرك محبط للعمل حتى يستقيم الناس على طاعة الله ألم تعلموا أن هؤلاء العامة لو جاء طالب علم أصغر منهم سنًا وقال لهم هذا شرك وهذا حرام ماذا يكون موقفهم من هذا الطالب الذى هو أصغر منهم سنًا ربما يرمونه بالحجارة ويقولون أنت أعلم من فلان وأعلم من فلان ، فعلى كبار العلماء فى جميع البلاد الإسلامية مسئولية عظيمة ، والله ليسألن عن هذا ؛ لأنهم ورثة الأنبياء ، أعطاهم الله الميراث ليقوموا بشكره وتبليغًا لعباده ، وأنت لا تظن أن العلم الذى يعطيك الله ليس عليه زكاة إذا كان المال يجب أن يزكى ويدفع منه فالعلم يجب أن يزكى ويجب أن يبلغ إلى الجهال حتى يعبدوا الله على بصيرة ، ومع ذلك ، فإن هدى الله بك رجلًا واحدًا كان ذلك خيرًا لك من حُمُر النعم ، من أفضل أنواع المال وسلمت وبرعت ذمتك .

فإذا قال قائل هل تنكر أن النبى صلى الله عليه وسلم له وجاهه عند الله ؟

نعم لا شك قال الله فى موسى : « وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا »^(٢) وقال فى عيسى : « وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ »^(٣) والنبى صلى الله عليه وسلم أفضل الرسل فهو وجيه عند الله عز وجل ، فالله وحده هو الذى بيده ملكوت السموات والأرض ، وهو الذى أعطى هؤلاء الفضل والوجاهة ، ليسوا

(١) سورة الفرقان : الآية ٢٣ .

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٦٩ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٤٥ .

ملكوها بأيديهم وقوتهم وحولهم ، ولكن بفضل الله ، ولهذا قال الله تعالى عن سليمان « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا »^(١) (آتينا) فانظر الآيات من أين ؟ من الله عز وجل : « وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ »^(٢) فأقر الله بالفضل ، فالوجاهة التي للرسل صلوات الله وسلامه عليهم هي من الله ولا تقتضى أن يكون لهم شرك فيما يختص به الله عز وجل ، ومن الذى يكشف السوء ؟ الله وحده ، حتى الرسل لا يستطيعون ، ألم تعلم أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم قد شج في وجهه ، شجه أرادل عباد الله الكفار ، قد كسرت رباعيته ، عثر في حفرة حتى أغمى عليه فالرسل كغيرهم في هذه الأمور كالbشر لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعاً ولا ضرراً ، ومن دون الرسل كذلك ، بل هم أبعد من أن يملكوا لأحد نفعاً ولا ضرراً ، ولذلك فإننى أسأل الله أن ييسر للمسلمين علماء ملة ، ولا علماء دولة وأمة ، علماء ملة يمشون بالناس على ما يرضى الله عز وجل لا على ما يرضى الناس ويداهنون الناس فى دين الله ، بل الواجب أن يبين للناس الحق سواء كرهوا أم رضوا ، إن بعض الناس يشتري نصيبه عند الناس بشيء من المداينة ، يقول أخشى أن أخالف ما كان الناس عليه أن ييغضونى ، ولكن هذا من ضعف يقينه ومن ضعف دينه ، نقول أنت بين الحق ، وستكون بالعاقبة لك لو أبغضك الناس حين القول بالحق ، وحين الصدع بالحق ، فستكون النهاية محبة الناس لك وتعظيم الناس لك مع براءة ذمتك وسلامة عقيدتك .

(١) سورة النمل : الآية ١٥ .

(٢) سورة النمل : الآية ١٥ .

من سورة (ص) أعظم الحكم على تنزيل القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين وأصلى وأسلم على
نبيينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .
أما بعد :

فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه
وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة في دين الله بدعة وكل بدعة ضلالة
وكل ضلالة في النار .
أما بعد :

لقد استمعنا إلى قول الله تعالى :

« كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا
الألباب »^(١) هذه الآية الكريمة فيها بيان هذا القرآن العظيم الذي أنزله الله
على محمد صلى الله عليه وسلم وهو أفضل نبي وآخر كتاب نزل على أهل
الأرض وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين كما قال الله
تعالى :

« ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم
النبيين »^(٢) .

ولهذا كانت شريعة النبي صلى الله عليه وسلم صالحة لكل زمان ومكان
منذ بعث إلى قيام الساعة ولولا هذا لكان الناس يحتاجون إلى رسول بعد
محمد صلى الله عليه وسلم ولكن لما كان خاتم الأنبياء صارت شريعته
صالحة لكل زمان ومكان .

(١) سورة ص الآية : ٢٩ .

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٤٠ .

ويجب أن ننتبه إلى هذه الجملة (إن الشريعة صالحة لكل زمان ومكان) وذلك لأن بعض الناس أولها على غير معناها الصحيح فظن أن معناها أن هذه الشريعة خاضعة لكل زمان ومكان يعنى أنها تطوع للعصر ، ولاختلاف الناس فإذا اختلفت أحوال الناس لزم أن تختلف الشريعة تبعاً لاختلاف أحوال الناس وتمسك بقول بعض العلماء الأجلاء المحققين أن الفتوى تتغير بتغير الزمان .

• بيان معنى أن الفتوى تتغير بتغير الزمان :

ظن البعض أن معنى هذا أنه يجوز لنا أن نتلاعب بالشرع فنقول هذا الشيء حرام فى هذا المكان حلال فى مكان آخر أو حلال لهذه الطائفة من الناس حرام للطائفة الأخرى وغفل أو تغافل عن المعنى الصحيح لهذا الكلام الذى صدر من بعض المحققين وأن معنى هذا الكلام أن تحقيق المناط الذى علق به الحكم الشرعى هو الذى يختلف فإذا اختلف فحينئذ يكون الحكم تابعاً للعلة التى من أجلها شرع ويختلف باختلاف العلة الموجبه للحكم . ولهذا أمثلة : الخمر لم ينزل تحريمها فى الشريعة الإسلامية لأول مرة ولكن تدرج تدريجاً انتهى إلى تحريمها باتاً ولننظر إلى تدرج هذا الحكم بالنسبة للخمر :

فى بعض الآيات نص الله تعالى على أنها حلال فى قوله تعالى :

« ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرأ ورزقأ حسناً »^(١) فإن هذه الآية سيقى مساق المنة بما جعل الله تعالى من ثمرات النخيل والأعناب وفيها دلالة واضحة على أن السكر مما يكون من التمر أو من العنب جائز .

وكذلك الآية فى قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون »^(٢) فإنها تدل على حل ذلك فى غير وقت الصلاة .

المرتبة الثانية : أنه بين أن الخمر والميسر فيهما إثم وفيهما منافع

(١) سورة النحل الآية : ٦٧ .

(٢) سورة النساء الآية : ٤٣ .

ولكن إثمهما أكبر من نفعهما . وهذا يقتضى للعاقل أن يتجنبهما لماذا ؟ لأن كل عاقل يعرض عليه شيء فيه إثم ومنافع ويقال له إن الإثم أكبر من المنافع سوف يتجنبه لا شك فى هذا إذ إن العاقل يوازن بين الأشياء بين مضارها ومنافعها فإذا كان الضرر أكبر من النفع فلا بد أن يتجنبه بمقتضى العقل كما أنه يتجنبه أيضاً بمقتضى الشرع . ولكن هل فى هذه الآية التحريم البات ؟
الجواب : لا .

المرتبة الثالثة : النهى عن الصلاة وقت السكر

قال تعالى « يأيتها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا » والنهى عن قربان الصلاة فى حال السكر يستلزم ألا يشرب الناس الخمر فى وقت قريب من الصلاة لئلا تحضر الصلاة وهم سكارى . وهذا يعنى أن الناس سوف يتركون فى وقت طويل من أوقاتهم الخمر .

المرتبة الرابعة : التحريم البات .

فى قوله تعالى « يأيتها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » (١) .
وبهذه الآية حرم الخمر تحريماً قاطعاً باتاً .

إذن نقول إن الشرع صالح لكل زمان ومكان وأن الفتوى تختلف باختلاف الأحوال ولكن هذا تابع لتحقيق المناط وليس تابعاً للهوى وإلا لسلما بقول بعض الناس إن الربا فى هذا الزمن جائز إذا كان للتنمية وللاستثمار . لا إذا كان للاستغلال والظلم ونحن لا نسلم بهذا ولا يمكن لأحد أن يقول إن الربا جائز ولو كان للاستثمار ولو كان للتنمية بل هو حرام بكل حال سواء تضمن الظلم أم لم يتضمنه .

هذا القرآن الكريم قلنا إنه أفضل كتاب نزل على أفضل نبي أرسل .

(١) سورة المائدة الآيةان : ٩٠ ، ٩١ .

وهذا القرآن الكريم أشمل كتاب نزل من الكتب السماوية لأنه شامل لجميع ما يحتاج الناس إليه في معاشهم ومعادهم فكل ما يحتاج الناس إليه في معاشهم أى في الدنيا وفي معادهم أى في الآخرة فإنه مذكور في القرآن لكن ذكره قد يكون على النص وقد يكون على التعميم وقد يكون على الإشارة والتنبيه فلا يلزم إذا قلنا إن القرآن يبين كل ما يحتاج الناس إليه في معاشهم ومعادهم أن تكون كل مسألة وكل قضية ذكرت بخصوصها في القرآن الكريم ولننظر إلى مثال كونى ومثال شرعى فيه التعميم الصالح لكل ما يمكن أن يدخل فى هذا العموم .

قال الله تعالى : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون » هذه الجملة « يخلق ما لا تعلمون »^(١) تشمل كل ما يمكن حدوثه بل كل ما يحدث مما يركب ويزدان الناس به فإذا وجدنا السيارات والطائرات النفاثة والمروحية فهو داخل فى هذه الآية « ويخلق ما لا تعلمون » . وستحدث أيضاً أشياء أشد مما رأيناها الآن مما يخلقه الله عز وجل من المركوبات التى يركبها الناس ويزدانون بها « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون »^(١) .

أما فى الأمور الشرعية فقد قال الله تعالى « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » فهذه الآية تبيان لكل شيء لا يشذ عنها شيء من الأمور إلا وهو مبين ولكن كما قلت لكم قد يكون على سبيل التفصيل وقد يكون على سبيل الإجمال وقد يكون على سبيل الإشارة والتنبيه .

ومما يذكر أن بعض أهل العلم جمع فى مطعم مع رجل نصرانى فقال هذا الرجل النصرانى للرجل المسلم العالم . إن كتابكم يقول : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » فهل فى كتابكم بيان كيف صنع هذا الطعام ؟

ماذا نقول هل فى الكتاب العزيز بيان كيف تصنع السلطة والمرق

(١) سورة النحل الآية : ٨ .

واللحم وما أشبه ذلك ؟ لا وليس القرآن العزيز دليل مطبخ حتى تفصل فيه هذه الأشياء .

قال الرجل العالم هذا موجود فى كتاب الله ثم دعا صاحب المطعم فسأله كيف يصنع هذا الطعام ؟ فشرح له صاحب المطعم كيف يصنع هذا الطعام فقال العالم هكذا جاء فى القرآن قال الرجل النصرانى أين هو ؟ قال إن الله يقول « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » .

فهذا فيه إرشاد إذ إن الشيء الذى تجهله اسأل عنه أهل العلم به . فإذا كنت أجهل حكم مسألة شرعية فمن أسأل ؟ علماء الشرع . ورجل خفى عليه هندسة بناء فمن يسأل ؟ مهندس البناء . ورجل أشكل عليه مسألة تتعلق بالفلك من يسأل ؟ علماء الفلك . كل يسأل فى اختصاصه نأخذ ذلك من كتاب الله : من قوله تعالى « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » إذن القرآن مبين لكل شيء لكن الذى يجعلنا نخفى علينا بعض المسائل هو إما القصور وإما التقصير وإما سوء القصد .

● العوائق التى تحول بين الإنسان وبين فهم كتاب الله هى :-

- القصور .
- التقصير .
- سوء القصد .

أما القصور : فهو أن يكون الإنسان جاهلاً لا يتمكن من فهم المعنى واستنباط الأحكام منه مثل أحوال العامة . فهؤلاء عندهم قصور لا يمكن أن يستنبطوا من كتاب الله ما يستنبطه العلماء .

وأما التقصير : فرجل ليس عنده قصور ولكن عنده فهم وقدرة على طلب العلم لكنه مقصر كسلان يريد من العلم أن يأتيه ولا يريد من نفسه أن يطلب العلم وهذا يوجد كثير فى بعض طلبة العلم تجده يريد أن يأتيه العلم ولكن يجب أن العلم لا يأتي إلى الناس وإنما يطلبه الناس وقد قيل (أعط العلم كلك يُعطك بعضه وأعطه بعضك يفتك كله)

فلا بد من مثابرة ولا بد من حرص ولا بد من تعب . فالذى لا يقوم بهذه الأمور نقول إنه مقصر .

أما سوء القصد : فلهذا نجد من أهل البدع أن الله سبحانه وتعالى حال بينهم وبين فهم كتاب الله وذلك من أجل سوء قصدهم وعدم إرادة الحق فتجد الإنسان يكابر في معنى الآية الكريمة من أجل الانتصار لما هو عليه من البدعة أو الرأي المخالف لشريعة الله عز وجل وإلا فإن القرآن فيه بيان لكل شيء .

يقول الله في الآية الكريمة « كتاب أنزلناه إليك مبارك »
سمى الله القرآن كتاباً لأنه مكتوب

(١) في اللوح المحفوظ .

(٢) ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة .

(٣) ومكتوب بالصحف التي بأيدينا .

أما الأول : فدليله قوله تعالى « إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون »^(١) .

ودليل الثاني قوله تعالى « كلا إنها تذكرة * فمن شاء ذكره * في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة * بأيدي سفرة * كرام بررة »^(٢) .

ودليل الثالث : هذا الواقع فإننا نشاهد أن كتاب الله عز وجل موجود مكتوب بين أيدينا .

وقوله تعالى « كتاب أنزلناه إليك »

أنزلناه قال العلماء يستفاد من هذه الجملة فائدتان عظيمتان :

الفائدة الأولى : أن الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء لأن هذا القرآن نزل منه والنزول لا يكون إلا من أعلى .

الفائدة الثانية : أن القرآن كلام الله غير مخلوق لأنه نزل من الله والقرآن كلام والكلام وصف المتكلم ووصف الخالق غير مخلوق .

فإذا قال قائل ما تقول في قوله تعالى :

« وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج »^(٣) هل تقولون إن هذه

(١) سورة الواقعة الآيةان : ٧٧ ، ٧٨ .

(٢) سورة عبس الآيات : ١١ : ١٦ .

(٣) سورة الزمر الآية : ٦ .

الأزواج الثمانية يعنى هذه الأصناف الثمانية الأنعام هل تقولون إنها غير مخلوقة لأن الله أنزلها ؟.

الجواب : لا . والفرق بينها وبين القرآن أن هذه الأزواج أى الأصناف مخلوقة نشاهدها وهى الإبل والبقر والضأن والماعز المذكورة فى قوله تعالى فى سورة الأنعام : « ثمانية أزواج من الضأن اثنين » ^(١) يعنى ذكراً وأنثى « ومن المعز اثنين » يعنى ذكراً وأنثى . ثم قال « ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين » هذه ثمانية فنقول الفرق بينها وبين القرآن أن القرآن صفة لأنه كلام والصفة تابعة للموصوف فصفة الخالق غير مخلوقة وصفة المخلوق مخلوقة أما الأنعام فهى أعيان قائمة بنفسها مخلوقة مشاهدة يحدث الولد من أمه وأبيه وهكذا نشاهده فى كل وقت وحين .

وقوله تعالى « أنزلناه إليك » يعنى إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

سؤال : إن الله تعالى أحياناً يقول « نزلنا عليك الكتاب » وأحياناً يقول « أنزلنا » فهل بينهما فرق ؟ نقول نعم بينهما فرق . نزلنا بالتشديد تدل على نزوله شيئاً فشيئاً وأنزلنا تدل على نزوله جملة باعتباره النهاية فإن القرآن الكريم عند انتهائه يقال إنه أنزل لأنه جملة كلها نزلت أما ما دام ينزل شيئاً فشيئاً فإنه يقال ينزل .

قال الله تبارك وتعالى :

« وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة » ^(٢) .

قال الله تعالى رداً عليهم :

« كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً » ^(٣) .

وقوله سبحانه وتعالى « مبارك »

أى مبارك فى كل شىء وأريد أن أحصى وإياكم هذه البركات فى هذا القرآن .

(١) سورة الأنعام الآية : ١٤٣ .

(٢) سورة الفرقان الآية : ٣٢ .

(٣) سورة الفرقان الآية : ٣٢ .

● من بركات القرآن الكريم :

(١) من بركته أن من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات .
كل حرف فيه عشر حسنات فكم في كلمة « رب » ثلاثة حروف
فيكون فيها ثلاثون حسنة فهذه من بركة القرآن أن من قرأه فله بكل حرف
منه عشر حسنات .

(٢) من بركته ما يترتب عليه من ثواب في المنزلة :
فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال (والماهر بالقرآن مع السفرة الكرام
البررة والذي يقرأ القرآن وهو عليه شاق فله أجران)

(٣) من بركته إنه يأتي يوم القيامة شفيحاً لأصحابه .
وما أحوج الإنسان للشفاعة لأن الإنسان محل قصور يحتاج إلى أن
يشفع له من يشفع عند الله سبحانه وتعالى .

(٤) من بركته أن الأحكام التي يحتاج الناس إليها موجودة في القرآن .

(٥) من بركته ما يحصل به من الشفاء والشفاء الحاصل بالقرآن
نوعان :

الأول : شفاء معنوى

الثانى : شفاء حسى .

أما الشفاء المعنوى : فهو الشفاء من أمراض القلوب . وأمراض
القلوب ما يحصل للقلب من الشبهة وما يحصل له من الشهوة والشهوة هنا
يعنى الإرادة وليست شهوة الجنس .

والقرآن به العلم الذى فيه شفاء من الشبهة وبه الإخلاص الذى هو شفاء
من الشهوة .

وهذا من بركته وكم من إنسان صلح قلبه بقراءة القرآن إما بنفسه وإما
بسماعه من غيره فربما يكون الإنسان أحياناً يستمع إلى القرآن من غيره
فيخشع فيه أكثر مما لو قرأه بنفسه ويتبين له من المعانى والحكم والأسرار

أكثر مما لو قرأه بنفسه ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام مرة لعبد الله بن مسعود أو طلب من عبد الله بن مسعود أن يقرأ عليه القرآن فقال : يا رسول الله أقرأ عليك القرآن وعليك أنزل قال : (إني أحب أن أسمع من غيري) فقرأ عليه من سورة النساء فلما بلغ قوله تعالى : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً »^(١) قال صلى الله عليه وسلم (حسبك) يعنى قف قال عبد الله فنظرت فإذا عيناه تذرفان بالدموع عليه الصلاة والسلام .

أما الشفاء الحسى : فمن بركته أنه شفاء للأمراض الحسية أمراض البدن وهذا شيء مشاهد مجرب فكم من إنسان مريض عجز عنه الأطباء شفاه الله بالقرآن الكريم ولعل بعضاً منكم سمع القصة التى وقعت للسرية التى بعثها الرسول صلى الله عليه وسلم فنزلوا ضيوفاً على قوم من العرب ولكن هؤلاء القوم لم يضيفوهم فتنحوا جانباً ثم سلط الله على زعيمهم رئيس هؤلاء القوم أن لدغته عقرب . وآلمته فقال بعضهم لبعض اذهبوا إلى هؤلاء الركب اسألوهم هل فيهم أحد يقرأ فجاءوا إلى الصحابة رضى الله عنهم وسألوهم هل عندهم من يقرأ قالوا نعم ولكننا لا نقرأ عليكم إلا بكذا وكذا يعنى قطيعاً من الغنم فقالوا : نعم نعطيكم إياها فذهب واحد منهم إلى هذا الذى لدغ وجعل يقرأ سورة الفاتحة فقط فقام الرجل كأنما نشط من عقال - يعنى كالبعير الذى فك عقاله - .

ثم أشكل على الصحابة رضى الله عنهم هذا الذى أخذوه من هؤلاء القوم حتى وصلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه فقال صلى الله عليه وسلم (خذوه واضربوا لى معكم بسهم) . قال ذلك من أجل أن يطمئن قلوبهم وأنه حلال لهم . ثم قال لهذا الذى قرأ على اللديغ سورة الفاتحة (وما يدريك أنها رقية) وهذا إقرار له بأن سورة الفاتحة تفيد إذا قرئت على اللديغ .

(٦) من بركته أنه حصن حصين لقارئه .

فقد ثبت عن الرسول الله صلى الله عليه وسلم أن من قرأ آية الكرسي

(١) سورة النساء الآية : ٤١ .

فى ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولم يقربه شيطان حتى يصبح وهذا لا شك من بركة القرآن الكريم ولهذا أحتكم على قراءة هذه الآية فى كل ليلة وهى معلومة للجميع قال تعالى « الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم » (١) . أما قوله تعالى « لا إكراه فى الدين » (٢) فليست من آية الكرسي .

هذه الآية - آية الكرسي - أعظم آية فى كتاب الله كما صح به الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم .

(٧) من بركته أنه يهدى للتى هى أقوم :

وهذه تعتبر قاعدة فيما يهدى القرآن إليه .

(٨) ومن بركته ما حصل به من المعارف العظيمة لهذه الأمة الإسلامية ومن الآثار الحميدة فإن هذه الأمة الإسلامية كانت قبل نزول القرآن فى ضلال مبين : فى جهل أعمى وفى ذل وضعف ولما نزل القرآن وأخذت به فاقت الأمم من كل ناحية كما قال الله تعالى :

« لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » (٣) .

(٩) من بركته أنه حفظ لسان العرب .

يعنى اللغة العربية فإن القرآن الكريم أفصح الكلام العربى لا شك وهو باق إلى يوم القيامة لأن الله تعالى تكفل بحفظه فحفظه يستلزم حفظ اللغة العربية ولهذا يجب علينا نحن المسلمين العرب أن نفتخر بلغتنا التى هى لغة القرآن وأن نكون ضد كل شخص يحاول أن يسلب الأمة العربية لغتها التى

(١) سورة البقرة الآية : ٢٥٥ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٥٦ .

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٦٤ .

هى لغة القرآن والحديث .

ومن العجب أن بعض السفهاء المبهورين بتقدم الغرب المادى يريدون أن يمحوا اللغة العربية من الإسلام والعرب .

ومن المؤسف أن نجد هنا فى بلادنا لافتات على بعض المطاعم ولافتات عن بعض المتاجر وأحياناً لافتات توجيه الناس فى الطرق باللغة الإنجليزية المحضة ليس معها لغة عربية وهذا يدل على ضعف الشخصية من هذا الذى وضع اللافتة وعلى سفهه أيضاً وعلى عدم اهتمامه واكتراثه باللغة العربية التى هى لغة القرآن والحديث .

والواجب أن يتتبع هؤلاء وأن يمنعوا من كتابة اللافتات باللغة الإنجليزية إن لم يصحبها كتابة باللغة العربية .

فنحن لا نقول لا تكتب اللغة الأجنبية ؟ لا نقول ذلك لأن الناس اختلطوا بنا وكثير منهم لا يعرف إلا الحروف اللاتينية لكننا نقول لا يمكن إطلاقاً أن يسمح لأناس يكتبون لافتات على متجراتهم وعلى مطاعمهم باللغة غير العربية غير مصحوبة باللغة العربية .

ومن المؤسف أيضاً أن المريض يعطى وصفة للدواء الذى يريد أن يستعمله باللغة الإنجليزية وربما هو لا يعرف ولا اللغة العربية ويعطى باللغة الإنجليزية سبحان الله مجتمع عربى إسلامى ثم يعطى وصفة باللغة الإنجليزية .

وربما يكتب رقم ٢ وهو يحسب رقم ٤ أو رقم ٥ ثم يتناول خمس حبات دفعة واحدة ويهلك . وأقول هذا أيضاً من البلاء أن تكتب الوصفات الطبية لقوم عرب باللغة الإنجليزية سبحان الله لماذا لا تكتب بلغتنا ونعتز بها ونخدم قومنا بالتسهيل عليهم لأن هذا الذى لا يعرف اللغة الإنجليزية إذا نسى ما قاله له الطبيب فسوف يمر على كل أهل البيت إذا كانوا لا يعرفون اللغة الإنجليزية هل يمكن أن يرشدوه لما قال الطبيب ؟ لا . إذن اذهب إلى الجيران وإلى جيران الجيران وإذا لم تجد عندهم اذهب إلى الكليات فى الجامعات حتى يبين لك معنى هذه الوصفة الطبية .

(١٠) ومن بركاته أن الله سبحانه وتعالى فتح به البلاد فى مشارق

الأرض ومغاربها ؛ فإن الناس لما كانوا متمسكين به صاروا يفتحون البلاد من كل ناحية ويدخل الناس في دين الله أفواجاً ولما أعرضوا عنه حصل لهم من الذل والخلل بمقدار ما أعرضوا عن كتاب الله عز وجل .

• الحكمة من إنزال هذا القرآن :

ثم بين الله سبحانه وتعالى الحكمة من إنزال هذا القرآن فقال :
« ليتدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب » وهذه أعظم الحكم من إنزاله أن يدبروا آياته ومعنى يتدبروها أن يتأملوها ويمددها في نفوسهم حتى يعرفوا معناها .

وفى قوله « يتدبروا آياته » دليل على أن آيات الكتاب العزيز يمكن الوصول إلى معناها وأنه ما من شيء في القرآن إلا وله معنى .

ويكون في هذه الآية رد واضح على من قال إن معاني أسماء الله وصفاته التي في القرآن غير معلومة لنا فإذا سألت مثل هؤلاء ما معنى قول الله تعالى « الرحمن على العرش استوى »^(١) يقول لا أدري معناها ولا أحد يعلم معناها إلا الله فيكون على قولهم يكون القرآن الكريم مجهول المعنى في أعظم شيء نزل من أجله وهو معرفة أسماء الله وصفاته ويدعى مثل هذا أن هذا هو مذهب السلف . أى أن مذهب السلف هو عدم معرفة معاني أسماء الله وصفاته . ولا شك أن هذا كذب على السلف أو جهل بمذهبهم فإن السلف يفهمون معاني أسماء الله وصفاته لكنهم يجهلون حقيقتها وكيفيتها ولهذا سئل الإمام مالك رحمه الله عن قول الله تعالى « الرحمن على العرش استوى » كيف استوى فأطرق برأسه وعرق عرقاً عظيماً ثم رفع رأسه وقال للسائل (الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة)

إذن الاستواء غير مجهول يعنى معلوم المعنى والكيف غير معقول يعنى لا تدركه عقولنا ولا يمكن أن نصل بعقولنا إلى معرفة كيف استوى الله على العرش وإذا لم يكن للعقل مجال في كيفية صفات الله ولم يأت به الشرع

(١) سورة طه الآية : ٥ .

صارت مجهولة لنا ولهذا لا يمكن أن نعرف كيف استوى الله على العرش والإيمان به أى بالاستواء واجب لأن الله أخبر به عن نفسه .

والسؤال عنه بدعة يعنى الذى يسأل يقول كيف استوى الله على العرش نقول أنت مبتدع .

لماذا هو مبتدع ؟ لسببين :

الأول : أنه لم يكن من شأن السلف الصالح أن يسألوا عن كيفية الاستواء .

الثانى : لا يسأل هذا السؤال إلا أهل البدع لأنهم هم الذين يأتون بهذه الأسئلة ليشككوا أهل السنة فيما ذهبوا إليه . فيقولون مثلاً هل تعلم كيف استوى الله على العرش ؟ السلف سيقول لا أعلم كيف استوى الله على العرش لكن أعلم أنه استوى يعنى علا عليه عز وجل علواً يليق بجلاله وعظمته وليس كاستواء الإنسان على الفلك أو على البعير بل استواء يليق به لا يتضمن نقصاً بوجه من الوجوه .

فقوله تعالى « ليدبروا آياته » دليل على أن آيات الصفات معلومة المعنى لأنه لا يمكن أن يتدبر الشيء الذى لا يمكن الوصول إلى معناه أما حقائقها فهى مجهولة لنا ثم قال الله تعالى « وليتذكر أولوا الألباب » يتذكر يعنى يتعظ فالإنسان العاقل يتعظ بما يعلم من معانى آيات هذا القرآن الكريم والإنسان السفیه هو الذى لا يتعظ .

وجرب نفسك يا أخى هل أنت إذا قرأت القرآن تتذكر أو يبقى قلبك قاسياً . إن كنت من الطراز الأول فأنت من أولى الألباب وإن كنت من الطراز الثانى فاعلم أنك لست من ذوى الألباب . نسأل الله أن يجعلنا جميعاً من أولى الألباب الذين يتعظون بكتاب الله عز وجل .

* * * *

من سورة الزمر

« الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد »^(١) .

أحسن الحديث هو هذا الكتاب العزيز ، لأن الله تعالى يقول لرسوله : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن »^(٢) فالله سبحانه نزل على محمد بواسطة الروح الأمين جبريل ، قال تعالى : « قل نزله روح القدس من ربك »^(٣) وقال تعالى : « نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين »^(٤) . فهذا القرآن هو أحسن الحديث بلا شك لفظا ومعنى وقصصا وأخبارا وأحكاما .

وفى هذه الآية وصف الله تعالى القرآن بأنه منزل ، فاستدل العلماء بذلك على أن القرآن كلام الله عز وجل ولا شك فى هذا ، لأن الله يقول : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله »^(٥) وهو كلام الله لفظا ومعنى ، مسموع سمعه جبريل ونزل به على محمد ، وليس المعنى القائم بنفس الله سبحانه المعبر عنه بالأصوات المخلوقة التى سمعها جبريل ، لأنه لو كان ذلك هو المراد لم يكن كلام الله بل كان كلاما مخلوقا ، وكلام الله صفة من صفاته وليس بمخلوق ، وهذا مذهب السلف الذين هم أهل السنة والجماعة .

وفى هذا أيضا دليل على أن القرآن غير مخلوق ؛ لأن الله سبحانه قال : « نزل أحسن الحديث » وقلنا إن الحديث كلام الله عز وجل فهو غير مخلوق .

(١) سورة الزمر : الآية ٢٣ .

(٢) سورة يوسف : الآية ٣ .

(٣) سورة النحل : الآية ١٠٢ .

(٤) سورة الشعراء : الآيات ١٩٣ - ١٩٥ .

(٥) سورة التوبة : الآية ٦ .

فإن قال قائل : كيف يكون غير مخلوق والله تعالى قال : « نزل »
والتنزيل يكون للمخلوقات ، كما قال تعالى : « وأنزلنا الحديد »^(١) وقال :
« أنزل من السماء ماء »^(٢) وقال : « وهو الذي ينزل الغيث »^(٣) وكل هذه
الأشياء مخلوقة ، فكيف يقولون إن القرآن غير مخلوق وهو منزل ؟ هكذا
قالوا .

والجواب على هذا أن القرآن وصف كلام والكلام وصف المتكلم والله
عز وجل بصفاته هو الخالق وما سواه مخلوق ، ولأن المخلوق شيء بائن
عن الخالق ؛ لأنه مصنوع والمصنوع بائن من الصانع ، ولهذا إذا بنى البناء
قصرا فالقصر منفصل عنه ، وهذا بخلاف الكلام فهو وصف المتكلم والخالق
عز وجل بصفاته كامل ليس شيء من صفاته مخلوقا .

وفي هذه الآية وصف القرآن بأنه متشابه ، ونجد أن القرآن وصف في
بعض الآيات بأنه محكم وفي بعضها بأن بعضه محكم وبعضه متشابه ففي
قوله تعالى : « ألر تلك آيات الكتاب الحكيم »^(٤) ، وقال تعالى : « كتاب
أحكمت آياته ثم فصلت »^(٥) في هذه الآيات وصف القرآن بأنه محكم .
وفي قول عز وجل : « منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر
متشابهات »^(٦) وصف بعض القرآن بأنه محكم وأن منه آيات متشابهات .
ويقف الإنسان أمام هذه الآيات متأملا : هل هي متعارضة أم متفقة ؟
ولا شك أن كتاب الله لا يتعارض كما قال الله تعالى : « ولو كان من عند
غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا »^(٧) . ولذلك فهي متفقة ولكن ما وجه
الجمع بين هذه الآيات ؟

لابد أن نعلم قاعدة مهمة وهي أن النصوص الشرعية لا يمكن أن

(١) سورة الحديد : الآية ٢٥ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٢ .

(٣) سورة الشورى : الآية ٢٨ .

(٤) سورة يونس : الآية ١ .

(٥) سورة هود : الآية ١ .

(٦) سورة آل عمران : الآية ٧ .

(٧) سورة النساء : الآية ٨٢ .

تتناقض ، لأن التناقض يعنى الاختلاف ، ففي الخبر يستلزم أن يكون أحد الخبرين كذباً ، والنصوص الثابتة وما فيها من أخبار لا يمكن أن يكذب بعضها بعضاً ، وفي الأحكام لابد أن يكون إما أحد الحكمين منسوخاً أو أن الخطأ من الفهم ، وكذلك لا يمكن أن يكون فى النصوص الثابتة ما يخالف الواقع المحسوس أبداً ، فإن توهمت أن النصوص تناقضت أو خالفت الواقع فإن هذا من قصور فهمك أو من تقصير بحثك ونظرك فى علم الله .

وحينئذ فالجمع بين ذلك أن وصف القرآن بأنه متشابه فالمراد أن بعضه يشبه بعضاً فى الكمال والجودة والإعجاز وغير ذلك من المعانى التى يشتمل عليها القرآن ، ونقول يشبه بعضه بعضاً ولا نقول يماثل بعضه بعضاً ، لأن بعض القرآن أفضل من بعض باعتبار ما تحمله بعض الآيات من المعانى العظيمة الجليلة ، وليس باعتبار المتكلم . فإن المتكلم به واحد سبحانه وتعالى . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى بن كعب : (أى آية فى كتاب الله أعظم ؟) قال هى آية الكرسي . فضرب النبى عليه الصلاة والسلام على صدره وقال : (ليهنك العلم يا أبا المنذر)^(١) وأقره على أن أعظم آية هى آية الكرسي .

وكذلك أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن^(٢) ، وأن أعظم سورة فى كتاب الله هى سورة الفاتحة^(٣) ، فالقرآن يتفاضل من هذا الوجه .

وأما معنى وصفه بأنه محكم أنه لا يتعارض ولا يتناقض فهو محكم فى أخباره فهى غاية فى الصدق والبيان وهو محكم كذلك فى أحكامه فهى خالية من الجور والفساد بل كلها عدل وصلاح . قال تعالى : « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا »^(٤) .

وأما وصف بعضه بأنه محكم وبعضه بأنه متشابه أن الإحكام غير التشابه ، فالمحكم ، ما اتضح معناه وعلمه العامة ، والمتشابه ما اختلف معناه

(١) رواه مسلم : كتاب صلاة المسافرين (٢٥٨) - مسلم بشرح النووي ٩٣/٦ .

(٢) ، (٣) رواهما البخارى : كتاب فضائل القرآن - باب فضل قل هو الله أحد ، وباب فضل فاتحة الكتاب . فتح البارى ٩ / ٥٩ ، ٥٤ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ١١٥ .

بحيث لا يعلمه إلا الزاسخون في العلم . ولهذا أمثلة كثيرة في القرآن ، فقد جاء في سورة نوح : « أن اعبدوا الله واتقوه واطيعون * يغفر لكم ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون »^(١) . فقد قال : « ويؤخركم إلى أجل مسمى » وهذا يدل على أن الإنسان قد يؤخر إلى أجل معين ، ثم قال سبحانه : « إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر » . وقد يقع في هذا إشكال على العامة ، ولكن المعنى في ذلك أن أجل الله بالعقوبة وإذا نزل العذاب لوجود أسبابه فلا يؤخر ، لأن الإيمان بعد نزول العذاب لا ينفع ، كما قال تعالى : « فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا »^(٢) .

ومثل ذلك في قوله تعالى : « يؤمئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتُمون الله حديثا »^(٣) وقوله تعالى : « ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين »^(٤) فالآية الأولى تنفي الكتمان والثانية تثبت الكتمان ، وقد يقع في روع البعض إشكال من هذا . ولكن القول في هذا أن يوم القيامة يوم طويل مقداره خمسون ألف سنة فهم في وقت منه يكتُمون وفي وقت يقرون ولا يمكنون من الكتمان فينطق الله جوارحهم بما عملوا .

والأمثلة على ذلك كثيرة :

وكذلك فهناك اشتباه في إعراب القرآن مثال ما في قوله تعالى : « قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض »^(٥) فيقول البعض إن المثنى ينصب بالياء وهو هنا بالالف فكيف ذلك ؟ ولكن نقول : إن الفعل هنا لم يسلط على كلمة خصمان . بل خصمان خبر لمبتدأ محذوف والتقدير نحن خصمان . وهناك لغة للعرب تلزم المثنى الألف سواء رفع أو نصب أو جر . وإن كانت اللغة العربية الفصحى أنه ينصب ويجر بالياء ويرفع بالالف .

(١) سورة نوح : الآيتان ٣ - ٤ .

(٢) سورة غافر : الآية ٨٤ .

(٣) سورة النساء : الآية ٤٢ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ٢٣ .

(٥) سورة ص : الآية ٢٢ .

وقفات مع آيات من سورة الزمر

يقول الله تعالى :

« ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون * وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون * ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون »^(١).

ففى هذه الآيات يخبر الله سبحانه وتعالى عن أمور :

الأمر الأول : النفخ فى الصور :

ما هو هذا الصور ؟

هذا الصور عبارة عن قرن أى عن شىء يشبه القرن وهو واسع جداً ينفخ فيه فيحدث منه صوت عظيم يفزع منه أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ثم بعد ذلك يصعقون أى يموتون . ثم ينفخ فيه مرة أخرى فإذا هم قيام ينظرون أى يقومون من قبورهم ينظرون ماذا حدث .

من الذى ينفخ فيه ؟

الذى ينفخ فيه أحد الملائكة العظام وهو إسرافيل وهو أحد الملائكة الذين يذكرهم النبى صلى الله عليه وسلم فى افتتاح صلاة الليل فإنه عليه الصلاة والسلام كان يفتتح صلاة الليل بهذا الدعاء (اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم) .

ونذكر هؤلاء الملائكة الثلاثة لأن كل ملك منهم موكل بما فيه حياة

(١) سورة الزمر الآيات : ٦٨ : ٧٠ .

ولكنها حياة غير النوع الذى وكل به الملك الآخر . فجبريل موكل بالوحى وبالوحى حياة القلوب كما قال الله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » فسمى الله القرآن روحاً لأنه تحيا به القلوب .

إسرافيل موكل بما فيه الحياة وهو الصور فإنه ينفخ فيه فتخرج منه الأرواح وتحل فى أجسادها حلولاً أبدياً لا مفارقة بعده لأن الروح فى الدنيا حالة فى البدن لكنها تفارقة أما إذا نفخ فى الصور فإنها تحل فى البدن حلولاً لا مفارقة بعده .

الثالث ميكائيل وهو موكل بما فيه الحياة موكل بالقطر أى بالمطر وفيه حياة الأرض بعد موتها كما قال الله تعالى :

« ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحيها لمحيى الموتى إنه على كل شىء قدير »

فيصعق من فى السموات والأرض عند هذا النفخ فى الصور إلا من شاء الله وهذا الاستثناء الذى استثناءه الله عز وجل من الصعق يدخل فى الحور اللاتى فى الجنة فإنهن خلقن للبقاء ويدخل فى ذلك أيضاً ولدان أهل الجنة فإنهم خلقوا للبقاء لأن الجنة بما فيها خلقت للبقاء لا تفنى أبداً وكل من يدخلها بعد البعث فإنه لا يفنى أبداً يكون خالداً فيها مخلداً أبد الأبدى .

قال الله عز وجل « ثم نفخ فيه أخرى » وهى النفخة الثانية « فإذا هم قيام ينظرون » هم أى المبعوثون الموتى . قيام ينظرون تدخل أرواحهم فى أجسادهم ويقومون من قبورهم لرب العالمين .

فتأمل يا أخى هذه القدرة العظيمة نفخة واحدة يصعق فيها من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله نفخة أخرى يحيى فيها الأموات يقومون من قبورهم بلحظة واحدة كما قال الله تعالى : « إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون » « فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة »

خلقنا فى هذه الدنيا يتطور يمكث الإنسان فى بطن أمه تسعة شهور أو أدنى أو أكثر لكن نفخة الصور إذا نفخ فى الصور فإنه بلحظة واحدة تقوم الخلائق كلها أحياء « فإذا هم جميع لدينا محضرون » وبهذا يتبين لك تمام

قدرة الله عز وجل وأنه إذا أراد شيئاً فإنه يقول له كن فيكون كما قال الله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » .

واحدة بدون تكرار وبدون تأخير كلمح بالبصر هل تجدون شيئاً أسرع من لمح البصر . الجواب : لا .

إذن أمر الله مهما كان المأمور من العظمة والكثرة لا يكون إلا مرة واحدة فإذا هذا المأمور قد تم كما أمر الله عز وجل .

والأمر الذى يوجهه الله للخلائق يوجهه الله تعالى إلى من له عقل وإدراك وإلى من لا عقل له وإدراك لكنه يستجيب لأمر الله كما قال الله تعالى : « ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً » .

فهل فهمتا هذا الخطاب ؟ الجواب : نعم والدليل « قالتا أتيننا طائعين » إذن فهمتا الخطاب وامتثلتا لأمر الله عز وجل .

النار التى أوقدت لإبراهيم قال الله لها « كونى برداً وسلاماً على إبراهيم » فكانت برداً وسلاماً .

والقلم الذى كتب به مقادير الخلق خلقه الله فقال له اكتب قال ربي وماذا أكتب قال اكتب ما هو كائن فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة .

فالمخلوقات ولو كانت جماداً تعى أمر الله وتمثله وتطيعه عز وجل ويكون ذلك فورياً بدون تأخير .

يقول الله عز وجل :

« وأشرقَت الأرض بنور ربها » .

أشرقَت يعنى ضياء بنور الله عز وجل فإن الله تعالى يأتى يوم القيامة للقضاء بين عباده ليقضى للمظلوم من الظالم وليقيم العدل بين العباد ولتظهر فيه آثار الثواب والعقاب يقول الله عز وجل : « ووضع الكتاب » .

ما المراد بالكتاب الذى يوضع ؟ الكتاب هو صحائف الأعمال فإن على كل واحد منا كتاباً يلقاه يوم القيامة منشوراً ويقال له « اقرأ كتابك كفى

بنفسك اليوم عليك حسيباً » . وتكتب في هذا الكتاب الحسنات وتكتب السيئات واختلف العلماء هل تكتب الأعمال التي ليست حسنة ولا سيئة فمنهم من قال إنها تكتب ومنهم من يقول إنها لا تكتب لأنه لا يتعلق بها ثواب ولا جزاء ولقد قال الله تعالى في سورة (ق) « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

أى قول يلفظ به الإنسان فإن لديه رقيباً عتيداً . رقيباً مراقباً عتيداً حاضراً لا يفارقه يكتب كل ما يلفظ به . وظاهر الآية الكريمة أنه يكتب كل قول حسن كان أم سيئاً أم لا حسناً ولا سيئاً ولهذا دخل رجل من أصحاب الإمام أحمد عليه وهو مريض يئن من مرضه فقال (يا أبا عبد الله إن طالوساً وهو أحد كبار التابعيين يقول إن الملك يكتب أنين المريض فأمسك الإمام أحمد رحمه الله عن الأنين خشية أن يكتب عليه) ولو أننا أحصينا أقوالنا لوجدنا أقوالاً كثيرة لغواً لا فائدة منها . بل لوجدنا أقوالاً كثيرة كلها آثام مما يكتسب به الإنسان جرماً ينقص من حسناته وينقص من إيمانه لأن المعاصي توجب نقص الإيمان .

اللغو من القول الذى ليس من الحسنات ولا من السيئات لو قال قائل إنه لا بد من أن يكتب على المرء لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)

وهذا يدل على أن الإنسان لا يقول إلا خيراً وإلا فليصمت ولكن يجب أن تعلم أن الخير فى الكلام قد يكون خيراً لذاته وقد يكون خيراً لغيره كيف ذلك ؟ الأمر بالمعروف خير لذاته النهى عن المنكر خير لذاته الذكر خير لذاته القراءة قراءة القرآن الكريم خير لذاته .

الكلام الذى موضوعه ليس من الحسنات ولكن يقصد به إدخال السرور على الجليس وتأنيسه وتأليفه هل يكون خيراً أو لا ؟ خيراً لغيره يقول الله عز وجل :

« ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء » من يأتى بهم يأتى بهم الله وحذف الفاعل للعلم به فإن الفاعل قد يحذف لأسباب متعددة منها أن يكون معلوماً .

فقوله تعالى « وخلق الإنسان ضعيفاً » حذف الفاعل للعلم به لأنه لا خالق إلا الله .

يقول الله تعالى « وجبىء بالنبیین » والذى يأتى بهم هو الله عز وجل فيأتى النبیین ويأتى الشهداء أما النبیین فإنهم الرسل عليهم الصلاة والسلام يؤتى بهم ليشهدوا على أممهم بأنهم بلغتهم الحجة وقامت عليهم كما قال الله تعالى :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » فالنبیین يشهدون على الأمم بأنهم بلغوا وقامت عليهم الحجة والشهداء هم العلماء لأن العلماء يشهدون على الأمم بأن الرسل بلغتهم ويشهدون للرسل بأنهم بلغوا الرسالة ولهذا نقول أعلم الناس بحال الرسل هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء .

« وقضى بينهم بالحق » أى بالعدل والقاضى بين العباد هو الله عز وجل فهو سبحانه وتعالى يقضى بين العباد بالعدل هذا باعتبار ما بين العباد من الحقوق والفضل وهذا باعتبار ما بينه وبين عباده فإن الله تعالى يجزى المحسن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة ويجزى المسيئ إما بمثل إساءته وإما بالعفو عنه كما قال الله تعالى :

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ففى حقوق العباد يكون القضاء بالعدل لا بد أن يؤخذ للمظلوم من الظالم ولهذا جاء فى الحديث الصحيح عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال (من تعدون المفلس فيكم ؟ قالوا : من لا درهم عنده ولا متاع قال : المفلس من يأتى يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال فيأتى وقد شتم هذا وضرب هذا أو أخذ مال هذا فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته وهذا من حسناته فإن بقى من حسناته وإلا أخذ من سيئاتهم فطرح عليه ثم طرح فى النار) . هذا والله المفلس يأتى بالحسنات يوم القيامة فإذا بها قد أخذت لمن ظلمه فى الدنيا . أما بالنسبة لحقوق الله فإنه يقضى بين الخلق بالفضل وبالعدل إن عذب المسيئ فقد عدل وإن أنعم عليه بالعفو وأثاب المحسن فإنما ذلك بالفضل ولهذا قال تعالى « وقضى بينهم بالحق » الدائر بين الفضل وبين العدل « وهم لا يظلمون » لا يمكن أبداً أن يظلم أحد فى جزائه بل يعطى جزاؤه كاملاً إما

عدلاً وإما فضلاً . ثم قال تعالى « ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون » ووفيت يعنى أعطيت والموفى لها هو الله سبحانه وتعالى .

« كل نفس » لكن المراد النفس التى توفى وتحاسب وأما البهائم والوحوش وما أشبه ذلك مما لا حساب عليه فإنها لا تعطى شيئاً من جزاء العمل بل تكون تراباً وتضمحل .

« ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون » وهو أى الله أعلم من كل أحد بما يفعل الخلق .

وهنا أنبه على ما ذهب إليه بعض المفسرين ، تفسير قوله تعالى « وهو أعلم » فإن بعض المفسرين يقول وهو أعلم أى وهو عالم فيحول اسم التفضيل إلى اسم الفاعل وعلة ذلك أن القاعدة فى اسم التفضيل أن المفضل والمفضل عليه يشتركان فى أصل المعنى ويختلف المفضل بالزيادة وقالوا لا يمكن أن يشترك الخالق والمخلوق فى أصل المعنى ولكن هذا خطأ لأننا نقول إذا قلتم بهذه العلة فإن عالم اسم فاعل ويشترك فيها كل من اتصف بالعلم ولا شك أنه إذا قيل فلان أعلم من فلان كان أبلغ فى الثناء عليه من قوله فلان عالم وفلان عالم فاسم التفضيل إذن على بابه وهو أدل على الكمال من اسم الفاعل فأن الله تعالى أعلم من كل أحد بأفعال العباد فيجازيهم سبحانه وتعالى حسب ما يقتضيه العدل أو الفضل .

من سورة فصلت

« إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم بها توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلا من غفور رحيم * ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ^(١) .

قوله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » أى أنهم أقروا واعترفوا بأن الله وحده هو ربهم ونستفيد هذا الحصر من تعريف ركنى الجملة (ربنا الله) فالمبتدأ ربنا والخبر كلمة الله . أى ربنا الله وحده لا رب لنا غيره ، وهذا هو تحقيق التوحيد . ثم استقاموا على شريعة الله . وهذا تحقيق المتابعة .

قوله تعالى : « تتنزل عليهم الملائكة » تتنزل عليهم فى كل موطن خير لتطمئنهم وتقرر نفوسهم .

« ألا تخافوا ولا تحزنوا » لا تخافوا على شىء فى المستقبل ولا تحزنوا على شىء مضى . والإنسان دائما يغتم بالماضى ويهتم للمستقبل ، فإذا انتفى عنه الخوف فى المستقبل والحزن على الماضى تمت له الراحة والطمأنينة .

« وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » لما نفوا عنهم ما يخافون وما يحزنون أثبتوا لهم ما يسرون به .

« نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » فالملائكة أولياء للمؤمنين فى الدنيا وفى الآخرة ، ولهذا تجد المؤمن يسدد دائما فى أقواله وأفعاله لأن الله سبحانه وتعالى يسخر له الملائكة لتثبيته ، كما قال تعالى :

(١) سورة فصلت : الآيات ٣٠ - ٣٣ .

« إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا »^(١) .

قوله تعالى : « ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون » تدعون أى تطلبون يعنى لكم فى الآخرة هذا النعيم . وهذا تمام النعيم . بل إن الله تعالى يقول فى سورة ق : « لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد »^(٢) .

ثم قال تعالى : « نزلا من غفور رحيم » والنزل معناها الضيافة التى تقدم للضيف ، فهؤلاء يحصل لهم ما يشتهون وما يدعون نزلا من الله بمغفرته لهم ورحمته إياهم وصلوا إلى هذا النزل .

وقوله تعالى : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين » كلمة (من) استفهامية ، والاستفهام هنا بمعنى النفى ، أى لا أحد أحسن قولا ممن دعا إلى الله .

والاستفهام إذا جاء مرادا به النفى صار مشربا بالتحدى ، كأن المتكلم يتحدى المخاطب ويقول له : أرنى أحدا أحسن من كذا وإذا كنت تدعى ذلك فأرينه . وهذه قاعدة ينبغى لطالب العلم أن يفهمها : كلما جاء الاستفهام بمعنى النفى كان مشربا معنى التحدى .

وتأمل قوله تعالى : « ممن دعا إلى الله » أى إلى دين الله عز وجل ، وليس يدعو إلى قوله هو ، وهناك فرق بين شخص يدعو إلى قوله ويريد أن ينتصر لقوله سواء أخطأ أم أصاب ، وشخص يدعو الناس إلى سبيل الله تعالى ، فالأول ليس يدعو للهدى وإنما يدعو للهوى ، والثانى هو الذى يدعو للهدى .

وقد يدعو إنسان إلى قوله على أنه هو الحق لا لأنه قوله فقد لا يلام على ذلك ، أما إذا انتصر لنفسه ويريد الناس أن يأخذوا بقوله لأنه قوله فهذا خطأ عظيم .

فلا أحد أحسن مما دعا إلى الله ، ومن علامات كون الرجل يدعو إلى قوله لأنه قوله أنك تجده إذا خالفه الناس فى اجتهاده يغضب وربما يعاديهم وربما يتخذ من تلك المخالفة تسلطا على هذا المخالف بالقدح فيه فى المجالس

(١) سورة الأنفال : الآية ١٢ .

(٢) سورة ق : الآية ٣٥ .

وفى كل مناسبة ، وهذا يدل على أن الرجل لا يريد الحق ؛ لأن الذى يريد الحق عندما يقول به يعذر غيره إذا لم يأخذ به ، فليس من حقى أن أعتدى عليك لمخالفتك ما رأيته أنا وكذلك أنت ليس من حقك أن تلومنى أو تعتدى على ، فأنا لو لمتك لأعطيتك الحق أن تلومنى كذلك .

والذى يريد الحق هو الذى يدفع الحق بقدر استطاعته ولا يلوم غيره إذا خالفه فيما يسوغ فيه الاجتهاد . ولهذا أمثلة كثيرة .

فمن الناس من إذا رأى رجلا إذا صلى لم يضع يده اليمنى على اليسرى فى الصلاة فيكرهه ويبغضه ويعاديه ويتكلم فيه فى المجالس مع أن هذا الرجل فعل هذا لدليل كان عنده ويجب عليك أن تعذره فيما طريقه الاجتهاد .

كذلك لو رأيت من إذا نزل إلى السجود قدم يديه وأنت ترى أن الراجح تقديم الركبتين ، فليس من حقك أن تلومه على اجتهاده وأن تجعل من ذلك سلما للكلام فيه بين الناس والقدح فيه ، لأنك إذا سلكت هذا الطريق فسوف يسلك هو هذا الطريق أيضا ويحصل التنازع والتفرق والتباغض .

ولو رأيت رجلا إذا قام إلى الركعة الثانية أو الرابعة جلس قليلا ثم قام فصرت تلومه على هذا الجلوس فهذا ليس من حقك لأنه جلس عن اجتهاد .

فالداعية إلى الله حقيقة هو الذى لا يدعو الناس لقوله لأنه قوله ، بل يدعو الناس إلى الحق وإن كان هو يقول به .

وقوله تعالى : « **وعمل صالحا** » والعمل الصالح هو ما جمع وصفين : أن يكون خالصا لله وأن يكون صوابا على شريعة الله أى موافقا للشريعة ، ولا تتحقق الموافقة للشريعة إلا إذا كانت العبادة موافقة للشريعة فى أمور ستة ذكرناها قبل ذلك وهى :

١ - **سببها** : فلو أن أحدا من الناس تعبد لله تعالى بسبب غير شرعى فعبادته مردودة ، كمن تعبد لله بالثناء على رسول الله ليلة مولده ، لأن الشرع لم يجعل مولد الرسول صلى الله عليه وسلم سببا للثناء عليه والاجتماع على الصلاة عليه وما أشبه ذلك . وكمن يحمد الله كلما تجشأ ، فهذا خطأ لأن الشرع لم يجعل التجشؤ سببا للحمد . وأما من عطس فيشرع له الحمد وإن كان فى الصلاة كما فى حديث معاوية بن الحكم حيث عطس رجل فى الصلاة فحمد الله ولم ينكر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقاعدة الأصولية

أن كل ما فعل فى عهد رسول الله فهو حجة سواء علمنا أن الرسول علمه أو لم نعلم ، فلو علمنا أنه علم به وأقره كان ثابتاً بالسنة التقريرية وإن لم نعلم أنه علم به وأقره كان ثابتاً بإقرار الله له ، وبهذا استدلت الصحابة على جواز العزل - أى أن ينزل الرجل خارج المكان إذا جامع أهله - لئلا تحمل ، وكان الصحابة يفعلونه ولم ينكر الله عليهم ، والله سبحانه وتعالى إذا لم يرض شيئاً أنكره وإن لم يعلم به الناس . ألم تر إلى قوله تعالى : « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً »^(١) فأنكر عليهم ما يخفونه ولا يعلمه الناس .

فدل ذلك على أن كل شىء لم ينكره الله عز وجل مما وقع وقت نزول القرآن فإنه يعتبر حجة . وهذا ينفع طالب العلم عند المناظرة ، فلو قلت لأحد : هذا وقع على عهد رسول الله . فقال : هات الدليل على أن الرسول علم به وأقره . فنقول : إن لم يقره الرسول فقد أقره الله ولو كان لا يرضاه الله سبحانه لأنكره .

٢ - جنسها : فلو تعبد إنسان لله عبادة بجنس غير مشروع مثل أن يضحى بفرس فلا يجزىء لأنه غير موافق للشرعية ، إذ إن الأضاحى لا تجزىء إلا من بهيمة الأنعام .

٣ - قدرها : فمن أحدث أذكارا معينة بعدد معين وقال سأصبح ألف مرة وأهلل ألف مرة واتخذ هذا شرعا . فنقول له : هذه بدعة ينهى الإنسان عنها لأنها لا توافق الشرع فى العدد .

٤ - كيفيتها : فمن بدأ فى الوضوء بغسل قدميه ثم يديه ثم وجهه فلا يقبل لمخالفته الكيفية المشروعة ، وكمن سجد فى الصلاة قبل الركوع .

٥ - زمانها : فمن ضحى يوم عرفة قبل صلاة العيد لم تقبل أضحيته لمخالفتها للشرعية فى الزمان .

٦ - مكانها : فلو اعتكف إنسان فى بيته فى العشر الأواخر من رمضان كان اعتكافا باطلا لأن الاعتكاف لا يصح إلا فى مسجد تقام فيه

(١) سورة النساء : الآية ١٠٨ .

الجماعة فى أى مكان من الأرض ، وما يروى أنه لا اعتكاف إلا فى المساجد الثلاثة فقد تكلمنا عليه ، وبيننا أنه إن سلم من القوادح فالمراد بالنفى هنا نفى الكمال ، ويتعين هذا ، لأن الآية الكريمة تدل على أن الاعتكاف عام فى جميع المساجد وأنه يخاطب به جميع الناس « ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد »^(١) فالمخاطب بالاعتكاف هو المخاطب بالصيام وهم المسلمون فى كل مكان .

فالعبادة لا تتحقق فيها المتابعة إلا إذا وافقت الشرع فى هذه الأمور الستة .

(١) سورة البقرة : الآية ١٨٧ .

من سورة الشورى

قال تعالى : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ »^(١) فقد بين الله عز وجل في هذه الآية الكريمة أنه شرع لهذه الأمة خلاصة ما جاءت به الأنبياء وعلى رأسهم الرسل الخمسة ، أولو العزم وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم ، هؤلاء الخمسة هم أولو العزم من الرسل ، وقد ذكرهم الله سبحانه وتعالى في القرآن في موضعين في هذا الموضع وفي سورة الأحزاب ، فهنا يقول :

« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْصَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » والوصية بالشىء تدل على الاهتمام به والعناية به وهذا الشىء الموصى به ؛ والموصى به هو « أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » كلمتان إقامة الدين وعدم التفرق فيه ، فأما إقامة الدين فإن نكون جميعاً متعاونين على تنفيذ شريعة الله فى عباد الله هذا إقامة الدين ؛ ومن ذلك أن نقيمها بأنفسنا ؛ لأن يبدأ بنفسه قبل غيره ، فإذا أقمنا دين الله فى أنفسنا وفى عباد الله فهذا هو امتثال قوله : « أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ » ويلزم من هذا أن نتعاون على البر والتقوى ، فإذا رأينا شخصاً قائماً بمشروع البر أعنَّاه بأموالنا وأبداننا وأقوالنا وجاهنا بكل ما نستطيع ، وإذا رأينا شخصاً متقياً لله عز وجل نعينه على التقوى وعلى ترك المحارم ونصبره على ذلك ، ونقول له اصبر عن المحرم وإن جادلتك نفسك فاصبر وصابر ورابط فإن العاقبة للمتقين ، ويلزم من هذه العبارة أيضاً أن نتواصى بالحق وأن نتواصى بالصبر وأن نتواصى بالمرحمة كما قال الله تعالى : « وَالْعَصْرُ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا - فَاستثنى - الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ »^(٢) نتواصى

(١) سورة الشورى : الآية ١٣ .

(٢) سورة العصر .

بالحق وهو ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . يوصى بعضنا بعضا كما يوصى الرجل عند موته على صغار أطفاله وكذلك نتواصى بالصبر ؛ لأن الحق يحتاج إلى مصابرة ، إذا لم يصبر الإنسان على الحق عجز واستحسر وتركه ، ولهذا يقال إن الصبر ثلاثة أنواع بعضها أعلى من بعض :

الصبر على أوامر الله ، والصبر عن محارم الله ، والصبر على أقدار الله المؤلمة ؛ فالصبر على أوامر الله أن يصبر الإنسان على ما يصيبه من تنفيذ الطاعة ؛ لأن الطاعة شاقة على النفس ليس كل الناس تنقاد نفسه إلى الطاعة .

وأیضا قد تنقاد نفسه إلى الطاعة ويحب الخير لكنه يعبد الله بالهوى لا بالهدى فتجده تأخذه العاطفة الدينية حتى يزيد في دين الله ويغلو في دين الله ويشدد في دين الله على نفسه وعلى غيره ، لأن عنده عاطفة قوية للدين وغيره عظيمة لكنه لا يحكم هذه العاطفة ويقرنها بالعقل ، ولهذا يقال الناس أقسام منهم من عنده عاطفة وعقل ، ومنهم من عنده عقل بلا عاطفة ، ومنهم من عنده عاطفة بلا عقل ، ومنهم من ليس عنده عاطفة ولا عقل .

وأكمل الناس من عنده عاطفة وعقل ؛ لأنه لو لا العاطفة ما نشط الإنسان ولا تحرك ولو لا العقل لكان تصرفه أخرق ، إما في غلو ، وإما في تقصير فإذا اجتمعت العاطفة التي تحدوه وتحثه على العمل وعلى الإقبال مع العقل الذي يحكم صنيعه حصل الكمال على كل حال لا بد أن نتواصى بالصبر على الطاعة ، والصبر على المعصية .

فالمعاصي كثيرة وهي إما لشهوة الفرج أو لشهوة البطن أو لشهوة الرئاسة أو لشهوة المال أو لشهوة الجاه .

فالشهوات أنواع كثيرة تجد بعض الناس يميل إلى المال وبعض الناس يميل إلى الجاه ، وبعض الناس يميل إلى الرئاسة ، وبعض الناس يميل إلى النساء ، فتختلف الإرادات والأهواء في المعاصي ، لكن لا بد من الصبر عن معصية الله .

فلو سولت لك نفسك أن تفعل المعصية فاحبسها واجهدها حتى تكمل .

الثالث : الصبر على أقدار الله المؤلمة ؛ لأن أقدار الله إما مؤلمة وإما ملائمة ؛ فالملائمة ما تلائم الطبيعة وترتاح له ، والمؤلمة ما لا تلائم الطبيعة ولا تترتاح له ، فالمرض من الأقدار المؤلمة ، والفقر من الأقدار المؤلمة ، والجبن من الأقدار المؤلمة ، كل هذا مؤلم .

لكن الصحة والأولاد والزوجة والمال فهذا من الأقدار الملائمة ؛ والأقدار الملائمة فى الحقيقة تحتاج إلى الصبر ؛ وهو الصبر على شكر النعمة ، لكن الأقدار المؤلمة هى التى نريدها هنا الصبر على أقدار الله المؤلمة ؛ فالإنسان يبتلى فى الدنيا ولا شك ولا أحد يسلم من الابتلاء فى الدنيا والشاعر يقول :

فيوم علينا ويوم لنا ويوم يساء ويوم نسر

ففكر فى نفسك تأمل حياتك هل ينطبق عليك هذا البيت أم لا ؟

والغالب أنه ينطبق ، فتجد الإنسان يوماً من الأيام مسروراً منشراح الصدر ، وفى اليوم الثانى بالعكس ، وفى اليوم الثالث كاليوم الأول ، واليوم الرابع كاليوم الثانى وهكذا ، سواء كان يوماً بعد يوم أو يومين أو ثلاثة بعد ثلاثة .

المهم أن الدنيا لم تتم لابد من أقدار مؤلمة ، فيجب علينا أن نقابل هذه الأقدار بالصبر ، وذلك أن الإنسان أمام هذه الأقدار لا يخلو من أربع حالات الجزع والصبر والرضا والشكر ؛ فالجزع واضح وتسخط ، وعلامة ذلك إما بالقول وإما بالفعل ، فمن العلامات القولية ؛ أن يشتم الدهر ويسب الدهر ويدعو على نفسه بالويل وما أشبه ذلك من دعاوى الجاهلية ، وأما العلامات الفعلية ؛ نتف الشعر ، وصفع الخدود ، وشق الجيوب ، وخمش الصدور وما أشبه ذلك ، فهذا كله جزع .

إذن الجزع أن يتسخط من قضاء الله وقدره ، ولا يرضاه بقلبه ، وعلامته إما فعلية وإما قولية .

والصبر : أن يتألم للمقدور ، لكن يصبر يحبس لسانه ويحبس جوارحه ويحبس قلبه فلا يكون فى قلبه سخط على القضاء ، ولا فى لسانه قول محرم ، ولا فى جوارحه فعل محرم لكنه متألم مما أصابه ، كرجل أصيب

بفقد ماله تألم ولكنه قد حبس قلبه ولسانه وجوارحه وهذا مقامه مقام صبر .
والثالث الرضا وهذا المقام هو أن الإنسان لا يتألم ويكون متمشيًا مع قضاء الله وقدره ، وقضاء الله له ما يؤلمه أو ما يلائمه على حد سواء ؛ لأنه راض تمامًا بالقضاء ما يتألم ويقول هذا قضاء الله وهو ربى يفعل بى ما يشاء ، فأنا راض لا أتألم وكأن الذى يؤلمنى يلائمنى ، وهذه المرتبة أعلى من الصبر .

الرابع : الشكر أن يشكر الله على ما أصابه مما يؤلمه ولكنه هذا يبدو وكأنه أمر مستحيل فكيف يشكر الإنسان ربه على شيء يؤلمه ، ولكن يقال إن نوى الأرباب العالية والمنازل الرفيعة لا يتعدى هذا فى حقهم ؛ لأنهم لا ينظرون إلى هذه المصيبة بأنها المراد بها إهانة المصاب ، وإنما يرون أن المراد والحكمة منها أن يعلو المصاب درجات ويكفر الله بها عنه فيشكر الله على نتائجها وثمراتها ؛ لأنها يكفر بها من خطاياها ، ويعلو بها أيضا درجات فى الآخرة .

فإذا نظر إلى هذه الناحية انقلبت هذه المصيبة أو هذه المحنة منحة ، والمنحة يشكر عليها لكن هذه منازل عالية لا يبلغها إلا الواحد من الألف .
فالناس إذن أمام المصائب لهم أحوال أربعة :

سخط وصبر ورضا وشكر ، وحكم هذه الأحوال ؛ أما السخط فحرام ومن كبائر الذنوب ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : (ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية)^(١) فهذا المقام مقام الجزع حكمه حرام بل من كبائر الذنوب ، فهذا ضلال فى الدين وسفه فى العقل ؛ لأن هذا الجزع لا يرد المصيبة ولا يخفف من المصيبة بل يزيدها ألمًا ، ولهذا قال بعض العلماء إذا أصبت بمصيبة فإما أن تصبر صبر الكرام ، وإما تسلو سلو البهائم - يعنى كيف المصيبة - هذا معنى السلو .

وما من أحد منا إلا أصيب بمصيبة آلمته ولكن بطول الزمن ينساها يسلو عنها ، فإذا صبر بها حين المصيبة نال درجة الصابرين ، وإن تسخط نزل عن هذه الدرجة ولم يُغن عنه السخط والجزع شيئًا ، ولهذا مر النبى

(١) رواء البخارى فى كتاب الجنائز - باب (٣٨) - حديث (١٢٩٧) .

صلى الله عليه وسلم بامرأة وهى عند قبر ابنها تبكى فقال لها صلى الله عليه وسلم : (يا هذه اتق الله واصبرى) فقالت : إليك عنى فإنك لم تُصب بمصيبتي . فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم وأخبرت به جاءت تعتذر فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (إنما الصبر عند الصدمة الأولى)^(١) .

فإذن الإنسان الذى يجزع عند المصيبة لن يستفيد أبداً ، فجزعه ضلال فى الدين وسفه فى العقل .

والصبر حكمه واجب ؛ لأن الله أمر به فقال : « واصبروا إن الله مع الصابرين »^(٢) وثوابه عظيم « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب »^(٣) فأنت اصبر وتحمل وثق أنها ستتغير الحال من الصباح إلى المساء فتتغير .

والجزع والحر الأليم الذى أصابك بالمصيبة فإذا صبرت سوف ينقلب يرداً وسلاماً فى آخر النهار .

والرضا حكمه : قال بعض العلماء إنه واجب كالصبر ، وقال بعض العلماء إنه مستحب وهذا هو الصحيح أنه مستحب ؛ وذلك لأنه أمر لا يقوم به كل أحد ، فلو أوجبناه على الناس لألزمناهم بما لا يستطيعون .

والشكر حكمه مستحب من باب أولى ؛ لأنه إذا كان الرضا مستحب فالشكر من باب أولى ؛ لأنه رضا وزيادة .

ولسنا نتكلم على شكر النعمة ، إنما نتكلم على شكر المصيبة فهو مستحب وليس بواجب .

إذن من جملة إقامة الدين الذى أمر الله به نتواصى بالصبر كما أمر الله .

ومن إقامة الدين التى أمر الله بها أن نتأمر بالمعروف وأن نتناهى عن المنكر حتى نكون أمة واحدة تتفق فى أفكارها واتجاهاتها وأقوالها وأفعالها وأحوالها ؛ لأنه إذا لم نأمر بالمعروف ولم ننه عن المنكر تفرقنا ولا بد ، لأن

(١) رواه البخارى فى كتاب الجنائز - باب (٣١) - حديث (١٢٨٣) .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٤٦ .

(٣) سورة الزمر : الآية ١٠ .

صاحب المنكر يمشى مع فريقه ، وصاحب المعروف يمشى مع فريقه ، وهذا تفرق ولهذا قال تعالى : « وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا ^(١) فدل هذا على أن ترك الدعوة إلى الله وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب للتفرق ولابد وصارت فريسة لأعدائها ، ولهذا يقال إن من سياسة الكفار تجاه المسلمين أنهم يأخذون بمبدأ يسمى مبدأ (فَرَقْ تَسُدْ) يعنى اجعل الناس يتفرون تكون أنت السيد ، وهذه حقيقة إذا تفرق المسلمون تنازعوا ففشلوا وذهبت ريحهم وصارت فريسة لأعدائهم فصار العدو يجلس يشاهد تنازع المسلمين وتفرقهم ويكون بأسهم بينهم شديدا وعدوهم مستريحا .

إذن نقول من جملة إقامة الدين أن نتأمر بالمعروف ونتنأهى عن المنكر .

وهنا سؤال فما هو المعروف ، هل المعروف ما عرفه الناس أم ما عرفه الشرع وأقره ؟ فهو ما عرفه الشرع وأقره ، لا ما عرفه الناس ؛ لأن الناس قد يعرفون المنكر وينكرون المعروف ، وإنما المعروف ما عرفه الشرع وأقره ، والمنكر ما عرفه الشرع وحذر منه كالمعاصي ؛ فهذا تعريف المعروف وتعريف المنكر ، ولكن لابد لذلك من شروط :

فالشرط الأول : أن يكون الأمر عالمًا بالمعروف ؛ يعنى عالمًا أن هذا مما أمر الله به ، أما إذا كان جاهلاً فماذا يأمر ؛ ولهذا يفسد الجاهل والأمر بالمعروف وهو يجله أكثر مما يصلح .

فكم من إنسان تجره على منكر وأكثر ما يكون هذا البدع فى الدين ، البدعة التى تقصم الأعناق والظهور ، ويحسبها الجاهل حقاً وهى باطل ، هى التى يأمر بها الجاهل فيغزون العوام ؛ تأتى لشخص وتقول هذا منكر فيكون مسئولاً من جهتين : من جهة أنك نسبت هذا الشيء لشرع الله وليس منه . ومن جهة أخرى أنك أمرت به عباد الله ، وليس مما تعبدهم الله به .

ثانياً : أن يكون الأمر عالمًا بأن هذا الشخص ترك المعروف فلا يأمر بشيء وفيه احتمال أن المأمور قد فعله حتى يستفصل هل فعل أم لا ؛ لأنه

(١) سورة آل عمران : الآية ١٠٤ ، ١٠٥ .

إذا أمر بشيء وهو لا يدرى أن المأمور قد فعله صار متسرعاً غير حكيم في أمره وانظر إلى حكمة الرسول صلى الله عليه وسلم : (كان يخطب الناس يوم الجمعة فدخل رجل المسجد وجلس - والجلوس عند دخول المسجد ترك للمعروف ؛ والمعروف هو الصلاة ركعتين تحية المسجد - فجلس الرجل ولم يقل له النبي صلى الله عليه وسلم قم : (فصل) لماذا ؟ لاحتمال أن يكون صلى ، ولهذا قال له أصليت ؟ قال لا ، قال فقم فصل ركعتين وتجاوز فيهما)^(١) .

فاستفصل أولاً هل فعل هذا المعروف أم لم يفعله فلما قال لا قال فقم فصل ركعتين .

إذن لابد أن تكون عالماً بحال المأمور وأنه لم يقم بما أمر الله به ، فإن كنت جاهلاً في ذلك فماذا تصنع ؟ تسأل وتستفصل .

الثالث : لابد أن يكون الأمر مفيداً ؛ أى أن يكون مفيداً على وجه يقبل منه بحيث لا يأتى بعنف وشدة توجب نفور المأمور ؛ لأنك لو أتيت بشدة لنفر المأمور بأمرك ، لكن لو أتيت برفق ولين لم ينفر واطمأنت نفسه وانشرح صدره وأحبك وقبل منك ، وهذا شيء مشاهد تجد طالب العلم ، بل تجد العالم الكبير يأمر هذا الشخص بمعروف لكن بعنف فلا يقبل فيأتى عامى من السوق فيتكلم معه بسهولة ولين فيقبل على الغالب ؛ لأن صفة الأمر لها تأثير على المأمور .

وفى المنكر يشترط أن نعلم أن هذا منكر حسب الشريعة الإسلامية فإن لم نعلم فلا يجوز لنا أن ننهى عنه .

مثال وجدنا رجلاً يتعبد بما لم يشرعه الله فالأصل أننا ننكر ونقول له ما هذه الصلاة ما هذا التسبيح ما هذا القول ما هذا الفعل ، فكيف تتعبد لله بهذا الشيء ؟ فننكر عليه حتى يوجد دليل على أن هذا من شرع الله .

وقلنا بذلك ؛ لأن الأصل فى العبادات المنع ؛ ولأنه لا يمكن أن يتعبد أحد لله إلا بدليل ، فأى إنسان تراه يتعبد بغير دليل أنكر عليه ونقول له انت

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود .

بالدليل ، فإذا قال لك ما دليلك على أن هذا منكر ، فنقول ما دليلك على أن هذا عبادة والأصل أن لا نتعبد لله إلا بما شرع فالأصل في العبادات المنع ، فننكر على كل إنسان أحدث عبادة نعلم أنها من شريعة الله حتى يأتي بالدليل .

المثال الثاني : رجل وجدناه يعمل عملاً غير عبادة ، فالأصل عدم الإنكار ؛ لأن الأصل في غير العبادات الحل والإباحة حتى يقوم دليل على المنع ، وبناء على ذلك فماذا نقول في رجل حضر محاضرة فجاء بمسجل يسجل المحاضرة فقال له رجل هذا حرام وأنكر عليه غاية الإنكار على غير صواب ؛ لأن الرجل لم يأت بالمسجل لكي يتعبد لله بالمجيء به ، ولكن جاء به ليحفظ هذه المحاضرة بدل من أن أتعب يدي بالكتابة وتفوتني بعض الكلمات فأسجل وأستمع إلى هذه في طمأنينة ، فما جئت لأتعبد لله بإحضاره ، فكيف تنكر عليّ ، فنقول له سبحانه الله هل هذا المسجل موجود في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ نقول نعم هو غير موجود ، لكن الشريعة صالحة لكل زمان ومكان ، يقول الله تعالى : « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ »^(١) فأين ما في القرآن والسنة أن هذا ممنوع ، ونقول له هل أنت تقرأ كتاباً مطبوعاً ؟ فيقول نعم ، فنقول له هل المطابع كانت موجودة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ فيقول لا ، فنقول إذن لا تقرأ في الكتب المطبوعة ؛ لأن هذه آلة حادثة ولم تكن معروفة في عهد الرسول ولا في أصحابه ، فهي بدعة فلا تقرأ في هذا الكتاب المطبوع وإلا لا تنكر عليّ المسجل .

إذن الذي ينكر على صاحب المسجل تسجيل المحاضرات النافعة القيمة فهذا ليس على صواب بل إنكاره هو المنكر ، ولهذا نقول لا تنكر إلا إذا علمت أن هذا منكر بالشرع .

ولو جاء شخص آخر فقال كيف تصلى بالميكروفون هذا بدعة ، هذا بوق اليهود ، لأنه لا ينطبق على ناقوس النصرى ، فهذا حرام ويشدد على الذي يؤذن في الميكروفون ويصلى فيه ، فنقول له كيف تشدد على هذا

(١) سورة النحل : الآية ٨٩ .

الأمر ؟ قال هل كان الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه يستعملونه ، فنقول له لا ، لكن لا يستعملونه لأنه حرام ؛ بل لأنه ما كان موجوداً في عهدهم ، ولهذا (كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه الذين لهم صوت عال أن يبلغوا ، فأمر الذي رأى الأذان في المنام أن يلقيه على بلال ، وقال له : (لأنه أئدى صوتاً منك)^(١) وأمر أبا طلحة يوم خيبر أن ينادى إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحُمُر الأهلية فإنها رجس)^(٢) ، وأمر العباس بن عبد المطلب في غزوة ثقيف أن ينادى الصحابة الذين فروا : يا أصحاب السمر ، يا أصحاب سورة البقرة ، لأنه كان قوى الصوت^(٣) .

إذن فرفع الصوت بالتبليغ أصله موجود في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والآلة وسيلة فقط لإبلاغ الصوت : (إذا كان لرسول صلى الله عليه وسلم أقر أبا بكر أن يبلغ عنه في الصلاة حينما صلى بالناس مريضاً كان أبو بكر يبلغ عن الرسول صلى الله عليه وسلم)^(٤) فدل هذا على لا مانع من استعمال ما يبلغ الصوت إلى المصلين .

وهنا نقطة وهي أن بعض الناس يستعمل هذا الصوت على وجه يؤذى الآخرين ، كما يوجد في بعض المدن والقرى يؤدون الصلاة بالميكروفون ويسمع من على المنارة ويسمعه جيران المسجد من المساجد أو من البيوت فيشوش عليهم تشويشاً بالغاً حتى إنه بلغنا أن بعض الناس الذين يصلون خلف هذا الإمام إذا سمعوا قراءة المسجد الثاني بمكبر الصوت وكان صوته حسناً وقراءته جيدة صاروا يستمعون إلى قراءته وتركوا الاستماع إلى قراءة إمامهم وصار إمامهم كأنما يقرأ على خشب مسند ، وبلغني أن بعض الناس كان يستمع إلى قراءة الإمام الثاني فلما قال ولا الضالين قالوا أمين وإمامهم يقرأ الفاتحة مأكمل ، لكنهم استمعوا إلى قراءة المسجد الثاني ، ولاشك أن هذا وقوع فيما نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم ومعصيته للرسول ، ومن فعل ذلك فهو إلى الإثم أقرب منه إلى السلامة ؛ لأنه يؤذى إخوانه

(١) رواه الترمذى في باب ما جاء في بدأ الأذان من أبواب المواقيت . تحفة الأحوذى ٥٦٣/١ .

(٢) رواه مسلم في كتاب الصيد - حديث (٣٤ ، ٣٥) . شرح النووي ٩٤/١٣ .

(٣) رواه مسلم في كتاب الجهاد - باب غزوة حنين . شرح النووي ١١٥/١٢ .

(٤) رواه البخارى في كتاب الأذان - (٥١) - حديث (٦٨٧) .

ويشوش عليهم ، (خرج النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه ذات يوم وهم يصلون ويجهرون بالقراءة فقال لهم كلكم يناجي ربه فلا يجهرن بعضهم على بعض بالقرآن أو قال في القراءة)^(١) وقد روى في هذا حديثان ، قال ابن عبد البر رحمه الله : إنهما صحيحان أحدهما في الموطأ والثاني في أبي داود ولفظ أبي داود : (فلا يؤذنين بعضهم بعضا) فجعل النبي صلى الله عليه وسلم هذا أذية وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم فإذا أنكر إنسان الصلاة في المسجد من هذه الناحية فإنكاره صواب ؛ لأن هذا هو الذي نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم .

وما أدري ماذا يكون جواب من فعل ذلك عند الله يوم القيامة ، فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : (لا يجهر بعضهم على بعض في القراءة أو لا يؤذنين بعضهم بعضا) وثبت أن هذا يشوش على الآخرين أو يؤذيهم ما أدري ماذا يكون جواب هذا الفاعل الذي بلغه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم وهو حديث صحيح صححه ابن عبد البر ، ويكفي من الدليل حديث واحد .

وما أدري ماذا يكون إحساسه بإخوانه وهم ساجدون تبعاً لإمامهم يريدون أن يدعوا الله وصوت هذا يخترق آذانهم بالقراءة ولا يدرون ماذا يدعون ربهم ، مع أن الفائدة من هذا قليلة جداً إن قدر أن فيه فائدة .

فإذا أنكر إنسان هذا الصوت أو استعماله المكبر من هذه الناحية فإنكاره صحيح ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يشوش الناس بعضهم على بعض أو يجهر بعضهم على بعض وقد صرح شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بأنه ليس للإنسان أن يفعل ما يشوش به على المصلين نكره في الفتاوى وغيرها ، ونحن في غنى عن كلام أي إنسان ما دام عندنا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ونرى قال : (لا يؤذنين بعضهم بعضا أو لا يجهر بعضهم على بعض بالقراءة) . فالإنكار على هذا الوجه صحيح في محله ، ولهذا فإني أحمل من سمع هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم المسؤولية أمام رب العالمين إذا سأله ماذا صنع في التشويش على إخوانه وكونهم يدعون من أمروا بالإنصات له فيستمعون إليه ونسأل الله لإخواننا

(١) رواه أبو داود في كتاب التطوع - باب (٢٥) . سنن أبي داود ٣٨/٢ .

الهداية .

أما استعمال هذا في غير الصلاة الجهرية كصلاة الظهر والعصر فمن الناس من أقره ، ومنه من لم يقره ، فمن الناس من أقره وقال هذا ليس فيه تشويش ، ومنهم من لم يقره وقال نعم ليس فيه تشويش وإن كان قد يحصل أحياناً إذا قال إمام المسجد المجاور سمع الله لمن حمده يمكن أن يقوم هؤلاء يحسبون أنه إمامهم لكن بعض الناس أنكره .

إذن ففي نقل الصلاة السرية على مكبر الصوت من المنارة فيه شيء من النظر لكنه ليس كالصلاة الجهرية .

أما نقل الإقامة دون الصلاة فبعض الناس أقره وقال لا مانع منه ؛ لأنه يحث الناس على الحضور ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ولا تسرعوا)^(١) وهذا يدل على أن الإقامة تسمع من خارج المسجد ، فلا بأس به .

وآخرون قالوا لا نقره ؛ لأن عندنا من إذا قلنا له قم صل قال أصبر حتى يقيم ، وإذا ذهب بعد الإقامة ربما يفوته شيء ، لكن الذي أرى أن الإقامة لا وجه لإنكارها من مكبر الصوت من على المنارة ؛ لأننا نقول إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم : (يقول إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة) دل هذا على الإنسان لو لم يقم إلى الصلاة إلا بعد الإقامة لكان ممثلاً لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم مع أن الأفضل أن يقوم من حين أن يسمع الأذان ، كل هذا الذي ذكرنا المنكر لا بد أنه منكر داخل في قولنا أن المنكر أن نعلم أنه منكر ، فإن شككنا وجب علينا التوقف .

الشرط الرابع : أن لا يزيل المنكر إلى ما هو أنكر منه ؛ يعني لا تنه عن منكر فيفعل المنهى ما هو أكبر وأنكر ، ودليل هذا قول الله تعالى : « وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ »^(٢) .

فسب آلهة المشركين واجب وعيها واجب لكن إذا كان يترتب عليها سب رب العالمين المنزه عن كل عيب ونقص وجب أن ندع سب آلهة

(١) رواه مسلم في كتاب المساجد . شرح النووي ٨٧/٥ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٠٨ .

المشركين ؛ لأنه لو سببنا آلهة المشركين لسبوا إلهنا عز وجل ، فلا نسب الآلهة ؛ لأن هذا المنكر يؤدي إلى ما هو أنكر وأشد فترك السب لآلهتهم واجب إذا كان سب الآلهة يؤدي إلى سب الله .

وقد ذكر عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنه مر بقوم من التتر في الشام مر بهم يشربون الخمر ، وشرب الخمر منكر بإجماع المسلمين ولكنه لم ينههم وكان معه صاحب له فقال مالك لم تنههم ؟ قال لو نهيناهم عن شرب الخمر لذهبوا ينهبون أموال المسلمين ويفسدون نساءهم ؛ ونهب أموال المسلمين وإفساد النساء أعظم من شربهم الخمر ؛ لأن مفسدة شربهم للخمر لا تتعدهم ، ومفسدة نهب أموال المسلمين وإفساد نساءهم تتعدهم ، والضرر القاصر على فاعله أهون من الضرر المتعدى لغيره ، وهذا من حكمة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

والمهم أنه يشترط أن لا يزول المنكر إلى ما هو منكر منه .

وهل يشترط أن يكون الأمر بالمعروف فاعلاً له ، والناهي عن المنكر مجتنباً له أو لا يشترط ؟ الجواب لا يشترط لأننا لو اشترطنا هذا لم يبق أمر بمعروف ونهي عن منكر ؛ لأنه ما من إنسان إلّا وعنده إخلال بمعروف ، أو فعل منكر ، كل بنى آدم خطأ وخير الخطائين التوابون .

فنقول يجب الأمر بالمعروف وإن كنت لا تفعل والنهي عن المنكر وإن كنت تفعله ، لأنك لو تركت الأمر بالمعروف وأنت لا تفعله ، تركت مأمورين وهما فَعَلَك وأَمَرَك ، ولو أمرت وأنت لم تفعل لتركت مأموراً واحداً ، وكذلك نقول في المنكر لو تركت النهي عن المنكر وأنت تفعل المنكر لوقعت في نهيين وهما عدم الإنكار وفعل المنكر ، ولو أنكرت مع فَعَلَك للمنكر وقعت في منكر واحد ، وهو فَعَلَك للمنكر .

والإنسان عليه أن يقوم بالواجب بقدر ما يستطيع ، وأن يدع المنكر بقدر ما يستطيع . والمهم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل في قوله تعالى : « أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » وهذه الإقامة للدين تشمل إقامة الدين في نفس الإنسان وإقامة الدين مع غيرها فتشمل صلاح الفرد وصلاح الأمة جميعاً ، والدين كل ما يدين به الناس لربهم عز وجل فيشمل مهمات الإسلام وأصول الإسلام وما دون ذلك في الإسلام .

فكل هذا نحن مأمورون بإقامته إما على سبيل الوجوب وإما على سبيل الاستحباب حسب هذه الشعييره التى نريد أن نقيمها .

وأما قوله : « ولا تتفرقوا فيه » فالمعنى لا تتفرقوا فى دين الله ، والتفرق فى دين الله هو الذى مزق الأمة الإسلامية وجعلها دويلات وجعلها أحزاباً كل حزب بما لديهم فرحون ، والتفرق فى الأمة الإسلامية تفرق فى الأصل وتفرق فى الفروع ، والتفرق فى الفروع تفرق فى أصول الفروع وفيما دون ذلك ، وكل هذا مما نهى عنه أن نتفرق فى دين الله عز وجل ، هذه الأمة أخبر نبيها صلى الله عليه وسلم أنها ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة ؛ وهى من كان على مثل ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه^(١) .

وإذا نظرنا إلى الأمة الإسلامية وجدنا فيها التفرق كثيراً فى الأصول وفى الفروع فى الذين ينضمون تحت لواء واحد فقد تجد منهم التفرق ، ولذلك فى ضعف فى دينهم وقلة بصيرتهم ، نجد مثلاً من أهل السنة والمنتسبين للسنة ، وأهل السنة هم الذين يتبعون طريقة السلف فى أصولهم وفروعهم ، فهؤلاء هم أهل السنة نجد أن بينهم اختلافاً حدث فى مسائل خفيفة لا تعد من أصول الدين ، ومع ذلك يجعلون من هذا الاختلاف تفرقاً فى القلوب واختلافاً فى القلوب ؛ فتجد مثلاً خلافاً فى مسائل من مسائل الدين الخفيفة التى لا تعد من كبار أصول الدين ومع ذلك يجعلون هذا التفرق سبباً لاختلاف القلوب والتعادى والتكلم فى بعضهم ، وهذا خلاف ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ فالصحابه رضى الله عنهم يختلفون فى أمور أشد كثيراً مما كان سبباً لاختلاف هؤلاء ، ولا يخفى علينا جميعاً أن الصحابة حين أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصلوا فى بنى قريظة^(٢) .

(١) رواه الترمذى فى كتاب الإيمان باب (١٨) وقال : حسن غريب .

(٢) رواه البخارى فى كتاب المغازى - باب (٣٠) - حديث (٤١٩) .

من سورة الشورى

قال الله تعالى :

« وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين » (١).

« جزاء سيئة سيئة مثلها » يعنى إذا أساء إليك شخص فلك الحق فى أن تسيىء إليه بمثل ما أساء إليك . إذا ضربك على ظهره مرة فاضربه على ظهره مرة هذه مثل هذه فإن ضربته مرتين فقد اعتديت عليه وإن عفوت فقد عفوت .

وإذا قال لك يا بهيمة فقلت له يا بهيمة فقد جازيته سيئة بمثلها وإن قلت يا حمار فقد اعتديت عليه لماذا ؟ لأن البهيمة أخف من الحمار إذا إن البهيمة قد تكون بغيراً والبعير من الحيوان الطيب لكن الحمار من الحيوان النجس كما جاء فى الحديث الذى رواه أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر أبا طلحة أن ينادى فى الناس يوم خيبر إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية فإنها رجس (أى نجس) .

إذا قال لك لعنك الله فهل تقول له بل لعنك الله أنت ؟ قال العلماء بلى تقول له ذلك لأن الله يقول « وجزاء سيئة سيئة مثلها »

نأتى إلى مسائل أكبر من هذا :

لو أن شخصاً جنى على إنسان فقطع يده فهل نقطع يد القاطع إذا تمت شروط القصاص ؟ الجواب : نعم لكن لو فرضنا أن يده التى تماثل يد المقطوع غير موجودة هل نقطع رجله بدلاً من اليد ؟ الجواب : لا لأن الله يقول « وجزاء سيئة سيئة مثلها »

لو أن شخصاً قتل إنساناً مع التمثيل به يعنى أنه قطع أولاً يديه ثم رجله

(١) سورة الشورى الآية : ٤٠ .

ثم رأسه فهل نفعل به كما فعل ؟ نعم نفعل به كما فعل نقطع يديه ثم رجليه ثم رأسه لأن الله يقول « **وجزاء سيئة سيئة مثلها** »

ولهذا قام يهودى فى المدينة إلى جارية من الأنصار فقتلها بأن رضى رأسها بين حجرين فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يرض رأسه بين حجرين كما رضى رأس الجارية بناء على هذه القاعدة « **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ».

ثم قال الله عز وجل « **فمن عفا وأصلح فأجره على الله** » (من عفا) عمن ؟ عمن أساء إليه (وأصلح فأجره على الله) وإذا كان أجره على الله فإنه سيكون أعظم مما لو كان الأجر من سيئات هذا الجانى . لأن الجانى لا بد أن يقتص منه إما فى الدنيا وإما فى الآخرة إذا لم يعف صاحب الحق فيقول الله عز وجل « **فمن عفا وأصلح فأجره على الله** » .

وانتبه لهذا القيد وهو قوله « **فمن عفى وأصلح** » فإنه قيد مهم يتبين به أن العفو لا يكون خيراً إلا إذا كان مصحوباً بالإصلاح أما لو كان غير مصحوب بالإصلاح فإنه ليس بخير وعلى هذا فإذا جنى شخص معروف بالشر على إنسان فهل يكون من الحكمة أن يعفو عن هذا الشخص المعروف بالشر ؟ الجواب : لا لأن هذا العفو لا يكون به إصلاح . فربما إذا عفا عن هذا الذى هو عرف بالشر يتعدى شره إلى شر أكثر وأعظم . ولو أن شخصاً معروفاً بالخير ولكن لسبب ما اعتدى على شخص فهل نقول إن العفو هنا مطلوب ؟ الجواب : نعم لأن العفو هنا إصلاح فإن هذا الرجل المعروف بالاستقامة وعدم العدوان إذا عفى عنه كان فى هذا تشجيع له على الخلق الفاضل الذى هو ملتزم به وهذا كما تعلمون كثير . فكثيراً ما يثار الشخص وهو رجل طيب فيحصل منه عدوان على الذى أثاره ففى هذه الحال إذا علمنا أن الذى أثير حصل منه العدوان بسبب الإثارة لا من أجل أن طبيعته الشر فإننا ندعو إلى العفو عنه لأن العفو عنه بلا شك يكون إصلاحاً .

وهنا أنبه على مسألة تقع كثيراً على حوادث السيارات . يحصل من الرجل حادث بسبب تهوره وعدم تقيده بما يجب أن يتقيد به وهو معروف بالتهور وعدم المبالاة فإذا حصل منه الحادث نجد بعض الناس يفرع إلى صاحب الحق يطلب منه العفو عن هذا الجانى وربما يكون من المجنى عليه

عاطفة تستوجب أن يسامح هذا الجانى ففى هذا الحال هل من الحكمة أن نطلب منه العفو ؟ الجواب : لا لأنه ما دام معروفاً بالتهور وعدم المبالاة فإنه لا ينبغي أن نشفع له بل نأخذ منه بالحق وإفياً حتى لا يعود لمثل هذا . فالدين الإسلامى حزم ليس دين ضعف ورقة تخرج عن الحكمة بل هو دين الحزم والحكمة فإذا اقتضى اللين أن يكون حكمة فحينئذ يكون مأموراً به وإذا كان الأمر بالعكس فإنه لا يكون مأموراً به ولهذا قال الله تعالى « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله » ^(١) فهى الله تعالى أن تأخذنا بالزانية والزانى رأفة فى دين الله مع أن الرأفة مطلوبة وقد أثنى الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأنه « بالمؤمنين رءوف رحيم » لكن الرأفة فى غير محلها غير مطلوبة ولهذا قال « ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

وقال تعالى :

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم » ^(٢) .

هذا ما يتعلق بهذه الآية ولها فروع كثيرة لا تخفى على الإنسان المتأمل .

* * * *

(١) سورة النور الآية : ٢ .

(٢) سورة المائدة الآية : ٣٨ .

وقفات مع آيات من سورة الحجرات

قال الله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ » (١) .

صدر الله هاتين الآيتين بقوله « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » وقد أثر عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال (إذا قال الله « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » فأرعاها سمعك - يعنى استمع لها - فإما خير تؤمر به وإما شر تنهى عنه) .

ونقول إذا قال الله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » فصدر الخطاب بالنداء فإن هذا يدل على أهمية هذا الخطاب وذلك لأن النداء يستدعى تنبيه المنادى وتنبيه المخاطب قبل خطابه يدل على أنه سيخاطب بماله أهمية . ثم إنه إذا كان النداء بوصف الإيمان فإنه يدل على أن هذا المخاطب به من مقتضيات الإيمان . ويدل أيضاً على أن مخالفته نقص فى الإيمان .

هنا يقول الله عز وجل « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » قال بعضهم لا تَقْدُمُوا بمعنى لا تَقْدُمُوا ولكن معنى لا تَقْدُمُوا فى الواقع أدق من معنى لا تَقْدُمُوا . المعنى لا تَقْدُمُوا بين يدي الله لا أقوالاً ولا أفعالاً ولا أحكاماً ولا أخباراً ولا غير ذلك بين يدي الله ورسوله لا تقدموا شيئاً بين يدي الله ورسوله فلا تشرع ما لا شرعه الله ولا تحرم ما لم يحرمه الله ولا تبج ما لم يبيحه الله ولا توجب ما لم يوجبه الله ولا تقف ما ليس لك به علم فى جانب الله كن أدبياً كن عبداً حقيقياً لله عز وجل كن مؤمناً حقيقياً بالله عز وجل .

(١) سورة الحجرات الايتان : ١ ، ٢ .

« لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله »

والتقوى مأخوذة من الوقاية وهى أن يفعل الإنسان ما يتقى به عذاب الله . والوقاية من عذاب الله تكون بفعل أوامر الله عز وجل واجتناب نواهيه .

إذن فهى تشمل الدين كله لأن الدين أوامر ونواه ففعل الأوامر طاعة لله وترك النواهي طاعة لله وكلاهما تقوى الله عز وجل .
إذن فالتقوى بالمعنى العام اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

ومن ذلك من نواهى الله أن لا تقدم بين يدي الله ورسوله ثم قال « إن الله سميع عليم » أى سميع لأقوالكم إن تقدمتم بين يدي الله وعلیم بنياتكم ماذا نويتم بتقدمكم بين يدي الله بل هو عليم بكل شيء فإنه لا أعم من صفة العلم إذ إنها متعلقة بالواجب والممكن والمستحيل ولهذا من أشمل ما يكون دلالة وأشمل ما يكون معنى صفة العلم لله عز وجل لأنها تتعلق بالواجب والممكن والمستحيل . يعنى أن الله يعلم ما كان واجب الوقوع وما كان ممكن الوقوع وما كان مستحيل الوقوع استمع إلى علم الله بمستحيل الوقوع قال الله تعالى :

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »^(١) .

ومن المعلوم أنه يستحيل أن يكون فى السموات والأرض آلهة إلا الله سبحانه وتعالى . والله سميع وهذان اسمان من أسماء الله .

سميع . عليم قال العلماء إن السمع يطلق على معنيين أحدهما الاستجابة والثانى إدراك المسموع فإذا حصل صوت وأدركت هذا الصوت فهذا سمع وإذا دعاك أحد فأجبتة فهذا أيضاً سمع .

مثال الأول : أعنى السمع بمعنى الاستجابة قوله تبارك وتعالى « ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون »^(٢) معنى لا يسمعون لا

(١) سورة الأنبياء الآية : ٢٢ .

(٢) سورة الأنفال الآية : ٢١ .

يستجيبون لأنه لو كان وهم لا يسمعون أى بأذانهم لا يسمعون القول لكان متناقضاً مع قوله (قالوا سمعنا)

ومن ذلك قوله تعالى « إن ربي لسميع الدعاء »^(١) سميع الدعاء يعنى مجيب الدعاء وإن كان يشمل هذا وهذا فى الواقع لكن الإجابة تتضمن سمع الإدراك ولا عكس .

ومن ذلك قول المصلى (سمع الله لمن حمده) يعنى استجاب الله لمن حمده وانظر إلى سمع لما كانت بمعنى استجاب تعدت باللام فقال سمع الله لمن حمده ولم يقل سمع الله من حمده . فلو قال سمع الله من حمده لكان المعنى سمع صوت الحامد لكن لما قال سمع الله لمن حمده صار المعنى استجاب لمن حمده .

والثانى : من معنى السمع إدراك المسموع يعنى صوت حدث فتسمعه هذا يسمى سمع . قال أهل العلم (وسمع الله سبحانه وتعالى محيط بكل صوت مهما خفى ومهما بعد) فإن الله تعالى يعلم السر والنجوى وما هو أخفى مما يكون من الأصوات . وسمع الله بهذا المعنى ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : أن يكون المراد به التهديد .

القسم الثانى : أن يكون المراد به التأييد .

القسم الثالث : أن يكون المراد به بيان شمول سمع الله .

ومثال الأول : التهديد قول الله تعالى :

« لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء »^(٢) فإن

المراد بذلك التهديد يهدد الله الذين قالوا هذه القولة الشنيعة بدليل قوله تعالى « سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق * ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد »^(٣) .

(١) سورة إبراهيم الآية : ٣٩ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٨١ .

(٣) سورة آل عمران الآيتان : ١٨١ ، ١٨٢ .

ومثال الثانى : سمع بمعنى التأييد .

منه قوله تعالى لموسى وهارون حين أرسلهما إلى فرعون :
« **قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى** * **قال لا تخافا**
إننى معكما أسمع وأرى » فهذه الآية يراد بها التأييد لموسى وهارون وفى
نفس الوقت قد تكون مفيدة للتهديد بالنسبة لفرعون .

ومثال الثالث : أن يراد بالسمع بيان شمول سمع الله لكل شيء
ومنه قوله تعالى :

« **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى** » ^(١) إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجها فقال الله تعالى « **قد سمع الله قول**
الذى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما » .
قالت عائشة رضى الله عنها (الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات إنى
لفى الحجرة وإنه ليخفى على بعض حديثها) .

والله سبحانه فى السماء فوق عرشه فوق كل شيء ومع ذلك يسمع
شكوى هذه المرأة ومجادلتها للرسول صلى الله عليه وسلم ومحاوره الرسول
لها فهنا المراد بالسمع بيان شمول سمع الله لكل مسموع .
فإذا آمنت بذلك لزم أن تتقى الله فيما تقول لأنك إذا آمنت بأن الله يسمع
كل ما تقول فسوف لا تسمع ربك إلا ما يرضى الله ولن تسمع ربك عز وجل
مالا يرضيه .

ولهذا لا شك أن الإنسان الذى يؤمن بمقتضى أسماء الله وصفاته سوف
يحدث له تغيير فى حياته وسلوك حسن مرضي عند الله سبحانه وتعالى لكن
مع الأسف إننا نقرأ أسماء الله وصفاته ولكننا لا نفهم معناها ولا نشعر أنفسنا
بمقتضاها .

وانظر إلى حديث ورد عن النبى عليه الصلاة والسلام فقال :

(**إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة**)

ولم يبينها الرسول عليه الصلاة والسلام من أجل أن يتعب الإنسان فى

(١) سورة المجادلة الآية : ١ .

استخراجها من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والحديث الذي ورد في تعيينها قال أئمة الحفاظ ، إنه حديث مدرج لا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم لأجل أن يتولى الإنسان بنفسه استخراج هذه الأسماء من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم حتى يتبين المجد الحريص على تتبع هذه الأسماء من غيره .

يقول صلى الله عليه وسلم (من أحصاها دخل الجنة) هل معنى إحصائها أن تكتبها بورقة وتحفظها بقلبك ؟ لا إحصاؤها هو :

أولاً : معرفتها لفظاً .

ثانياً : معرفة معناها .

ثالثاً : التعبد لله بمقتضاها . وهذه الأخيرة المهمة بالنسبة للسير والسلوك إلى الله عز وجل .

ولهذا قال الله تعالى « اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم »^(١) اعلموا علماً يتغير به سلوككم ومنهاجكم إلى الله عز وجل .

التعبد إلى الله بمقتضاها إذا علمت أن الله سميع تتجنب كل قول يغضب الله وتختار كل قول يرضى الله . إذا علمت أن الله بصير تتجنب كل فعل يغضب الله وتقوم بكل فعل يرضى الله عز وجل لأنك تعلم أن الله يراك « سميع بصير » .

إذا علمت أن الله حكيم فإنك تؤمن بقضاء الله وقدره وتعلم أن ما قدره وقضاه فإنه لحكمة وتؤمن كذلك بشرعه فننقاد له انقياداً تاماً لأنك تعلم أن ما قضاه الله عز وجل فهو لحكمة .

نرجع إلى الآية :

« لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم »
العليم :

أولاً ما هو العلم : قال العلماء العلم إدراك الشيء على ما هو عليه .

(١) سورة المائدة الآية : ٩٨ .

فمن لم يدرك فليس بعالم ومن أدرك الشيء على غير ما هو عليه فليس بعالم ويسمى الأول جاهلاً جاهلاً بسيطاً ويسمى الثاني جاهلاً جاهلاً مركباً .

ومن أدرك الشيء على ما هو عليه فهو عالم

علم الله سبحانه وتعالى محيط بكل شيء بالماضي والحاضر والمستقبل . محيط بالماضي فلا ينسى وبالحاضر وبالمستقبل فلا يجهل ولهذا قال موسى لما قال له فرعون « فما بال القرون الأولى » ^(١) قال « علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى » ^(٢) لا يضل لا يجهل ولا ينسى ما علمه أولاً فالله سبحانه وتعالى يعلم ما كان ويكون ولو كان كيف كان يكون علم الله محيط بكل شيء جملة وتفصيلاً قال الله تعالى :

« لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً » ^(٣) وهذا مجمل . أما التفصيل فاستمع إلى قوله تعالى :

« وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » ^(٤) وقال تعالى : « يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » وقال تعالى « ونقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه » ^(٥) .

إذن علم الله محيط بكل شيء جملة وتفصيلاً فى الحاضر والماضي والمستقبل .

ما الذى يفيد الإيمان بعلم الله من الناحية المسلكية ؟ يفيد أن الإنسان إذا علم بأن الله عالم بكل شيء أوجب له أن يخشى الله بقلبه لأن القلب لا يعلم به أحد إلا الله ولذا لن تضمر فى قلبك شيئاً يغضب الله أبداً لأنك مؤمن بأن الله عالم مطلع وأنت تخشى الله كذلك لا تنوى سوءاً بأحد إذا علمت بأن الله تعالى يعلم لأنك حتى إن أخفيت نية سوء عمّن تريد به سوء فإن

(١) سورة طه الآية : ٥١ .

(٢) سورة طه الآية : ٥٢ .

(٣) سورة الطلاق الآية : ١٢ .

(٤) سورة الأنعام الآية : ٥٩ .

(٥) سورة « ق » الآية : ١٦ .

الله يعلم ذلك وسيحاسبك على هذا فالإيمان بالعلم علم الله من أسباب صلاح الباطن لأن العلم يكون حتى في الخفيات فإذا أمنت بهذه فإنه سوف يصلح قلبك وثق أنه إذا صلح القلب صلحت الجوارح لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) ولهذا ينبغي لنا أن نعتنى بصلاح القلوب قبل صلاح الجوارح .

لأن القلب هو المدبر للبدن فإذا صلح صلح البدن وإذا فسد فسد البدن ولهذا لما حدث الرسول عليه الصلاة والسلام (بأنه ما من قلب من قلوب بني آدم إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن يصرفه كيف يشاء) قال صلى الله عليه وسلم (اللهم يا مصرف القلوب صرف قلبي إلى طاعتك) يقول الرسول . فكيف بنا قلوب مائلة ذاهبة هالكة لها هوى يخالف الشرع ومع ذلك فكأن قلوبنا على أصغى ما يكون بل إنك لتعجب أن ترى شخصاً على منكر ظاهر فتقول يا أخى اتق الله فيقول لك التقوى ها هنا ، ويشير إلى صدره . والذي قال التقوى ها هنا الرسول عليه الصلاة والسلام . نقول لمثل هذا لو اتقى القلب لاتقت الجوارح لأن الذى قال التقوى ها هنا قال (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) . ولهذا ينبغي للإنسان أن يكون دائماً مع قلبه يغسله وينظفه دائماً فأخطر ما يكون على الإنسان عمل القلب ولهذا أحدثكم بحديث وإن كان مخيفاً لكن لعل الله أن يجعل فيه خيراً (كان رجل مع الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة من الغزوات وكان لا يدع للعدو شاذة وفاذة إلا قضى عليها - شجاع مقدام مؤثر - فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن هذا من أهل النار عظم ذلك على الصحابة وشق عليهم كيف يكون هذا الرجل من أهل النار فقال رجل من الصحابة والله لألزمه . فأصيب هذا الرجل بسهم فجزع فأخذ بذباب سيفه ووضع بين ثناييه ثم اتكأ عليه حتى خرج السيف من ظهره ومات) إذن خاتمته أن قتل نفسه وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم أنه من قتل نفسه بشيء فإنه يعذب بها في نار جهنم خالداً مخلداً . فجاء الرجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال أشهد إنك رسول الله قال وبم قال إن الرجل الذى قلت إنه من أهل النار حصل منه كذا وكذا . فقال النبي صلى

الله عليه وسلم (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار) .

هذا يوجب للإنسان الخوف والقلق وأن يكون دائماً مع قلبه ينظفه ويظهره من الشرك من الشك من النفاق من الحقد من العداوة للمسلمين من البغضاء وهكذا لأن القلب هو الذى عليه المدار .

يقول صلى الله عليه وسلم (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار) لكن كيف يخذل الله هذا الإنسان العامل بعمل أهل الجنة مع أن الله أكرم الأكرمين فكيف يخذل الله هذا الإنسان ؟ الجواب : لأن فى قلبه سرّاً خبيثاً هو الذى أودى به إلى الهلاك فلا بد من تطهير القلوب .

يقول الله عز وجل :

« لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم *
يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له
بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » .

لما نزلت هذه الآية كان رجل من الصحابة خطيباً مصقعاً من خطباء النبى صلى الله عليه وسلم هو ثابت بن قيس بن شماس رضى الله عنه لما نزلت هذه الآية وكان خطيباً يتكلم بين يدي الرسول عليه الصلاة والسلام بالخطب القوية بقى فى بيته لا يخطب ولا يرقأ له دمع يبكى ليلاً ونهاراً ففقدته النبى صلى الله عليه وسلم وكان من عناية النبى صلى الله عليه وسلم وحسن رعايته لأصحابه أنه إذا فقد أحداً سأل عنه وهكذا ينبغى للشيخ المدرس أن يتفقد طلابه وللاب أن يتفقد أولاده وأهله كل راع مسئول عن رعيته - فسأل عنه قالوا يا رسول الله إنه منذ نزلت هذه الآية « يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى » وهو فى بيته يبكى فأرسل إليه النبى صلى الله عليه وسلم فقال له (إنك تعيش سعيداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة) سبحان الله الخوف صار سبباً للأمن هو خائف من عذاب الله « أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » فبين له الرسول صلى الله عليه وسلم أنه ليس من هؤلاء وأن عاقبته أن يقتل شهيداً ويدخل الجنة ولهذا نحن نشهد الآن أن ثابت بن قيس رضى الله عنه من أهل الجنة لأن النبى صلى الله عليه وسلم

شاهد له وفعلًا وقع فإن هذا الرجل قتل شهيداً فى واقعة اليمامة وكان له قصة غريبة لما قتل مر به رجل من الجيش وكان عليه درع وكأنه أعجبه الدرع فسلبه وأخذ الدرع ثم ذهب به إلى رحله ووضعه تحت بورمة (وهى قدر من خزف) وفى الليل رأى رجل من أصحاب ثابت بن قيس رآه فى المنام فأخبره أنه مر به رجل من الجيش وأخذ درعه ووضعه تحت بورمة وحوله فرس يستن وأوصى بوصية بلغها قائد الجند خالد بن الوليد إلى أبى بكر فلما أصبح الرجل ذهب إلى المكان الذى وصفه ثابت بن قيس ووجد البورمة ووجد تحتها الدرع ووجد عندها الفرس يستن ثم أخبر القائد ونقل الوصية إلى أبى بكر ونفذ وصيته ويقال إنه أول شخص نفذت وصيته بعد موته) لأن الوصية لا تنفذ إلا إذا أوصى بها الإنسان وهو حى لكن بعد وفاته لا تقبل ولهذا نسمع كثيراً عن الأموات يأتون إلى أهلهم ويقولون أنقذونا بماء أنقذونا بطعام فيضيق صدر الرائي ويقول لعل هذا الميت يعذب ويحتاج إلى طعام وشراب ولكننا نقول لا تكن فى قلق قد يكون هذا من ضرب الأمثال من الشيطان لأن الشيطان يستطيع أن يتصور بصورة أى إنسان فى المنام إلا صورة واحدة صورة النبى صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يتمثل بها الشيطان أما غيره فقد يتمثل الشيطان بصورة أبىك أو عمك أو أخيك أو ابنك ويأتى بالأشياء التى ترعجك لأن الشيطان حريص على إزعاج بنى آدم .

أقول إن هذه الآية « يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى » معناها أن لا تجعل صوتك أعلى من صوت الرسول فإذا كان الرسول يقول لك بصوت منخفض فاجعل صوتك أخفض منه .

ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض » يعنى عند مناداته لا تصرخ كما تصرخ لو ناديت زميلك ، خاطبه بأدب يليق به صلى الله عليه وسلم فى سورة النور قال الله عز وجل :

« لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا » (١) .

وأحد معنى الآية مثل شخص من الناس أقول له يا فلان باسمه يا عبد

(١) سورة النور الآية : ٦٣ .

الله يا عبد الرحمن يا بكر يا خالد يا على وما أشبه ذلك لكن الرسول عليه الصلاة والسلام لا أقول يا محمد بل أقول يا رسول الله يا نبي الله وما أشبه ذلك « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا » وهذا أحد معنَى الآية .

والمعنى الثانى : إذا دعاكم فأجيبوه ولا تجعلوه كدعاء بعضكم بعضاً إذا دعاك صاحبك فأنت بالخيار إن شئت فأجب وإن شئت فلا تجب بل أجب كما قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ »^(١) ثم قال « أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » يعنى نهيناكم عن هذا كراهة أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون لأنه قد يحبط عمل الإنسان وهو لا يشعر وكم من كلمة واحدة أوقعت صاحبها بالكفر فهو بها فى النار والعياذ بالله .

ما يستفاد من هاتين الآيتين :

أولاً : تحريم التقدم أو التقديم بين يدى الله ورسوله .

قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » ثم أعقبها بقوله « وَاتَّقُوا اللَّهَ » لئلا يظن الظان أن النهى هنا للكرامة .

ثانياً : تحريم البدع فى الدين فإن المبتدع مقدم بين يدى الله ورسوله فالمبتدع مشرع فى دين الله مالم يس منه .

ثالثاً : إثبات اسمى السميع والعليم لله عز وجل لقوله « إِنْ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » واعلم أن من القواعد المقررة أن اسم الله عز وجل إذا كان متعدياً فإنه لا يتم الإيمان به إلا بأمور ثلاثة :

(١) إثباته اسماً لله .

(٢) إثبات الصفة التى تضمنها هذا الاسم .

(٣) إثبات المعنى المتعلق بها يعنى الأثر المترتب عليها .

أما إذا كان الاسم غير متعد بل هو لازم فإنه لا يتم الإيمان به إلا بإثباته اسماً لله وإثبات المعنى الذى دل عليه لأنه ليس له معنى يتعلق به خارج عن

(١) سورة الأنفال الآية : ٢٤ .

ذات الله مثاله (الحى)

فلا يتم الإيمان به إلا بإثباته اسماً لله وإثبات المعنى الذى دل عليه وهو الحياة .

رابعاً : تحريم رفع الصوت فوق صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعالى : « لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى » وفيها التحذير من هذا غاية التحذير وأن الإنسان ربما يحبط عمله برفع صوته على رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقوله « أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » .

خامساً : تحذير الإنسان من الأفعال أو الأقوال التى قد تخفى وقد تكون سبباً لكفره وشركه وهو لا يشعر لقوله : « أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » والعمل لا يحبط إلا بالكفر لقول الله تعالى : « ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (البقرة : ٢١٧) .

* * * *

من سورة (ق)

تلك السورة العظيمة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بينها وبين سورة (اقتربت) في المجامع الكبار ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هاتين السورتين في صلاة العيدين لما يتضمنانه من المواعظ العظيمة التي تلين لها القلوب القاسية ، في هذه السورة العظيمة أقسم الله عز وجل بالقرآن العظيم بصفته القرآن المجيد ، والمجد هو العظمة والعزة والرفعة ، وهذا القرآن يعلو ولا يُعلى ، ومن تمسك به فإنه يعلو ولا يُعلى ، ثم تحدث الله عز وجل عن أولئك المكذبين الذين أنكروا البعث : « بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذَرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا - يعني أن نرجع ونحيا بعد أن متنا وكنا تراباً - ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ »^(١) ، ولكن الله عز وجل استدل على إنسان ذلك الرجوع بأمور حسية معقولة ، وأدلة برهانية معلومة .

استدل الله تعالى على إنسان ذلك بأنه ينزل من السماء ماء مباركاً فينبت به جنات وحب الحصيد ، ينزل على الأرض الهامدة التي ليس فيها شجر حتى ، ولكن الله تعالى يجعل من هذا الماء ، يجعل منه ، ذلك الحب الحصيد الذي يبلغ منتهاه إلى الحصاد ، والنخل باسقات ترتفع في أجواء السماء لها طلع نضيد رزقاً للعباد فيحيى به الأرض بعد موتها .

يقول الله عز وجل : « كَذَلِكَ الْخُرُوجُ »^(٢) فإن القادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على أن يحيى الموتى بعد موت .

واستمع إلى تفصيل ذلك في قوله تعالى ومن آياته : أنك « تَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ » ، إن الذي أحيها « يُخْيِي الْمَوْتَى وَأَنْهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »^(٣) ، ثم بين الله عز وجل أن تكذيب

(١) سورة ق : الآية ٢ ، ٣ .

(٢) سورة ق : الآية ١١ .

(٣) سورة الحج : الآية ٥ ، ٦ .

هؤلاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بغريب ولا يبدع على بنى آدم ، فإنه قد كذب قبلهم قوم نوح وكذلك غيرهم من أتباع الرسل ، ثم تحدث الله عز وجل عن برهان آخر ألا وهو خلق الإنسان أول مرة فإذا كان الله تعالى لم يَغَى بخلقه أول مرة فهو قادر على أن يخلقه مرة أخرى : « أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ »^(١) ، ثم يبين الله عز وجل أنه خلق الإنسان وأنه جل وعلا (يعلم ما توسوس به نفسه) ، فما تحدثك به نفسك قبل أن ينطق به لسانك فإن الله تعالى يعلمه .

فاحذر يا أخى احذر أن تخفى فى نفسك ما لا يرضاه الله عز وجل فإن هذا الذى تخفيه فى نفسك فيكون الحساب عليه يوم القيامة : « يوم تبلى السرائر »^(٢) ، « أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ »^(٣) ، إن الحساب فى الآخرة على ما فى القلوب ، أما فى الدنيا فإن الأحكام على ما فى الظاهر ، لأنه ما يعلم ما فى القلوب إلا الله عز وجل ، ولكن فى يوم القيامة تختبر السرائر ويحصل ما فى الصدور ، ثم قال الله عز وجل : « نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مَن حَبَلَ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ »^(٤) ، أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد ، وحبل الوريد هو ذلك العرق الغليظ الذى يخرج من القلب ويرجع إليه ، فالله عز وجل بملائكته أقرب إلى الإنسان من هذا الحبل ؛ لأنه قال : « أَقْرَبُ إِلَيْهِ مَن حَبَلَ الْوَرِيدِ إِذَا يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ » ، فجعل هذا القرب جعله معلقاً مقبداً فى هذا الحال : « إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ » .

وهذا دليل على أن هذا القرب قرب الملائكة الذين يتلقون ما يعمل به بنو آدم ، ويدل على هذا أن قرب الله عز وجل بنفسه لا يكون إلا لمن دعاه أو عبده فقط فلا يكون لكل إنسان « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَأُنْصِرْ أَكْرَبُ أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ »^(٥) ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم حين

(١) سورة ق : الآية ١٥ .

(٢) سورة الطارق : الآية ٩ .

(٣) سورة العاديات : الآية ٩ ، ١٠ .

(٤) سورة ق : الآية ١٦ ، ١٧ .

(٥) سورة البقرة : الآية ١٨٦ .

رفع الصحابة أصواتهم بالذكر : « أربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا - إنما تدعون سميعا قريبا - إن الذي تدعونه أقرب إلى أحكم من عنق راحلته » (١) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد) (٢) .

ولم يرد القرب ، والقرب أى قرب الله عز وجل لعبده إلا فى حال الدعاء ، وحال العبادة أما القرب العام فإن قرب به بملائكته كما قال الله تعالى : « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ » ، وقال الله عز وجل : « فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُوفُ * وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ » (٣) وهذا قرب به تعالى بملائكته الذين ينزلون لقبض روح الإنسان ، ثم قال الله عز وجل : « إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ » ملكان يكتبان على الإنسان كل ما قال وكل ما فعل من خير أو من شر .

أخى المسلم تأمل لو كان لديك جهاز مسجل مصور يسجل ما تقول ويصور ما تفعل ثم يُبعث به إلى الأمير أو السلطان ليحاسبك على ما رأى وعلى ما سمع من هذا الجهاز ، هل يمكن أن تقول قولاً يغضب الأمير أو السلطان ؟ إذن فكل ما يفعله وكل ما تفعله فإنه مسجل عليك وسوف ينشر لك يوم القيامة كما قال الله عز وجل : « وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » (٤) « إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » ، فمعنى (ما يلفظ من قول) تدل على العموم الأكبر الذى لا يمكن أن يخفف شىء من أفراده ذلك ؛ لأنه جاء فى سياق النفى وأخفض (بمن) التى هى زائدة إعراباً وليست زائدة المعنى « مَا يَنْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ

(١) رواه البخارى فى كتاب التوحيد - باب (٩) .

(٢) رواه مسلم فى كتاب الصلاة . شرح النووى ٢٠٠/٤ .

(٣) سورة الواقعة : الآيات ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ .

(٤) سورة الإسراء : الآيتان ١٣ ، ١٤ .

عَتِيد » ، فإذا تكلمت بأى كلمة وبأى قول فلديك رقيب حاضر يكتب كل ما تقول من خير أو من شر .

ولما مرض الإمام أحمد رحمه الله : (مرض مرضًا شديدًا جعل يَنْزُ من المرض دخل عليه بعض أصحابه فقال له يا أبا عبد الله إن طائوسًا وهو أحد التابعين يقول : إن المريض إذا أَنْ فَإِنَّهُ يُكْتَبُ أَنِينُهُ فِي مَرَضِهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْنِهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » . فحتى أنين المريض يُكْتَبُ ، فأمسك أبو عبد الله الإمام أحمد عن الأنين وصار لا يئن في مرضه . هكذا أئمتنا يعظمون الله عز وجل ، ويعظمون كل ما قرره الله عز وجل في كتابه وبينه لعباده .

فلو أننا نظرنا إلى ما نقوله في أيامنا في صلواتنا ومع أصحابنا ومع أقوامنا ، لو نظرنا إلى هذه الأقوال الكثيرة التى هى غير محتاط لنا لوجدنا أننا نفرط في أقوال عظيمة تذهب سدى لا ننتفع منها بل ربما نتضرر بها ، ولقد قال نبينا وإمامنا وقودتنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت)^(١) فيما أن يقول خيرًا تنتفع به عند الله عز وجل ، وإما أن تصمت حتى يتم بذلك إيمانك ؛ لأنك إذا تكلمت وأطلقت لسانك فما أكثر خطأك وما أعظم زلتك : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْنِهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » .

وبعد خلق الإنسان وبعد عمله وبعد كسبه فى هذه الدنيا فما هى النهاية . استمع إلى قوله تعالى : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ » إنها سكرة ليست سكرة شراب ولا سكرة هوى ولا سكرة عشق ولا سكرة مال ولا سكرة رئاسة ولكنها سكرة الفراق ، سكرة فراق الدنيا ، التى يشعر الإنسان بها أنه فارق الدنيا ، فارق دار العمل فى هذه الحال .

يسكره ؛ لأنه فارق أمه وأباه أو زوجته وأولاده ، لكنه يسكره ؛ لأنه فارق دار العمل : « حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ »^(٢) فلا يقول أرجعون لعلى أرجع إلى زوجتى ،

(١) رواه البخارى فى كتاب الأدب - باب (٣١) - حديث (٦٠١٨) .

(٢) سورة المؤمنون : الآيتان ٩٩ ، ١٠٠ .

أو إلى أمي ، أو إلى أبي ، أو إلى والدي ، أو إلى صديقي ، ولكن يقول :
« ارجعون لعلّي أعمل صالحًا فيما تركت » .

يقول الله عز وجل : « كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ » .

أقول تذكر وأقولها لنفسي أسأل الله تعالى أن يلين قلبي وقلوبكم . فهذه الآية : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ » هذه السكرة التي لا تدرى متى تنزل بك ، فلا تدرى أنتزل بك صباحًا أم مساء ، لا تدرى أنتزل بك عن قريب أم عن بعيد ، لا تدرى أنتزل بك وأنت على فراشك ، لا تدرى بك وأنت على كرسي مكتبك ، لا تدرى أنتزل بك وأنت على سيارتك تقصد عملك ولكن يحال بينك وبينها .

أيها المؤمن أيها الموقن إنه لا يمكنك أن تتكر الموت ؛ لأن الموت مشاهد محسوس ، ولكن يأخذك التسويف والتفريط والإهمال ، حتى تستبعد وقوع الموت وما هو ببعيد .

فإني أدعو نفسي وإياكم أن نتذكر دائما هذه السكرة « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ » ، و (ما) إما أن تكون موصولا أى ذلك الذى كنت تحيد منه وتفر عنه ولكن « قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم »^(١) .

أو تكون (ما) النافية أى ذلك الذى لا محيد لك عنه ؛ وكلنا يعلم أن هذا هو غاية كل إنسان ثم ذكر الله عز وجل الغاية العامة فقال : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ » والذى ينفخ فى الصور هو إسماعيل أحد الملائكة الذين يحملون العرش ، فإذا أمره الله عز وجل أن ينفخ فى هذا الصور سمع الناس صوتًا عظيمًا يفزعون منه ثم يصعقون ويموتون « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ نَظُرُونَ »^(٢) قيام من قبورهم ينظرون ماذا حدث .

(١) سورة الجمعة : الآية ٨ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٦٨ .

« فإذا نفخ في الصور » فإنهم يخشرون إلى الله عز وجل ليقضى بينهم بحكمه قال الله عز وجل : « ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ » هذا اليوم ليس وعيد فقط بل هو يوم وعد ووعد ، يوم وعد للمتقين ، ووعد للكافرين ، ولكنه عز وجل قال : « ذلك يوم الوعيد » ؛ لأن هذه السورة افتتحت بشأن من ينكر البعث ويكذب الرسل ، وكان المقام البلاغى يقتضى أن ينكر ذلك الجانب أعنى جانب الوعيد قال : « ذلك يوم الوعيد * وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد * لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » .

والله إننا في غفلة من هذا ، إننا غافلون في دنيانا لاهون عن آخرتنا ، وسوف نرى ببصر قوى حديد ما يكون يوم القيامة إذا جاء ذلك اليوم : « ذلك يوم الوعيد * وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد * لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ثم ذكر الله تعالى بأخر هذه السورة مآل كل إنسان وذكر أن الناس ينقسمون إلى قسمين :

قسم يكون من أهل النار - نعوذ بالله منها ، وقسم يكون من أهل الجنة ، فأما أهل النار فإن الله تحدث عن دارهم قال : « يَوْمَ نَقُولُ لَجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ » فلا تزال يلقى فيها وهى تقول : « هل من مزيد » وهذا الاستفهام للطلب وليس للنفي كما زعم بعض المفسرين ولكنه للطلب ، تطلب الزيادة ، ولكن رحمة الله عز وجل سبقت غضبه فيضع عليها جل وعلا رجله حتى ينزوى بعضها إلى بعض وتقول قط قط^(١) . أى حسبى حسبى ، كفاية كفاية ، أما الجنة وأسأل الله تعالى أن يجعلنى وإياكم من أهلها تقرب للمتقين غير بعيد : « وَأُزِلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ » فهذه أربعة أوصاف « لكل أواب حفيظ » « من خشى الرحمن بالغيب » « وجاء بقلب منيب » ، أما (الأواب) فهو الرجاء إلى الله عز وجل من ذنوبه إلى طاعة مولاه ، (حفيظ) أى حافظ لأوامر الله لا يخل بها ولا يتجاوزها وهو جامع بين الرجوع من المعصية وكل بنى آدم خطاء « وخير الخطائين التوابون » - وبين حفظ حدود الله عز وجل لا يتجاوز

(١) رواه البخارى فى كتاب التوحيد - باب (٧) - حديث (٧٣٨٤) .

ما أمره الله به بل يأتي به كاملاً بحسب استطاعته « من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب » أى خاف الله تعالى بالغيب ، والخشية أخص من العلم ، فكل خشية علم وليس كل خوف خشية ، إذ إن الخشية لا تكون إلا مع العلم كما قال الله تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »^(١) أى العالمون بالله عز وجل ، وليس العالمون بالطبيعة فإن من العالمين بالطبيعة من هو أكفر خلق الله بالله ، ولكن المراد العالمون بالله سبحانه وتعالى لما له من الأسماء والصفات والأحكام الكونية والشرعية المتضمنة للحكمة البالغة : « من خشى الرحمن بالغيب » هل المراد أنه يخشى الله إذا كان منفرداً فى سوقه أو بيته أو بره أو بحره ، أو المراد ما هو أعم من ذلك ؟ بل المراد ما هو أعم من ذلك ، يخشى الله فى الوحدة ، ويخشى الله بالغيب أى بما غاب عن الناس مما يكنه فى صدره فهو خاش لله عز وجل ظاهراً وباطناً ، وكثير من الناس نسأل الله أن يعيننا وإياكم من أحوالهم يخشون الله عز وجل ظاهراً .

فتجده أمامك يقوم مقام الخاشع العابد الذليل ، ولكن قلبه متكبر جبار والعياذ بالله .

أما من خشى الله بالغيب وكان قلبه كظاھرہ يخشى الله ظاهراً وباطناً وجاء بقلب منيب ، ولم يقل وكان ذا قلب منيب وإنما قال : « وجاء بقلب منيب » إشارة إلى أن تلك الإنابة امتدت به حتى الموت حتى لقي الله عز وجل . فهذه الأربعة الأوصاف هى أوصاف أهل الجنة الذين يقال لهم : « ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ » ومن المزيد الذى نادى ربنا عز وجل النظر إلى وجهه الكريم .

اللهم ارزقنا النظر إلى وجهك الكريم ، والشوق إلى لقائك فى غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة اللهم اجعلنا ممن وفق ليلة القدر ، واستكمل فيها عظيم الثواب والأجر ، ونسألك اللهم أن تعيد علينا شهرنا ونحن فى أعز ما يكون ، وفى آمن ما يكون ، وفى أقوى إيمان ما يكون ، وفى أحسن عمل صالح ما يكون يارب العالمين .

(١) سورة فاطر : الآية ٢٨ .

ثم قال الله تبارك وتعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ » وهذا من الأدلة على إمكان البعث الذى أنكره أولئك المكذبون ؛ لأن من خلق هذه السموات العظيمة والأرض وما بينهما فى هذه السموات العظيمة والأرض وما بينهما فى هذه المدة الوجيزة بدون أن يلحقه جل وعلا لغوب وتعب ؛ لأنه كامل القوة وخلقها الله جل وعلا فى ستة أيام مع أنه قادر على أن يخلقها فى لحظة واحدة : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »^(١) ؛ لأن حكمة الله عز وجل تقتضى أن تناط الأمور بأسبابها ، وهذا التكوين العظيم بهذه المخلوقات العظيمة لابد لها من أسباب يترتب بعضها على بعض حتى تصل إلى درجة الكمال وفى قول الله تعالى : « وما بينهما » دليل على أن ما بين السموات والأرض أمر عظيم كبير ؛ لأنه ذكر معادلاً لخلق السموات والأرض ، بينما نحن نظن أنه ليس بينهما إلا ذلك الهواء وتلك النجوم ، ولكن بينهما أموراً عظيمة بين السموات والأرض استحققت أن تكون عظيمة عذيلة لخلق السموات والأرض : « فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ » والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم اصبر على ما يقولون من إنكار البعث وغيره من تكذيبك لا تتضجر فإنك على ذلك والعاقبة لك .

وهكذا نقول لكل من دعا إلى الله عز وجل اصبر على ما يقال لك وتحمل فإن العاقبة للمتقين : « أَلَمْ * أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ »^(٢) .

إنك سوف تلاقى من يرد دعوتك ، ومن يسخر بك ، ومن يستهزئ ، ولكن هذا كله يذهب جفاءً إذا قابلته بالصبر والاحتساب . وأنت إذا قوتلت أو إذا أوديت فى ذلك فإنما هو فى سبيل الله عز وجل ، لما أدميت أصبع النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة أحد قال النبى صلى الله عليه وسلم : هل أنت إلا أصبع دُميتى وفى سبيل الله ما لقيتى^(٣) .

(١) سورة يس : الآية ٨٢ .

(٢) سورة العنكبوت : الآيات : ١ - ٣ .

(٣) رواه البخارى فى كتاب الأدب - باب (٩٠) - حديث (٦١٤٦) .

فكل ما يلقاه الإنسان فى الدعوة إلى الله عز وجل والعمل الصالح من الأذى النفسى أو الجسمى أو المالى أو الأهلى فإنما ذلك فى سبيل الله ، فليصبر وليحتسب ولينتظر الفرج من الله عز وجل فإن النصر مع الصبر « إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا »^(١) وإن الفرج مع الصبر « فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ » ولو أننا رجعنا إلى سورة المطففين لوجدنا لمن تكون العاقبة ، يقول الله عز وجل : « إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * - أى فى الدنيا - وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ * - أى استهزاء وسخرية - وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ » ونحن فى عصرنا هذا لا يقال للدعاة إنكم ضالون ولكن يقال إنكم رجعيون كل من تمسك فإنه يقال له عند هؤلاء رجعى ، والكلمة وإن اختلفت فى اللفظ فالمعنى واحد .

« وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ »^(٢) فما هى العاقبة ؟

استمع إليها « فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالْيَوْمَ يَعْنَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ - مِنَ الْكَفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ » وهذا هو الضحك الذى لا بكاء بعده .

أما ضحك أولئك المجرمين فإن بعده البكاء الذى لا يبطل دمه . نسأل الله العفو والسلامة .

قال الله لنبيه : « فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ * وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ »^(٣) .

وهذه الجملة لا يمتري عاقل فى أنها تهديد لهؤلاء المكذبين ، فانه أعلم بما يقولون ، وسوف يحاسبهم عليه « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » أى بحفيظ

(١) سورة الانشراح : الآية ٦ .

(٢) سورة المطففين : الآيات ٢٩ ، ٣٢ .

(٣) سورة ق : الآيات ٣٩ - ٤٥ .

ووكيل « فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ » فالقرآن إنما يتذكر به من يخاف وعيد الله أما من كان مكذبًا معرضًا مستكبرًا فإنه « إِذَا تُثْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا - آيَاتُ اللَّهِ - قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » ولم ينتفع بها ، وهذا بخلاف المؤمن فإنه يرى أن هذا الكلام أعظم الكلام وأنفعه للقلب والفرد والمجتمع .

أسأل الله تعالى أن يجعلني وإياكم ممن يتذكر بالقرآن وينتفع به ويتلوه حق تلاوته إنه سميع قريب . والحمد لله رب العالمين وأصلى وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وبعد هذا الكلام الموجز على هذه الصورة أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعله فاتحة خير لنا ولكم .

من سورة الطور

قال الله تعالى : « فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ * أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * - إلى آخر قوله - وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ » إلى آخر السورة^(١) .

فإن في هذه الآية العظيمة أمر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يذكر الناس ، وبماذا يذكرهم ؟ بالذكر ؛ ألا وهو كتاب الله عز وجل ، وما جاءت به سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم يبين أنه بنعمة الله عز وجل عليه بهذا الوحي العظيم لم يكن من الكهنة ، ولا من ذى الجنون وكان النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يوحى إليه يسميه أهل مكة الأمين ويأتمنونه أعظم ائتمان ، ولما من الله عليه بالوحي صاروا والعياذ بالله أعداء له ، يرمونه بكل لقب عيب ، فقالوا إنه شاعر وكاهن ومجنون وساحر وكذاب وغير كذاب وغير ذلك ، مما ألحقوا به النبي صلى الله عليه وسلم من الألقاب السيئة تنفيراً للناس عن دعوته وتهجيناً له لكن الله عز وجل يقول له ذكر : « ما أنت بنعمة بربك بكاهن ولا مجنون » والكاهن هو الذى يخبر عن الغيب ؛ يخبر عما يكون فى المستقبل ، وكان الكهنة فى الجاهلية قوماً يتصلون بالشياطين الذين يسترقون السمع من السماء فيأتى الشيطان إلى صاحبه ويخبره بما سمع من السماء ثم يضيف هذا الكاهن إلى ما أخبر به

(١) سورة الطور : الآيات من ٣٠ - ٤٩ .

من السمع ، يضيف إليه كذبات كثيرة ويحدث الناس بذلك ، فإذا وقع الأمر كما سمع رأيته من الشياطين قال الناس أن هؤلاء يعلمون الغيب فحذروهم وعظموهم وأفاضوا عليهم الأموال والهبات وغير ذلك ، والنبي صلى الله عليه وسلم ليس بكاهن بل يأتيه الوحي من الله عز وجل عن طريق جبريل الأمين وليس بمجنون بل هو أعقل الناس صلى الله عليه وسلم : « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون » يقول هؤلاء المكذبون للرسول صلى الله عليه وسلم إنه شاعر وكذبوا فيما قالوا ، فإن الله عز وجل يقول : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذَكَرَ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ »^(١) قال الله عز وجل : « قل تربصوا فإني معكم من المتربصين » وهذا الأمر للتهديد يهددهم الله عز وجل ، فيقول انتظروا إني معكم من المنتظرين وسوف تعلمون لمن تكون العاقبة فصارت العاقبة للنبي صلى الله عليه وسلم والحمد لله رب العالمين .

وأن النبي صلى الله عليه وسلم ليس على الوصف الذي وصفوه به والواقع أن الأمر هو الثاني ، فإنهم طغاة يعلمون أن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بكاهن وليس بمجنون وليس بساحر وليس بكذاب وليس بشاعر ، ولكن الطغيان والعدوان هو الذي حملهم على تلقيبه بهذه الألقاب السيئة .

ثم قال عز وجل : « أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون * أم يقولون تقوله » أي قاله على الله ، قال الله عز وجل : « بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْنُوا بِحَدِيثِ مَثَلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ »^(٢) إن كانوا صادقين في قولهم : إنك متقوله إنه قولك فإنك بشر ، وإذا كنت بشراً وكان هذا من قولك الذي تقولته على الله : « فليأتوا بحديث مثله » واللام هنا للأمر الذي يراد به التعجيز ، ولكنهم عجزوا ولم يأتوا بحديث مثله ، فدل ذلك على أن هذا القرآن كلام الله وليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم قال تعالى : « أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ » يعني هل هؤلاء خلقوا من غير خالق أم هم الذين خلقوا أنفسهم ، وهذا الدليل العقلي

(١) سورة يس : الآية ٦٩ .

(٢) سورة الطور : الآيات ٣٢ - ٣٤ .

البرهاني على أن لهم خالقًا وهو الله عز وجل يسمى بدليل (السير والتقسيم) ، وذلك لأننا نقول إن هؤلاء الذين يخاطبون النبي صلى الله عليه وسلم هل هم الذين خلقوا أنفسهم ، أم خلُقوا من غير خالق ؟ لا هذا ولا هذا ؛ لأنهم ليسوا هم الذين خلقوا أنفسهم ، إذ إنهم كانوا عدماً قبل أن يوجدوا ، والعدم غير موجود فكيف يوجد غيره ، هل خلقوا من غير خالق بأن جاءوا صدفة أبداً لا يمكن ؛ لأن هذا الخلق لابد له من خالق ، والقاعدة العقلية النظرية أن كل حادث لابد له من محدث .

وأعتقد لو أن شخصا حدثك بأن هناك قصرًا مشيدًا تضطرب فيه الأنهار وتهتز فيه أغصان الأشجار وفيه من كل ما يكمله من فروش وأواني وغيرها ، فلو قال لك قائل إن هذا القصر خلق نفسه وأوجد نفسه لقلت إن هذا نوع من الجنون ، ولو قلت إن هذا القصر جاء صدفة من غير أن يبنيه باني ، لقلت أيضا إنك رجل مجنون ، فكيف يكون هذا القصر من هذا النوع أو بهذا الوصف ويكون بني من غير باني هذا لا يمكن أبداً .

ولما جاء قوم من أهل الإلحاد يحاجُّون أبا حنيفة رحمه الله في وجود الله عز وجل ويقولون إن الله تعالى ليس بموجود فهل لك من دليل تقنعنا به فقال دعوني أفكر ، فتركوه يفكر ثم قال بعد ذلك ؛ إن هناك سفينة جاءت إلى نهر دجلة محملة بالأرزاق ؛ فأرست في الميناء ثم أنزلت هذه الأرزاق على الساحل بدون أن يكون لها ملاح وبدون أن يكون هناك حاملون ينزلون هذه الأرزاق فقال هؤلاء القوم لأبي حنيفة هذا لا يمكن هذا ليس بعقل ، فقال لهم إذا كانت هذه السفينة وهي ليست بشيء بالنسبة إلى الشمس والقمر والنجوم والسماء والأرض لا يمكن أن تأتي بنفسها أو تحمل المتاع بنفسها أو تنزله بنفسها فكيف يمكن أن هذه المخلوقات العظيمة خلقت بدون خالق ، ولهذا قيل لأعرابي بما عرفت ربك ؟ فقال الأثر يدل على المسير ، والبصرة تدل على البعير فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ألا تدل على السميع البصير ؛ فالأثر يدل على المسير ، فلو وجدت أثر أقدام على أرض رملية هل يمكن أن تكون هذه الأقدام من غير سائر عليها ؟ لا يمكن .

ولو وجدت بعرة هل يمكن أن تكون هذه البعرة من غير بعير ؟ لا يمكن .

إذن السماء العظيمة ذات الأبراج العظيمة وهى النجوم العالية الأرض ذات الفجاج الواسعة لما فيها من الجبال والأودية وغير ذلك ، والبحار العظيمة ذات الأمواج ، فالله عز وجل هو الذى خلقها ، فهى تدل على السميع البصير ، يقول الله عز وجل : « أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ » لا هذا ولا هذا .

إذن الذى خلقهم هو الله عز وجل فهل خلقهم رؤساؤهم ؟ هل خلق الإنسان أمه وأباه ؟ أبداً .

إذن لابد أن يكون خالق وراء هذا الخلق ألا وهو الله عز وجل .

(كان جبير بن مطعم رضى الله عنه أحد الأسراء فى بدر فسمع النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية : « أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ » قال رضى الله عنه فكاد قلبى يضيىء من شدة ما رأى من الإقناع والحجة البينة) ، ودخل الإيمان فى قلبه من ذلك الوقت حتى أسلم فى النهاية رضى الله تعالى عنه .

إذن نستدل بهذه الآية الكريمة بدليل عقلى على أن هذا الكون له خالق وهو الله عز وجل أم السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الجواب لا ، فمن الذى خلق السموات والأرض ؟ هو الله ، حتى هم : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » (١) .

ومع ذلك ينكرون شرعه ويكذبون رسوله : « أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ » الجواب لا ، خزائن الله هل هى عندهم لا ؛ والجواب كل ذلك لم يكن .

« أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ » يصعدون فيه إلى السماء ويستمعون ما يحدث فى السماء ؟ الجواب لا ، إن كان لهم سلم .

« فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ » وهل أتى ؟ أبداً .

« أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ » وهذا الاستفهام إنكار ؛ لأن هؤلاء والعياذ بالله يقولون : إن الملائكة بنات الله ، فينسبون الملائكة إلى الله عز وجل بوصفهم بنات لهم مع أنهم هم لا يرضون أن تنسب البنات لهم : « وَإِذَا بُشِّرَ

(١) سورة لقمان : الآية ٢٥ .

أَحَدُهُم بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ « ثم يتردد » أَيْمِسْكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ «^(١) ولماذا يمسكه على هون ؟ أى يبقى هذه البنت على ذل وهوان أو يدسها فى التراب فيدفنها وهى حية .

فهم لا يرضون البنات لأنفسهم ويرضون البنات لله عز وجل ، فأنكر الله عليهم ذلك : « أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ * أَنْ تَسْأَلَهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرِمٍ مُنْقَلَبُونَ » الجواب « قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ »^(٢) والرسول صلى الله عليه وسلم لا يطلب أجراً على ما بلغه من الرسالة وإنما يدعو الناس لمصلحتهم : « أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ » ؟ والجواب لا ليس عندهم علم الغيب وليسوا قد كتبوا مقادير الخلاق ، وإنما الذى عنده علم الغيب وكتب مقادير الخلاق هو الله عز وجل : « أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا » وهذا هو الواقع يريدون كيداً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، يريدون أن ينفروا الناس عنه ، ولكن هذه الإرادة والكيد هل تؤثر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ لا ، ولكن على من تؤثر : « فَأَلْذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ » .

وهنا أتى بالجملة الاسمية للدلالة على أن الكيد ملازم لهم لا ينفكون عنه فهم المكيدون، ولهذا قال الله عز وجل : « إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُوَيْدًا »^(٣) فلم يمضِ إلا سنوات قليلة حتى سحب صناديد هؤلاء المكذبين وكبرائهم وسحبوا جثثا والقوا فى قليب بدرٍ قد جيفوا وأنتوا ، وهذه نتيجة قوله تعالى : « أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ * أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ » ، والجواب لا « سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ » تنزيهاً لله تعالى عما يشركون به هؤلاء الجهلة السفهاء الذين يأتى أحدهم إلى الأرض ، ينزل فيها فى السفر فيختار أربعة أحجار يجعل ثلاثة منها أساسية للقدر يعنى ينصب عليها القدر ويجعل الرابع من هذه الأحجار إله يعبده فهذا سفه لا عقل حتى إن بعضهم ليعجن التمر على صفة تمثال

(١) سورة النحل : الآيات ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) سورة ص : الآية ٨٦ .

(٣) سورة الطارق : الآيات ١٥ - ١٧ .

فيعبده فإذا جاع أكله ، وهذا من السفه العظيم ، ولهذا قال الله عز وجل : « سبحان الله عما يشركون » « وإن يروا كسفا من السماء ساقطا » يعنى عذابا نازلا عليهم لم يصدقوا بذلك ، ولكن يقولون هَذَا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ولا يصدقون بالعذاب ، ونظير ذلك ما حصل فى عصرنا اليوم إذا رأوا كسوف الشمس والقمر قالوا هذا أمر طبيعى لا يحتاج أن نخاف منه ولا أن نفرع إلى الصلاة والذكر، وغفل هؤلاء عن أن الكسوف والخسوف لهما سببان؛ سبب كونى وسبب شرعى جاء عن طريق الوحي ؛ أما السبب الكونى الطبيعى فإن سبب كسوف الشمس حيلولة القمر بينها وبين الأرض ؛ يحول القمر بينها بين الأرض فيظلم الجانب الذى انحجب عنه نور الشمس بظل القمر ، وفى خسوف القمر ؛ سببه حيلولة الأرض بين الشمس والقمر ؛ لأن نور القمر مستفاد من الشمس ، ولهذا كلما قرب القمر من الشمس ضعفت المواجهة بينه وبينها فقلل النور الذى فيه ، وكلما ابتعد عن الشمس كبرت المقابلة بينه وبين الشمس فكبر النور .

وإذا أراد الله عز وجل أن يخسف القمر حالت الأرض بينه وبين الشمس وهذا أمر معلوم ، ولا أحد يشك فيه ، ولكن نقول ما الذى أوجد السبب بحيلولة القمر بين الشمس والأرض وحيلولة الأرض بين الشمس والقمر هو الله عز وجل ، أوجده ليخوف العباد بذلك ، وهذا هو السبب الشرعى الذى أخبرنا عنه الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يمكن أن يعلمه أحد إلا عن طريق الوحي .

أما الأول وهو السبب الطبيعى فهذا تخويف للعباد بهذه الحادثة لا يعلمه إلا من أوحاه الله إليه وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى هذا فإن أولئك القوم الذين يستهونون أمر الكسوف والخسوف ويقول هذا أمر طبيعى لا يهمنا ولا ينبغى أن نهتم به يشابهون هؤلاء المشركين الذين إذا رأوا كسفا من السماء ساقطا قالوا سحاب مَرْكُومٌ ، يقول الله عز وجل : « قَدَرَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِ عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » .

فهذه الآية العظيمة التى إذا قرأها الإنسان استنتج منها صحة ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن الله تعالى وحده هو الخالق ، وهو الذى له الأمر الكونى .

من سورة الواقعة

ابتدأ الله سبحانه فكانت هذه السورة بقوله : « إذا وقعت الواقعة * ليس لوقعتها كاذبة * خافضة رافعة * إذا رجت الأرض رجا * وبست الجبال بسا * فكانت هباء منبثا » . والواقعة هي القيامة ، وقد سمي الله سبحانه هذا اليوم باسماء عظيمة توجب للمؤمن أن يستعد لهذا اليوم الذى يبعث الناس فيه ليجازوا على أعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر ويقول سبحانه : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا »^(١) .

وقد قسم الله سبحانه الناس فى سورة الواقعة إلى ثلاثة أقسام : فالأول هم السابقون ، والثانى أصحاب اليمين ، والثالث أصحاب الشمال .

فقال سبحانه : « والسابقون السابقون » وهاتان الكلمتان كلمة واحدة لكل واحدة معنى وليست هي كلمة مترادفة ، فالسابقون إلى الخير فى الدنيا هم السابقون إلى الثواب فى الآخرة ، فكل من سبق إلى العمل الصالح فى هذه الدنيا فإنه يسبق إلى الثواب يوم القيامة ، ولهذا يمر الناس على الصراط - وهو الجسر المنصوب على جهنم - على قدر أعمالهم ، بحسب قبولهم ومسارعتهم إلى البر واجتناب الشر ، وهؤلاء السابقون هم المقربون إلى الله عز وجل ، ونحن نعلم أن الجنات درجات بعضها فوق بعض حتى قال صلى الله عليه وسلم : (إن أهل الجنة ليتراءون إلى أصحاب الغرف كما يترأى الناس إلى الكوكب الدرى الغابر فى الأفق)^(٢) . أى ينظر إليهم أنوارا تتلأأ عالية جدا لأن لكل درجات مما عملوا .

ثم ذكر سبحانه جزاءهم وجزاء أصحاب اليمين ، ثم جزاء أصحاب الشمال ، أصحاب الجحيم .

(١) سورة الأنبياء : الايه ٤٧ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ١٦٨/١٧ . كتاب الجنة . حديث (١٠ ، ١١) .

وقد بين الله سبحانه وتعالى حال أصحاب الشمال فى هذه الحياة الدنيا ، فقال : « **إنهم كانوا قبل ذلك مترفين** » كانوا مترفين فى الدنيا منعمين ، قد أنعم الله عليهم بالصحة والعافية والمال والأهل والمسكن وغير ذلك حتى صاروا إلى الترف ، ويقال : إن الترف تلف ؛ لأن كل من انغمس فى الترف فإن الغالب أنه يهلك إلا من شاء الله .

« **وكانوا يصرون على الحنث العظيم** » الحنث هو الإثم ، يصرون عليه ولا يبالون به وهو الشرك والكفر بالله .

« **وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون * أو آباؤنا الأولون** » والاستفهام هنا للإنكار ، أى ينكرون أن يبعثوا ويقولون : كيف نبعث ويبعث آباؤنا الأولون ، فيزيدون إنكارا على إنكار والعياذ بالله .

وقد ذكر الله عز وجل أنهم كانوا يتحدثون يقولون ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ، أى فى البعث ، فائتوا بآبائنا الذين ماتوا من قبل . وهذا تحدى مكابرة ؛ لأن الرسل لم يقولوا للناس إن آباءكم سيبعثون فى الدنيا ليكون لهذا التحدى وجه ، بل قالوا إنهم سيبعثون فى الآخرة يوم القيامة .

وقال سبحانه : « **قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم** » فالأولون والآخرين كلهم سيبعثون إلى ميقات يوم معلوم ، وهو يوم قريب يؤخره الله سبحانه لأجل معلوم . « **وما نؤخره إلا لأجل معدود** »^(١) وما أخرى المعدود أن ينتهى ، ولذلك تمر الأيام على الإنسان وكأنها ساعة من نهار وكم يمر علينا من أيام وساعات ودقائق وثوان ولحظات وكأنها لحظة واحدة « **كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار** »^(٢) فما أقرب أن يقال قد مات فلان وانتقل من الدنيا إلى الآخرة ولم يبق لديه إلا العمل الصالح ، ثم إذا بعث فيقول المجرمون ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ، فهى نومة مهما طالّت المدة وهو فى القبر فإذا بالآخرة ويشاهد الإنسان الحق وينقسم الناس فريقين فريق فى الجنة وفريق فى السعير .

(١) سورة هود : الآية ١٠٤ .

(٢) سورة الأحقاف : الآية ٣٥ .

ثم يقول سبحانه : « ثم إنكم أيها الضالون المذبذبون * لا تكونون من شجر من زقوم * فمالتون منها البطون * فشاربون عليه من الحميم * فشاربون شرب الهيم * هذا نزلهم يوم الدين » . نعوذ بالله من هذا المنزل . والخطاب هنا للضالين ، فيقول الله لهم أيها الضالون في عملهم المذبذبون لرسلمهم فهم ضالون في العمل مذبذبون في الخبر .

وشجر الزقوم شجر خبيث الرائحة خبيث الطعم كربه المنظر ، قال تعالى في وصفها : « طلعها كأنه رءوس الشياطين »^(١) يأكلونه تجرعا ، لا عن شهوة ولذة ، ومع ذلك يملأون منها بطونهم وهم مكرهون على هذا ثم يعطشون عطشا شديداً ، وإذا عطشوا فلا يأتيهم الماء ، بل يستغيثون ويسألون ويلحون « وإن يستغيثوا يغاثوا . بماء كالمهل يشوى الوجوه »^(٢) نسأل الله العافية ، كالمهل من شدة حرارته يشوى وجوههم إذا أدنوه إلى وجوههم ليشربوه شوى وجوههم .

وهنا يقول سبحانه : « فمالتون منها البطون * فشاربون عليه من الحميم * فشاربون شرب الهيم » والهيم هي الإبل العطاش ، والإبل تشرب ماء كثيرا لا سيما إذا كانت عطاشا ، وإذا تأملنا ما ذكره الله عن هؤلاء المترفين المصرين على الكفر والتكذيب ، فإن كل عاقل لابد أن يفر من حالهم فراره من الأسد وأن يتجنب كل ترف وتنعم يوجب الكفر والتكذيب .

ثم ذكر الله عز وجل في آخر السورة حال من حضره الموت ، فقال عز وجل : « فلولوا إذا بلغت الحلقوم » أي الروح والنفس ، فهي تخرج من البدن ثم تصعد في الجسم شيئا فشيئا حتى تصل إلى الحلقوم وهو مجرى النفس « وأنتم حينئذ تنظرون » إلى الميت وقد احتضر وضافت عليه الأرض بما رحبت وضافت عليه نفسه ، لا تستطيعون دفعا ولو اجتمع أطباء العالم كله ما استطاعوا أن يدفعوا عنه شيئا .

« ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون » فالملائكة الموكلون بقبض روح هذا المحتضر أقرب إليه من أهله ولكن لا يبصرونهم لأنهم

(١) سورة الصافات : الآية ٦٥ .

(٢) سورة الكهف : الآية ٢٩ .

ملائكة ، عالم غيبى لا يظهرون للشاهد والعيان إلا إذا أراد الله عز وجل أن يظهرهم آية منه .

« فلولاً إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين » ولولا هنا

بمعنى هلا ، وهذا تحضيض مشرب بالتحدى ، أى : إن كنتم غير مجزيين بأعمالكم فردوا الروح التى بلغت الحلقوم لترجع فى البدن ، وهذا لا يمكن أبداً ، ثم ذكر الله سبحانه أن حال هؤلاء المحتضرين ينقسم إلى ثلاث أحوال :

مقربون وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال .

أما المقربون - أسأل الله أن يجعلنى وإياكم منهم - يقول تعالى : « فأما إن كان من المقربين فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ » . ثم ذكر الله سبحانه أصحاب اليمين وأصحاب الشمال . وقد يكذب الإنسان بهذا أو يشك لكن إذا نزل به الموت وعاین الحق عرف الحق .

فى هذه الآيات دليل على إثبات عذاب القبر ، وهو ثابت بالقرآن والسنة وإجماع أهل الحق .

أما القرآن ففى عدة آيات تشير إلى هذا ومنه هذه الآية : « إن كان من المقربين فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ » وهذا يكون عند الاحتضار ، وهذا يدل على أنه يكون منعماً فى قبره : « إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم » فهذا عند الاحتضار ، وهو يدل أنه يعذب فى قبره .

والمسلمون جميعاً يقولون فى صلاتهم : أعوذ بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر . وهذا إثبات له ؛ لأنه لا يستعاذ من شىء غير موجود .

وثبت فى الصحيحين من حديث ابن عباس ، قال : مر النبى صلى الله عليه وسلم بقبرين ، فقال : (إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير ، أما أحدهما فكان لا يستنزه من البول ، والثانى كان يمشى بين الناس بالنميمة)^(١) . فالأول لا يهتم بطهارة نفسه ، ويصيبه البول فلا يغسله ولا يهتم به . والثانى يمشى بالنميمة وهى نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض للإفساد بينهم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يدخل الجنة قتات)^(٢) . أى

(١) صحيح البخارى كتاب الوضوء باب (٥٥) .

(٢) مسلم بشرح النووى ٢ / ١١٢ - كتاب الإيمان .

نمام ، وهو يعذب فى قبره قبل يوم القيامة .

قال أهل العلم : معنى وما يعذبان فى كبير ، أى شاق عليهما . ثم أخذ رسول الله جريدة رطبة فشققها نصفين ، فغرس فى كل قبر واحدة ، فقالوا : لم صنعت هذا يا رسول الله ؟ قال : (لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا) .

وأخذ بعض الناس من هذا الحديث أنه ينبغى أن يوضع على القبر جريدة أو غصن أخضر من أى شجرة ، وهذا أخذ غير صحيح واستدلال غير صحيح ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يسن هذا لأمتة مطلقا ، وإنما فعله حين كشف له عن هذين الرجلين وأنها يعذبان ، ولهذا استغرب الصحابة هذا ، وهذا يدل أنه ليس من سنته أن يفعل هذا مع كل قبر . وأيضا فإنما نعمل هذا حين نعلم أن صاحب القبر يعذب وليس عندنا علم بهذا ، ولهذا إذا وضع الرجل شيئا من هذا على قبر قريب له قلنا له : أنت الآن أول من يقدح فى قريبك وأول من يتهمة ؛ لأن هذه الجريدة لا توضع إلى على قبر من يعذب ، وأنت شهدت عليه أنه يعذب .

وعذاب القبر من أمور الغيب غير المحسوسة ، والإنسان لا يمدح على الإيمان بهذه الأمور إلا إذا لم يشاهدها ؛ لأنه لو شاهدها كان التكذيب بها مكابرة ، ولكن الله سبحانه يمدح الذين يؤمنون بالغيب ، ولم يطلع الله على غيبه أحدا ولا يعلم بها إلا عن طريق الرسل وما كنا نعلمها لولا أن الله أخبرنا بها .

وحول الآيات الأخيرة من هذه السورة حيث قوله سبحانه : « فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ »^(١) ونسأل أولا عن (لا) فى قوله : « فلا أقسم » هل هى نافية أو للتنبيه يقول بعض المفسرين إنها نافية ، ثم اختلفوا فى المنفى فقيل : (لا أقسم) أى لا يحتاج الأمر إلى قسم فإنه أوضح وأبين من أن يحتاج إلى الإقسام عليه ، وعلى هذا فتكون نافية للقسم باعتبار أن القسم هنا لا يحتاج إليه لوضوح أن المقسم عليه ، وقيل إنها نافية والمنفى محذوف تقديره لا صحة ولا قبول لما أنكره

(١) سورة الواقعة الآيات ٧٥ - ٨٠ .

هؤلاء من هذا القرآن الكريم ، وذهب بعض المفسرين إلى أن (لا) هنا ليست نافية ولكنها للتنبيه ؛ لأن ما بعدها أمر هام ينبغي العناية به والتنبيه له ، وهذا القول هو الصحيح ، وأن لا يراد بها تنبيه المخاطب يعنى انتبه لما سيلقى إليك ثم استأنف وقال : « أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » ومواقع النجوم جمع موقع ؛ وهو إما مشارقها ومغاربها ، وإما ما يقع من الشهب التي ترمى بها الشياطين الذين يستمعون الوحي .

ثم قال تعالى : « إنه لقرآن كريم » (إنه) أى هذا القرآن الذى نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى حمى الله السماء من أجله بالشَّهب (لقرآن كريم) والكريم فى كل موضع بحسبه فكرم الرجال يكون ببذل الجاه ، وبذل المال ، وبذل العلم ، وكرم القرآن لما يترتب على التمسك به وعلى تلاوته من الأجر العظيم والآثار الحميدة .

وقد وصف الله تعالى القرآن بأوصاف متعددة فى القرآن :

قال تعالى : « إنه لقرآن كريم * فى كتاب مكنون » والكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ لقوله تعالى فى آية أخرى : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ »^(١) « لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » والضمير فى قوله : (لا يمسّه) يعود على أقرب مذكور وهو الكتاب المكنون ؛ يعنى لا يمس هذا الكتاب المكنون (إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) الذين طهرهم الله وهم الملائكة المطهرون .

وقيل إن الكتاب المكنون هى الصحف التى بأيدي الملائكة لقوله تعالى : « كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * فى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * رَّفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بأيدي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ »^(٢) والقولان لا يتنافيان ؛ لأن كلاً منهما صحيح وكل واحد منهما لا ينافى الآخر .

وأريد أن أضيف إلى إخوانى طلبة العلم قاعدة مهمة فى التفسير وهى : (أن الآية الكريمة إذا كانت تحتل معنيين أو أكثر ولا ينافى أحدهما الآخر ، فإنه يجب أن تحمل على المعنيين جميعاً) ؛ لأن معانى كلام الله عز وجل واسعة ، (أما إذا كانت الآية تحتل معنيين لكن لا يجتمعان فإن الواجب طلب المرجح حتى نرجح أحد المعنيين فنأخذ به وندع الآخر .

(١) سورة البروج : الآيات ٢١ ، ٢٢ .

(٢) سورة عبس : الآيات ١١ - ١٦ .

وهذا المعنى الذى أشرنا إليه الآخر ؛ وهو أن المراد بالكتاب المكنون الصحف التى فى أيدي الملائكة ، وهل ينافى أن يكون المراد به اللوح المحفوظ ؟ لا ؛ لإمكان الجمع ، فالقرآن فى اللوح المحفوظ ، والقرآن أيضا فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة .

وأما من قال من أهل العلم إن الضمير فى قوله : « لا يمسه » يعود على القرآن ، وأن المراد بالمطهرون الإنسان المتطهر من الحدث . القول لا يسقطه اللفظ ولا يساعده المعنى ، أما كونه لا يسقطه اللفظ ؛ لأن القاعدة المقررة فى اللغة العربية : (أن الضمائر وأسماء الإشارة تعود إلى أقرب مذكور) .

وأما كونه لا يساعده المعنى فلأن الله يقول : « المطهرون » والمطهر اسم مفعول ، ولو كان المراد بها المتطهرين لقال : « المطهرون » بكسر الهاء . ومعنى (المطهرون) أى المتطهرين قال الله تعالى : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » وعلى هذا فلا يكون مرجع الضمير القرآن ، ولا يكون المراد بالمطهرون الناس الذين يتطهرون من الأحداث . ولكن إذا قال قائل هل يجوز أن يمس القرآن من ليس بطاهر ؛ يعنى من كان محدثا حدثا أصغر ، أو كان عليه جنابة ؟

الجواب : لا يجوز ، لكنه لا يؤخذ من هذه الآية وإنما يؤخذ من حديث عمرو بن حزم الذى كتبه النبى صلى الله عليه وسلم وهو : (أن لا يمس القرآن إلا طاهر) وهذا الحديث وإن كان مرسلًا ، ونحن نعلم أن المرسل من أقسام الضعيف لكن المرسل إذا كانت له شواهد أو تلقته الأمة بالقبول ألحق بالصحيح ، وهذا الحديث قد تلقته الأمة بالقبول وعملت به فى الديات والزكاة وغيرها ، فيكون هذا الحديث مقبولا مع إرساله .

وهذه قاعدة ينبغى لطالب الحديث أن يعتبر بها وهو أن لا ينظر إلى مجرد السند ، فإن من نظر إلى مجرد السند وظاهر الإسناد قد يصحح من كان منكرا ونحن نعلم أن من شرط الصحيح أن يكون متصل السند غير معلل ولا شاذ فلا بد أن يكون غير معلل ولا شاذ وإلا كان ضعيفا ، وإن كان رجال السند ثقات وكان متصل السند فهنا الحديث المرسل منقطع لكن لما تلقته الأمة

بالقبول صار صحيحاً، فقوله صلى الله عليه وسلم : (لا يمس القرآن إلا طاهر) طاهر من الحدث ، وبعض الناس يقول طاهر من الشرك قال لأن الله عز وجل يقول : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا »^(١) ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : (إن المؤمن لا ينجس)^(٢) فيكون المراد بالطاهر هنا المؤمن ؛ يعنى لا يمس القرآن إلا مؤمن سواء كان متطهراً من الحدث أو ، لا .

ولكننا عندما نعمن النظر فى هذا الحديث يتبين لنا أن هذا التأويل للحديث غير صحيح ؛ لأن الطاهر هو المؤمن الذى تطهر من الحدث بدليل قوله تعالى حين ذكر آية الوضوء ، الغسل والتيمم قال : « مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ »^(٣) وهذا يدل على أن ما قبل أن نتوضأ ونغتسل غير طاهرين ، فيكون طاهر ؛ أى متوضئ ومغتسل من الجنابة ، ولا نعلم أن الشارع يعبر بكلمة طاهر عن المؤمن أو المسلم، وإنما يعبر عن المؤمن بوصف الإيمان « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ »^(٤) « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ »^(٥) ولم يقل إن الطاهرين والطاهرات ، فلم يأت التعبير بالطاهر فى كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم عن المؤمن ؛ لأن وصف الإيمان وصف عظيم أبلغ من وصف الطهارة ، فالطهارة صفة المؤمن ، ولكن الإيمان هو الأصل .

إن فالاستدلال بهذه الآية عل أنه لا يمس القرآن إلا طاهر ، بناءً على أن الضمير فى لا يمس عائد على القرآن ، وأن المراد بالمطهرين المتطهرين استدلال ضعيف ، ونحن فى غنى عن هذا الاستدلال بالحديث : (لا يمس القرآن إلا طاهر) قال الله عز وجل : « تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ »^(٦) هذه الآية أخذ منها علماء أهل السنة إثبات علو الله بذاته : « تنزيل من رب

(١) سورة التوبة : الآية ٢٨ .

(٢) رواه الإمام أحمد ومسلم والنسائى وأبو داود وابن ماجه .

(٣) سورة المائدة : الآية ٦ .

(٤) سورة الأنفال : الآية ٢ .

(٥) سورة الأحزاب : الآية ٣٥ .

(٦) سورة الواقعة : الآية ٨٠ .

العالمين .

إذن أين رب العالمين فهو فوق سبحانه وتعالى ؛ لأن النزول لا يكون إلا من عال ، واستدلوا بها أيضا على أن القرآن كلام الله وكيف ذلك ؟ « تنزيل من رب العالمين » ، فمنه ابتداء وإليه يعود ، لكن لو قال لك قائل إنه لا يلزم من التنزيل أن يكون المنزل صفة للمنزل ، بل قد يكون المنزل خلقا من مخلوقات المنزل مثل : « وأنزلنا من السماء ماء طهورا »^(١) « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج »^(٢) « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد »^(٣) والحديد والأنعام والماء كلها مخلوقة فلا يلزم من نزول الشيء من الله أن يكون غير مخلوق ؛ فما هو الجواب على هذه الشبهة التي أوردها الجهمية والمعتزلة على أهل السنة ؟ .

الجواب أن يقال المنزل قسمان : قسم قائم بذاته ، وقسم لا يقوم إلا بغيره ؛ فالقائم بذاته يكون مخلوقا ، فالماء النازل من السماء نشاهده قائما بذاته والأنعام ثمانية أزواج قائمة بذاتها ؛ والثمانية أزواج من الأنعام هي : (من الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين ، ومن الابل اثنين ، ومن البقر اثنين) ؛ والاثنتان هما الذكر والأنثى .

« وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد » والحديد عين قائمة بنفسها ، لكن القرآن هو كلام الله وليس بعين قائم بذاته ، والكلام لا يقوم إلا بمتكلم ، إذا كان لا يقوم إلا بمتكلم لزم أن يكون الكلام صفة للمتكلم ، وصفات الخالق غير مخلوقة ، كما أن صفات المخلوق مخلوقة ؛ سمع الإنسان وبصره وقدرته كلها مخلوقة ، لكن سمع الله وبصره وقوته وكلامه غير مخلوقة . وبهذا بطلت شبهة هؤلاء الجهمية والمعتزلة ، وتبين أن القرآن كلام الله وأنه صفة من صفاته وأنه غير مخلوق : « تنزيل من رب العالمين » .

وبعض الناس وهم قلة والحمد لله يأخذون بالمصاحف يتابعون قراءة الإمام كانوا كثرة ، والحمد لله صاروا قلة ، وسيكون عملهم هذا عدم إن شاء الله عن قريب ، فهؤلاء الذين يتابعون الإمام لا شك أنهم يريدون خيرا ولكن ليس كل من أراد الشيء يدركه ، وقد قال الشاعر :

(١) سورة الفرقان : الآية ٤٨ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٦ .

(٣) سورة الحديد : الآية ٢٥ .

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

أقول هم يريدون أن يتابعوا الإمام ليكون ذلك أحضر لقلوبهم ولكن يفوتهم في هذا الأمر أشياء من السنة ويقعون في أشياء محظورة فالذى يفوتهم من السنة أولاً : النظر إلى موضع السجود ؛ لأنهم سينظرون إلى المصاحف .

ثانياً : وضع اليد اليمنى على اليسرى على الصدر ؛ لأنهم سوف يمسكون بأيديهم المصحف .

ثالثاً : تمام الاستماع والمتابعة في الواقع ؛ لأنهم إذا كانوا يتابعون الإمام بقلوبهم فهو أخشع مما لو كانوا يتابعون الإمام بأبصارهم ، فإن الإنسان منهم قد تستوقفه آية ، وربما يكون نظره ضعيفاً ضعفاً ما ، والمصحف خطوطه صغيرة فتجده ينظر بتمعن ويدقق النظر لأجل أن يتحقق من صحة الكلمة .

فالإمام يقرأ آية أو آيتين ، وهذا ينظر هذا الحرف هل هو على ما قرأه الإمام أو لم يقرأه ، وهذا لا شك يفوت الخشوع ويوجب كثرة الحركة بدون حاجة ؛ والحركة فتح المصحف وإغلاقه وتقليبه ، وحركة العين من حرف إلى حرف ومن كلمة إلى كلمة ، ومن سطر إلى سطر ومن هذه الصفحة إلى أخرى .

رابعاً : أن من أهل العلم من يقول إن الإمام إذا قرأ من المصحف بطلت صلاته ؛ لأن هذا يوجب حركة العين وهي حركة كثيرة وأنت تتابع الصفحة ، وإن كان هذا القول غير صحيح ولا نوافق عليه لكن ما دام قيل به فإنه يوجب للإنسان الحيلة حتى يتجنب هذا الشيء .

نعم لو كان الإمام ضعيف الحفظ وطلب من أحد المأمومين أن يكون خلفه وتابعه في القراءة لأجل أن يرد عليه خطأ فهذا جائز لدعاء الحاجة إليه .

وقفات مع آيات من سورة الحديد

قال الله تعالى :

« ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » (١) .

المصيبة : قد تكون فى الأرض وهذه مصيبة عامة يدخل فيها المصائب فى النبات المصائب فى العمران المصائب فى المياه المصائب فى الرياح مصائب لا تحصى أنواعها فضلاً عن أفرادها .

المصيبة فى الأنفس قد تكون عامة وقد تكون خاصة . مثل :

مثال العامة : لو أصيب الناس بأوبئة فتاكة هذه مصائب عامة .

مثال الخاصة : أن يصاب الإنسان نفسه بمصيبة فى بدنه فى أهله فى ماله كل المصائب فى كتاب من قبل أن يبرأ الله الخليفة .

وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ فإن الله كتب فى اللوح المحفوظ مقادير كل شئ . فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه . واعلم أنك إذا آمنت بهذا حصلت فوائد عديدة :

أولاً : أن هذا الإيمان يوجب لك الطمأنينة التامة . لأنك تعلم أنه مكتوب ولا بد لكل مكتوب كتبه الله يقع على وفق ما كتبه الله عز وجل ولهذا كان من وصايا النبى صلى الله عليه وسلم . لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال : «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك » وكذلك أيضاً قال عليه الصلاة والسلام (المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) المؤمن القوى فى إيمانه إذ إن القوى صفة للمؤمنين فإذا كانت صفة للمؤمن صار المعنى القوى فى إيمانه (خير

(١) سورة الحديد الآية : ٢٢ .

وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير (
 ما الفائدة في قوله (وفي كل خير) لئلا ينحط قدر المؤمن الضعيف
 ونظير هذا قوله تعالى :

« لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة
 من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى » ^(١) .
 قال هذا لئلا ينحط قدر الذين تأخر إنفاقهم .
 ومن ذلك أيضاً قوله تعالى :

« وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم
 وكنا لحكمهم شاهدين * ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً » ^(٢) قال
 ففهمناها سليمان عرفنا أن سليمان في هذه القضية أصاب ولما كان هذا يخشى
 منه أن ينحط قدر داود قال تعالى : « وكلا آتينا حكماً وعلماً »

وهذا لا شك فيه من بلاغة القرآن والسنة . قال النبي صلى الله عليه
 وسلم : (المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل
 خير) ثم قال (احرص على ما ينفعك)
 وصايا عظيمة (احرص على ما ينفعك في أى شيء في الدين أو في
 الدنيا ؟ الجواب : في الدين والدنيا .

ثم قال (واستعن بالله) لا تعتمد على نفسك إن اعتمدت على نفسك
 وكلت إليها وكلت إلى ضعف وعورة وعجز (واستعن بالله ولا تعجز)
 يعنى لا تكسل فكن حريصاً وكن فعالاً غير عاجز وإن أصابك شيء خلاف ما
 تريد فلا تقل لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل .
 فأنت تفعل السبب وإذا جاء الأمر خلاف ماتريد ففوض الأمر إلى الله وقل
 قدر الله وما شاء فعل .

ثانياً : أن الإيمان بقضاء الله يوجب لنا تمام الرضا بالله رباً : لأنه إذا
 تم رضا الإنسان بالله رباً استسلم لجميع ما يفعله فيه لأنه ربه مالكة يتصرف
 فيه كما يشاء فإذا آمنت بقضائه وقدره فإن ذلك من تمام الرضا بالله رباً .

(١) سورة الحديد الآية : ١٠ .
 (٢) سورة الأنبياء الآيتان : ٧٨ ، ٧٩ .

ثالثاً : أن الإيمان بأن ما أصابنا قد كتب وانتهى ألا يلحقنا الهم لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إن لو تفتح عمل الشيطان) فأنت إذا جاء القدر بعد فعل الأسباب على خلاف ما تريد لا تتعب نفسك بالهم تقول ليتنى فعلت ليتنى فعلت .

ولنضرب لهذا مثلاً رجل مسافر وفى أثناء سفره أصيب بحادث أتلّف سيارته هل هو سيرضى بهذا الحادث . من مقتضى الطبيعة لا يرضى بمقتضى الإيمان بالقدر يرضى ويعلم أن هذا أمر لابد أن يكون إذن لا يلحق نفسه الهم لا يقول ياليتنى ما سافرت أنا لو لم أسافر ما حصل لى هذا ولهذا لما ذكر الله عن المنافقين الذين قالوا « لو أطاعونا ما قتلوا » قال الله « قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » ^(١) بأن الإنسان يدرأ عن نفسه الموت بأسبابه بعد أن كتبه الله . فالحاصل أن قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها »

وإذا آمنا بهذا حصلت لنا هذه الفوائد وقد أشار الله إليها فى قوله « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم »
فذكر الله فائدتين :

- لكيلا تأسوا على ما فاتكم من المحبوبات .
- ولا تفرحوا بما آتاكم من المحبوبات .

لأن الإنسان إذا فاته المحبوب فإنه بمقتضى طبيعته البشرية أن يحزن وإذا حصل له المحبوب فإنه بمقتضى طبيعته البشرية يفرح . لهذا قال « ولا تفرحوا بما آتاكم » فالأمر منه وليس منكم .

فالإنسان بين أمرين فى القضاء والقدر إما أن يفوته محبوبه أو يحصل له محبوبه . وفى حصول المحبوب يفرح وفى فواته يأس فقال الله تعالى

(١) سورة آل عمران الآية : ١٦٨ .

« لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور »^(١) .

وقد ذكر أهل العلم أن الإيمان بالقدر له مراتب أربعة :

الأول : الإيمان بالعلم .

الثاني : الإيمان بالكتاب .

الثالث : الإيمان بالمشيئة .

الرابع : الإيمان بالخلق .

وقد فصلها المؤلف جزاء الله خيراً في مبحث الإيمان بالقدر خيره وشره في هذا الكتاب .

* * * *

(١) سورة الحديد الآية : ٢٣ .

من سورة المجادلة

يقول الله عز وجل : « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ »^(١) وهذه الآية في قصة امرأة جاءت تشتكى إلى النبي صلى الله عليه وسلم زوجها حين ظاهر منها ؛ وكان الظهار على ما يقولون في الجاهلية كان طلاقاً بائناً وقد ظاهر منها إلى أنها بانّت منه فجاءت تشتكى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وتحاوره إى تراجع الكلام فيما صار من زوجها ، والله عز وجل قد أخبر في كلامه هذا أنه قد سمع قول هذه المرأة التي تجادل النبي صلى الله عليه وسلم وتشتكى إلى الله عز وجل وقد أجاب الله عز وجل شكواها وبين حكم الظهار فيما بعد (قالت عائشة رضى الله عنها تعليقا على هذه الآية : تبارك الذى وسع سمعه الأصوات والله إنى لفى الحجرة وإنه ليخفى على بعض حديثها والله جل وعلا من فوق سبع سموات سمعها وهو على عرشه)^(٢) وهذا دليل على سعة سمع الله عز وجل وسعة صفات الله سبحانه وتعالى كلها فى ضمن قوله : « وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ »^(٣) « وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا »^(٤) وما أشبه ذلك فإن جميع صفاته واسعة عامة شاملة ، فالله سبحانه وتعالى سمع قول هذه المرأة وسمع محاورتها للنبي صلى الله عليه وسلم وجاءت الكلمة الثانية يسمع (تحاوركما) بلفظ المضارع حكاية للحالة الماضية كأنها حاضرة الآن .

وفى هذه الآية دليل على أن الله جل وعلا يتكلم بالقرآن حين إنزاله ؛ لأنه إذا كان الله قد تحدث عن أمر مضى بلفظ الماضى ، دل ذلك والذى أمر الله به أولا : عتق رقبة فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين فإن لم

(١) سورة المجادلة : الآية ١ .

(٢) رواه البخارى فى كتاب التوحيد - باب (٩) معلقا . بصيغة الجزم . وعزاه ابن حجر موصولا إلى

أحمد والنسائى وابن ماجه .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٧٣ .

(٤) سورة النساء : الآية ١٣٠ .

يستطع فإطعام ستين مسكينا، وقبل ذلك لا تحل له فلا يحل له أن يجامعها .
قال العلماء ولا يحل له أيضا أن يفعل مقدمات الجماع من التقبيل واللمس والضم وما أشبه ذلك على خلاف بينهم في هذه المسألة أعنى مقدمات الجماع ، وعلى نص في كتاب الله أن الجماع محرم لقوله: « مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا »^(١) .

وهل يبقى عند زوجته لمدة شهرين حتى يصوم ؟

الجواب : نعم يبقى ، وهذا الذى عومل به هو الذى جناه على نفسه ، لماذا يقول لزوجته أنت على كظهر أمى فهذه هى الكفارة التى أوجب الله عليه قبل أن يماس زوجته .

فلو قال الرجل لزوجته أنت على كظهر أختى ، فهل كقوله أنت على كظهر أمى ؟

نعم فهو كقوله أنت على كظهر أمى .

فلو قال لها أنت على كظهر أمك ؟ فهذا مثله أيضا ، لأن أمها حرام عليه تحريماً مؤبداً ، فلو قال لها أنت على كظهر أختك ؟

فقد اختلف العلماء فى ذلك فبعضهم يقول إن هذا ظهار ، وبعضهم يقول ليس بظهار ؛ لأن ظهر أختها ليس حرام عليه تحريماً دائماً ، إذ إنه لو فارق هذه الزوجة لحلت له أختها .

إذن فتحریم أخت زوجته عليه ليس كتحریم أخته هو عليه .

والفرق بين التحريمين أن هذا مؤبد وهذا إلى أمد مؤقت .

وقد بين الله كذب هذا القول بقوله : « مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا

اللائى وَلَدْنَهُمْ » .

وكيف نعرب (ما) هنا ؟ .

على أنها حجازية ؛ لأن (ما) التى بمعنى ليس إذا رفعت الاسم ونصبت الخبر سموها حجازية ؛ لأن هذا عملها فى لغة أهل الحجاز أما عملها عند بنى تميم فإنها لا تعمل عمل ليس ولكنها ترفع المبتدأ والخبر فيقول بنو تميم (ما هذا رجل) ويقول الحجازيون (رجلاً) ، قال الشاعر :

(١) سورة المجادلة : الآية ٣ .

ومهفهف الأعطاف قلت له انتسب فأجاب ما قتل المحب حرام
وهذه المرأة من بنى تميم ؛ لأنها لو كانت حجازية لقات ما قتل المحب
حرام .

فالحجازيون يرفعون المبتدأ وينصبون الخبر بـ (ما) ، ولهذا عند
الإعراب نقول (ما) نافية حجازية وهن اسمها وأمها خبرها ؛ يعنى أن
هؤلاء النساء اللاتى وصفوهن بأنهن كظهر أمهاتهم لسن بأمهاتهم ، فمن
أمهاتهم ؟ « إن أمهاتهم إلا اللاتى ولدنهم » أى ما أمهاتهم إلا اللاتى
ولدنهم ، « وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور »
فيعفو عنهم ويغفر لهم إذا رجعوا إليه .

فحكم المظاهر أن نقول له : إن زوجتك لا تحرم عليك بهذا القول ،
ولكن لا يحل لك أن تمسها ؛ أى أن تجامعها حتى تفعل ما أمرك الله به ؛
على أن كلامه كان بعد ذلك الأمر الذى مضى « قد سمع الله » والآيات فى
هذا المعنى كثيرة ومنها قوله تعالى : « لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ
اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ »^(١) وقوله تعالى : « يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا
يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ
بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا »^(٢) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى يظهر منها
ظهوراً بيئاً جلياً أن الله يتكلم بالقرآن حين أنزله فيتلقيه جبريل ثم ينزل به
على قلب النبى صلى الله عليه وسلم فأما قوله تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ
الْقَدْرِ »^(٣) فأصح الأقوال فيها أن معناها ؛ إننا ابتدأنا إنزاله فى ليلة القدر ،
ثم بين الله سبحانه وتعالى حكم الظهار وبين أنه منكر من القول وزور ؛
فهو منكر من حيث الحكم ، وهو زور من حيث الخبر ؛ لأن قول القائل
لامراته (أنت على كظهر أمى) يتضمن أمرين أحدهما الإخبار عنها بأنها
كظهر أمه ، وفى هذه الحال نصف هذا الخبر بأنه زور ؛ والزور هو
الكذب .

والثاني : الحكم بأن زوجته حرام عليه كما تحرم عليه أمه وهذا نصفه بأنه منكر ، فقوله هذا جامع بين المنكر والزور ذلك لأنه شبه أهل النساء إليه بأحرم الناس عليه حيث قال : (أنت على كظهر أمي) ، فإذا قال الإنسان لزوجته هذا القول ؟ قلنا إن هذا منكر وهذا زور وهذا حرام عليك ويجب عليك أن تتوب إلى الله عز وجل مما قلت .

ثم الحكم بعد هذا قال الله تعالى : « وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا - إِلَى آخِرِهِ - » .

وذلك لا يجوز لأخت الزوجة أن تكشف وجهها لزواج أختها ؛ لأنها ليست محرماً له ، ولا يحل لها أن تكشف عند زوج أختها ، كما لا يحل للزوجة أن تكشف عند أخى زوجها ؛ لأنها أجنبية منه .

ومع الأسف الشديد أن بعض الناس يتهاونون فى هذا ، فتجد أخت الزوجة تكشف وجهها لزواج أختها وربما تصافحه ، وتجد أخا الزوجة تكشف له زوجة أخيه وربما يصافحها وهذا حرام ، لا يجوز لأحد أن يمكن زوجته منه .

ولو قال الزوج لزوجته أنت على حرام ، ولم يقل أنت على كظهر أمي فهل هو مثل قوله أنت على كظهر أمي ؟

فقد اختلف العلماء فى هذا أيضا ، فمنهم من يقول إن الرجل إذا قال لزوجته أنت على حرام فهو كقوله أنت على كظهر أمي ؛ لأن كلتا الجملتين تدلان على التحريم ، ولكن القول الصحيح أنها ليست كقوله أنت على كظهر أمي ؛ لأن زوجته قد تكون حراماً عليه لكونها حائضاً مثلاً أو لكونها محرمة أو ما أشبه ذلك ، فليس هذا القول القائل أنت على كظهر أمي ، ولذلك إذا قال لزوجته أنت على حرام ولم ينو شيئاً فإنها تكون يميناً مكفرة أى يكفر كفارة يمين فقط ولا يحرم عليه جماعها ؛ لأن الله يقول : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ » ثم قال : « قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ » ^(١) وهذا دليل على أن الرجل إذا حرم شيئاً أحله الله له فهذا التحريم يمين تكفر ، وكفارة اليمين إطعام عشرة مساكين أو

(١) سورة التحريم : الآيتان ١ - ٢ .

كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام .

إذن ما حكم الظهار ؟

حكمه حرام والدليل على ذلك قوله تعالى : « **وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ** » .

فماذا يجب على الزوج إذا ظاهر من زوجته ؟

أن لا يمسه حتى يفعل ما أمره الله به فيعتق رقبة ، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا . ولو قال الرجل لزوجته أنت على كظهر أختك ، فهذا ليس بظهار على القول الراجح ؛ لأن تحريم أخت الزوجة عليه ليس تحريماً مؤبداً وإنما هو تحريم مؤقت .

وإذا قال الزوج لزوجته أنت على حرام فهذا حكم اليمين ، وليس هو ظهاراً والدليل قوله تعالى : « **يَأْيُهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ** » وهذا قد حرم ما أحل الله له ، فإن الزوجة من حلاله كما قال تعالى : « **وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ** »^(١) وهذا ما أردنا أن نتكلم عليه في الآية الأولى ؛ آية المجادلة .

(إشارات في آيات الظهار - الطلاق - التحريم)

أولاً : إشارات في تفسير آيات الظهار :

قال الله تعالى : « **الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلِذُنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ** »^(٢) .

والظهار أن يقول الإنسان لزوجته أنت على كظهر أُمي ، هذا القول وصفه الله تعالى بوصفين فقال : « **وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا** » . منكراً لأنه محرم (وزوراً) لأنه كذب فهل زوجتك التي هي أحل النساء لك كأُمك التي هي أحرم المحرمات عليك ؟ لا إذن فهو زور وكذب .

(١) سورة النساء : الآية ٢٣ .

(٢) سورة المجادلة : الآية ٢ .

ولهذا قال الله تعالى في سورة الأحزاب : « مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تُظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ » (١) .

ثم بين الله تعالى كفارة من ظاهر من امرأته وماذا يجب عليه فقال : « وَالَّذِينَ يُظَاهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا » . وهذه المرتبة الأولى إذا قال لزوجته أنت على كظهر أمي ، فإنها لا تحل له إلا إذا أعتق رقبة . فإن لم يجد قال تعالى : « فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا » . فلا بد أن يصوم شهرين متتابعين قبل أن يمس زوجته فإن مسها في أثناء هذين الشهرين وجب عليه إعادة الشهرين ، لأن الله تعالى اشترط شهرين من قبل أن يتماسا حتى لو جامعها في آخر يوم من الشهرين أو في آخر ليلة من الشهرين ، فإنه يجب عليه أن يعيد الشهرين وهذه هي المرتبة الثانية ؛ فإن لم يستطع لكونه مريضا لا يستطيع أن يصوم الشهرين المتتابعين ، فإنه يطعم ستين مسكينا وهذه المرتبة الثالثة .

وكثير من الناس الآن يتساهل في هذه المسألة يغاضب زوجته فيقول لها أنت على مثل أمي ، أو أنت على كظهر أمي ، أو ما أشبه ذلك من الكلام الذي يتأسف عليه من حين أن يتكلم به ، ويذهب إلى باب كل عالم يطرقه لعله يجد مخلصاً من هذا الأمر الذي وقع فيه .

ثانياً : إشارات في تفسير آيات الطلاق :

قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ » (٢) والخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته معه وخاطب الله عز وجل شخص النبي صلى الله عليه وسلم لكونه إمام الأمة ، وليلد على أن أحكام الطلاق هامة جداً وشأنها عظيم .

(وكيف نطلقهن لعدتهن) ؟ فالجواب : أن يطلقها الإنسان وهي طاهر من الحيض من غير جماع أو يطلقها وهي حامل فهذا طلاق العدة .

(١) سورة الأحزاب : الآية ٤ .

(٢) سورة الطلاق : الآية ١ .

وعكس ذلك أن يطلقها وهي حائض ، أو أن يطلقها في طهر جامعها فيه ولم يتبين حملها .

وعدة الحامل أن تضع حملها ، حتى لو لم يتبق بعد طلاقها إلا دقيقة واحدة ووضعت فإن عدتها تنتهي بوضع الحمل لقوله تعالى : « وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ »^(١) .

وقد اشتهر عند العامة أن الحامل لا طلاق عليها ولهذا يسألون كثيراً عن الرجل يطلق زوجته وهي حامل فهل يقع الطلاق أو لا يقع ؟ والجواب : أنه يقع ولا إشكال فيه ولا خلاف فيه بين العلماء .

ثانياً : أن يطلقها في طهر من الحيض لم يجامعها فيه ، لأنه إذا طلقها في هذه الحال - أى في طهر لم يجامعها فيه فإنه يكون قد طلقها للعدة ، إذ إنها تشرع في عدة متيقنة من حين أن يطلقها .

والعدة المتيقنة ثلاث حيض لقوله تعالى : « وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ »^(٢) ، أى ثلاث حيض . وهنا أيضاً يغلط كثير من العامة يظنون أن المرأة إذا طلقت وهي غير حامل فعدتها ثلاثة أشهر ، وهذا خطأ فعدة المطلقة ثلاثة أشهر إذا كانت صغيرة لم يأتها الحيض بعد ، أو إذا كانت آيساً لقوله تعالى : « وَاللَّائِي يَيْسُنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نُسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ »^(٣) . أما التي يأتها الحيض فعدتها ثلاث حيض فلو كانت هذه المرأة لا يأتها الحيض إلا كل ثلاثة أشهر مرة فتكون عدتها تسعة أشهر ، ولو طلقها وهي ترضع ، والعادة أن المرضع لا يأتها الحيض فبقيت ولم يأتها الحيض سنتين حتى فطمت الصبي ثم جاءها الحيض فتكون عدتها ثلاث حيض بعد السنتين .

وإذا طلقها في طهر جامعها فيه فالطلاق محرم لأنه طلقها لغير العدة ومعنى ذلك أن هذه المرأة التي وطئت الآن لا تدري هل تحمل من الوطء فتكون عدتها عدة حامل ، أو لا تحمل فتكون عدتها بالحيض فكان طلاقها

(١) سورة الطلاق : الآية ٤ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٢٨ .

(٣) سورة الطلاق : الآية ٤ .

حينئذ لعدة محتملة فتكون عدة حامل إن حملت أو عدة حائل إن لم تحمل وهذا التردد يكون محرماً للطلاق .

وإذا طلقها وهي حائض فالطلاق محرم أيضاً لأنه لم يطلق للعدة إذ إن هذه الحيضة التي وقع فيها الطلاق لا تحسب من العدة ، وإذا كانت لا تحسب فمقتضاه أنه لم يطلق للعدة وحينئذ يكون الطلاق حراماً .

وإذا طلقها وهي نفساء فإنه يكون مطلقاً للعدة لأن النفاس لا يعتبر من العدة ولا يحتسب من العدة فإذا طلقها فإنها تشرع حالاً في عدتها إذ إن عدتها ثلاث حيض والنفاس لا يحسب من العدة بخلاف ما إذا طلقها في الحيض فإن الحيض من العدة ، ولهذا يحرم أن يطلقها وهي حائض لو طلق الإنسان زوجته لغير العدة مثل أن يطلقها وهي حائض أو في طهر جامعها فيه ، فهل يقع الطلاق ؟

فالجواب أن هناك خلافاً في ذلك بين العلماء وجمهور أهل العلم أن هذا الطلاق واقع مع التحريم ، فإذا طلقها وهي حائض حسب عليه ولكنه يؤمر بأن يراجعها حتى يطلقها في طهر لم يجامعها فيه لأن هذا هو الطلاق للعدة . وما أكثر الذي يطلقون لغير العدة الآن إما جهلاً منهم ، وإما أنهم يطلقون إذا غضبوا أو في غضب ، ولا يسألون عن زوجاتهم ، هل هن في حال تصلح للطلاق أو لا ؟

فإذا طلق وأندمه الشيطان ذهب إلى أبواب أهل العلم يسأل : إنه طلق إمرأته وهي حائض ، إنه طلقها في طهر جامعها فيه ، وما أشبه ذلك من الأشياء التي توجب ارتباك هؤلاء الرجال وإرباك أهل العلم أيضاً .

فليحذر الإنسان أن يطلق زوجته وهي حائض ، أو يطلقها في طهر جامعها فيه ، إلا إذا تبين حملها بعد الجماع فيطلقها .

ثالثاً : إشارات في تفسير آيات التحريم :

إذا حرم الإنسان شيئاً حلالاً مثل أن يقول : (حرام على أن أشتري هذا الثوب) ، أو يقول : (حرام على أن أكل هذا الطعام) ، أو يقول : (حرام على أن أزور فلاناً) فماذا يصنع هذا الرجل ؟

استمع إلى الفتوى من الله عز وجل : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ »^(١) .

« قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ » فجعل الله التحريم يمينا ، وعليه فإذا قال الرجل : (حرام على أن ألبس هذا الثوب) ، ثم لبسه ، وجب عليه كفارة يمين ، وإذا قال : حرام على أن أكل من هذا الطعام ، ثم أكله ، وجب عليه كفارة يمين ، لأن الله قال : « قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكَ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ » وفي سورة المائدة قال عز وجل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ * لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ »^(٢) فأعقب النهي عن تحريم ما أحل الله ببيان كفارة اليمين وهذا إيماء وإشارة إلى أن حكم تحريم ما أحل الله حكمه حكم اليمين .

وإذا قال الإنسان لزوجته أنت على حرام ولم يقل أنت على كظهر أمي فهل يكون يمينا أو يكون ظهرا ؟

فالجواب أن بعض العلماء يرى أنه ظهار ، ويرى آخرون أنه يمين والأقرب أنه يمين لدخوله في عموم قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ » ، فإن الزوجة مما أحل الله له فإذا حرّمها فتحريمها يمين .

وهذا هو الذي صح عن ابن عباس رضي الله عنهما في إحدى الروايتين عنه أنه إذا قال لزوجته : (أنت على حرام) ، فهو يمين يكفرها ، وعلى هذا فلا يخص من هذا العموم شيء .

هذه ثلاث مسائل تقع كثيراً : الظهار ، والطلاق ، والتحريم . وكلها يجب على المؤمن أن يعرف حكم الله فيها ، إذا كان يمكن أن تصدر منه ، حتى لا يصدرها إلا على الوجه المشروع .

(١) سورة التحريم : الآيتان ١ - ٢ .

(٢) سورة المائدة : الآيات ٨٧ - ٨٩ .

من سورة المعارج

قال الله تعالى : « سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ »^(١) وهنا يتبادر إلى الذهن أن يكون الكلام (سأل سائل عن عذاب واقع) ؛ لأن سأل تتعدى (بعن) ولا تتعدى بالباء ، فإنه قد يقول قائل كيف يعدل إلى (عن) إلى الباء « سأل سائل بعذاب واقع » ؟ الجواب : عن ذلك أن علماء النحو اختلفوا في مثل هذا ، فمنهم من قال إن الاستعارة في الحرف ، ومنهم من قال إن الاستعارة في الفعل ، فالأولون يقولون إن الباء هنا بمعنى (عن) أى (سأل سائل عن عذاب واقع) فأجيب . ومنهم من قال إن (عن) هنا لا تحصر وأن الاستعارة في سأل ، وأنه ضمن معنى الإجابة ، كأنه قيل سأل فأجيب (بعذاب واقع) أى بهذا الجواب .

ثم قال تعالى : « لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَفْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ » والله عز وجل ذو المعارج كما قال في آية أخرى : « رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ »^(٢) ؛ لأنه سبحانه وتعالى على خلقه مستو على عرشه ، وعلوه على عرشه ينقسم إلى قسمين : علو ذات ، وعلو صفات ؛ فأما علو الذات فإن معناه إن الله تعالى بذاته فوق كل شيء وأنه سبحانه وتعالى مستو على عرشه كما يليق بجلاله وعظمته ، وأما علو الصفات فإنه ما من صفة كمال إلا والله تعالى أعلاها وأكملها قال الله تعالى : « وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »^(٣) واعلم أن علو الصفات قد اتفق عليه أهل القبله .

وأما علو الذات فأنكره من أنكره من أهل البدع وقالوا إن الله عز وجل ليس عاليًا بذاته ثم انقسموا إلى قسمين قسم الحلولية وقسم المعطلة ، وليس موضع هذا ذكر هذه المسألة ؛ لأنها إنما تذكر لطلبة علم يفهمون مثل هذه

(١) سورة المعارج : الآيتان ١ - ٢ .

(٢) سورة غافر : الآية ١٥ .

(٣) سورة الروم : الآية ٢٧ .

الدقائق وحسبنا أن نؤمن بأن الله عز وجل فوق خلقه مستو على عرشه .
سأل الإمام مالك رحمه الله رجل فقال يا أبا عبد الله : (الرحمن على العرش استوى كيف استوى) وكان مالك رحمه الله فى حلقة أصحابه وتلاميذه فأطرق برأسه حتى علاه العرق خجلاً وتحملاً لهذا السؤال العظيم ثم رفع رأسه وقال الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ، ومعنى قوله الاستواء غير مجهول ؛ أى أن الاستواء معلوم فى اللغة العربية فإن جميع موارد فى القرآن يعرف معناها من سياقها .

فاستوى وردت فى القرآن على ثلاثة أوجه متعدية بإلى ومتعدية بعلى ومطلقة غير متعدية بحرف ، واستعلمت أيضا فى اللغة العربية مقرونة بالواو باستعمالاتها فى اللغة العربية .

إذن على أربعة أوجه ؛ فإذا عديت بعلى صار معناها العلو والاستقرار ومنه قوله تعالى : « فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ »^(١) ومنه قوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ »^(٢) .

القسم الثانى : متعدية بإلى ومنه قوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ »^(٣) وقوله : « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ نُحْانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ انْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا »^(٤) وهى هنا بمعنى القصد أى قصد إلى السماء .

وقيل بمعنى على فلعلماء السلف فيها قولان وكلاهما لا ينافى الآخر .

أما القسم الثالث : فإن تأتى مطلقة غير متعدية بإلى ولا على ومنه قوله تعالى : « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى »^(٥) وحينئذ تكون بمعنى الكمال ؛ كمال الشيء وانتهائه فبلغ أشده يعنى بلغ غاية قوته العقلية والجسمية

(١) سورة المؤمنون : الآية ٢٨ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٥٤ . وسورة يونس : الآية ٣ . وسورة الرعد : الآية ٢ . وسورة الفرقان : الآية ٥٩ . وسورة السجدة : الآية ٤ . وسورة الحديد : الآية ٤ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٩ .

(٤) سورة فصلت : الآية ١١ .

(٥) سورة القصص : الآية ١٤ .

واستوى أى كمل ومنه قول العامة إذا طبخوا الطبخ يقولون استوى أى كمل
نضجه .

أما القسم الرابع : فأن تأتي مقرونة بالواو وهى فى هذا بمعنى تساوى
كقولهم : (استوى الماء والخشبة) أى تساويا وصار الماء إلى الخشبة . إنما
نحن نؤمن بأن الاستواء الذى وصف الله به نفسه بمعنى العلو والاستقرار ،
فإذا قلت أليس الله عاليًا على كل شىء ؟

فالجواب بلى ولكن استواءه على العرش استواء خاص بالعرش وليس
هو العلو العام لجميع المخلوقات .

وأما قول الإمام مالك رحمه الله : (والكيف غير معقول) فالمعنى أننا
لا ندرك كيفية استواء الله تعالى بعقولنا ؛ لأن الله عز وجل أعظم من أن
تدركه العقول وتحيط به العقول كما قال تعالى : « وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ
عِلْمًا »^(١) وقال تعالى : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ »^(٢) وإذا
كان العقل لا سبيل له إلى إدراك كيفية استواء الله على عرشه بقى عندنا
السمع فهل دل السمع على كيفية ؟ لا ؛ لأن الله تعالى أخبرنا أنه استوى
على العرش ولم يخبرنا كيف استوى ، فإذا قلنا انتفى عنه الدليلان العقلى
والسمعى وجب علينا الكف عنه وأن لا نسأل عن كَيْفِيَّتِهِ ؛ لأن هذا أمر لا
يمكن إدراكه ولهذا قال رحمه الله : (والسؤال عنه بدعة) أى عن كَيْفِيَّتِهِ ؛
ولأن الصحابة رضى الله عنهم وهم والله أحرص منا على العلم ما سألوا
النبي صلى الله عليه وسلم كيف استوى ربنا على عرشه لكن سألوه أين كان
ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض .

أما هذا فلم يسألوا عنه وشىء لم يذهب إليه سلف هذه الأمة مما يتعلق
فى دين الله ؛ فإن الذهاب إليه بدعة ، ولهذا قال : (السؤال عنه بدعة) .
أما الإيمان به فواجب ؛ لأن الله أخبر به ، وكل ما أخبر الله به فإنه
يجب علينا أن نؤمن به .

يقول الله عز وجل : « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ » والمراد بالروح

(١) سورة طه : الآية ١١٠ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٠٣ .

هنا جبريل وهو من الملائكة ولكنه خص بالذكر اعتناء به وتعلية بشأنه ومثل هذه الآية فى تخصيص جبريل قوله تعالى فى ليلة القدر : « تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا »^(١) .

« فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ »^(٢) فالجار والمجرور متعلق بمحذوف والتقدير يقع فى يوم وإن شئت فقل إنه متعلق بكلمة واقع وليس متعلقا بتعرج ؛ لأن عروج الملائكة والروح إليه فى كل وقت لكن العذاب الواقع يقع فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، وفيه من الأحوال العظام ما يجعل الولدان شيئا ، ولكن هذا اليوم على صعوبته ومشقته هو يسير على المؤمن .

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لِي وَيُكَلِّمَنِي ، يسير كما قال تعالى : « وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا »^(٣) أى لا على المؤمنين وقال عز وجل : « عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ »^(٤) وأما المؤمنون فهو يسير عليهم .

ثم ذكر الله عز وجل أن هؤلاء المكذبين يستبعدونه ويرثه بعيدا وهو قريب يسير على الله ؛ لأن الله إذا أراد شيئا قال له كن فيكون « إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ »^(٥) « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ »^(٦) « يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا »^(٧) فالحميم الصاحب والقريب ، لا يسأل حميم حميما ؛ لأن لكل واحد منهم شأنا يغنيه يود المجرم لو يفتدى بعذاب يؤمئذ ببنيه يعنى يقدم ابنه فداء له فى الدنيا تقدم نفسك فداء لولدك ، وقد ذكر فى قصة نوح حين أمر الله عز وجل السماء أن تمطر والأرض أن تنبع قال الله عز وجل : « فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ »^(٨) ذكر أن امرأة كانت لها

(١) سورة القدر : الآية ٤ .

(٢) سورة المعارج : الآية ٤ .

(٣) سورة الفرقان : الآية ٢٦ .

(٤) سورة المدثر : الآية ١٠ .

(٥) سورة يس : الآية ٥٣ .

(٦) سورة النازعات : الآيات ١٣ - ١٤ .

(٧) سورة المعارج : الآيات ٨ - ١٠ .

(٨) سورة القمر : الآيات ١١ - ١٢ .

صبي فلما رأت الماء ذهبت إلى جبل ورقت عليه فارتفع الماء ثم ارتفعت فارتفع الماء ثم ارتفعت فارتفع الماء إلى قمة الجبل ثم ارتفع حتى ألجم المرأة فأخذت صبيها ورفعته فوق يدها تريد أن تموت قبل أن يموت الصبي ، وجاء في هذا لو كان الله راحمًا أحدًا منهم لرحم أم الصبي ، لكن يوم القيامة ليس كحال الدنيا « يَوْمَ الْمَجْرَمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ - أَى عَشِيرَتِهِ - الَّتِي تُسْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ » ولكن الأمر ليس باختياره وليس بيده ولا يمكن أن يفتدى بشيء ينفعه يقول الله عز وجل (كلا) لا فدية ولا خلاص ولا وزر « فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمِئِذٍ أَإِنَّ الْمَفْزَ »^(١) قال الله عز وجل : « كَلَّا لَا وَزَرَ » ولهذا ينبغى الوقوف على هذه الجملة (كلا لا وزر) ثم يستأنف فتقول : « إِلَى رَبِّكَ يَوْمِئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ » لا معين لا مغيث لا مفر « كَلَّا إِنَّهَا لَأُظَى » (ولظى) اسم من أسماء النار « نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى » والعياذ بالله « تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى » إئت إلى فيتساقط أهلها فيها .

ثم قال عز وجل : « إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا » ومعنى هلوعا فسرره الله « إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا » (إذا مسه الشر) وأصيب بالفقر جزع وتضجر (وإذا مسه الخير) وأعطى المال الكثير كان منوعا لا ينفق « إِلَّا الْمُصَلِّينَ » وما أنفع الصلاة للقلب والبدن والمجتمع « إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ » لم ينج من هذا الوصف الذى وصف به الإنسان من حيث هو إنسان « إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ » لا يملون ولا يسأمون ولا يؤخرونها عن أوقاتها ولا يفرطون فى واجباتها ، بل هم دائمون عليها .

« وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » أى حق معلوم شرعًا أو معلوم عرفا ، فإن كان مما قدره الشرع فهو معلوم شرعًا مثل الزكاة ، وإن كان مما لم يقدره الشرع فهو معلوم عرفا كالنفقة « لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » والسائل هو الذى يسأل ، فالسائل له حق فإذا جاءك أحد يسألك فإنك تعطيه لسؤاله (والمحروم) يقول العامة فى تفسيره إنه البخيل الذى

(١) سورة القيامة : الآيات ٧ - ١٠ .

حرم الانتفاع بماله ، ولكن هذا ليس بصحيح ، فإن البخيل ليس له حق فى مال الكريم ، فالبخيل يضرب حتى يخرج ما أوجب الله عليه ، وإنما المراد بالمحروم الفقير الذى حرم من المال ولم يعط منه شيئاً .

« وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ » أى بوقوعه وما يقع فيه فالإيمان باليوم الآخر يتضمن الإيمان بوقوعه ، والإيمان بما يقع فيه ، ففيه مثلاً الحساب ونشر الكتب ، وفيه أيضاً الميزان والصراف ودنو الشمس من الناس وغير ذلك من الأشياء التى تكررت فى الكتاب والسنة . ومن الإيمان باليوم الآخر ؛ الإيمان بفتنة القبر ونعيم القبر وعذاب القبر ؛ أما الفتنة فإن الناس يفتنون فى قبورهم ، إذا مات الإنسان ودفن وتولى عنه أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكان فيعقدانه وتعاد إليه روحه ويسأل عن ثلاثة أمور (من ربك) (وما دينك) (ومن نبيك)^(١) فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، أسأل الله أن يجعلنى وإياكم منهم بمنه وكرمه . (يقول المؤمن ربى الله ودينى الإسلام ونبى محمد) فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً من الجنة فيأتيه من روحها ونعيمها فيكون بذلك منتقلاً من نعيم الدنيا إلى نعيم الآخرة ويكون عشية يومه الذى مات فيه أسر منه فى صباح يومه الذى مات فيه ، لأنه خرج من دار التعب والهم والغم والعمى إلى دار النعيم والسرور وفتح له باب الجنة فجعل ينظر إليها فى قبره وألبس من الجنة وأفرش من الجنة ونادى مناد من السماء وهو الله عز وجل أن صدق عبدى .

فما بالك بسرور شخص يناديه ربه أن صدق عبدى يصدق الله عز وجل على ما قال من صواب الجواب .

أما المنافق أو الكافر فإنه إذا قيل من ربك من نبيك ما دينك يقول ها . ها لا أدرى سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته ؛ لأن هذا الإيمان لم يدخل إلى قلبه وإنما هو شيء سمعه فقال له ، ما وقر الإيمان فى قلبه : (وقد أخبر

(١) رواه البخارى فى كتاب الجنائز - باب (٨٦) - حديث (١٣٧٤) باختصار وعزاه ابن حجر إلى أصحاب السنن وذكر تصحيح أبى عوانة له ، وقد ذكر رواياته وألفاظه . فتح البارى ٣ / ٢٧٦ . طبعة الريان .

النبي صلى الله عليه وسلم عن أقوام يقرءون القرآن ويصلون حتى إن الصحابة يحرقون صلاتهم مع صلاتهم لكن إيمانهم لا يجاوز حناجرهم والعياذ بالله يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية والسهم إذا دخل في الرمية مرق منها بسرعة ، فإيمانهم والعياذ بالله لا يجاوز الحناجر (١) .

ولذلك أيها الاخوة أنصح نفسي وإياكم بأن نتفقد قلوبنا هل وقر الإيمان فيها هل وصل إليها أم نحن كالأعراب الذين قالوا (آمنا) فقال الله لنبيه : « قُلْ نَمُتُوا وَلَكِنْ قُوتُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ » (٢) . فليس العمل رسوم يقوم بها الإنسان لكن الإيمان كما قال الحسن البصري رحمه الله ما وقر في القلب وصدقته الأعمال .

فأنت يا أخى المؤمن فتش أولا عن قلبك ، انظر أين اتجاهاك هل هو إلى الله تبتغى وجه الله تريد ثواب الله أو هو أمر تريده من الدنيا إلى هوى في نفسك تقصده إلى مال إلى رئاسة إلى جاه انظر حالك ، إنك إذا أصلحت صلح أمرك ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب) (٣) فطهر قلبك يا أخى من الرياء طهر قلبك من الحقد طهر قلبك من الغل طهر قلبك من فتنة الدنيا بجميع زهرتها وبجميع زينتها عن جميع ما ذكر الله عز وجل في قوله : « زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ » كل هذا زينة ، ولكن هل هذا هو النعيم هل هذا هو الغاية ؟ اقرأ ما بعدها « ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ * قُلْ أَوْثَنُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَم » والاستفهام هنا يراد به التشويق فما هو الشيء الذى خير من ذلك « لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » يبقون فيها مدة ثم يموتون بل لا « خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ » رضا من الله عز وجل يحل عليهم سبحانه وتعالى رضاه

(١) رواه البخارى فى كتاب المغازى - باب (٦١) - حديث (٤٣٥١) .

(٢) سورة الحجرات : الآية ١٤ .

(٣) رواه البخارى فى كتاب الإيمان - باب (٣٩) - حديث (٥٢) .

فلا يسخط عليهم بعده أبدا « والله بصير بالعباد » والذين اتقوا والذين لهم هذا الثواب هم الذين يقولون « رَبَّنَا إِنَّا أَمَّا فَاغْفِرَ لَنَا ذُنُوبَنَا وَفَنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ »^(١) ولماذا يستغفرون بالأسحار ؛ لأنهم قاموا لله تجافت جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا فلما أثمروا قيامهم نظروا فى أمرهم وعاملوا أنفسهم معاملة المذنب المقصر فجعلوا بعد هذا العمل يستغفرون الله عز وجل ، اللهم اغفر لنا اللهم إنا نستغفرك وما أشبه ذلك من دعوات الله عز وجل بالاستغفار .

فيقول الله عز وجل : « وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّنَاتِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ » خائفون من هذا العذاب ومن خاف من شيء حذره ، ومن حذر شيئا تجنب أسبابه ، فإذا كانوا خائفين من عذاب الله فلا بد أن يحذروا منه وأن يتجنب أسبابه وأسباب عذاب الله إما تفريط فيما أوجب وإما وقوع فيما حرم ، وعلى هذا فهم يجدون كل الجد بأن يقوموا بما أوجب الله عليهم ، يجدون كل الجد بأن يتجنبوا ما حرم الله عليهم فهم من عذاب ربهم مشفقون يقول الله عز وجل : « إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ » وصدق ربنا جل وعلا فمن يأمن عذاب الله .

فهل أحد يأمن أن يأتيه عذاب الله بغتاً أو جهراً ؟ أبدا فلا يأمن من عذاب الله إلا القوم الخاسرون قال الله تعالى : « أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ » « أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ » « أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ »^(٢) « إن عذاب ربهم غير مأمن » ثم قال الله تعالى : « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ » يحفظون فروجهم إلا من هذين الصنفين من النساء الأزواج وما ملكت الأيمان فالذين ملكوهم من الإماء التى تباع وتشتري ، فإن الأمة يجوز لسيدها أن يستمتع بها كما يستمتع الزوج بزوجه « إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ » يقول الله عز وجل : « فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ » لا يلامون

(١) سورة آل عمران : الآيات ١٤ - ١٧ .

(٢) سورة الأعراف : الآيات ٩٧ - ٩٩ .

على ما يحصل بينهم وبين أزواجهم أو بينهم وبين ما ملكت أيماهم ولهذا يجوز للإنسان أن يستمتع بزوجه بكل متعة أحلها الله ويمتنع من كل متعة منعها الله ؛ والمتعة التي منعها الله متعتان المتعة في الفرج في حال الحيض والنفاس فإن ذلك محرم لا يجوز للرجل أن يجمع زوجته في حال الحيض والنفاس ، والمتعة الثانية المتعة في الدبر فلا يحل للإنسان أن يأتي زوجته في دبرها ، ويجوز للإنسان أن يستمتع بزوجه فيما عدا ذلك ؛ لأن الله عز وجل يقول: «والذين هم لفروجهم حافظون* إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيماهم» ويدخل في الآية الكريمة غض البصر إلا عن الأزواج والمملوكات؛ لأن إطلاق البصر يؤدي إلى الفتنة ثم إلى الوقوع في المحظور حتى لا يستطيع الإنسان إذا أطلق لنفسه النظر لا يستطيع أن يحصن فرجه فيكون في هذه الحال غير حافظ له ، واستدل أهل العلم بهذه الآية الكريمة على أنه يحرم على الإنسان أن يستمني بيده أو بفراشه أو بأى شيء كان وهو ما يعرف عند الناس بالعادة السرية فإنها حرام ، وليلها هذه الآية الكريمة ؛ لأن الله قال بعد ذلك : « فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ » يعنى من طلب الاستمتاع بغير هذين الصنفين فإنه عاد ، شخص استمتع بيده أو بفراشه أو ما أشبه ذلك فإنه عاد ؛ والعادى هو الجائر الظالم ويدل لتحريمها قول مرشدنا ومعلمنا ومن هو بالمؤمنين رءوف رحيم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج)^(١) وخاطب الشباب ؛ لأنهم ذو القوة في هذا الأمر (ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) ولم يقل النبي صلى الله عليه وسلم من لم يستطع فليخرج شهوته بما أراد بل قال فعليه بالصوم .

ونحن نعلم أنه لو كان إخراج الشهوة جائزاً ؛ لأرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأن إخراج الشهوة أيسر من التزام الصوم ؛ لأن المشقة في التزام الصوم ، ولأن في إخراج الشهوة نوعاً من المتعة واللذة فلو كان هذا جائزاً ما عدل النبي صلى الله عليه وسلم عنه إلى الأمر الشاق ؛ لأن هذا الدين يسر ، ولا تجد خصلة ميسرة يعدل عنها هذا الدين إلا لأنها لا تجوز في شريعة الله .

(١) رواه البخارى فى كتاب النكاح - باب (٣) - حديث (٥٠٦٦) .

وعلى هذا فنستدل على تحريم هذه العادة السرية بالقرآن والسنة كما أن هناك أدلة عقلية طبية على تحريمها لما فيها من الضرر العظيم على الجسم وعلى الغريزة الجنسية وعلى مستقبل هذه المادة التي هي مادة خلق بنى آدم ثم قال عز وجل : « وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ » الذين إذا ائتمنوا راعوا الأمانة والعهد فلا يخونون أمانة ولا يغدرون بعهد .

والحاصل أنه كل من أوتمن على أمانة أن يراعى هذه الأمانة . ويجب على كل من عهد عهداً أن يرعى العهد ؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعاهد المشركين ويفى لهم فإذا نقضوا العهد انتقض العهد ولما صالح قريشاً في غزوة الحديبية على ترك القتال لمدة عشر سنين ومضى على هذا الصلح سنتان فنقض المشركون العهد فغزاهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا لم ينقض المعاهد عهده ولكنى خفت أن ينقض فالحل ؟ « وَإِنَّمَا تَخَافُونَ قَوْمَ خِيَانَةٍ فَأَبْذُ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ » ^(١) لا تبدأهم بالحرب فهذا إذا خفت الخيانة ولكن ابعث إليهم وقل لهم إنه لا عهد بيننا وبينكم ، فهذا إذا خفت الخيانة .

فالمعاهد له ثلاث حالات ؛ إما أن يفى بعهده ويستقيم عليه فقد قال الله فيه : « إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » ^(٢) .

والحالة الثانية : أن ينقض العهد وفي هذه الحال لا عهد له ؛ لأنهم نقضوا العهد .

الحالة الثالثة : أن يخاف نقض العهد ولم ينقضوه فنحن ننذر إليهم على سواء « وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ » .

فقد سمعنا أن بعض الناس يحابى الأصدقاء ويحابى القرابات في إهمال الحق الواجب عليهم أو في إعطائهم ما يستحقون وكل هذا حرام ومخالف للأمانة .

« وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ » يعنى يقومون بالشهادة على الوجه

(١) سورة الأنفال : الآية ٥٨ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٧ .

المطلوب فإذا دعوا إلى الشهادة تحملاً تحمّلوا وإذا دعوا إلى أداء الشهادة أدّوا لا يحابون أحداً في ذلك .

« وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحْفَظُونَ » مما يدل على أهمية الصلاة وأنها آكد أركان الإسلام بعد الشهادتين .

أسأل الله تعالى أن يجعلني وإياكم من المصلين المحافظين على هذه الصفات الذين مآلهم أن يكونوا في جنات مكرمين والحمد لله رب العالمين وأصلى وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

من سورة المطففين

قال الله تعالى : « وَيَلْ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »^(١) فهذه الصورة ابتدأها الله تعالى بالوعيد بالويل وهى كلمة إما أن يراد بها واد فى جهنم ، وإما أنها كلمة وعيد وتهديد ، ولهذا ابتدأت بالتنكير الدال على التعظيم وبين الله أن المطففين هم الذين يريدون من الناس كمال حقوقهم لكنهم يهضمون الناس حقهم « الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ » ومعنى (اکتالوا على الناس) يعنى استوفوا حقهم بالكيل ، يستوفون الحق كاملاً ، ولكنهم إذا كالوا الناس أى إذا كالوا للناس ما يجب للناس عليهم (أو وزنوهم) أى وزنوا لهم ، يخسرون الكيل والميزان ، فيريدون أن يكون حقهم كاملاً ، وأن ينقص الناس حقوقهم .

فلا تنظروا إلى هذه الآية من ناحية أنها خاصة بالطعام الذى يكال أو الذى يوزن ، ولكنها كمثال لكل من أراد من الناس أن يوفوه حقه كاملاً ولكنه ينقصهم حقوقهم .

ومن ذلك ما يكون بين طلبة العلم ، فإن من الناس من يريد أن يكون الناس تبعاً له ويهضمهم حقهم ويغمطهم اجتهداهم ولا يرى لأقوالهم شيئاً من الحظ والنصيب إذا كانت تخالف إلى ما يراه هو بنفسه ، فيريد من الناس أن يكونوا تبعاً ولا يتبع الناس حتى فيما هو الحق ؛ لأنه يرى أنه شبه معصوم ، وأن غيره معرض للخطأ وهذا له نصيب من هذه الآية ؛ لأنه يعذر نفسه باجتهاده ولا يعذر الناس باجتهادهم .

والإنسان الذى يرى أنه على صواب باجتهاده يجب أن يقدر الناس قدرهم ، وأن لا يرى أنهم على خطأ فى اجتهداهم ؛ لأنه إذا رأى ذلك أى

(١) سورة المطففين : الآيات ١ - ٦ .

رأى أنه على صواب فى اجتهاده وأن غيره على خطأ فى إجهاده فهذا هو المطفف الذى إذا اكنال على الناس استوفى وإذا كالمهم أخسر .

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية أن الناس قسمان : فجار وأبرار ؛ أما الفجار فالمراد بهم هنا الكفار ، فكتابهم فى سجل فى الأرض السفلى ؛ لأنه فى النار ، وأما الأبرار ففى عليين فى أعلى مكان ؛ لأنهم فى الجنة ، والجنة فوق كل شىء ؛ لأنها فيها الفردوس ، والفردوس أعلى الجنة وسقفه عرش الرحمن جل جلاله .

فالجنة فى عليين والنار فى أسفل السافلين ، وذكر الله فى آخر السورة أن هناك قومًا مجرمين يضحكون من المؤمنين ويستهزئون بهم ، وإذا مرَّ بهم المؤمنون تغامزوا بهم سخرية واستهزاء ، وإذا رجعوا إلى أهلهم رجعوا متفكهن بما نالوا من المؤمنين من السخرية والاستهزاء ؛ وإذا رأى هؤلاء الذين آمنوا قالوا إن هؤلاء لضالون أى منحرفون عن الحق مجانبون للصواب وهذه الكلمة التى نكرها الله عن سبق هى موجودة فى الذين أكرموا هذا اليوم .

فإن كثيرا من أهل الشر يقولون إن المؤمنين متأخرون وإنهم رجعيون وأن هؤلاء الذين انحرفوا عن الصراط المستقيم هم التقدميون وهم الذين على حق وهم الذين يقودون المجتمع إلى التقدم والرقى على زعمهم . والحقيقة أنهم يقودون المجتمع إلى الهاوية إلى ضلال فى العقيدة وخطأ فى الفكر وانحراف فى العمل ، كل ما يدعوونه تقدما وهو مخالف للشرع فإنه متأخر ولكن لا يزالون يسخرون بالمؤمنين ؛ وموقف المؤمنين منهم يجب أن يكون موقف الصابر الصامد الذى لا تزعجه هذه العواصف ، وسوف تكون العاقبة لأهل الحق ، طال الزمن أم قصر لقول الله تبارك وتعالى : « تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ »^(١) فالعاقبة إما فى الدنيا والآخرة ، وإما فى الآخرة .

ولهذا قال الله تعالى فى آخر السورة : « فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ

(١) سورة هود : الآية ٤٩ .

يَضْحَكُونَ » وكان الكفار الذين أجرموا في الدنيا يضحكون من المؤمنين لكنهم يضحكون ضحكاً بعده بكاء .

أما هؤلاء المؤمنون فإنهم يضحكون يوم القيامة من المجرمين ضحكاً لا بكاء بعده ، قال الله تعالى : « فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » .

وفى هذه الآية من صفات الله مسألة كبيرة عظيمة وهى إثبات رؤية الله عز وجل ؛ أن الله تعالى يرى ولكن رؤية الله لا تكون إلا فى الآخرة ، ورؤية المؤمنين لله عز وجل فى الآخرة ثابتة بالقرآن وبالسنّة وبإجماع السلف ولم ينكرها أحد منهم ، وفى كتاب الله عدة آيات تدل على أن الله سبحانه وتعالى يرى بالأبصار عياناً منها هذه الآية : « كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ » والضمير فى (إنهم) يعود إلى الفجار وإذا كان الفجار محجوبين عن الله دل على أن الأبرار غير محجوبين عن الله ؛ لأنهم لو حجبوا عن الله لم يكن بينهم وبين الفجار فرق ، ولما كان للتنصيص على حجب الفجار عن الله فائدة ، ولا نعلم فائدة لهذا إلا أن الأبرار ينظرون إلى الله ، ولهذا قال الشافعى رحمه الله ما حجب عن الفجار فى حال السخط إلا ليراه المؤمنون أو الأبرار فى حال الرضا ، ومنها قوله تعالى : « عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ » فإن هذه الآية يستدل بها أهل السنّة على رؤية الله عز وجل ؛ ووجه ذلك أنه حذف فيها المفعول ؛ أى لم ينكر المنظور إليه ، وإذا كان فى مقام الثناء ومقام المدح فإن أعظم ما ينظر إليه وأفضل ما ينظر إليه وألذ ما ينظر إليه هو الله عز وجل ، ولهذا لا يجد المؤمنون ألذ من النظر إلى وجه الله عز وجل ، أسأل الله أن لا يحرمنا وإياكم إياها .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ »^(١) والفرق بينهما أن الأولى (ناصرة) من النضر بالضاد أو من الناصرة وهى الحسن ، والثانية من (النظر) وهو الرؤية ؛ تقول نظرت إليه ، إذن أى رأيتّه ، وفى هذه الآية دليل على أن المؤمنين ينظرون إلى الله عز وجل وهى الوجوه الناصرة ؛ لأن الوجوه الناصرة هى وجوه

(١) سورة القيامة : الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .

المؤمنين كما قال تعالى : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَةٌ * ضَآئِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ »^(١) ومن ذلك قوله تعالى : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ »^(٢) فقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله الكريم . ومن المعلوم أن تفسير النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن هو أقوى ما يفسر به القرآن بعد تفسير القرآن بالقرآن ؛ لأن القرآن مفسر إما بكلام الله أو بكلام الرسول صلى الله عليه وسلم أو بكلام الصحابة أو بكلام التابعين أو بكلام الأئمة والعلماء من بعدهم ، وأعلى أنواع التفسير ؛ تفسير القرآن بالقرآن ، ثم تفسيره بالسنة ، فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم فسر الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله فتعين أن يكون هو المراد بها ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أعلم الناس بمعاني كلام الله عز وجل .

وأما السنة فقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم برواية المؤمنين لله عز وجل عياناً بأبصارهم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر وكما ترون الشمس صحوّاً ليس دونها سحب فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا)^(٣) ؛ والصلاة التي قبل طلوع الشمس هي صلاة الفجر ، والصلاة التي قبل غروبها هي صلاة العصر ، ولهذا جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من صلى البردين دخل الجنة)^(٤) ؛ والبردين هما الفجر والعصر ، لأن الفجر في براد الليل والعصر في براد النهار .

يقول الشاعر :

مما تواتر حديث من كذب ومن بنى لله بيتاً واحتسب
ورؤية شفاعاة والحوض ومسح خفين وهذه بعض

فمما تواترت به الأحاديث رؤية الله عز وجل ولم ينكرها أحد من سلف

(١) سورة عبس : الآيتان ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) سورة يونس : الآية ٢٦ .

(٣) رواه البخارى فى كتاب التوحيد - باب (٢٤) - حديث (٧٤٣٤) .

(٤) رواه البخارى فى كتاب المواقيت - باب (٢٦) - حديث (٥٧٤) .

الأمة وإنما حدث إنكارها بعد انقضاء القرون الثلاثة المفضلة ولا شك أن منكرها حرى أن يحرمها يوم القيامة وأن لا يرى ربه لأنه يعتقد أن الله لا يرى ، مع أن الله أثبت ذلك لنفسه في كتابه وأثبتها له رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الفصل الثانى

الحديث

شرح أحاديث من الأربعين النووية

هذا الكتاب الذي يسمى بالأربعين النووية كتاب مختصر مبارك ، جمع أحاديث كثيرة فيها أصول عظيمة فى العبادات والمعاملات والأخلاق والآداب ، ولهذا فأنا أشير على كل شاب صغير أن يحفظه ليكون ركيزة عنده إذا احتاج إلى الاستشهاد بأحاديث نبوية .

حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه

« إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » ^(١) .

هذا الحديث العظيم الذى يعتبر نصف الدين ، وأوله جملتان مفيدتان للحصر ، وذلك لأن « إنما » من أدوات الحصر ، وهو إثبات الحكم المذكور ونفيه عما سواه . ولكل من الجملتين معنى مستقل . ومن العلماء من يقول إنهما بمعنى واحد وأنها كررت للتأكيد .

ولدينا قاعدة معروفة عند أهل البلاغة وأهل الأصول أنه إذا دار الأمر بين كون الكلام تأكيدا أو تأسيسا ، فإنه يحمل على أنه تأسيس .

والتأسيس معناه أن الجملة الثانية مستقلة عن الأولى وأنها منشئة لمعنى جديد مستقل عن المعنى الأول ؛ وذلك لأن الأصل فى الكلام عدم التكرار .

ومثال ذلك فى قوله سبحانه : « فإن مع العسر يسرا * إن مع العسر يسرا » فصورة الجملتين واحدة ولكن الثانية أفادت معنى جديدا .

ففى هذا الحديث تفيد الجملة الأولى (إنما الأعمال بالنيات) أنه ما من عامل إلا وعمله مقرون بنيته إلا من كان ساهيا أو نائما أو غافلا أو مكرها

(١) رواه البخارى فى أول صحيحه .

وما أشبه ذلك . فلو قال قائل : إننى توضأت بدون نية فلا نصدقه ؛ لأنه ما من عمل إلا وله نية .

والجملة الثانية : (وإنما لكل امرئ ما نوى) تفيد أن فائدة العمل بحسب نية العامل ، وينبنى على هذه النية الكسب والثواب والفائدة ، فلإنسان ما نوى من خير أو شر .

وهذا الحكم يشمل جميع الأعمال لقوله صلى الله عليه وسلم : (إنما الأعمال) فالألف واللام تفيدان العموم ، وعليه فكل الأعمال بالنيات وكل الأعمال لناويها ما نوى .

ومثال ذلك : رجل اغتسل بنية التبرد وبعد انتهائه وجد أنه كان جنباً ، فلا يجزئه غسله عن الجنابة ؛ لأنه لم ينو رفع الجنابة .

ولو أن رجلاً أكل لحم إبل وتوضأ من لحم الإبل ثم ذكر أنه قد أحدث ببول أو غائط فيرتفع الحدث ؛ لأنه نوى رفع الحدث ولا عبرة بسبب الحدث ولا يضره اختلاف السبب .

ولو أن رجلاً دخل الصلاة بنية النافلة ثم ذكر أن عليه فريضة فقلب النية إلى الفريضة فلا تجزئ ؛ لأن الصلاة لا بد أن تكون منوية قبل تكبيرة الإحرام ؛ لتشمل النية جميع أجزاء الصلاة .

ولكن لو دخل الرجل في الصلاة بنية الفريضة ثم بدا له أثناء الصلاة أن يحولها إلى نافلة فيجوز ذلك ؛ لأن نية صلاة الفريضة مركبة من شيئين : (صلاة - تعيين) ، فلما ألغى التعيين بقى الإطلاق وهو نية الصلاة . وعلى هذا لو تحول من الفريضة إلى نفل مطلق صح ذلك ، وإذا انتقل من معين إلى معين لا يصح ؛ لأن المعين لا بد أن ينوى من أوله ، وإذا انتقل من مطلق إلى معين لم يصح ، وإذا انتقل من معين إلى مطلق يصح .

ولو أن رجلاً دخل يصلى العصر ثم ذكر أن عليه صلاة الظهر فقلب النية من العصر إلى الظهر لا يصح الظهر ولا تصح العصر ؛ لأنها بطلت بنيته ، ولا الظهر لأنه لم ينوها من الأول .

وكذلك تؤثر النية في معاملات الناس ، كما لو قال رجل لزوجته أنت

طالق ، ويريد أنها غير مقيدة بحبل فلا يقع الطلاق ؛ لأنه لم ينو طلاقا . ولكن لو ذهبت الزوجة إلى القاضي فيحكم بالطلاق بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إنما أقضى بنحو ما أسمع)^(١) . فالقاضي يحكم بما يسمع وليس بما نوى القائل ، ولو فتح الباب لأن يدعى كل واحد أن نيته كذا وكذا لادّعى كل واحد ذلك . ولكن لا ينبغي للزوجة أن تخاصم زوجها إلى القاضي إذا قال ذلك إذا كان رجلا حسن الإيمان فاضلا أمينا على نيته وبعكس ذلك إذا كان ضعيف الإيمان ضعيف الأمانة وجب عليها أن تخاصمه .

فالنية تدخل في جميع الأعمال ، ولا يكون عمل إلا بنية ، ولو صلى أحد الناس ثم شك هل نوى أم لا ، فالصحيح أن يترك هذا ولا يلتفت إليه وهذا الشك من الشيطان ، ولهذا فقد ذكروا عن رجل من علماء الحنابلة أن رجلا استفتاه أنه يغتسل في نهر دجلة ثم يخرج ويشعر أنه لم يحسن الغسل وأن جنابته لم ترتفع . فقال له الشيخ : لا تُصَلِّ ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (رفع القلم عن ثلاثة)^(٢) وذكر منهم المجنون حتى يفيق .

فالأصل أن الإنسان لا يقدم على العمل إلا بنية ولا يلتفت إلى ما يرد بعد ذلك .

وبعض العلماء يرى أن النية يجب أن تشمل نية عين الفرض الذي سيصليه ، ولا يكفي نية فرض الوقت ، بل يعين ظهرا أو عصرا .. وهكذا ، فينوى اسم الفريضة ولا يكفي أن ينوى فرض الوقت .

والقول الثاني أنه يكفي نية فرض الوقت الحاضر ، وأظن أن أكثر الناس ينوى هذه النية لاسيما إذا جاء والإمام راع وهو حريص على إدراك الصلاة ، فنقول لا يشترط في نية الصلاة أن تنويها ظهرا أو عصرا وإنما يكفي أن تنوى فريضة الوقت الحاضر لأن أكثر الناس يغيب عنهم تعيين النية لصلاة معينة وإنما ينوون فريضة الوقت .

وكذلك يأتي في مسألة النية سؤال : هل يجوز إدخال النية على النية أي ينوى عبادتين في صلاة واحدة ؟ والجواب في ذلك أن العبادة أو العمل إذا

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢ / ٤ . كتاب الأقضية .

(٢) رواه أحمد وأصحاب السنن والحاكم .

كان مراداً لذاته فإنه لا تجزئ عباداً عن عبادة أخرى . وإن كانت العبادة أو العمل غير مراد لذاته وإنما المراد وقوع الفعل فإنه تجزئ النية عن الفعل الأول والثاني .

فمثلاً للظهر راتبتان قبلية وبعدية ، فلا يصح أن يصلي رجل صلاة واحدة بنية مركبة ، لأن كل راتبة مقصودة بذاتها وقد قصر الشارع منا أربعاً قبل الظهر وركعتين بعدها .

ولو دخل إنسان المسجد بعد الأذان وصلى راتبة الظهر فإنه تجزئه عن تحية المسجد ؛ لأن المقصود الفعل كما في قوله عليه الصلاة والسلام : (إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين)^(١) . فإذا وجد صلاة ركعتين فقد حصل المقصود سواء كانت نافلة أو راتبة أو فريضة أو أى شيء آخر ، فالمهم أن يوجد هذا الفعل .

فما قصد من الأعمال في ذاته فلا تداخل فيه ، وما قصد الفعل فقط جاز التداخل .

وهذا شبيهه بقولنا فرض عين وفرض كفاية ، ففرض العين مراد من كل شخص بذاته وفرض الكفاية المراد به حصول الفعل كالأذان إذا وجد من أى فرد فقد وجد المقصود ، ولكن صلاة الجماعة فرض عين على كل واحد ، فلو صلى عشرة لم يسقط الفرض عن بقية الناس .

ولو أراد رجل أن يستخير فصلى راتبة الظهر واستخار بعدها فيجزئ ذلك ولا يلزم ركعتان للاستخارة لاسيما وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فليصل ركعتين من غير الفريضة)^(٢) فيشمل أى نافلة . وكذلك لو أن رجلاً توضأ وصلى الراتبة بعد الوضوء فتكفى عن الركعتين بعد الوضوء ؛ لأن المقصود ركعتان بعد الوضوء سواء نويت بها راتبة أو نفلاً مطلقاً أو كانت فريضة ؛ لأن المقصود هو الفعل أن يصلى الإنسان لله تعالى بعد هذا الوضوء .

ثم ضرب النبي صلى الله عليه وسلم مثلاً بالهجرة فقال : (فمن كانت

(١) رواه الجماعة .

(٢) رواه البخارى فى كتاب التوحيد ، باب (١٠) .

هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه) . والهجرة من الهجر وهو الترك ، والهجرة هي انتقال الإنسان من دار الكفر إلى دار الإسلام ، كانتقال المسلمين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة قبل فتح مكة .

وقد يهاجر الرجلان وعملهما واحد ولكن بينهما في الثواب كما بين السماء والأرض ، فقد يهاجر رجل للدين وتعلم الشرع ويهاجر آخر للتجارة وكسب المال ، وقد يهاجر الرجل من دار الكفر لبلد الإسلام ولكن ليتزوج امرأة .

وقد نكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في القسم الأول (فهجرته إلى الله ورسوله) ، وفي القسم الثاني (فهجرته إلى ما هاجر إليه) ولم يقل (فهجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها) ففي الثاني لم يصرح مع تصريحه في الأول ، وذلك للتعظيم في شأن الأول وأبهم في الثاني تحقيرا لشأن الهجرة .

حديث عائشة رضى الله عنها

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) . رواه البخارى ومسلم ، وفى رواية لمسلم : (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)^(١) .

عائشة هى بنت أبى بكر الصديق ، تزوجها النبى صلى الله عليه وسلم وهى صغيرة لها ست سنوات ، ودخل عليها وهى صغيرة أيضا لها تسع سنوات ، ومات عنها ولها ثمانى عشرة سنة ، وكان عندها من العلم الكثير الذى نفع الله به الأمة ، وكنيتها أم عبد الله ، والصحيح أنها لم تلد وقيل إنها تكنت بابن أختها عبد الله بن الزبير .

قوله : (أحدث) أى أتى بشئ جديد .

(فى أمرنا) أى فى ديننا .

(ما ليس منه) أى باعتبار الشرع .

(رد) بمعنى (مردود) ، وهذه الكلمة اسم مصدر ، والفعل (رد) ، والمصدر هنا بمعنى اسم المفعول (مردود) ويأتى المصدر بمعنى اسم المفعول ولذلك شواهد من اللغة ، منها كلمة (الحمل) فهى بمعنى (المحمول) كما فى قوله تعالى : « وإن كن أولات حمل »^(٢) أى محمول .

وفى هذا الحديث يخبر النبى صلى الله عليه وسلم بجملة شرطية أن من أحدث فى دين الله ما ليس منه فهو رد مردود على صاحبه ، حتى إن كان أحدثه عن حسن نية فإنه لا يقبل منه ؛ لأن الله لا يقبل من الدين إلا ما شرع .

ولهذا كان من القواعد المقررة عند أهل العلم أن الأصل فى العبادات الحظر والمنع حتى يقوم دليل على المشروعية ، قال سبحانه : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله »^(٣) وهذا إنكار .

(١) تقدم تخريجه .

(٢) سورة الطلاق : الآية ٦ .

(٣) سورة الشورى : الآية ٢١ .

وعلى العكس من ذلك فالأصل فى المعاملات والأفعال والأعيان الإباحة والحل حتى يقوم دليل على المنع .

فالأعمال - أى غير التعبدية - مما يكون فى البيت أو السيارة أو الثوب ، والأعيان مثل المأكولات والمشروبات والأواني والمسكنات والملبوسات فلو قال أحد : هذا اللحم حرام . قلنا : ما الدليل ؟ إذا كان آتيا ممن تحل ذبيحته . أما لو كان ببلد كفر وأهلها ممن لا تحل ذبيحتهم فالأصل أن الذبيحة حرام مثل أن يكون أهل البلد وثنيين أو مجوسا أو شيوعيين ، وكذلك المرتدون كمن لا يصلى مثلا .

وهذا الحديث ورد فى العبادات وهى التى يقصد الإنسان بها التعبد والتقرب إلى الله ، فنقول لمن يزعم شيئا عبادة : هات الدليل على أن هذا عبادة ، وإلا فقولك مردود .

ويحتاج هذا الحديث إلى تحرير بالغ .

فأولا : ينبغى معرفة هل هذا عبادة أم عادة .

فمثلا لو أن رجلا قال لصاحبه الذى نجا من هلكة : ما شاء الله ، هنيئا لك . فقال له رجل : هذه بدعة . فهذا القول غير صحيح ؛ لأن هذا من أمور العادة وليس من أمور العبادة . وفى الشرع ما يشهد لهذا حيث جعل الناس يهنتون كعب بن مالك بتوبة الله عليه فى حديثه الطويل . وكثير من التهانى التى تحدث بين الناس لا يزعم أحد أنها بدعة إلا بدليل ؛ لأنها أمور عادات لا عبادات ، وكمن قابل رجلا نجح فى امتحان فقال له : مبروك . فمن يقول هذه بدعة غير محق فى ذلك .

وإذا تردد الأمر بين كونه عبادة أو عادة فالأصل أنه عادة ولا ينهى عنه حتى يقوم دليل على أنه عبادة .

وتوجد أشياء ابتدعها الناس فى دين الله ، كإحداث أنكار معينة بصيغ وعدد ووقت وهى لم تشرع على هذا الوجه لا فى الزمن ولا العدد ولا الهيئة كمن يسبح ألف مرة ويلتزم بذلك ويجعله فى الصباح مثلا ، فهذا العمل بدعة ، مردود على صاحبه لا ثواب له .

فإن قال : كيف تنكرون أن أقول سبحان الله ؟ فنقول : نحن لا ننكر عليك سبحان الله ، بل ننكر عليك أن تأتي بها على هذه الصفة التي لم ترد ، أما أن تسبح آناء الليل وأطراف النهار تسبيحا غير مقيد بزمان ولا عدد ولا هيئة فلا ننكر عليك .

وكذلك ما يحدث في ليلة الثاني عشر من ربيع الأول من اجتماع الناس وإتيانهم بصيغ من الصلاة والسلام على رسول الله لم ترد عن الرسول ولا أصحابه بل هي محشوة من الغلو في رسول الله الذي حذر أمته منه ، يأخذون في ترانيم على صفات معينة ، فكل هذا بدع مردودة .

وإذا قالوا : نحن نصلى على رسول الله لننال ثواب الصلاة عليه . فنقول لهم : تحديدها بزمان وعدد معين وصيغة معينة قد تكون غير واردة أو منهي عنها ، كل هذا جعلها بدعة مردودة .

واعلم أنك لن تحدث بدعة في دين الله إلا انتزع الله من قلبك من السنة ما يقابل هذه البدعة ؛ لأن القلب وعاء إن ملأته بالخير لم يبق فيه مكان للشر ، وإن ملأته بالشر لم يبق فيه مكان للخير ، وإذا ملأته بالسنة لم يبق فيه مكان للبدعة ، وإذا ملأته بالبدعة لم يبق فيه مكان للسنة .

وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية : تجد هؤلاء الحريصين على البدع عندهم قصور وفقر في اتباع السنن ، ولا يكادون يأتون بها على الوجه المطلوب .

ولذلك فإذا تعبد إنسان في ليلة السابع والعشرين من شهر رجب بعبادات من أنكار وصلوات على رسول الله وغير ذلك ، فهذه بدعة ، ونجيب على من يفعل ذلك من وجهين : الأول أنه لم يثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عرج به في هذه الليلة ، وهذا يبطل كل ما ينبنى على هذا . والوجه الثاني : لو سلمنا بذلك فهذا لا يقتضي أن نثبت لها شيئا من العبادات ؛ لأن الصحابة لم يجعلوا فيها شيئا من هذه العبادات ، والواجب على المؤمن أن يتبع ما جاء به الشرع ، ولو اتبعنا ما كان عليه سلفنا الصالح فعلا وتركنا صرنا أسعد مما نحن عليه اليوم .

وهذا الحديث كذلك ميزان للأعمال الظاهرة ، كما أن حديث عمر في النية ميزان للأعمال الباطنة ، فحديث عائشة عن المتابعة ، وحديث عمر عن النية ، والعبادة لا تقبل إلا بالإخلاص والمتابعة .

وهنا نذكر مثلا ما يفعله الناس من التسابق على الجليد ، فهذا لا ينكر عليه ؛ لأن هذا من العادات لا من العبادات ، وكذلك المصارعة فيما لا ضرر فيه ، فإن اشتمل على ضرر كان حراما ، ليس لأنه بدعة ، بل لما فيه من الضرر .

فالبدعة تكون في الأمور التعبدية ، أما أمور العادات فإن كان فيها ضرر منعت وإلا فالأصل فيها الحل .

وكذلك من لبس لباسا غير معهود ولم ينه الشرع عنه فلا ننكر عليه .

ولو أن رجلا داوم على حلق رأسه كلما نبت شعره حلقه ، فهذا من الأمور العادية ، ولهذا لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم غلاما قد حلق بعض رأسه ، فقال : (احلقه كله أو اتركه كله)^(١) . وهذا دليل على أنه ليس من باب العبادة وإلا لأرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى إبقاء الشعر ، ولهذا فالراجح من أقوال أهل العلم أن إطلاق الشعر من الأمور العادية إن اعتادها الناس فعلت وإلا فلا .

ولو لبس الإنسان لباسا يخالف العادة ولكنه غير محرم شرعا فلا يشرع ؛ لئلا يكون لباس شهرة ، ولباس الشهرة هو الذي يشتهر به الإنسان حتى يقال هذا الثوب مثل ثوب فلان ، وقد يكون بالدون وقد يكون بالأعلى ، حتى قال بعض العلماء : لو أن رجلا فقيرا لبس ثياب الأغنياء صار في حقه ثوب شهرة ، ولو أن رجلا غنيا لبس ثياب الفقراء صار في حقه ثوب شهرة . وإنما يلبس كل إنسان ما يناسب حاله .

واليوم والحمد لله لم يعد هناك فرق كبير بين ثوب الغنى والفقير . وبناء على ما تقدم فإنه لا يستحب أن يقصد العمرة في ليلة السابع

(١) رواه أبو داود في كتاب الترجل ٤ / ٨٣ .

والعشرين من رمضان ، ومن قصد ذلك فقد أتى بشيء لا دليل عليه ، فليلة القدر وإن كان لها خاصية لكنها لا تطلب بأداء العمرة فيها بل بقيامها لقول النبي صلى الله عليه وسلم : (من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه)^(١) . ولم يقل من اعتمر . وقال صلى الله عليه وسلم : (عمرة في رمضان تعدل حجة)^(٢) ولم يقل عمرة في ليلة سبع وعشرين تعدل حجة .

فننصح لإخواننا الذين يريدون وجه الله أن تكون أعمالهم موافقة لشرع الله سبحانه لأن مجرد إخلاص النية وإرادة وجه الله لا يكفي في قبول العمل كما سبق بيانه . ولم أجد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يدل على استحباب العمرة ليلة السابع والعشرين ، بل هي كغيرها من أيام رمضان في فضل الاعتكاف لما سبق من قوله عليه الصلاة والسلام : (عمرة في رمضان) .

ولا يفيد الإنسان أن يعبد الله بالعاطفة بدون أصل شرعى يرجع إليه لأن ذلك اتباع للهوى ، فللشرع حدود معينة مضبوطة من كل وجه حتى لا يتفرق الناس فيها شيئا كل حزب بما لديهم فرحون .

ثم إن ليلة القدر ليست مخصوصة بليلة سبع وعشرين ، فالنصوص الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تدل أنها تنتقل في الأعوام ففي عام تكون ليلة ثلاث وعشرين وفي آخر ليلة خمس وعشرين وغيره ليلة تسع وعشرين ، وثمان وعشرين ، وست وعشرين ... وهكذا .

وقد ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم اعتكف العشر الأوسط ابتغاء ليلة القدر فخرج على أصحابه ليلة إحدى وعشرين وأخبرهم أنه كان يعتكف طلبا لليلة القدر وأنه أرى ليلة القدر في العشر الأواخر ولكنه أنسيها حكمة من الله تعالى ، وقال عليه الصلاة والسلام : (وقد رأيتني أسجد في صبيحتها في ماء وطين) . قال أنس : فمطرت السماء تلك الليلة فقام رسول الله عليه الصلاة والسلام يصلى الفجر فرأيت على جبهته أثر

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) رواه أحمد وابن ماجه .

الماء والطين . وكانت تلك ليلة إحدى وعشرين . وقال عليه الصلاة والسلام : (التمسوها في خامسة تبقى ، في رابعة تبقى ، ...) إلى آخر الحديث .

وهذا يدل أنها تنتقل ولا تتعين في ليلة سبع وعشرين . ونرى كثيرا من المسلمين يجتهدون في ليلة سبع وعشرين ويتساهلون فيما عداها ، وقد تكون في غيرها فيحرمون خيرها .

وينبغي للإنسان أن يجتهد في تلك الليالي كلها في الدعاء بقلب خالص وأمل في الله سبحانه ، وأن يحرص على اجتناب أكل الحرام ؛ لأنه من أسباب رد الدعاء ، وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام : (إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ...) وفي الحديث : (ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ، وملبسه حرام ومشربه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب له)^(١) . فذكر النبي صلى الله عليه وسلم من أسباب إجابة الدعاء السفر وهو مظنة للإجابة . وكذلك ذكر الشعث والغبر ولاشك أن كون الإنسان غير مترف ولا مهتم بأمور ملبسه ومظهره بل مهتم بإصلاح قلبه ، وكذلك ذكر مد اليدين إلى السماء وهو من إظهار الافتقار إلى الله وإظهار الضعف والحاجة لله سبحانه ، وذكر كذلك قوله يا رب يا رب . ودعوة الله بهذا الاسم هو توسل إلى الله بأسمائه وخلقه للناس وربوبيته لهم .

ثم ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مأكله ومشربه وملبسه وغذاه كله من حرام ، فيمنع إجابة الدعاء .

و (أنى) للاستفهام بمعنى الاستبعاد ، أى بعيد أن يستجيب الله له .

ولهذا فأحذر إخواني ونحن في هذا المكان - بيت الله الحرام - من أكل الحرام ، وهو ليس فقط كما يظن البعض أكل الخنزير والميتة وشرب الخمر بل يشمل أكل الحرام لذاته كهذه الأشياء وأكله لكسبه بأن يكون الشيء حلالا ثم يصير حراما كالمغصوب والمسروق .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٧ / ١٠٠ - كتاب الزكاة حديث (٦٥) .

وكذلك المراهى ومن يأكل الربا سواء بصراحة أو بتحايل ، والحيلة فى ذلك أقبح من الصراحة لأنها تتضمن مفسدتين : المحرم والمخادعة والخيانة لله سبحانه ، وهذا لا يخادع إلا نفسه فالله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

وكذلك الذى يكسب المال بالغش والخداع ، فيظهر السلعة بمظهر طيب وهى رديئة فيظنها المشتري جيدة ويدفع فيها الثمن الكثير وهى فى الحقيقة لا تساوى هذا الثمن . وقد يظن هذا البائع الغشاش أنه ربح ولكنه فى الحقيقة خاسر ؛ لأن المغبون سيأخذ من حسناته يوم يكون أحوج إلى الحسنة من الدنيا وما عليها ولا يستطيع أن يفدى نفسه .

وقد مر النبى صلى الله عليه وسلم بصاحب تمر فأدخل يده فى التمر فإذا أسفله مبلول ، فقال : (ما هذا يا صاحب الطعام) ؟ فقال : أصابته السماء يا رسول الله . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (من غش فليس منا)^(١) . وكان الواجب على هذا أن يظهر الردىء حتى يعرفه الناس .

ومن ذلك أيضا الكسب عن طريق الكذب ، كمن يحلف أن هذه السلعة تساوى مائة وهى لا تساوى أكثر من خمسين ، وقد يغتر من لا يعرف سعر هذه السلعة ، فهذه الزيادة قد جاءت بالكذب وقد يزين له الشيطان أن المشتري قد اشترى برضاه ، ولكن نقول له : لو علم المشتري أن القيمة الحقيقية أقل مما دفع فإنه لن يرضى ، فهو إذن لم يشتر عن تراض بل بكذب وتغرير ودجل .

وقد تجد من يبيع السلعة بمائة ويبيعها من بجواره بخمسين ، ولا شك أن هذا فرق كبير ليس مما يجرى به العرف ويوجد بين الناس عادة ويتراضون به .

(١) رواه مسلم .

حديث عبد الله بن مسعود

عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : (إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد ، فالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها) . متفق عليه^(١) .

قوله صلى الله عليه وسلم : (فيؤمر بكتب أربع كلمات : رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد) . يرد فيه إشكال حيث جاء فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم : (من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أثره فليصل رحمه)^(٢) . فيفهم منه أن الأجل يتمدد ، والجواب أنه محدد ، وأن من كتب له أن يموت فى مدة معينة فإنه لا يتعدها ولا ينقص عنها ، وأن من وصل رحمه فقد كتب له فى الأصل أنه واصل وأن أجله ممدود ، والفائدة من قوله عليه الصلاة والسلام : (من أحب) هى حث الناس على صلة الرحم ؛ ليكتب له هذا كغيره من الأسباب التى تترتب عليها مسيباتها .

وفى هذا الحديث أيضا أن عمل الجنين يكتب وهذا يشمل العمل الصالح والسيء ؛ لأن كلمة (عمل) مفرد مضاف ، وهو يكون للعموم ، والدليل قوله تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » فكلمة نعمة مفرد ، وكلمة لا تحصوها تدل أنه مفرد يعم الجمع . فكل مفرد مضاف يفيد العموم .

وعمل الإنسان كتب قبل أن تخلق السموات والأرض بخمسين ألف

(١) رواه البخارى فى مواضع من صحيحه منها باب (٢٨) من كتاب التوحيد - حديث (٧٤٥٤) فتح ١٣ / ٤٤٩ . ومسلم فى أول كتاب القدر من صحيحه . صحيح مسلم ٤ / ٢٠٣٦ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب البيوع - باب من أحب البسط فى الرزق - فتح البارى ٤ / ٣٠١ .

سنة ، ولهذا سئل النبي صلى الله عليه وسلم عما نعمله فى هذه الدنيا من أعمال الدنيا والآخرة هل هو شيء مستأنف أو شيء قد فرغ منه ؟ فأخبر أنه قد فرغ منه ، وقال : (ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار) قالوا : يا رسول الله ، أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب الأول ؟ قال : (لا ، اعملوا فكل ميسر لما خلق له)^(١) .

فعملك مكتوب ، ولكن لو سئلت هل تعلم ما كتب لك من العمل ؟ ولا تدري ماذا يكون لك فى الغد « وما تدري نفس ماذا تكسب غدا » فإذا كنت لا تدري فإنه يبطل احتجاجك بالقدر ، ولهذا أبطل الله حجة الذين يحتجون على شركهم بالقدر ، فقال سبحانه : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا »^(٢) ووجه إبطال هذه الحجة قوله تعالى : « حتى ذاقوا بأسنا » ولو كان لهم حجة فى ذلك ما أذاقهم الله بأسه ، فإذا كنت لا تدري ماذا كتب لك فلا احتجاج لك بالقدر ، ولهذا فأنت لا تدري ماذا كتب لك من الرزق ، ولهذا تسعى فى طلب الرزق ، والعمل كالرزق مقدور لك ولكن يجب عليك أن تسعى للعمل كما تسعى للرزق أو تقوم بطاعة الله .

وكذلك فلا احتجاج لأحد بالقدر على معصية الله ، فمن الناس من إذا أمرته بالطاعة أجابك بكلمة حق أريد بها باطل ، فيقول : نسأل الله أن يهدينا . ولا شك أن الإنسان ينبغي أن يسأل الله الهداية لكن هذا أراد بقوله دفع اللوم عن نفسه ولو كان صادقا فى طلب الهداية لجد فى الهداية وعمل لها . فكما أنك لن ترزق الولد بمجرد التمنى بل لابد أن تأخذ بأسبابه فتزوج فإنك لكى تنال الهداية لابد أن تتجه إلى ربك ، وإذا اتجهت إليه سبحانه فثق أن ما يؤتيك الله سبحانه أكثر من عملك . وفى الحديث القدسي : (من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن

(١) فتح البارى ١٣ / ٥٢١ . كتاب التوحيد من صحيح البخارى .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٤٨ .

سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيزنه (١) . فانظر ما يؤتيك الله سبحانه وتعالى إذا تقربت إليه بكون سمعك وبصرك ويدك ورجلك ، أى يسددك فى جميع أعمالك ، فى كل ما تدركه بجوارحك ، وإذا سألته أعطاك وإذا استعذت به أعذك .

وثبت كذلك عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه أخبر عن ربه أن من تقرب إلى الله شبرا تقرب الله إليه ذراعا ومن تقرب إليه ذراعا تقرب إليه باعا ومن أتاه يمشي أتاه الله هرولة . فأقبل على ربك تجد أكثر بكثير من عملك ، أما أن تعرض وتقول : أسأل الله أن يهدينى . فهذا أشبه ما يكون بالاستهزاء بالله سبحانه .

ولهذا فنقول لمن يزعم أنه يترك العمل ويتكل على ما كتب ، نقول له : اعمل فقد جاءتك الرسل ونزلت الكتب وبين الخير ورغب فيه ، وبين الشر وحذر منه ، وأوتيت عقلا فلا عليك إلا أن تقوم بما يقتضيه هذا العقل من اتباع ما جاءت به الرسل . ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) ثم تلا قول الله عز وجل : « فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى » .

وهؤلاء الذين يحتجون بالقدر لو ضربهم أحد أو أخذ مالهم ثم احتج عليهم بأن هذا قضاء وقدر فلا يقبلوا ، ولهذا فالاحتجاج بالقدر إبطال للشرع ؛ لأن كل من يقترب إثما من زنا أو قتل أو شرب خمر وغيره سيقول هذا قضاء وقدر فتفسد الأرض ويفسد الشرع .

وقد ذكر أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أتى بسارق فأمر بقطع يده ، فقال السارق : مهلا يا أمير المؤمنين ، والله ما سرقته إلا بقضاء الله وقدره . فقال عمر : ونحن نقطع يدك بقضاء الله وقدره . فاحتج عليه عمر بما احتج به هو على عمله السيئ .

وقد يورد البعض هنا ما جاء فى السنة من احتجاج آدم على موسى

(١) رواه البخارى .

بقوله : أتلومنى على شئ كتبته الله علىّ قبل أن أخلق . وذلك حين قال موسى لآدم : خيبتنا ، أخرجتنا ونفسك من الجنة ... فقال النّبي عليه الصلاة والسلام : (فحج آدم موسى)^(١) أى غلبه فى الحجة .

فقال أهل العلم : إن موسى لم يلم آدم على ما وقع منه من المعصية والأكل من الشجرة وإنما ذكر المصيبة وهى الإخراج من الجنة . وموسى أعلم وأفقه وآدب من أن يلوم أباه على ذنب قد تاب منه ، وقال الله فيه : « وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى »^(٢) وإنما كان العتب من جهة الإخراج من الجنة وهى مصيبة ويجوز للإنسان أن يحتج بالقدر على المصيبة ؛ لأنها ليست من فعلك بل من تقدير الله .

ونظير ذلك رجل سافر فأصيب فى سفره بحادث فجئت تلومه على سفره فلا يتوجه هذا اللوم لأنه لم يسافر من أجل الحادث وسيقول لك : هذا بقضاء الله وقدره . ويقبل منه هذا .

وهكذا لم يأكل آدم من الشجرة من أجل أن يخرج من الجنة ولكن الشيطان وسوس له وقاسمه وغره ففسى ما عهد الله إليه ألا يقرب هذه الشجرة فحصلت المصيبة وأخرج من الجنة .

فاحتجاج آدم بالقدر على المصيبة ، وهذا جائز لا بأس به .

وكذلك يورد البعض هنا ما جاء أن النّبي صلى الله عليه وسلم جاء إلى على وفاطمة رضى الله عنهما وهما نائمان لم يقوما لصلاة الليل ، فكأنه لأمهما ، فقال على : يا رسول الله ، إن أنفسنا بيد الله . يعنى كنا نائمين ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضرب على فخذة ويقول : (وكان الإنسان أكثر شئ جدلا)^(٣) . فقال المحتجون بالقدر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينكر على على احتجاجه بالقدر .

وأجاب أهل العلم على ذلك ، فأجاب عنها ابن القيم بأنهما لم يحتجا على الاستمرار فى المعصية وإنما على أمر قد فرغ وانتهى ، وفرق بين شخص

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٦ / ٢٠٠ - كتاب القدر حديث (١٤) .

(٢) سورة طه : الآيتان ١٢١ ، ١٢٢ .

(٣) رواه البخارى والترمذى وأحمد بن حنبل .

يحتج بالقدر على أمر قد مضى وهو نادى عليه ويعزم ألا يعود إليه وبين شخص يحتج بالقدر ليبرر استمراره على المعصية فالأول يقبل والثانى لا يقبل .

وهذا وجه جيد أن الإنسان إذا أصاب معصية وندم واحتج بالقدر بعد ندمه وتوبته فلا بأس بذلك ولا حرج ، وليس كذلك من يحتج بالقدر ليبرر خطاه ويستمر عليه ، فهذا لا يقبل أبدا .

وإن قال قائل : ما الجمع بين إبطال الله احتجاج المشركين على شركهم بمشيئته وما أثبتته الله أن شركهم وقع بمشيئته ، فقد قال سبحانه : « ولو شاء الله ما أشركوا » مع ما سبق فى قوله تعالى : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا » فالجمع أنهم يحتجون بالمشيئة لدفع اللوم والعتاب ويقولون : إن تعذيب الله لهم ظلم بزعمهم أنه قدره عليهم ثم يعاقبهم عليه . أما الآية الأخرى فهي تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإعلام أن لله تعالى حكمة فى وقوع الشرك من بنى آدم ولو شاء سبحانه لجعل الناس أمة واحدة على الحق لكن ليلو بعض الناس ببعض .

ثم قال عليه الصلاة والسلام : (وشقى أم سعيد) . الشقاء هو الخيبة وعدم إدراك الآمال . والسعادة هي النجاه والفلاح وحصول الأمل . وهما فى الدنيا والآخرة ، فالشقى فى الدنيا شقى فى الآخرة والسعيد فى الدنيا سعيد فى الآخرة ، ولكن سعادة الدنيا ليست بكثرة المال والولد والمتاع وإنما بالعمل الصالح ، ودليل ذلك قوله تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة »^(١) فلا حياة طيبة إلا لمن عمل صالحا وهو مؤمن ، سواء كان ذكرا أو أنثى .

وحياة المترفين ليست طيبة ، لأن لديهم من التلخيص والنكد ما يتكدر به العيش ، فتجده إذا فاتته ذرة من الترف انقبض وانزعج وأصيب بالضغط والبلاء ، أما المؤمن فلو فاتته هذا الشيء فهو مطمئن راض بقضاء الله وقدره لا يهمه هذا الشيء مادام من عند الله . ولهذا فالمؤمن بين أمرين إما شكر على نعمة وإما صبر على ضراء ، كما قال عليه الصلاة والسلام : (عجا

(١) سورة النحل : الآية ٩٧ .

لأمر المؤمن إن أمره كله له خير إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له (١) .

وقال بعض السلف : لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف . وقد صدق والله ، فالملوك وأبناء الملوك في ترف ، لكن المؤمن وإن لم يكن في ترف فهو في نعيم قلب ، فالإنسان تكتب سعادته وشقاوته وهو في بطن أمه ، لكنه لا يعذر بترك السعى للسعادة بل هو مأمور بأن يسعى لما فيه سعادته وفلاحه في الدنيا والآخرة .

ثم قال في الحديث : (فوالذي نفسى بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها) .

هاتان الجملتان فيهما خوف شديد ، وفيهما رجاء عظيم ، فالخوف من أن يعمل الإنسان بعمل أهل الجنة ثم يختم له بالنار - والعياذ بالله - والعكس بالعكس ، وهذا شيء مشاع في هذا وفي هذا ، وكله قد وقع في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان مع النبي عليه الصلاة والسلام في إحدى المعارك رجل شجاع مقدام لا يدع شيئا للكفار إلا قضى عليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هذا من أهل النار) فعظم ذلك على الصحابة ، إذ كيف يكون من أهل النار وعمله عمل أهل الجنة . فقال رجل : والله لألزمه . فتابعه ، فبينما هو يقاتل أصابه سهم ، فحزن وغضب ورأى أنه لا خير له في البقاء بعد هذا ، فأخذ بسيفه ووضع على صدره واتكأ عليه حتى خرج السيف من ظهره ، فقتل نفسه ، ومعلوم أن قاتل نفسه في النار ، ولهذا لم يصل النبي صلى الله عليه وسلم على قاتل نفسه ، فقاتل نفسه يعذب في النار بما انتحر به خالدا فيها مخلدا .

فلما أصبح الرجل الذي كان يراقبه ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : أشهد أنك رسول الله . فقال : (ماذا ؟) قال : إن الرجل الذي قلت إنه من أهل النار حدث له كذا وكذا . فقال رسول الله صلى الله

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٨ / ١٢٥ - كتاب الزهد حديث (٦٤) .

عليه وسلم : (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار)^(١) .

فهذا يبين ما جاء فى الرواية الأولى وهو أن المقصود بقوله عليه الصلاة والسلام : (ليعمل بعمل أهل الجنة) أن ذلك فيما يبدو للناس وهذا والحمد لله يخفف الأمر .

وقوله عليه الصلاة والسلام : (حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع) أى : حتى يقترب أجله ، فهو فيما يبدو للناس يعمل بعمل أهل الجنة ، أما فيما يخفى على الناس فى قلبه سريرة خبيثة أودت به وأهلكته ولهذا فأنا أحت دائما أن يحرر الإنسان قلبه ويراقب قلبه ، فأعمال الجوارح بمنزلة الماء تسقى به الشجرة لكن الأصل هو القلب ، وكثير من الناس يحرص ألا يخطئ فى العمل الظاهر وقلبه ملئ بالحقد على المسلمين وعلمائهم وعلى أهل الخير ، وهذا يختم له بسوء الخاتمة والعياذ بالله ، لأن القلب إذا كان فيه سريرة خبيثة فإنها تهوى بصاحبه فى مكان سحيق .

فالحسد ، وهو كراهية نعمة الله على الآخرين وإن لم يتمن زوالها ، وقد اشتهر بين العلماء تعريف الحسد بأنه تمنى زوال نعمة الله على الغير ولكن المعنى الدقيق للحسد هو كراهية نعمة الله على غيره سواء تمنى زوالها أو لم يتمن .

وهذا الحسد موجود فى كثير من الناس وهو من خصال اليهود كما هو من خصال إبليس لعنه الله ، فقال تعالى : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم »^(٢) فإذا وجدت فى قلبك حسدا على المسلمين جماعات أو أفرادا فاعلم أن فى قلبك خصلة من خصال اليهود والعياذ بالله ، فطهر قلبك من هذا الحسد ، واعلم أن هذا الخير الذى فيه غيرك إنما هو فضل من الله فلا تعترض على فضل الله ولا تكره تقدير الله : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله »^(٣) .

(١) انظر البخارى - توحيد باب (٢٨) ومسلم بشرح النووى ١٦ / ١٩٩ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٠٩ .

(٣) سورة النساء : الآية ٥٤ .

وكذلك البغضاء ، بغض المؤمنين أو دين الإسلام حتى وإن كان الشخص لا ينفذه لقول الله تعالى : « ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم »^(١) ولا إحباط للعمل إلا إذا كان هناك كفر .

فليلاحظ الإنسان قلبه فيزيل عنه الحسد والبغضاء والحقد والكراهية والغل ويجعله صافيا مخلصا لله تعالى وصافيا للمؤمنين .

وأیضا فمن أسباب سوء الخاتمة محبة الكفار ؛ لأنها سريرة خبيثة ، بل الواجب على المسلم محبة المسلمين وموالاتهم وكراهية الكفار ومعاداتهم ، فإذا كان الأمر بالعكس عند أحد الناس فذلك أمر خطير يخشى على صاحبه أن يختم له بسوء الخاتمة .

والمعاملة بالربا أيضا من أسباب سوء الخاتمة ، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) أن رجلا من الناس كان يعامل بالربا ، فلما حضرته الوفاة جعلوا يلقنونه الشهادة فيقول : عشرة ، أحد عشرة . لأنه ليس في قلبه إلا إرادة الدنيا فختم له بسوء الخاتمة ؛ لأن الربا من أعظم الذنوب ، حتى قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : إنه ورد فيه من الوعيد ما لم يرد على أي ذنب آخر دون الكفر ، ولو لم يكن فيه إلا قول الله تعالى : « يأيتها الذين آمنوا اتقوا الله وذرّوا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله »^(٢) والمحارب لله ورسوله يجب أن يكون حربا على المؤمنين أيضا ؛ لأن المؤمن يوالى من والاه الله ورسوله ويعادى من عاداه الله ورسوله . أسأل الله لى ولكم حسن الخاتمة وأن يتوفانا على الإيمان وأن يهب لنا منه رحمة إنه هو الوهاب .

ومما ورد من الأمثلة على أن من أكرمه الله سبحانه بحسن الخاتمة مع ما كان عليه من عمل أهل النار ، ما وقع للأصيرم من بنى عبد الأشهل ، فقد كان رجلا كافرا ، ولما سمع الصيحة لغزوة أحد خرج إلى القتال ، فقاتل

(١) سورة محمد : الآية ٩ .

(٢) سورة البقرة : الآيتان ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

حتى قتل ، فنظر إلى أصحابه وهو في آخر الرmq ، فقالوا : ما الذى جاء بك ؟ فقد علمنا أنك تكره هذا الأمر . فأخبرهم أنه خرج عندما سمع الهيعة ، وطلب منهم أن يبلغوا رسول الله منه السلام ، فصار خاتمة هذا الرجل الشهادة وماله السعادة .

حديث النعمان بن بشير

عن أبي عبد الله النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إن الحلال بين ، وإن الحرام بين ، وبينهما أمور مشتبّهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ؛ كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب)^(١) .
رواه البخارى ومسلم .

هذا الحديث حدث به النعمان بن بشير رضى الله عنه ، وقال : إنه (سمع النبى صلى الله عليه وسلم) ؛ وهذه الصيغة هى أعلى صيغ الأداء ، وأبلغ ما يكون فى التحمل .

والتحديث : يكون عن تحمل وعن أداء ؛ فالأداء إبلاغ الحديث إلى الغير ، والتحمل : تلقى الحديث من الغير ، فهنا واسطة ومبتدئ ، ومنتهى ؛ فالواسطة : هو الذى تحمل وعدى ، والمبتدئ : تحمل منه ، والمنتهى : معدى إليه ومبلغ إليه .

(يقول النعمان رضى الله عنه سمعت الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبّهات) فقسم النبى صلى الله عليه وسلم الأحكام إلى ثلاثة أقسام :

قسم بين حله ، وقسم بين تحريمه ، وقسم مشكوك فيه مشتبّه . وسيأتى إن شاء الله بيان الاشتباه .

فالحلال البين كحل الطعام ، كلنا يعرف أن الطعام حلال ، والحرام البين كتحريم الخمر ، كلنا يعلم أن الخمر حرام ، وهناك أمور مشتبّهة يشتبّه هل هى من المحرم أو ليست من المحرم ، وهذا الاشتباه يكون له سببان :

السبب الأول : هل ينطبق حكم الحل عليها .

(١) رواه البخارى ومسلم .

السبب الثانى : هل هذه من الأشياء المحللة ، أو لا ؟ .

فالأول : يكون بخفاء الدليل ، والثانى يكون بخفاء المدلول ؛ بمعنى هل الدليل يدل على التحريم أو لا ، هل يدل على الوجوب أو لا ؟ .

والثانى : هل هذا الشئ ممن يراد بالحديث أو مما لا يراد .

مثال ذلك : (غسل الجمعة واجب على كل مسلم)^(١) وآية : « وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا »^(٢) فوجوب الاغتسال من الجنابة بيّن ، ولهذا أجمع المسلمون على وجوب الغسل من الجنابة ، ولا إشكال عندهم فى هذا .

وغسل الجمعة : بعض العلماء بيّن عندهم ، وبعض العلماء وجوبه عندهم غير بيّن ؛ أى خفى .

فالذين قالوا غسل الجمعة واجب ، قالوا : لا أحد أفصح من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا مسلم ، ولا أحد أنصح لعباد الله من رسول الله وهذا مسلم ، ولا أحد أعلم بمراده منه صلى الله عليه وسلم بأحكام الله ، من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالرسول أعلم الناس بما يريد ، وأعلم الناس بأحكام الله .

فهذه ثلاثة أشياء : الأول : الفصاحة ، فكلام النبى صلى الله عليه وسلم غاية فى الفصاحة .

ثانيا : الإرادة ؛ النصح فالنبى صلى الله عليه وسلم كامل الإرادة فى كلامه ، والله ما أراد يوما من الدهر أن يتكلم بكلام يضل به الناس وحشاهم من ذلك صلى الله عليه وسلم ، بل كان يريد من الناس أن يعلموا أحكام شريعة الله .

الثالث : كمال العلم ، لا أحد أعلم بأحكام الله من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا كل المسلمين يقولون إذا سئلوا عن أحكام الشريعة ، يقولون الله ورسوله أعلم .

فاجتمع فى كلام الرسول صلى الله عليه وسلم كمال العلم ، وكمال

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) سورة المائدة : الآية ٦ .

الإرادة ، والثالث : كمال الفصاحة والبيان . وهو يقول : (واجب على كل محتلم) ثم إنه علق هذا الحكم بوصف يقتضى الإلزام ، والوصف هو قوله (على كل محتلم) والمحتلم : هو البالغ ، من الأمور الواضحة ، وقالوا بوجوب غسل الجمعة ، ولكن لاحظوا أن هذا الوجوب ليس عن حدث ، ولهذا لو أن الإنسان لم يغتسل للجمعة ثم صلى الجمعة فجمعته صحيحة ؛ لأن هذا ليس عن حدث ، بخلاف الذى ترك الغسل من الجنابة وصلى الجمعة ، فجمعته غير صحيحة باطلة .

وقال بعض العلماء بل إن هذا الحديث ليس بصريح فى الوجوب ؛ لأن الوجوب فى اللغة العربية قد يراد به التأكيد ، فيكون معنى واجب أى مؤكد ، أو متأكد على كل محتلم ، ولكن قيل لهم أين الصارف عن معنى الوجوب عن معنى التأكيد ، قالوا إن سمرة بن جندب روى عن النبى صلى الله عليه وسلم : (أنه قال من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت ومن اغتسل فالغسل أفضل)^(١) ، فكلمة (فبها) قالوا فبالرخصة أخذ ونعمت الرخصة ، (ومن اغتسل فالغسل أفضل) هذا دليل يوجب أن يجعل معنى واجب أى مؤكد ، قالوا : ودليل آخر : (أن عثمان بن عفان رضى الله عنه دخل وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يخطب الناس الجمعة فقال له عمر ما الذى أحركك قال : والله يا أمير المؤمنين مازدت حين سمعت النداء أن توضأت ثم جئت فقال له عمر : والوضوء أيضا ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : (إذا أتى أحدكم الجمعة فليغتسل) يعنى كيف تغتسل على الوضوء والرسول صلى الله عليه وسلم قال : (إذا أتى أحدكم الجمعة فليغتسل) ، قالوا : ولم يلزمه بالرجوع إلى بيته من أجل أن يغتسل ، ولو كان واجبا لألزمه أن يرجع إلى البيت ليغتسل .

لكن القول الراجح عندى أن غسل الجمعة واجب ، وأننا لا نستطيع أن نقابل الله يوم القيامة إذا سألنا ماذا أجبتكم المرسلين ، لا نستطيع أن نقول أجبنا ، فقلنا إن معنى واجب أى متأكد ، ونحن نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم أفصح الخلق وأعلمهم بحكم الله ، وأنصحهم لعباد الله ، لا يمكن

(١) أكمل .

أن يأتي بلفظ يحتمل الوجوب. وراجع في الوجوب ، ويريد غير الوجوب أبدا .

وأما أثر سمرة فمعلوم ما قيل في رواية الحسن عن سمرة ، ومن قرأ اللفظ : (من توضأ يوم الجمعة فيها ونعمت ومن اغتسل فبالغسل أفضل) علم أن هذا اللفظ يضعف أن يكون منسوبا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لأن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم في غاية ما يكون من الفصاحة .

والإنسان الذي تتكرر منه قراءة الأحاديث يمكن أن يعرف أن هذا لفظ النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن هذا ليس بلفظه ، وإن لم يرجع إلى السند فاللفظ فيه شيء من الركاكة .

وأما أثر عمر فهو لأن يكون حجة للقول بالوجوب أقوى من أن يكون حجة على القول بغير الوجوب ، ووجه ذلك أن عمر رضى الله عنه يبعد أن يوبخ عثمان بن عفان وهو من السابقين الأولين على ترك أمر مستحب أمام الناس ، ثم يستدل على هذا التوبيخ بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، والأصل في الأمر بالوجوب ، وأما كونه لم يأمره أن يذهب لكي يغتسل ؛ لأن أصل الغسل من أجل الصلاة ، ولو ذهب ليغتسل فربما تفوته الصلاة ، فيكون قد اشتغل بالوسيلة عن الغاية ، وهذا خلاف الحكمة ، وعلى هذا فليس في أثر عمر دليل على عدم وجوب الغسل .

فأنا أنصح كل واحد أن يغتسل للجمعة ، وألا يدع الغسل لأجل أن يحتاط لنفسه ، حتى لا تنشغل نمته وهو لا يدري .

فيه أيضا أشياء مشتبهة يشتبها دخولها في الحكم كالدخان مثلا ، فالذي يدخل الآن سيجارة هل هو حرام أم حلال ؟ ، فترى واحدا يقول هذا مكروه ، وآخر يقول هذا مباح ، وآخر يقول واجب . فما ندري ؟ ، وعلى كل حال ننظر ونقيس .

فالدخان قال بعض العلماء إنه ليس حراما ؛ لأن الله يقول : « هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً »^(١) وهذا مما خلق في الأرض أو في

(١) سورة البقرة : الآية ٢٩ .

السماء ؟ بل فى الأرض ، إذن فهو مخلوق لنا ، وما خلق لنا فهو لنا ننتفع به ما شئنا ، ولا أحد يمنعنا منه .

نقول له : إذن فى أشياء مخلوقة وهى حرام عليك فماذا تقول فى الخنزير ؟ حرام وهو مخلوق ، قال : الخنزير دل النص على تحريمه : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ »^(١) لكن هذا أين النص الذى دل على تحريمه ، هو حلال ، قال الثانى : لا هو واجب . وكيف هذا ؟ قال : لأن الإنسان يدوخ إذا لم يشربه ، وإذا أتى الصلاة وهو داخ لا يدري ما يقول فى صلاته ، لازم يشرب من أجل أن يعرف ما يقول فى الصلاة ، هذا أيضا مشكلة .

واختلف الناس فيه ، إذن هو من المشكوك فيه ؟ نعم ، فإذا تنزلنا تنزلا بالغا ، قلنا إنه من المشكوك فيه ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : (من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه) ولكن عند التأمل وبعد أن ظهر للناس الآن أن هذا الدخان ضار فى الصحة ، وفى التفكير ، وفى السلوك ، وفى المال ، تبين له أنه حرام ، وأنه ليس من الأمور المشكوك فيها ، صحيح أنه ليس من القرآن والسنة نص على الدخان أنه حرام ؛ لأنه لم يحدث إلا أخيرا ، لكن فى القرآن والسنة عمومات تشمل كل ما يحدث إلى يوم القيامة ، هو ضار بالصحة ، فقد اتفقت أطباء على أنه من أسباب أمراض خطيرة ، ومنها السرطان ؛ والسرطان مرض فتاك كل ينفر منه نفور الشاكى من الذئب .

إذن فهذه علة تقبل التحريم .

ثانيا : ضار فى التفكير ؛ لأن الإنسان إذا أبطأ عن شربه انغلق ذهنه وصار ما عنده التفكير ، ربما يمشى فى السوق لا يرى الناس ، وهذا أيضا ضرر ضار .

ثالثا : ضرر فى المال ، وقد رأيت كُتَيِّبا صغيرا ألّف أخيرا جزى الله من ألفه ، ذكر إحصائيات غريبة كيف يقضى الدخان على المال ، والإنسان

(١) سورة المائدة : الآية ٣ .

لا يدري ، فإذا كان يشرب فى اليوم ستين سيجارة والقيمة سبعة ريال فاضرب سبعة ريال فى ثلاثمائة وستين يوما ، تساوى ألفين وخمسمائة ريال وعشرين كل سنة ، وهذا مبلغ كبير كله بلا فائدة ، بل فيه مضرة للإنسان يقتل نفسه وهو لا يدري .

فهذه ثلاث مضرات .

الرابعة : من الناحية الاجتماعية فتجد الإنسان دائما صاحب مشاكل فى البيت ، ويضرب الأولاد الصغار ، وكل شئ فيه نزاع وشقاق بين أهله . فإذا شئ هذه أضراره ، وربما فيه أضرار كثيرة أيضا ، يدل على أنه حرام .

ولكن كيف يتخلص الإنسان منه ؛ لأن الإنسان إذا عرض الداء على الخلق لابد أن يذكر الدواء ، وإلا أوقعهم فى حيرة . يتخلص بالاعتماد على الله عز وجل ، وأن يلجأ إلى الله بالدعاء والابتهال أن يعصمه منه .

ثانيا : بقوة العزيمة يكون عنده عزيمة قوية تغلب هواه وشهوته ، والإنسان العاقل عنده عزيمة .

وأنا أنكر رجلا خرج حاجاً مع جماعة فلما ركبوا فى السيارة أخرج العلبة من أجل أن يشرب سيجارة فقال له أحد الركاب نحن الآن حجاج ، وحجنا تطوع ، وإن بقينا معك صرنا فى إثم كلما شربت سيجارة ومعصية ، فكيف نطلب التطوع بفعل المعصية ، إذن أنا أنزل من هذه السيارة ، وعلى الفور الذى كان يدخل كفى عن شربه للدخان ، وقطع العلبة وغضب لكن غضب طيب ، وصبر حتى رجعوا من الحج ، وسبحان الله بدأ كلما لقى هذا الرجل دعا له ، قال إن الله عصمنى على يدك ، ما ذقته بعد ذاك المرة ، لماذا ؟ لأنه صار عنده عزيمة قوية على تركه .

ثالثا : أن يبتعد عن الاختلاط بالشاربين له ؛ لأنه إذا خالطهم قد لا يصبر وإذا أبعد عنهم سلم .

وهذا من الحكمة أن تبتعد عن خلطاء السوء ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : (فى جليس السوء إنه كنافخ الكير ، إما أن يحرقك أو

يحرق لك ثيابك ، أو تجد منه رائحة كريهة (١) .

رابعا : أن يحكم العقل دون العاطفة ، وما أكثر الذين يحكمون عواطفهم دون عقولهم ، وهذا خطأ ، حُكِّمَ العقل على العاطفة وقارن بين مصالحه ومساوئه ، والعقل يُغلب المصالح ، فإذا حكمت العقل دون العاطفة حملك هذا التحكيم على تركه وسلمت من شره .

خامسا : التشاغل عنه بأعمال توجب نسيانه فتنساه كلما طال بك الزمن .

وقد ذكروا أن الإنسان إذا بقى مدة لا يشرب وتخلص الدم من النيكوتين سلم منه ، ولهذا كان ينبغي للإنسان الحازم أن يجعل شهر رمضان مجالا للتخلص منه ؛ لأنه فى النهار لا يشرب ، وفى الليل يتصبر ويدعه .

إن الذى تقرر عندنا الآن وبعد شهادة الطب الحديث بضرر الدخان ، أن الدخان حرام ، ويبقى لا إشكال فيه .

وكل هذا يمكن أن يأخذ من حديث النعمان بن بشير : (الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتهيات لا يعلمهن كثير من الناس) وسبب الاشتباه قلنا إنه شيآن :

الأول : خفاء الدليل وخفاء المدلول .

وخفاء الدليل بأن يخفى علينا هل هذا الدليل يدل على هذا الحكم أو لا يدل ؟ .

وخفاء المدلول

المدلول داخل فى الدليل أو ليس بداخل ؟ .

(١) متفق عليه .

فتاوى القرآن الكريم والسنة النبوية

سؤال : ما معنى قوله تعالى : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ » إلى قوله : « بأنهم كانوا مجرمين »^(١) وعلى من نزلت ؟ .

الجواب : هذه الآيات نزلت في قوم من المنافقين ، كانوا يتحدثون فيما بينهم حديث الركب ؛ ليقطعوا الطريق وينسوا مشقته ، فكانوا والعياذ بالله يقولون : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء - يعنون النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه - أرغب بطونا ولا أكذب ألسنا ولا أجبن عند اللقاء ، وكذب المنافقون في ذلك فهم - أى المنافقون - أرغب الناس بطونا - أى أوسعهم بطونا وأحبهم للأكل - وأكذبهم ألسنا وأجبنهم عند اللقاء بل إنهم بعد أن خرجوا للقتال في أحد رجعوا مما يدل على جبنهم وخورهم لأنه ليس عندهم عقيدة ولا إيمان والعياذ بالله ، فهؤلاء كانوا يتحدثون هذا الحديث ، فأنزل الله تعالى فيهم هاتين الآيتين فجاءوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وسألهم فقالوا يا رسول الله : إنما كنا نخوض ونلعب ، نتحدث حديث الركب ليقطع عنا الطريق فقال الله تعالى : « قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تستهزءون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم » . وفي هذا دليل على أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر مخرج عن الملة ، لقوله تعالى : « قد كفرتم بعد إيمانكم » .

* * *

سؤال : هل تنطبق الآيتان السابقتان على الذين يسخرون ويستهزءون بالذين يعفون لحاهم ويلتزمون بدين الله ؟ .

الجواب : هؤلاء الذين يسخرون بالذين يلتزمون بدين الله المنفذين

(١) سورة التوبة : الآيتان ٦٥ ، ٦٦ .

لأوامره ، إذا كانوا يستهزئون بهم من أجل ما هم عليه من الشرع فإن استهزاءهم بهم استهزاء بالشرعية ، والاستهزاء بالشرعية كفر .

أما إذا كانوا يستهزئون بهم يعنون أشخاصهم - بقطع النظر عما هم عليه من اتباع السنة فى الثياب واللحية - فإنهم لا يكفرون بذلك لأن الإنسان قد يستهزئ بالشخص نفسه ، بغض النظر عن عمله وفعله . لكن يجب على كل إنسان أن يحذر من الاستهزاء بأهل العلم أو الاستهزاء بأهل الدين الذين يتمسكون بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

* * *

سؤال : هل هناك دليل من السنة على أن يكبر الإنسان بين السورتين ؟ .

الجواب : ليس هناك دليل من السنة على مشروعية التكبير بين السورتين ، إلا أن بعض القراء استحَب أن يكبر بين السورتين من سورة الضحى إلى آخر القرآن ، فقال : إذا قلت : « وأما بنعمة ربك فحدث » فقل : (الله أكبر) ، وإذا قلت : « وإلى ربك فارغب » فقل : (الله أكبر) وهكذا إلى آخر القرآن .

والصحيح أن هذا ليس بسنة لا بعد الضحى إلى آخر القرآن ، ولا ما قبل ذلك .

* * *

سؤال : قلت بأنك ترى أن وضع المصلى يده اليمنى على ذراعه سنة . ولكن لفظ الحديث يقول : (كان الناس يضعون .. إلى آخر الحديث) والأمر عند الأصوليين يقتضى الوجوب إلا إذا ورد نص آخر يصرفه إلى الاستحباب ، فما تعليقكم ؟ .

الجواب : تعليقى على هذه المسألة أننى ما رأيت أحدا من أهل العلم قال إن هذا على سبيل الوجوب ، وعدم الإجماع على الوجوب ، يكون صارفا للأمر عن الوجوب .

وهذا له نظائر كثيرة تأتي أوامر. ويكون الإجماع من العلماء على أنها ليست للوجوب ، وهذا يكفي صارفا للوجوب إلى عدمه ، لأن إجماع هذه الأمة حجة .

* * *

سؤال : ما معنى قوله تعالى : « يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ »^(١) ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (من أراد أن ينسأ له في أجله ويبسط له في رزقه فليصل رحمه)^(٢) ؟ .

الجواب : قال تعالى : « يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » ، وأم الكتاب هو اللوح المحفوظ ، لأن جميع ما يكتب مرجعه إلى اللوح المحفوظ ؛ لأن ما في اللوح المحفوظ لا يغير ولا يبدل وهو الذى تستقر عليه الأمور ، وأما ما دون ذلك مما يكتب فهذا قابل للمحو والإثبات ، وقد مر علينا أن مع كل إنسان ملكين يكتبان ما يفعله : « كلا بل تكذبون بالدين * وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ما تفعلون »^(٣) هذا الذى يكتب إذا كتب فهو إثبات ، فإذا تاب الإنسان من ذلك مُحَى ، فهذا محو وإثبات فيكون المحو والإثبات واقعين فى الصحف التى بأيدى الملائكة ، أما فى اللوح المحفوظ فإنه محفوظ وهو المرجع والأمر .

وأما الحديث وهو قوله صلى الله عليه وسلم : (من أحب أن ينسأ له فى أثره ويبسط له فى رزقه فليصل رحمه) فليس معنى هذا أن يكون الإنسان له عمران : عمر إذا وصل رحمه ، وعمر إذا لم يصل ، بل العمر واحد ، والمقدار واحد ، والإنسان الذى قدر الله تعالى أن يصل رحمه سوف يصل رحمه ، والذى قدر الله تعالى أن يقطع رحمه سوف يقطع رحمه ، ولا بد ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم أراد أن يحث الأمة على فعل ما فيه الخير ، كما نقول من أحب أن يأتبه ولد فليتزوج ، فالزواج مكتوب ، والولد مكتوب ، فإذا كان الله قد أراد أن يحصل لك ولد ، أراد أن تتزوج ، ومع هذا فإن الزواج والولد كلاهما مكتوب ، كذلك هذا الرزق هو مكتوب

(١) سورة الرعد : الآية ٣٩ .

(٢) البخارى : كتاب البيوع - باب من أحب البسط فى الرزق . فتح البارى ٤ / ٣٠١ .

(٣) سورة الانفطار : الآيات ٩ - ١٢ .

من الأصل ، ومكتوب أن تصل رحمك ، لكنك أنت لا تعلم عن هذا ، فحثك
النبي صلى الله عليه وسلم عليه ، وبين لك أنك إذا وصلت الرحم فإن الله
يبسط لك فى الرزق ، وينسأ لك فى الأثر ، وإلا فكل شئ مكتوب بلاشك ،
حتى الزواج ، وحتى شراء لإبنت ، وغير ذلك ، لكن لما كانت صلة الرحم
أمرا ينبغى للإنسان أن يقوم به حث النبي صلى الله عليه وسلم أمته على ذلك
بهذا .

ثم اعلم - بارك الله فيك - أن تأخير الأجل وبسط الرزق أمر نسبى ليس
أمرا مطلقا ، ولهذا نجد بعض الناس يصل رحمه ويبسط له فى رزقه بعض
الشئ ، ولكن عمره يكون قصيرا وهذا مشاهد فنقول هذا الذى كان عمره
قصيرا مع كونه واصلا لرحمه لو لم يصل رحمه لكان عمره أقصر ، ولكن
الله تعالى قد كتب فى الأزل أن هذا الرجل سيصل رحمه وسيكون منتهى
عمره فى وقت كذا .

* * *

سؤال : يقول الله سبحانه وتعالى : « وويل للمشركين * الذين لا
يؤتون الزكاة »^(١) فما المقصود بالمشركين وكيف يؤمرون بالزكاة ؟ .

الجواب : قوله تعالى : « الذين لا يؤتون الزكاة » يحتمل معنيين ،
أحدهما : أن يراد بالزكاة زكاة النفس وهى تطهيرها من الشرك لقوله
تعالى : « قد أفلح من زكاهما * وقد خاب من دسأها »^(٢) فيكون قوله :
« الذين لا يؤتون الزكاة » تفسيرا لقوله : « للمشركين » أى الذين لا
يؤتون أنفسهم زكاتها بالتخلّى عن الشرك ووسائله .

والاحتمال الثانى : أن يكون المراد بالزكاة زكاة المال ويكون تركهم
للزكاة - أى تركهم البذل - من أوصافهم وإن كان هذا ليس بالزكاة ، لأنه
بالنسبة لهم لا يقبل منهم زكاة ولا غيرها ماداموا على شركهم .

* * *

(١) سورة فصلت : الآيتان ٦ ، ٧ .

(٢) سورة الشمس : الآيتان ٩ ، ١٠ .

سؤال : بعض آواني الطعام والشراب مكتوب عليها بعض الآيات مثل آية الكرسي ، فهل يجوز استعمالها بنية التداوى ؟ .

الجواب : يجب أن نعلم أن كتاب الله عز وجل أعز وأجل من أن يمتنهن إلى هذا الحد ، فكيف تطيب نفس مؤمن أن يجعل كتاب الله عز وجل وأعظم آية في كتاب الله وهي آية الكرسي أن يجعلها في إناء يشرب ويمتنهن ، ويرمى في البيت ، ويلعب به الصبيان ؟ هذا العمل لاشك أنه حرام ، وأنه يجب على من عنده شيء من هذه الأواني يجب عليه أن يطمس هذه الآيات التي فيها بأن يذهب بها إلى الصانع ليصب عليها الرصاص ، ويربها حتى تذهب هذه الكتابة ، فإن لم يتمكن من ذلك فالواجب عليه أن يحفر لها في مكان طاهر ويدفنها ، وأما أن يبقوها مبتذلة ممتنة يشرب بها الصبيان ، ويرمونها في الأماكن ، فإن هذا لا يجوز ، حتى وإن قصد بذلك الاستشفاء فإن الاستشفاء بالقرآن على هذا الوجه لم يرد عن السلف الصالح رضي الله عنهم .

* * *

سؤال : ما معنى قول جرير بن عبد الله في الحديث : (والنصح لكل مسلم)^(١) عندما بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم ؟ .

الجواب : هذا مما بايع الصحابة عليه النبي صلى الله عليه وسلم والمراد بالنصح ليس إلقاء الموعظة فقط ، بل النصح في كل ما تعامل به إخوانك المسلمين ، ومن النصح مثلاً إذا بعت شيئاً فيه عيب أن تبين لهم عيبه ولكن من الأسف اذهب إلى معارض السيارات تجد السيارة فيها كل عيب والبائع يدرى والدلال يدرى ومع ذلك فإن الدلال يقول للمشتري : أنا أبيع عليك كفرات فقط ، وذلك من أجل إذا وجد المشتري عيباً وأراد ردها رفض وقال إنه اشترط عليه ، فإنه لا يجوز ، فإن الإنسان إذا باع الشيء وشرط البراءة من عيوبه فإن كان يعلم أن فيه عيباً فإنه لا يبرأ وهذا الشرط حرام عليه وإن كان لا يعلم فإنه يبرأ وهذا الشرط صحيح - كما قال شيخ

(١) البخارى : كتاب الإيمان - باب قول النبي : الدين النصيحة ... فتح البارى ١ / ١٣٧ .

الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

* * *

سؤال : كيف يكون رجال الحديث كلهم ثقات ويكون الحديث ضعيف الإسناد ؟ .

الجواب : هذا غير صحيح أن يكون كل الرجال ثقات والحديث ضعيف الإسناد ، غير صحيح بالنسبة لرجال الإسناد ، أما بالنسبة للسند فقد يكون ضعيفا بأن يكون الرجال كلهم ثقاتا ويكون الحديث معلقا أو مرسلا أو منقطعا ، وقد يكون الرواة كلهم ثقاتا ومتن الحديث ضعيفا بحيث يكون شاذًا أو معللا بعللة فادحة .

والمهم أنه ينبغي لطالب الحديث أن يعلم بأن صحة الحديث ليست محصورة في ثقة الرجال ، بل لابد لصحة الحديث من شروط خمسة ، وهي أن يكون السند متصلًا ، وأن يكون الراوى عدلا ضابطا ، وأن يكون المتن غير معلل ولا شاذ .

وهنا يجب أن ننتبه إلى أن بعض الناس المخرجين للأحاديث يعتمدون كثيرا على ظاهر الإسناد فيصححون الحديث من غير أن ينظروا إلى علله ، وقد يكون هذا الحديث الذى ظاهر إسناده الصحة قد يكون معللا بعللة توجب رده .

وعلى الحديث كثرة ، وعلم العلل من أدق علوم الحديث وأعمقها ، ولهذا لا يدركه إلا الجهابذة من المحدثين كما قال ذلك الحافظ ابن حجر فى شرح النخبة .

فعلى الإخوة الذين يعتنون بالأحاديث وتخريجها أن يلاحظوا هذه المسألة ، لأننا رأينا من علماء كبار فى عصرنا هذا رأينا منهم أخطاء فى هذه المسألة ، بحيث ينظرون إلى ظاهر السند ، ثم يحكمون على الحديث من ظاهر السند ، بغض النظر عن متن الحديث ، وهذا خلل كبير .

* * *

سؤال : كيف نستعمل القياس والله سبحانه وتعالى يقول : « وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا » (١) ؟ .

الجواب : هذه الآية « وما كان ربك نسيا » تدل على أن القياس حق ، لأن الله تعالى قال : « اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ » (٢) فأشار سبحانه وتعالى بقوله « والميزان » إلى القياس بلاشك ، وهذا من تمام بيان الله عز وجل لعباده ، والله تعالى يقول : « يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » (٣) ، ويقول سبحانه : « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (٤) .

وأدلة القياس ثابتة بالكتاب والسنة والعقل ، وقد ذكرنا الأدلة من كتاب الله عز وجل ، وأما السنة فكثيرة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم فيمن سأله أتحدج عن أمها في نذر كانت نذرتة قال : (أرأيت لو كان على أمك دين أكننت قاضيته قالت : نعم ، قال : اقضوا الله فالله أحق بالوفاء) (٥) .

وقال للرجل الذي عرض بامرأته قال : إن امرأتى ولدت غلاما أسود وكان هو وامرأته أبيضين فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : (هل لك من إبل ؟ قال : نعم . قال : ما ألوانها ؟ قال : حمر ، قال : هل فيها من أورك ؟ قال : نعم . قال : من أين أتاها ذلك ؟ قال : لعله نزعة عرق . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فلعل ابنك هذا نزعه عرق) (٦) وهذا قياس واضح وثابت .

أما أدلة العقل فإننا نعلم أن الشريعة جاءت من لدن حكيم خبير ، وأنه لا يمكن للعقل أن يفرق بين المتماثلين ، كما لا يمكن أن يجمع بين مفترقين ، لا يمكن أن يجعل هذا وهذا وهما متساويان من كل وجه أن يجعل حكمهما مختلفا ، كما أن المتباينين لا يمكن أن يجعل حكمهما واحدا .

(١) سورة مريم : الآية ٦٤ .

(٢) سورة الشورى : الآية ١٧ .

(٣) سورة النساء : الآية ٢٦ .

(٤) سورة النساء : الآية ١٧٦ .

(٥) البخارى : كتاب جزاء الصيد - باب الحج والنذور عن الميت والرجل يحج عن المرأة . فتح البارى ٦٤ / ٤ .

(٦) البخارى : كتاب الطلاق - باب إذا عرض بنفى الولد . فتح البارى ٩ / ٤٤٢ .

فالكتاب والسنة والعقل كلها تدل على القياس دليل حق ثابت .

* * *

سؤال : كيف تجمع بين القول بأن الذى يوزن - يوم القيامة - هو العمل وبين حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عندما انكشفت ساق عبد الله بن مسعود : (إنها أثقل عند الله فى الميزان من جبل أحد)^(١) أو كما قال صلى الله عليه وسلم ؟ .

الجواب على هذا أن يقال : إما أن هذا خاص بعبد الله بن مسعود أنه يوزن نفس الإنسان ، أو يقال إن بعض الناس يوزن عمله وبعض الناس يوزن بدنه ، أو يقال إن الإنسان إذا وزن فإنما يثقل ويرجح بحسب عمله .

* * *

سؤال : هل هناك إشكال بين قولكم إن الأبدان تكون على حال غير التى هى عليها الآن يوم القيامة ، وبين قوله تعالى : « كما بدأكم تعودون »^(٢) ؟ .

الجواب : هذا لا يشكل على ما قلنا ؛ لأن المراد بقوله : « كما بدأكم تعودون » من حيث الخلق فهو كقوله : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه »^(٣) فالمعنى أنه كما بدأ خلقكم وقدر عليه فإنكم تعودون كذلك بقدرة الله عز وجل .

* * *

سؤال : ما صحة قول ابن حزم : من أن الناس منهم من يأخذ كتابه بشماله وهم الكفار ، ومنهم من يأخذه بيمينه وهم المؤمنون ، ومنهم من وراء ظهره وهم عصاة الموحدين ؟ .

الجواب : هذا القول ليس بصحيح ؛ لأن الذى يأخذ كتابه من وراء ظهره يدعو ثبورا ويصلى سعيرا ويظن أنه لن يرجع ، والذى يظن أنه لن

(١) مسند الإمام أحمد : ١ / ١١٤ ، ٤٢١ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٢٩ .

(٣) سورة الروم : الآية ٢٧ .

يرجع ليس عاصيا ، بل هو كافر منكر للبعث قال تعالى : « وأما من أوتى كتابه وراء ظهره * فسوف يدعو ثبورا * ويصلى سعيرا * إنه كان فى أهله مسرورا * إنه ظن أن لن يحور » أى لن يرجع للأخرة « بلى إن ربه كان به بصيرا »^(١) .

فالصواب أن الذى يأخذ كتابه من وراء ظهره هو الكافر ، لكن كما قال بعض أهل العلم تخلع شماله من ورائه ، ويأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره .

* * *

سؤال : كيف يمكن الجمع بين قوله صلى الله عليه وسلم : (من نوقش الحساب عذب)^(٢) ، وبين قوله تعالى لعبده المؤمن : (عصيتنى فى الدنيا وأنا أسترها عليك الآن)^(٣) ؟ .

الجواب : ليس فى هذا إشكال ، لأن المناقشة معناه أنك كما تأخذ تعطى ، ولكن حساب الله لعبده المؤمن يوم القيامة ليس على هذا الوجه ، بل إنه مجرد فضل من الله تعالى إذا قرره بذنوبه فأقرّ واعترف ، قال : (قد سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم) ، وكلمة (نوقش) تدل على هذا ، لأن المناقشة الأخذ والرد فى الشئ والبحث عن دقيقه وجليله ، وهذا لا يكون بالنسبة لله عز وجل بل إن الله تعالى يجعل الحساب للمؤمن مبنيا على الفضل والإحسان لا على المناقشة والأخذ بالعدل .

* * *

سؤال : ما ردكم على من ينكرون أحاديث الرجم ، وأحاديث المهدي المنتظر ، وأحاديث الخروج من النار ودخول الجنة وكذلك ينكرون الأحاديث القدسية وحديث الذبابة ؟ .

الجواب : أولا : الرجم وهو رجم الزانى المحصن أى إذا زنى الرجل

(١) سورة الانشقاق : الآيات ١٠ - ١٥ .

(٢) البخارى : كتاب العلم - باب من سمع شيئا فراجع حتى يعرفه . فتح البارى ١ / ١٩٦ .

(٣) البخارى : كتاب الأدب - باب ستر المؤمن على نفسه . فتح البارى ١٠ / ٤٨٦ .

أو المرأة المحصنان أى قد تزوجا بعقد صحيح وحصل الجماع وهما بالغان عاقلان حران فإنه حينئذ يجب رجمهما ، والرجم أن يرمي الزانى بالحجارة التى ليست بالكبيرة ولا الصغيرة إلى أن يموت ، والرجم ثابت بكتاب الله وبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو من مشروعات الإسلام ، وحتى اليهود فإنه مشروع عندهم .

ثبت فى الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه خطب على منبر النبى صلى الله عليه وسلم وعلى مسمع من الصحابة وكان فيما قاله فى خطبته : إن الله تعالى أنزل آية الرجم قال : فقرأناها وحفظناها ووعيناها ورجم النبى صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده ، وإنى أخشى إن طال بالناس زمان أن يقولوا إنا لا نجد الرجم فى كتاب الله^(١) . وهذا الذى توقعه عمر وقع من مثل هذا الرجل الذى ينكر الرجم - قال : وإن الرجم حق ثابت فى كتاب الله على من زنى إذا أحصن ، إذا قامت البينة ، أو كان الحبل ، أو الاعتراف . والذى خطب وقال ذلك هو عمر بن الخطاب الخليفة الثانى لهذه الأمة ، وقال ذلك على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى مسجده صلى الله عليه وسلم وحوله الصحابة أعدل الأمة . أترون بعد ذلك أن يكون كلام أمير المؤمنين عمر باطلا ؟ لا والله أبدا ، إن كنا نظن أن الشمس فى رابعة النهار ليست هى الشمس فإننا نظن أن كلام عمر ليس هو الحق .

فالرجم ثابت فى كتاب الله لكنه منسوخ لفظا لا حكما ، لأن النسخ فى كتاب الله إما أن يكون لفظا وحكما ، أو لفظا لا حكما ، أو حكما لا لفظا .

وقد يقول قائل : ما هى الحكمة من نسخه لفظا مع أهميته ؟ .

الحكمة - عندى - والله أعلم : إظهار فضل هذه الأمة وامتنالها لأمر ربها ، فهى ترجم ، وإن كان الرجم ليس ظاهرا فى القرآن ، بينما اليهود الرجم عندهم مكتوب فى التوراة ويحاولون إخفائه .

اليهود نزل الرجم فى التوراة عندهم ، لكن لما كثر الزنا فى أشرافهم

(١) البخارى : كتاب الحدود - باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت . فتح البارى ١٢ / ١٤٤ .

والعياذ بالله استكبروا أن يَرْجُمُوهم ، فقالوا : ضعوا عقوبة أخرى ، فوضعوا عقوبة فصاروا يسودون الزانى ، ويركبونه حمارا هو والزانية أحدهما وجهه إلى دبر الحمار والآخر وجهه إلى رأس الحمار ، ويمشون فى الأسواق وقالوا وهذا العار يكفى عن الرجم ، فشاء الله عز وجل أن يزنى رجل بامرأة منهم فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم . فقالوا : اذهبوا إلى هذا الرجل لعلمكم تجدون عنده مخرجا من الرجم ، فجاءوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأمرهم بما فى التوراة أن يرجموه وجيء بالتوراة ليقرءوها بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فوضع القارىء يده على آية الرجم فى التوراة لإخفائها وكان عبد الله بن سلام رضى الله عنه من أحبار اليهود ولكنه أسلم فقال للقارىء : ارفع يدك - لأنه يعرف التوراة - فرفع القارىء يده ، فإذا آية الرجم تلوح ظاهرة فأمر النبى صلى الله عليه وسلم برجمهما^(١) .

فهؤلاء اليهود حاولوا إخفاء ما كان مكتوبا عندهم فى التوراة ، والأمة الإسلامية ولله الحمد نفذت ما كان منسوخا لا يرى فى القرآن ، لكنه ثابت فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم قرىء وحفظ وفهم ونفذ .

فالرجم إذن ثابت فى القرآن والسنة وإجماع المسلمين .

أما أحاديث المهدي فهي تنقسم إلى أربعة أقسام : أحاديث مكذوبة ، وأحاديث ضعيفة ، وأحاديث حسنة لكنها بمجموعها تصل إلى درجة الصحة على أنها صحيحة لغيرها ، بل قال بعض العلماء إن فيها ما هو صحيح لذاته .

ولكنه ليس المهدي المزعوم الذى يقال إنه فى سرداب فى العراق ، فإن هذا لا أصل له وهو خرافة ولا حقيقة له ، ولكن المهدي الذى جاءت الأحاديث بإثباته رجل غيره من بنى آدم يُخلق ويولد فى وقته ، ويخرج إلى الناس فى وقته فهذه قصة المهدي فإنكاره مطلقا خطأ وإثباته مطلقا خطأ أى إثباته على وجه يشمل المهدي المنتظر الذى يقال إنه فى السرداب هذا خطأ ، لأن اعتقاد هذا المهدي المختفى خبل فى العقل وضلال فى الشرع

(١) البخارى : كتاب الحدود - باب أحكام أهل النمة . فتح البارى ١٢ / ١٦٦ .

وليس له أصل ، وإثبات المهدى الذى أخبر به النبى عليه الصلاة والسلام وتكررت فيه الأحاديث والذى سيولد فى وقته ويخرج فى وقته هذا حق .

وأما الأحاديث القدسية فإنكارها ضلال مبين ، لأنها ثابتة عن الرسول صلى الله عليه وسلم بسند الثقات فى البخارى ومسلم وغيرهما من كتب السنة ، والأحاديث القدسية هى التى يرويها النبى صلى الله عليه وسلم عن ربه مثل قول النبى صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى : (أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه)^(١) . ومثل قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويهِ عن ربه أنه قال : (يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً)^(٢) .

وأمثلة هذا كثيرة جداً ، وقد جمعها بعضهم حتى بلغت ستمائة حديث ، لكن منها - أى الستمائة - ما هو ضعيف لا يعتبر به ، وعلى كل حال فإن علماء الحديث وغيرهم يثبتون هذه وهى متواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما حديث الذبابة ، فهو ما رواه البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (إذا وقع الذباب فى شراب أحكمم فليغمسه ثم لينزعه ، فإن فى أحد جناحيه داء وفى الآخر شفاء)^(٣) هذا حديث ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، والطب شاهد له .

وإنى أقول إذا ثبت الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم فلا يهمنى أن يشهد له الطب بصدقه أو لا يشهد ، بل بعبارة أعم إذا ثبت الحديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام فلا يهمنى أن يشهد له العلم الحديث سواء كان طباً أو غيره ، أن يشهد بصدقه أو لا يشهد ، لأن ما يقال إنه علم ويخالف الأحاديث الصحيحة فإننا نقول إنه ليس بعلم ، ولكنه وهم ، وستبين الأيام صدق ما ثبتت به الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فحديث الذبابة أنكره من أنكره من الناس وقالوا هذا لا يمكن ، ولكن المحققين من أهل الطب أثبتوا أن هذا ممكن وأنه تحت جناحه غدة إذا وقع

(١) مسلم : كتاب الزهد - باب من أشرك فى عمله غير الله . صحيح مسلم ٤ / ٢٢٨٩ .

(٢) مسلم : كتاب البر - باب تحريم الظلم . صحيح مسلم ٤ / ١٩٩٤ .

(٣) البخارى : كتاب الطب - باب إذا وقع الذباب فى الإناء - فتح البارى ١٠ / ٢٥٠ .

فى شراب انفجرت واختلطت بهذا الشراب فكانت داء وفى الجناح الآخر
غدة تنفجر بإذن الله إذا غمس الجناح الثانى فى هذا الشراب فتقضى على داء
الغدة الأولى ، وهذا من حكمة الله عز وجل ليبين سبحانه وتعالى لعباده
عظيم قدرته ، فهذه الذبابة التى هى أضعف المخلوقات اجتمع فيها ضدان
داء ودواء .

وقد زاد الترمذى أو أبو داود - والنسيان منى - (وإنه يتقى بجناحه
الذى فيه الداء) أى أنه عندما يسقط يسقط على الجناح الذى فيه الداء ،
ولكنه يزول ذلك بغمسه .

بقى أن يقول قائل : إذا سقط فى لبن مثلاً وغمسته وأخرجته ورميت به
هل يلزمنى أن أشرب هذا اللبن ؟ فالجواب : أنه لا يلزمه أن يشربه ، لكن لا
يتجنبه خوفاً من الداء ، لأن الداء كفى شره بالدواء الذى فى الجناح الثانى .

* * *

سؤال : هل يصح الحديث الضعيف إذا شهد له الطب بالصحة ؟ .

الجواب : الحديث الضعيف إذا شهد له الطب أو الواقع لا يصح من
أجل شهادة الواقع ، بل يقال إن الواقع أو الطب هو الذى أثبت مدلول هذا
الحديث الضعيف ، أما أن يصح الحديث الضعيف بشهادة الواقع له فينسب
إلى الرسول عليه الصلاة والسلام مع ضعفه فهذا لا يجوز ، لأن الحديث
الضعيف لا يجوز أن ينسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم .

صحيح أن النفس إذا شهد الواقع للحديث الضعيف قد تطمئن له أكثر ،
ولكن لا يجوز أن ينسب إلى الرسول نسبة قاطعة بمجرد أن الواقع شهد له .

* * *

**سؤال : ما معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من سن
سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن
سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة)^(١) وكيف**

(١) رواه مسلم .

تكون سنة وهى لم ترد عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وما هو المقصود بالسنة فى الحديث ؟ .

الجواب : هذا الحديث من الأحاديث التى لا يتبين معناها إلا بمعرفة السبب ، وقد ذكرنا قبل ذلك أن معرفة السبب تعين على فهم المعنى .

والمراد بالسنة هنا أى سبق الناس فى العمل بالأمر المشروع فيكون السن تنفيذا لا تشريعا لأن هذا هو سبب الحديث ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال ذلك حين حث الناس على الصدقة على قوم قدموا المدينة وهم فى غاية ما يكون من الحاجة وكانوا من مضر ، فجاء رجل من الأنصار بصرة من ذهب أو فضة فألقاها بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من سن فى الإسلام سنة حسنة .. إلخ) فتبين أن المراد بالسنة هنا التنفيذ لا التشريع لأن من سبق الناس إلى العمل بالسنة فتبعه الناس كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة .

فلو فرض أن سنة من السنن أماتها الناس وصاروا لا يعلمون بها أو يتهاونون بها فجاء رجل فأعلنها وبينها وعمل بها صار داخلا فى هذا الحديث ، وصار هذا السن معناه البيان والإحياء بعد الإماتة .

وفى هذا العصر نرى كثيرا من السنن كانت مهجورة لا تعرف وصار الناس يحيونها والحمد لله ويسنونها بيانا وإحياء ، فكل من أحيا سنة وتبعه الناس عليها كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة .

ووجه آخر فى هذا أن نقول : المراد بالسن هنا هو سن الأسباب والوسائل التى تقوم بها السنن ، كمن سن مشروعا خيرا لطباعة الكتب فهذا لم يكن موجودا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن هذه سنة حسنة ، وكمن بنى مدرسة يطلب الناس فيها العلم .

فللحديث وجهان كما سبق : إما أن يكون السن بمعنى التنفيذ لا التشريع ، وإما أن يكون سن الوسائل إلى سنة مشروعة أصلا .

* * *

سؤال : كيف تكون المعية في قوله : « وهو معكم أينما كنتم »^(١) هل هي معية ذاتية أم معية علم وإحاطة ؟ .

الجواب : نحن نعلم أن الله فوق كل شيء وأنه استوى على العرش فإذا سمعنا قوله سبحانه : « وهو معكم أينما كنتم » فلا يمكن أن يفهم أحد أنه معنا على الأرض ، لا يتصور ذلك عاقل فضلا عن مؤمن ولكنه معنا سبحانه وهو نفسه فوق العرش فوق سماواته .

ولا يستغرب هذا فإن المخلوقات وهي لا تنسب للخالق تكون في السماء ونقول إنها معنا . فيقول شيخ الإسلام : يقول العرب مازلنا نسير والنجم معنا . ومع ذلك فالنجم مكانه في السماء . فالله مع خلقه ولكنه في السماء . ومن زعم بأنه مع خلقه في الأرض كما تقول الجهمية فأرى أنه كافر يجب أن يتوب إلى الله ويقدر ربه حق قدره ويعظمه حق تعظيمه وأن يعلم أنه سبحانه وسع كرسيه السموات والأرض فكيف تكون الأرض محلا له .

وقد جاء في الحديث : (ما السموات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض) . والحلقة صغيرة . مع أن العرش مخلوق والكرسي مخلوق ، فما بالك بالخالق سبحانه . فكيف يقال إن الأرض تسع الله سبحانه أو أنه في الأرض ومن مخلوقاته سبحانه ما وسع السموات والأرض ولا يقول عن رب العزة مثل هذه المقولات إلا من لا يقدر الله حق قدره ولم يعظمه حق تعظيمه ، بل الرب عز وجل فوق كل شيء مستو على عرشه وهو سبحانه بكل شيء عليم .

* * *

سؤال : جاء في الحديث : (إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت فإن الله لا مكره له) فما معنى إن الله لا مكره له . وكيف الجمع بين هذا وبين الحديث : (ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله)^(٢) ؟ .

(١) سورة الحديد : الآية ٤ .

(٢) سنن أبي داود ٢ / ٣٠٦ .

الجواب : الحديث الأول صحيح ، وفى لفظ (إن الله لا يتعاضمه شيء أعطاه) وهذه الصيغة التى نهى عنها رسول الله (اللهم اغفر لى إن شئت) تشعر بمعان فاسدة ، منها أن أحدا يكره الله ، ومنها أن مغفرة الله ورحمته أمر عظيم لا يعطيه الله لك ، ولذلك قال : (فإن الله لا يتعاضمه شيء أعطاه) وأنت لو سألت رجلا من الناس فقلت أعطني مليون ريال إن شئت . فهذا يتعاضمه ولذلك قلت له : إن شئت . وكذلك فهو مشعر بأنك مستغن عن عطية المسئول فإن أعطاك وإلا فلا يهملك ، ولهذا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول (إن شئت) .

أما ما جاء فى الحديث الثانى من قول إن شاء الله فهى أخف وقعا من قول إن شئت ، لأن القائل قد يريد بها التبرك لا التعليق .

فوجه الجمع أن التعبير بإن شاء الله أهون من إن شئت . ويرد على ذلك أن هذا يفيد أن قول إن شاء الله منهى عنه لكن دون قول إن شئت . فكيف يكون منهيا عنه ثم يقوله النبى صلى الله عليه وسلم كما فى الحديث الثانى الذى ذكره السائل ، وإن كان فيه نظر من حيث الصحة ، لكن ثبت فى الحديث الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا عاد مريضا يقول : (لا بأس طهورا إن شاء الله)^(١) . وهذه الجملة وإن كانت خبرية فمعناها طلبى . والجواب أن هذه الجملة مبنية على الرجاء لأن يكون المريض طهورا من الذنب وهذا كما فى حديث (وثبت الأجر إن شاء الله) فهو على الرجاء .

* * *

سؤال : ما هو القول الفصل فى صحة حديث صلاة التسبيح ؟ .

الجواب : قولى فيها ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، وهو أن حديثها باطل أو كذاب وأنه لم يستحبها أحد من الأئمة لأنها بما فيها من الفضل لو كانت صحيحة ومن شرع الله لم يكن يعلم بها أفراد من الناس ؛ لأن الدواعى تتوافر على نقل مثل هذا ولنقله الناس كما نقلوا صلاة الوتر والضحى والرواتب وغير ذلك من السنن المشهورة المعروفة .

(١) صحيح البخارى : كتاب المرضى - باب (١٤) .

وصلاة التسبيح قد رتب عليها من الفضل ما يوجب أن تكون معلومة متداولة وخروجها عن قياس الصلاة الأخرى يوجب أيضا أن تنقل لأن الناس يحرصون على نقل كل غريب كما هو معروف فلما لم يكن فيها ذلك لا عمل الأمة ولا اشتهر بين الأمة علم أنها ليس لها أصل وهي ليست بمستحبة .

* * *

سؤال : كيف نرد على بدعة من قال : إذا وافق الحديث العقل فهو صحيح ، وإن لم يوافقه فغير صحيح ؟ .

الجواب : نرد عليه بأن هذا مقياس باطل ولو حكمنا العقل في صحة الحديث لكننا ممن يتبعون أهواءهم ، فبأى عقل نزن الأحاديث فقد يراه إنسان يخالف العقل ويراه آخر يوافق العقل ، والعقول مختلفة ليست متفقة .

والعقل الصحيح السالم من الشبهات والشهوات هو الذى يقبل ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء أدرك حكمته أم لم يدركها .
ومن قال بالمقولة السابقة فهو يعبد الله بهواه لا بهداه .

* * *

سؤال : قال تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم »^(١) . فهل أهل السنة يؤولون اليد في الآية ؟ .

الجواب : ينبغى أن نعلم أن التأويل عند أهل السنة ليس مذموما كله ، بل المذموم منه ما لم يدل عليه دليل ، وما دل عليه الدليل يسمى تفسيرا ، سواء كان الدليل متصلا بالنص أو منفصلا عنه . فصرف الدليل عن ظاهره ليس مذموما على الإطلاق .

ومثال التأويل بالدليل المتصل ما جاء في الحديث الثابت في صحيح مسلم في قوله تعالى في الحديث القدسي : (يقال للعبد : عبدى جعت فلم تطعمنى ، ومرضت فلم تعدنى) فظاهر هذا الحديث أن الله نفسه هو الذى

(١) سورة الفتح : الآية ١٠ .

جاع وهو الذى مرض . وهذا غير مراد قطعاً ، ففسر هذا الحديث بنفس الحديث : (فقال : أما علمت أن عبدى فلانا جاع فلم تطعمه ، وعبدى فلانا مرض فلم تعده)^(١) . فالذى صرف ظاهر اللفظ الأول إلى هذا المعنى هو الحديث القدسى نفسه ، فلا يقال إن صرف ظاهر اللفظ الأول إلى هذا المعنى الثانى تأويل مذموم .

وقال تعالى : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم »^(٢) . ظاهر اللفظ أنك إذا بدأت القراءة لم تستعذ . لكن قد دل الدليل المنفصل على أن معنى : « إذا قرأت » أى إذا أردت أن تقرأ . لكن عبر عن الإرادة بالفعل ليبين أن المراد بذلك الإرادة المقترنة بالفعل لا الإرادة السابقة . ولو أراد التعبير بالفعل لكان الإنسان إذا أراد فى الصباح أن يقرأ فى المساء قلنا له استعذ بالله من الشيطان الرجيم لأنك ستقرأ فى آخر الليل ، لكن لما عبر بالفعل عن الإرادة دل على أن الإرادة هى الإرادة التى يقترن بها الفعل .

فإذا فهمنا هذه القاعدة وهى أن التأويل الذى قام الدليل عليه ليس مذموماً عرفنا الجواب عن الآية التى ساقها السائل .

فهل الصحابة فى صلح الحديبية كانوا يبايعون الله ؟ هم فى الحقيقة كانوا يبايعون النبى صلى الله عليه وسلم مباشرة وذلك فى قوله سبحانه : « يبايعونك » لكن لما كان الرسول مبلغاً عن الله سبحانه صارت مبايعة الرسول كمبايعة الله وصار الذى يبايعه كأنما يبايع الله .

وقوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » المعلوم أن يد الله حقيقة ليست فوق أيديهم وأن التى فوق أيديهم عند المبايعة هى يد الرسول صلى الله عليه وسلم لكن الرسول كان مبلغاً عن الله .

ويجوز أن نقول : « يد الله فوق أيديهم » على سبيل العلو المطلق ، فالله سبحانه بذاته فوق كل شيء . والله أعلم .

* * *

(١) رواه مسلم : كتاب البر والصلة والآداب - باب فضل عيادة المريض . صحيح مسلم ٤ / ١٩٩٠ .

(٢) سورة النحل : الآية ٩٨ .

سؤال : ما هو تفسير قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »^(١) وهل (من) هنا للتبعية ؟.

الجواب : سياق الآية يدل على أن « من » للتبعية ، ويحتمل أن تكون لبيان الجنس . فإن قلنا للتبعية ففيها دليل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية إذا قام به من يكفي سقط عن الباقي ، وهذا هو الواقع .

وإن قلنا « من » لبيان الجنس أى : ولتكونوا أمة . أى : وليتكون منكم . ولكن فى الآية إشارة إلى أمر مهم وهو أنه يجب على المسلمين أن يساعد بعضهم بعضا فى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأن الله يقول : « ولتكن منكم أمة » أى لابد أن يكون للأمر والنهي جماعة كبيرة من الناس يقومون به .

* * *

سؤال : ما صحة حديث : (من حج ولم يزرني فقد جفانى) ؟ .

الجواب : هذا حديث موضوع غاية الوضع ، ولا أوضع منه ؛ لأنه لو أخذ بظاهره لكانت زيارة النبي صلى الله عليه وسلم من أوجب الواجبات لأن جفائه كفر ولا يجفوه إلا كافر .

ولا يجوز لأحد أن يذكر هذا الحديث إلا مع بيان بطلانه ووضعه .

وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم لمن لم يشد الرحل إليها سنة كزيارة سائر القبور . وأنت تزور النبي صلى الله عليه وسلم لتسلم عليه لا لتدعوه ولا لتطلب منه .

وينبغي للإنسان إذا توجه إلى المدينة أن يكون أكبر قصده زيارة المسجد الذى تُشد إليه الرحال والصلاة فيه خير من ألف صلاة فيما سواه إلا مسجد الكعبة .

وإذا وصل إلى هناك قلنا إنه يستحب أن يزور قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقبرى صاحبيه .

(١) سورة آل عمران : الآية ١٠٤ .

سؤال : ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عذ من الأحاديث التي تنهى عن اتخاذ القبور مساجد وألا يتخذ قبره عيداً ، فهل وجود قبره فى المسجد النبوى منهى عنه ؟ وكيف نرد على من جوز بناء المساجد على القبور محتجا بقبر النبى صلى الله عليه وسلم بالمسجد ؟ .

الجواب : لاشك أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن بناء المساجد على القبور وأن بناء المساجد على القبور شرك ، وأنه إذا بنى مسجد على قبر وجب هدم المسجد ولا تصح الصلاة فيه ؛ لأنه مسجد معصية ولا يمكن أن يكون مسجد المعصية مسجد طاعة بخلاف ما لو دفن ميت فى مسجد ، فإن المسجد لا يهدم ويجب أن ينبش القبر ويدفن الميت خارجا عنه .

وليس وجود قبر النبى الآن فى المسجد النبوى معارضا لما نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأن قبر النبى كان متميزا منفصلا عن المسجد ، كان فى حجرة عائشة ، ودفن فيه النبى لأنه ما من نبى قبض إلا ودفن فى الموضع الذى مات فيه . ولو دفن فى البقيع لكان يتخذ مسجدا ، لكن لما دفن فى هذه الحجرة المحصورة صار ذلك أبعد عن اتخاذ مسجدا ، وبقي هكذا خارج المسجد منفصلا إلى أن زيد فى المسجد فى زمن الوليد بن عبد الملك فى حدود الرابعة والتسعين من الهجرة ، ولأمر لا نعلمه كانت الزيادة من الضرورى أن تكون من الجانب الذى فيه القبر فاضطروا إلى أن يدخل القبر فى الزيادة لكن لا يصلى فيه ، وبقي هكذا .

وبهذا يتبين أن المسجد لم يبن عليه ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يدفن فى المسجد ، ولا حجة فيه لمن احتج على جواز بناء المساجد على القبور .

* * *

سؤال : ما صحة حديث : (رحم الله امرأ أبعد الغيبة عن نفسه) ؟ .

الجواب : المعروف أن لفظ هذا الحديث : (رحم الله امرأ كف الغيبة

(عن نفسه) وهو يدل على أن من كَف الغيبة عن نفسه فهو مرحوم . وهو حديث ضعيف من حيث السند واللفظ ولكنه صحيح من حيث المعنى ، فينبغي للإنسان أن يكف الغيبة عن نفسه فلا يتعرض لشيء يغتابه الناس عليه ويعتمد على أن الناس يحسنون الظن به ولا يتهمون به ؛ لأن الشيطان ربما يلقي في قلوب الناس أشياء ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يوما مع صفية بنت حبي يوصلها إلى بيتها بعد أن زارته في اعتكافه فمر به رجلان من الأنصار فأسرعا المشى ، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : (على رسلكما إنها صفية بنت حبي) . فقالا : سبحان الله . فقال : (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وإنى خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا - أو قال شرا -)^(١) .

وهذا يدل على أن الإنسان ينبغي له أن يكف الغيبة عن نفسه بقدر المستطاع . ولو أن إنسانا رآك تمشي مع امرأة وخشيت أن يظن بك سوءا مع أنك لست محلا للريبة ولا الشبهة ، فعليك أن تقول : هذه أختي أو زوجتي وما أشبه ذلك ؛ لئلا توقع نفسك في الشبهة وفي غيبة الناس .

* * *

سؤال : نحن طلاب العلم نحفظ الكثير من الآيات على سبيل الاستشهاد ، وفي نهاية العام نكون قد نسينا الكثير منها ، فهل ندخل في حكم من يعذبون بسبب نسيان ما حفظوه ؟ .

الجواب : نسيان القرآن له سببان : الأول : ما تقتضيه الطبيعة ، والثاني : الإعراض عن القرآن وعدم المبالاة به . فالأول لا يأتى به الإنسان ولا يعاقب عليه ، فقد وقع من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صلى بالناس ونسى آية ، فلما انصرف ذكره بها أبى بن كعب ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (هلا كنت ذكرتنيها) وسمع رسول الله قارئاً يقرأ ، فقال : (يرحم الله فلانا فقد ذكرنى آية كنت أنسيتها)^(٢) . وهذا يدل أن النسيان الذى يكون بمقتضى الطبيعة ليس فيه لوم على الإنسان .

(١) صحيح البخارى - كتاب الاعتكاف - باب (٨) .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٦ / ٧٥ - كتاب المسافرين .

أما ما سببه الإعراض وعدم المبالاة فهذا قد يَأْثُم به .

وبعض الناس يكيد له الشيطان ويوسوس له ألا يحفظ القرآن لئلا ينساه ويقع فى الإثم ، والله سبحانه وتعالى يقول : « فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا »^(١) فليحفظ الإنسان القرآن ؛ لأنه خير ، وليؤمل عدم النسيان ، والله سبحانه عند ظن عبده به .

ونظير هذا ما يستدل به بعض الناس بقول الله تعالى : « لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم »^(٢) فيترك السؤال والعلم والتعلم . ولكن كان هذا حين نزول الوحي والتشريع ، فقد يسأل البعض عن أشياء سكت الله عنها ، فتبين لهم فيكون فيها تشديد على المسلمين بالإيجاب أو التحريم . أما الآن فلا تغيير فى الأحكام ولا نقص فيها فيجب السؤال عن الدين .

* * *

سؤال : نرجو بيان ما يحدث من البعض من التشديد فى السنة كالتجافى فى السجود وملاصقة الأقدام حال القيام فى الصلاة ؟ .

الجواب : لاشك أن الإسلام دين وسط بين الغلو والتقصير ، ولكن الغلو والتقصير أمر نسبى لا يمكن رده بأهواء الناس فقد يكون الشئ غلوا عند شخص وعند آخر تقصيرا وعند ثالث وسطا ، ولكن الضابط الذى ينبغى الرجوع إليه هو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومثال ذلك لو أن رجلا قرأ فى صلاة فجر الجمعة سورة النبأ فى الركعة الأولى والتكوير فى الركعة الثانية ، فصاح بعض الناس أنه طول عليهم ، ورأى بعضهم أنه فرط ولم يقرأ بالسجدة والإنسان كما جاء فى السنة ، وفريق ثالث رأى هذا جائزا وفيه سعة .

والصواب فى ذلك هو القول الثالث ، فنقول للإمام إذا أردت السنة وتمام الأمانة فاقراً بالسجدة والإنسان فى فجر الجمعة فى أكثر الجمع وإن قرأت غيرها فلا إثم عليك . وإن قال قائل : نتوسط فى المسألة فيقسم الإمام

(١) سورة النساء : الآية ٧٦ .

(٢) سورة المائدة : الآية ١٠١ .

سورة السجدة على قسمين فى الركعتين ، فنقول هذا مخالف للسنة وفيه معارضة صريحة للسنة ، ولكن إذا لم يرد الإمام قراءتهما فليقرأ غيرهما فلا يكون فى ذلك معارضة للسنة ، بل أمر جائز موسع ، أما أن تقسمها وقد جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد جعلت السنة عشرين متفرقة ، وقد تكون فيه مخالفة أشد من ذلك .

وكذلك فى القراءة فى صلاة الجمعة ، إذا قرأ الإمام سورة الجمعة والمنافقون ، فأنكر عليه بعض الناس ، وبعضهم قال هذه سنة . والصواب أنها سنة . وينبغى للإمام أن يقرأ فى بعض الأحيان بهما وفى بعض الأحيان بالأعلى والغاشية وفى بعضها بغير هذه السور الأربع ؛ ليعرف الناس أنه ليس لصلاة الجمعة سورة معينة لا يجوز القراءة بغيرها .

فالغلو والتقصير خلاف الدين ، ولكن الميزان فى ذلك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس أهواء الناس .

وقد نجد بعض الناس يرفض تسوية الصف ويعتبر هذا تشددا ، وربما يترك بعضهم المسجد عندما يطلب منه الإمام أن يعتدل فى الصف تطبقا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث كان يسوى الصف بيده ويمسح على صدورهم بيده ويمشى من يمين الصف إلى شماله يمسح صدور الناس ومناكبهم ويقول : استووا ولا تختلفوا . فمن فعل هذا فليس تشددا بل هو تطبيق للسنة .

ولكن ينبغى قبل أن نطبق السنة المجهولة لعامة الناس أن نبين لهم أولا ، حتى يكون التطبيق العملى بعد أن تطمئن قلوبهم للمسألة بدلا من أن نفاجئهم بتطبيق السنة ، فينفون كما قال البعض : العوام هوام . فبين لهم الأمر فى درس ثم طبقه فيسهل عليهم ؛ لأن الله يعطى بالرفق ما لا يعطى على العنف ، كما قال صلى الله عليه وسلم لعائشة حين مر يهودى خبيث على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : السام عليكم يا محمد . والسام الموت ، أى يدعو على رسول الله بالموت . فلم تتحمل عائشة هذا ، فقالت : عليك السام واللعنة . فنهاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرها بالرفق ، وقال : (إن الرفق ما كان فى شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا

شأنه ، وإن الله رفيق يحب الرفق (١) . ثم أعطانا صلى الله عليه وسلم قاعدة تعامل بها اليهود وغير اليهود ، فقال : (إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم) (٢) فإن كان قد قال السام فعليه السام وإن كان قد قال السلام فعليه السلام .

ولهذا قال ابن القيم فى كتاب أحكام أهل الذمة : إن اليهودى إذا قال السلام عليكم ، وبين اللام ، جاز أن نقول عليك السلام ، واستدل بالحديث ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : قل وعليكم . ومعلوم أنه قد يقول السلام عليكم فإذا قلنا : وعليكم فقد قلنا : وعليكم السلام .

فالغلو فى ظن الناس قد يكون هو السنة ولكن المشكلة فى جهل الناس بهذه السنة ، فإذا علموا وعرفوا زال الإشكال .

* * *

سؤال : رجل يعمل عملا يخالف السنة ، فقليل له فى ذلك ، فقال : إنما الأعمال بالنيات ، والإيمان فى القلب . فما القول فى ذلك ؟ .

الجواب : قول هذا القائل غير مقبول ، وهذا الحديث ليس حجة له ، فهو يعمل عملا محرما فما هى النية فيه ؟ كل عمل حرام فهو حرام سواء أراد به الإنسان خيرا أو شرا .

وكذلك من يقول إنما التقوى ها هنا ويشير إلى صدره ، فهذه الكلمة قالها النبى صلى الله عليه وسلم ، وحقا إن التقوى فى القلب لكن لو اتقى القلب لاتقت الجوارح ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إلا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب) (٣) . فلو صلح القلب لقام الإنسان بالواجب وترك المحرم .

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ١٦ / ١٤٦ من قوله عليه الصلاة والسلام .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ١٤ / ١٤٤ - كتاب السلام .

(٣) تقدم تخريجه .

وكم من رجل يسبل ثوبه عن الكعبين وهذه كبيرة توعدها فاعلها بالنار ،
ففى الحديث : (ما أسفل من الكعبين ففى النار)^(١) .

ونقول لهذا القائل : إن هذا لا ينفعك يوم القيامة إذا وقفت بين يدى الله
سبحانه ليحاسبك على عملك .

سؤال : تحدثنا عن بركات القرآن وأهميته فى حياة المسلمين ولكن
نلاحظ قلة الاهتمام به من المسلمين ومن الأدلة على ذلك ما نشاهده
حولنا من تناثر المصاحف على خزانات المياه فهل من كلمة حول
الاهتمام بالمصحف وعدم تركه فى هذا الموضع الذى يعرضه للسقوط ؟

الجواب : أقول عفا الله عن السائل صور المسألة كأنها شئ عظيم يقول
تناثر المصاحف على خزانات المياه حولنا . أنا لا أشاهد حولى خزانات ماء
إننى أشاهد إناء ماء إذا كان يريد هذا الشئ الثانى هل هى صحيح متناثرة
الآن ؟ أبدا المصاحف مرفوعة على هذه الترامس فليس فيها تناثر .

لكن الذى يمكن أن ننبه عليه أن بعض الطلبة ولا سيما طلبة الابتدائى
إذا انتهت الدراسة تجدهم يلقون كتبهم الدراسية وفيها آيات من القرآن على
المزابل وفى الأسواق ، وهذا لا شك أن فيه امتهاناً لكلام الله فلا يجوز أن
تلقى الكتب التى فيها آيات من كتاب الله فى الأسواق تداس بالأرجل ولا فى
المزابل فتمتهن حتى إنه حدثنى بعض الناس أنه رأى مصحفاً فوق مذبة
يتبول الناس فيها والعياذ بالله وهذا من أعظم المنكرات فالواجب احترام
كتاب الله وإذا قدر أن هناك مصاحف لا يمكن الانتفاع بها لتمزقها فإن
بالإمكان أن تحرقها وأن تدفنها لأن الإحراق وقع من الصحابة رضى الله
عنهم حينما اختاروا أن يكون القرآن على لغة قريش فقط حرقوا ما سواها
من المصاحف وتحريق المصحف من أجل صيانتة لا بأس به ولا حرج
فيه .

* * * *

سؤال : فضيلة الشيخ قال تعالى « وقال الذين كفروا لرسولهم

(١) صحيح البخارى - كتاب اللباس - باب ما أسفل من الكعبين فهو فى النار . فتح البارى ١٠ / ٢٥٦ .

لنخرجكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا» ^(١) الآية . ما معنى العود هنا نرجو التفصيل . وتبين الإشكال الوارد من أنه هل الرسل عليهم السلام كانوا قبل نزول الوحي عليهم على دين قومهم أى مشركين وهل يمكن أن نقول إن هذه الآية توافق قوله تعالى « ووجدك ضالاً فهدى » ^(٢) ؟

الجواب : هذه الآية لا تدل على أن الرسل كانوا على الشرك الذى كان عليه أقوامهم لأن العود لا يلزم أنه سبق وجود بل يطلق العود على مجرد الموافقة فقوله « لتعودن في ملتنا » يعنى لتوافقونا على ما نحن عليه من الشرك وهذا كقول شعيب لقوله « وما كان لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا » مع أنه ليس على الشرك لكن المراد . بذلك موافقة هؤلاء المشركين على ما هم عليه فقط ولعل من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم (لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب أو قال أرض الجزيرة مروجاً وأنهاراً) فإنه لا يلزم من ذلك أن تكون جزيرة العرب قبل هذا أنهاراً ومروجاً بل معنى تعود أى تصير مروجاً وأنهاراً .

وبناء على هذا التقرير لم يبق فى المسألة إشكال .

أما قول الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم « ووجدك ضالاً فهدى » فهو كقوله « وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك » ^(٣) يعنى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن قبل الوحي على علم بشرع الله حتى أنزل الله عليه الوحي وهداه بما أنزله عليه .

* * * *

سؤال : الصحيح فى اصطلاح المحدثين غير الحسن فكيف توجه قول من يقول فى حديث واحد إنه صحيح حسن وهل هذا أقوى من وصف الحديث بالصحة .

الجواب : الصحيح عند المحدثين غير الحسن لأن الصحيح ما نقله عدل تام الضبط بسند متصل خال من الشذوذ والعلة القاذحة .

(١) سورة إبراهيم الآية : ١٣ .

(٢) سورة الضحى الآية : ٧ .

(٣) سورة العنكبوت الآية : ٤٨ .

والحسن ما نقله عدل خفيف الضبط .

فيتميز الصحيح عن الحسن في أن الناقل في الحسن خفيف الضبط والناقل في الصحيح تام الضبط إذن هما متغايران فكيف يصح الجمع بينهما في حديث واحد فيقال حسن صحيح ؟:

(١) يكون معناه أنه صحيح عند جماعة وحسن عند جماعة .

(٢) أن يكون له طريقان أحدهما صحيح والثاني حسن فيقال حديث حسن باعتبار طريق وصحيح باعتبار طريق آخر .

(٣) يعنى أن المخرج للحديث شك في سنده هل هو صحيح أو حسن . وأيهما أقوى إذا وصفنا الحديث بأنه صحيح أو أنه حسن صحيح ؟

إذا كان السبب الذى أوجب أن يقول حسن صحيح الشك فالصحيح أقوى وإذا كان السبب أنه جاء من طريقين فحسن صحيح أقوى من صحيح وإذا كان اختلاف العلماء أحدهم يرى أن هذا صحيح وأحدهما يرى أن أنه حسن فهما سواء .

* * * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
الباب الأول (العقيدة)	٥
الفصل الأول (التوحيد)	٧
الفصل الثاني (أركان الإيمان)	٢١
مباحث في القدر	٦١
الفصل الثالث (الإحسان)	٧٥
الفصل الرابع (الساعة وعلاماتها)	٧٩
الفصل الخامس (مفاتيح الغيب)	٨٣
الفصل السادس (التوسل)	٨٩
فتاوى في التوحيد والعقيدة	١٠٣
الباب الثاني (التفسير والحديث)	١٥٥
الفصل الأول (التفسير حول سورة الفاتحة)	١٥٧
أول سورة البقرة	١٨٤
من سورة آل عمران	١٨٨
من سورة المائدة	١٩١
فوائد هذه الآيات	٢٠٣
من سورة يس	٢١٩
من سورة ص: الموضوع الأول حول ﴿ وهل أتاك نبأ ﴾	
الخصم	٢٢٤
الموضوع الثاني : في معنى العبودية	٢٢٨
من سورة (ص) أعظم الحكم على تنزيل القرآن	٢٣٣

٢٤٠	 من بركات القرآن الكريم
٢٤٦	 من سورة الزمر
٢٥٠	 وقفات مع آيات من سورة الزمر
٢٥٦	 من سورة فصلت
٢٦١	 من سورة الشورى
٢٧٧	 وقفات مع آيات من سورة الحجرات
٢٨٨	 من سورة (ق)
٢٩٨	 من سورة الطور
٣٠٤	 من سورة الواقعة
٣١٤	 وقفات مع آيات من سورة الحديد
٣١٨	 من سورة المجادلة
٣٢٧	 من سورة المعارج
٣٣٨	 من سورة المطففين
٣٤٣	 الفصل الثانى (الحديث)
٣٤٣	 حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه
٣٤٨	 حديث عائشة رضى الله عنها
٣٥٥	 حديث عبد الله بن مسعود
٣٦٤	 حديث النعمان بن بشير
٣٧١	 فتاوى القرآن الكريم والسنة النبوية
٤٠١	 الفهرس

رقم الإيداع
١٩٩١ / ٩٣٣٠

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com